سلسلة قراءات صينية

على طريق الحرير

تاريخ التجارة بين الصين والعالم القديم

- تحرير: المكتبة الوطنية بالصين
- ترجمة: مروة السيد
- مراجعة: د. حسانين فهمي حسين



على طريق الحرير

تاريخ التجارة بين الصين والعالم القديم

....

على طريق الحرير
طبعة 2019
رقم الإيـــــداع: 2019/10776
الترقيم الدولي: 978-977-821-110-8

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

على طريق الحرير

تاريخ التجارة بين الصين والعالم القديم

تحرير: المكتبة الوطنية/

مجمع يوان مينغ يوان العلمي بالصين

ترجمة: مروة السيد محمد

إشراف ومراجعة: د. حسانين فهمي حسين



بطاقة فهرسة

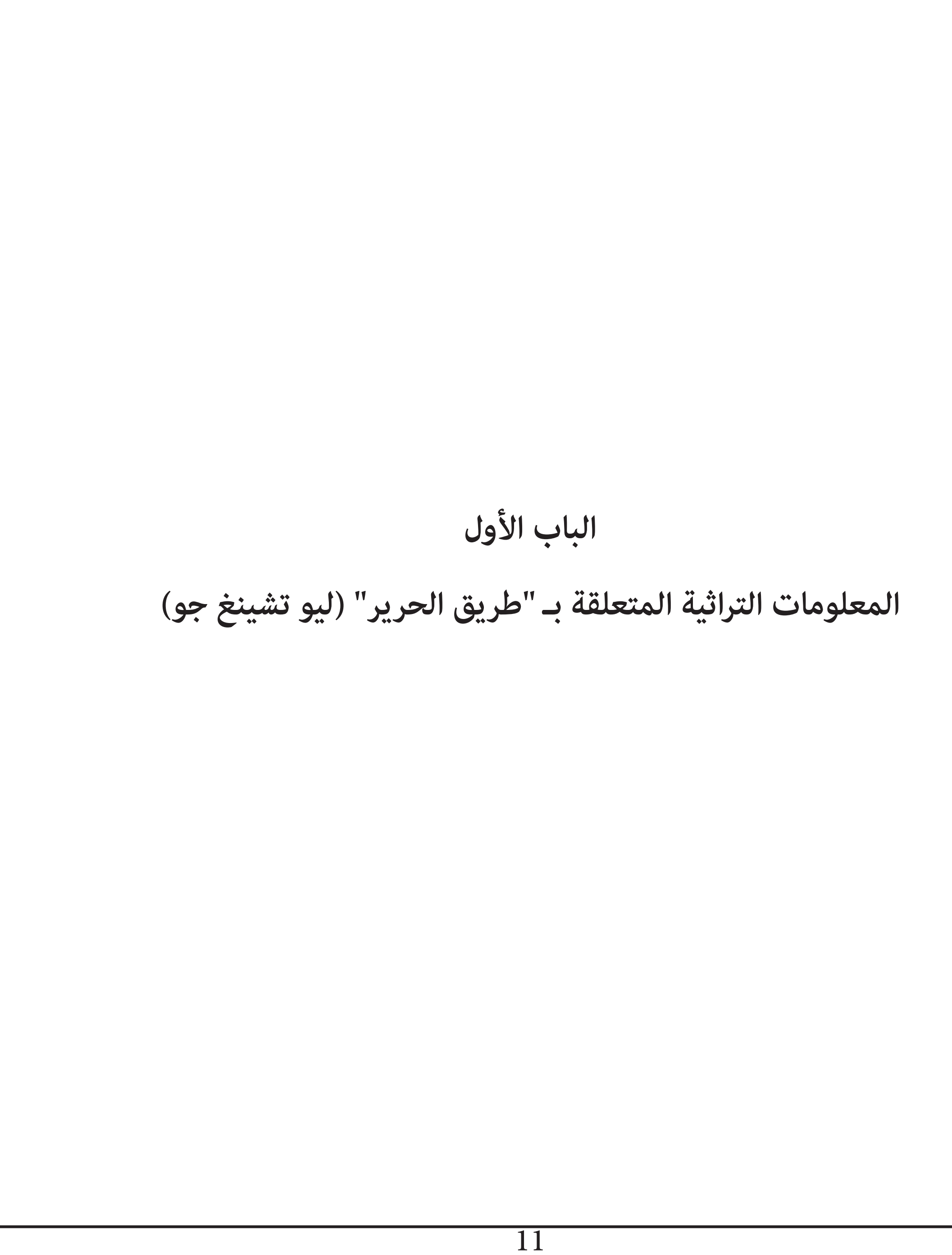
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

على طريق الحرير: تاريخ التجارة بين الصين والعالم القديم
تحرير/ المكتبة الوطنية، ترجمة: مروة السيد محمد
إشراف ومراجعة: حسانين فهمي حسين
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠١٩
٣٧٠ ص، ٢٤ سم
تدمك ٨-١١٠-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- الصين - العلاقات التجارية
٢- الصين - العلاقات الاقتصادية
أ- محمد، مروة السيد (مترجم)
ب- حسين، حسانين فهمي (مشرف ومراجع)
٣٨٢,٦

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٠٧٧٦

المحتويات

فريق التحرير



الباب الأول

المعلومات التراثية المتعلقة بـ"طريق الحرير" (ليو تشينغ جو)

فـي عـام 1877م، صـدر كتـاب "الصيـن" لعالـم الجغرافيـا الألمانـي فيرديناند فـون ريشـتهوفين، ليسـتعرض فيـه خـط طريـق الحريـر التجـاري الرابـط بيـن الصيـن والمنطقـة الواقعـة بيـن نهـري أموداريـا (جيحـون) وسـيرداريا (سـيحون) (والتـي سُـميت فـي مـا بعـد بمدينـة "خـه جيـان") مـن جهـة، والهنـد مـن جهـة أخـرى، وذلـك خـلال الفتـرة 114 ق.م - 127م، وأُطلـق علـى هـذا الطريـق اسـم "Seiden Stra Ssen"، وبالإنجليزيـة "Silk Road"، وتُترجـم إلـى اللغـة الصينيـة فـي مـا يعنـي "طريـق الحريـر"، وهـي المـرة الأولـى التـي يظهـر فيهـا ذلـك المسـمى، وفـي عـام 1910م، قـدم كتـاب "طريـق الحريـر القديـم بيـن الصيـن وسـوريا" للباحـث الألمانـي أربـارت هيرمـان (A.Herrmann) المزيـد مـن التفصيـل والشـرح، كمـا بيَّـن امتـداد طريـق الحريـر فـي الماضـي ليصـل إلـى سـوريا، والآن أصبـح "طريـق الحريـر" مسـمى عامًّـا يُطلـق علـى الخـط الواصـل بيـن الصيـن القديمـة، وآسـيا الوسـطى، وغـرب آسـيا، والمـار عبـر البحـر الأبيـض المتوسـط (بمـا يشـمل الطريـق البـري) ليربـط بيـن قـارة أوربـا وشـمال قـارة إفريقيـا، وأطلـق النـاس عليـه كذلـك اسـم "طريـق الحريـر الصحـراوي" أو "طريـق الحريـر المـار عبـر الواحـات"، وذلـك بسـبب مـروره الإجبـاري فـي مسـارات قطاعـات صحراوية فـي الصيـن، وآسـيا الوسـطى، وغـرب آسـيا، ومناطـق أخـرى، وعلـى عكـس هـذا المسـمى، فقـد طرحـت الأوسـاط الأكاديميـة المختلفـة تباعًـا مسـميات كـ"طريـق المراعـي المنغوليـة"، "طريق الحريـر البحـري"، و"طريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي"، وغيرهـا مـن المسـميات، ومـن هنـا وجـب التسـاؤل، مـا هـي الأدوار التـي لعبتهـا طُـرق الحريـر هـذه علـى مـدار التاريـخ؟ وكيـف تـم اكتشـافها؟

الفصل الأول

المعلومات الأساسية لكل طريق من طُرق الحرير

هنالك العديد من طُرق الحرير، والتي ترى الأوساط الأكاديمية أن أهمها يتمثل في طريق الحرير الصحراوي، وطرق المراعي المنغولية، وطريق الحرير البحري، وطريق الحرير الجنوبي الغربي (أو ما يُعرف بطريق الحرير الجنوبي)، ويرجع سبب تعدد طُرق الحرير إلى اختلاف سماتها الزمانية والمكانية، كما يلعب كل منها دورًا تاريخيًّا مختلفًا عن الآخر.

يبدأ طريق المراعي المنغولية شرقًا من جبال خينجان الكبرى (Greater Khingan Mountains) داخل الحدود الصينية، وحتى منطقة شينجيانغ الصينية غربًا، كما يمتد غربًا تجاه جنوب سيبريا، وشمال منطقة آسيا الوسطى، وقد بدأ الناس استخدام هذا الطريق قديمًا قبل 4-5 آلاف عام، وربما قبل ذلك، وقد تكوَّن نتيجة الأنشطة الحياتية للبدو الرحالة في ذلك الوقت، وفي واقع الأمر يُعتبر طريق المراعي المنغولية القديم طريقًا للتبادل الثقافي بين الأمم المختلفة، وبالطبع يتمثل هذا التبادل في "المنتجات الثانوية" الخاصة بأنشطة البدو التي كانوا يتكسبون منها، وبعد انتهاء عهد أسرتي تشين وهان الملكيتين، افتُتِح طريق الحرير الصحراوي، ليصبح طريق المراعي المنغولية "طريقًا ثانويًّا" لا يتمتع بدور كبير كما كان في الماضي.

ويشير مسمى طريق الحرير المستخدم الآن إلى طريق الحرير الصحراوي، والذي يبدأ منذ فتح الجنرال جانغ تشيان للمناطق الغربية، وبشكل عام يبدأ هذا الطريق من مدينة شيآن بمقاطعة شانشي، ويعبر كل من مقاطعة قانسو، ومنطقة شينجيانغ، ليخرج من الحدود الصينية ويمر بمنطقة آسيا الوسطى، وغرب آسيا، وحتى مدينة البندقية الإيطالية (فينيسيا) جنوب أوربا، ويمتد طوله من الشرق إلى

الغرب مسافة 7000 كيلومتر، ويبلغ طوله داخل الحدود الصينية 4000 كيلومتر.

ويُسنَد تأسيس طريق الحرير الصحراوي إلى أسرة هان الغربية التي شقته رسميًّا ليعتبر طريقًا "سياسيًّا"، و"دبلوماسيًّا"، وفي ذلك الوقت كان كل من "التبادل الثقافي"، و"الحراك التجاري" هما "المنتجات الثانوية" لأسرة هان الغربية، كما جعل الجنرال جانغ تشيان هدف المناطق الغربية متمثلاً في إقامة علاقات ودية بين المناطق الغربية (منطقة شينجيانغ حاليًا) التي تضم 36 دويلة، وكافة دول منطقة آسيا الوسطى، كما أبدى حكام المناطق الغربية رغبتهم في التخلص من حكم الهون، والدخول تحت راية حكم أسرة هان الملكية، وتوجد الآن وجهة نظر ترى أن سبب تكوين طريق الحرير الصحراوي يرجع إلى تجارة الحرير، إلا أنه سواء من منظور السجلات المدونة أو الاكتشافات الأثرية، فكلها تثبت أن هدف شق أسرة هان الغربية لطريق الحرير لا يتمثل في التجارة، ففي ذلك الوقت كان يتمثل العابرون لهذا الطريق والوافدون إلى الصين للتجارة -بما يشمل تجارة الحرير- في تجار مناطق آسيا الوسطى، وحتى وقتنا الراهن تمثل كل تماثيل الأفراد المطوقة للجمال المكتشَفة داخل الصين "قبائل البربر" التي كانت تسافر إلى شمال الصين للتجارة في ذلك الوقت، ولم يُكتشف تمثال واحد لأي فرد يطوق جملاً تابعًا لعهد أسرة هان الملكية، بما يوضح أن التجار الذين كانوا يسلكون طريق الحرير آنذاك كانوا "من اتجاه واحد" فقط، وينتمي أغلبية تجار البربر العابرين لطريق الحرير آنذاك إلى "دويلة سوجديان"، كما تكشفت لنا سمات فئة التجار تلك بعد اكتشاف تماثيل تجار البربر في مدينة لوه يانغ والتابعة لعهد أسرة تانغ الملكية، وكذلك مقابر تابعة لشعب دويلة سوجديان المكتشفة في كل من مدينة شيآن، ومدينة تاي يوان، ومدينة جويوان بمقاطعة نينغشيا[1]، حيث يمثل أغلب الوافدين لداخل

1- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شانشي: "مقبرة آن جيا التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، دار الأثريات للنشر، 2003م / مركز حماية الأثريات بمدينة شيآن: "تقرير حول التنقيب في مقبرة كانغ يي التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، مجلة الأثريات، 2008م، العدد 6 / تحرير مركز البحوث الأثرية لحماية الأثريات بمدينة شيآن، تأليف يانغ جيون كاي: "مقبرة شه جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية"، دار الأثريات للنشر، 2014م / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شاندونغ، وآخرون: "مقبرة يو خونغ التابعة لعهد أسرة سوي الملكية بمدينة تاييوان"، دار الأثريات للنشر، 2005م.

حدود الإمبراطورية الصينية آنذاك أفرادًا منتمين لمناطق آسيا الوسطى.[1]

ويُطلق على طريق الحرير الجنوبي الغربي "طريق سيتشوان - الهند" أو "طريق الحرير الجنوبي"؛ حيث يبدأ هذا الطريق من مدينة تشينغدو بمقاطعة سيتشوان جنوب غرب الصين، ويعبر خلال مدن دالي، باوشان، تينغتشونغ، ويينغجيانغ الواقعة في مقاطعة يوننان، ليصل بعدها إلى مدينة بامو داخل حدود دولة ميانمار، وينطلق من مدينة بامو إلى الهند، ثم آسيا الوسطى، وأوربا، وأشار باحثون إلى إمكانية تقسيم طريق الحرير الجنوبي الغربي إلى الطريق الشرقي، وطريق الوسط، والطريق الغربي؛ حيث يبدأ الطريق الشرقي من مدينة تشينغدو، عبر شمال غرب مقاطعة قويجوو، ومقاطعتي قوانغشي، وقوانغدونغ، وحتى البحر الجنوبي، ويبدأ طريق الوسط من مدينة تشينغدو، عبر مقاطعة يوننان، وممر بوتوو (ممر رصيف السفن)، وممر سانغداو، وصولًا إلى فيتنام، أما الطريق الغربي فيشمل طريقين هما طريق الهند، وطريق الأقدام الخمس، ويعبر كلاهما من مقاطعة يوننان، ودولة ميانمار، وصولًا إلى الهند.

ويُعتبر طريق الحرير الجنوبي الغربي طريقًا تجاريًا، أما التبادل الثقافي عبره فيُعتبر "منتجًا ثانويًا" فقط؛ حيث يتركز النشاط التجاري عبر هذا الطريق بين الأمم المختلفة، وقد كان هذا النشاط أسبق من نظيره عبر طريق الحرير الصحراوي، وقد دوَّن كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية" رؤية الجنرال جانغ تشيان لـ"عصي مصنوعة من الخيزران"، و"أقمشة مصنوعة في مقاطعة سيتشوان" قادمة من مقاطعة سيتشوان الصينية، وذلك في أفغانستان أثناء إرساله لفتح المناطق الغربية، وقد تم نقل هذه المنتجات من مقاطعة سيتشوان، مرورًا بمقاطعة يوننان، وميانمار، وصولًا إلى الهند، ومن ثم تم نقلها إلى الشمال وصولًا إلى أفغانستان[2] وقد قام بعض الباحثين بطرح بعض الاستنتاجات وفقًا لبحوثهم حول القطع الأثرية المستخرجة في السنوات الأخيرة من أطلال مدينة سانشينغدوي القديمة،

1- رونغ شين جيانغ: "التوابيت الحجرية لقوافل تجار سوجديان في مقابر شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية"، مجلة الأثريات، 2005م، العدد 3.

2- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية"، المجلد 61، "السيرة الذاتية للجنرال جانغ تشيان".

ومدينـة جينشـا القديمـة بمقاطعـة سيتشـوان كالعـاج وغيـره مـن القطـع، والتـي ربمـا يرجـع مصدرهـا إلـى الهنـد، حيـث اسـتنتج الباحثـون أنـه ربمـا كانـت هنـاك اتصالات وتبـادلات فـي عهـد أسـرتي شـيا، وشـانغ الملكيتيـن بيـن مناطـق جنـوب غـرب الصيـن ومناطـق جنـوب آسـيا، كمـا يمكـن القـول كذلـك إنـه يمكـن أن يكـون قـد امتـد طريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي زمنيًّـا ليشـمل عهـد أسـرتي شـيا، وشـانغ الملكيتيـن.

وقـد أطلـق البعـض علـى طريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي اسـم "طريـق الطبـول البرونزيـة"، وذلـك بسـبب كثـرة الطبـول البرونزيـة فـي مناطـق جنـوب غـرب الصيـن والمنقولـة عبـره، وبعـد انقضـاء فتـرة العصـور الوسـطى القديمـة، سُـمِّي كذلـك بـ"طريـق خيـول الشـاي القديـم"، وذلـك بسـبب كثـرة نقـل أوراق الشـاي عبـره باسـتخدام الخيـول.

ويُشـار عـادة إلـى أن طريـق الحريـر البحـري بـدأ منـذ عهـد أسـرة هـان الملكيـة، وطبقًـا لمـا دونـه كتـاب "الجغرافيـا التاريخيـة لأسـرة هـان الملكيـة" فـإن أبعـد مـا توصـل إليـه مسـار الإبحـار فـي البحـر الجنوبـي كان لمدينـة كانتشـيبورام (Conjevanam) الواقعـة علـى سـاحل البحـر الشـرقي لجنـوب الهنـد.[1] وتعـد مناطـق بـان يـو (تقـع فـي مدينـة قوانجـوو حاليًـا)، شـيووين (تقـع فـي مقاطعـة قوانغدونـغ حاليًـا)، خـه بـو (تقـع فـي مقاطعـة قوانغشـي حاليًـا)، وجيـاو جـوو (تضـم حاليًـا منطقـة شـمال ووسـط فيتنـام، ومقاطعتـي قوانغدونـغ، وقوانشـي) وغيرهـا مـن المناطـق الواقعـة داخـل الحـدود الصينيـة فـي عهـد أسـرة هـان الملكيـة بمثابـة موانـئ قديمـة لطريـق الحريـر البحـري، مـن بينهـا يمتلـك مينـاء بـان يـو أهميـة كبـرى، وأكـدت الاكتشـافات الأثريـة فـي وقـت

1- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية"، المجلد 28، "الجغرافيا التاريخية لأسر هان الملكية": "كان يحتاج مسار الإبحار 5 أشهر لتعبر السفينة من حاجز رينان (يقع في وسط فيتنام حاليًا)، ومنطقة شيووين (تقع في مقاطعة قوانغدونغ حاليًا)، ومنطقة خه بو (تقع في مقاطعة قوانغشي حاليًا)، لتصل إلى دويلة دوويوان (تقع شمال جزيرة سومطرة حاليًا)، ومن ثم تبحر السفينة 4 أشهر لتصل إلى دويلة إيلوميي (تقع في ميانمار حاليًا)، وتبحر ثانية لأكثر من 20 يومًا، لتصل إلى دويلة جانلي (تقع علي نهر إيراوادي داخل حدود ميانمار حاليًا)، ودويلة فوجاندولو (تقع بالقرب من مدينة بروم في ميانمار حاليًا) التي تبعد أكثر من 10 أيام مشيًا عن دويلة جانلي. بعدها تبحر السفينة لأكثر من شهرين لتصل إلى دويلة خوانغجي (تقع بالقرب من مدينة مادراس الهندية حاليًا)، وكانت تملك السفينة مترجمها الخاص، وكانت الترجمة هي مهنته الرسمية، وكان ينزل التجار إلى المدن التي يصلون إليها ليقايضوا بضائعهم باللؤلؤ، والقطع الأثرية الزجاجية، والأحجار غريبة الشكل، كما كان التجار مبعوثو أسرة هان يستخدمون الذهب الذي أحضروه معهم في الإهداء والمقايضة، وكانوا يقابَلون بالترحاب ويُقَّدم لهم الطعام والشراب في كل مكان ينزلون فيه، ويهدونهم القوراب الخاصة بشعب سوجديان.. بعدها يبحرون من خوانغجي لمدة 8 أشهر ليصلوا إلى مدينة بيزونغ (تقع شرق جزيرة سومطرة حاليًا)، ثم يبحرون لمدة شهرين ليعودوا إلى حدود رينان، وشيانغلين (تقع جنوب فيتنام حاليًا)، وفي جنوب خوانغجي توجد دويلة إي تشينغبو (تقع داخل حدود سريلانكا جنوب القارة الهندية حاليًا)، حيث يقوم المترجِمون المبعوثون من قِبل أسرة هان بمعاودة أدراجهم من هذا المكان".

لاحق أن طريق الحرير البحري كان موجودًا بالفعل في عهد الأسر المتحاربة في الربيع والخريف، وكان يعبر مناطق شرق آسيا، مرورًا بمناطق جنوب آسيا، وحتى مناطق غرب آسيا، وكان أهم ما يُستخدم لأجله طريق الحرير البحري هو الأنشطة التجارية، كما كانت هناك بعض الحكومات التي وجهت طريق الحرير البحري لـ"نقل الجزية والهدايا" عبره، واستخدامه في إقامة "العلاقات الدبلوماسية"، و"التبادل الثقافي" بين الأمم، ولم يكن الأساس في طريق الحرير هذا الإتجار في الحرير عن طريقه، فمن خلال بحث حطام السفن المكتشفة والتي كانت تنقل البضائع آنذاك نجد أنه بعد انقضاء عهد العصور الوسطى القديمة كان الأساس هو الإتجار في الخزف الصيني وبيعه للخارج عبر هذا الطريق، ومنذ ما قبل عهد أسرة تشين الملكية، وحتى قبل عهد أسرة سوي الملكية، توطدت العلاقات بين الصين ومناطق غرب آسيا، ومناطق آسيا الوسطى، وخلال الفترة اللاحقة لعهد الأسرة الجنوبية الملكية زادت وتيرة العلاقات بين الصين وبلاد الفرس؛ أما في عهد الأسر الملكية تانغ، سونغ، ويوان فازدادت العلاقات المتبادلة بين الصين ومناطق العرب، ويكشف لنا وجود الخزف الصيني بكثرة خلال عهد الأسر الملكية تانغ، سونغ، ويوان في العديد من المناطق المختلفة كجنوب شرق آسيا، وآسيا الوسطى، وجنوب آسيا، وغربها، وشمال إفريقيا أنه لا بدَّ أن يمثل البقايا الأثرية للنشاط التجاري عبر طريق الحرير البحري في ذلك الوقت، حيث كان يلعب الخزف في ذلك الوقت الدور الرئيس للتجارة عبر طريق الحرير البحري، ولهذا سُمِّي ذلك الطريق كذلك بـ"طريق الخزف البحري".

الفصل الثاني

الاكتشافات الأثرية لطرق الحرير والدراسات المتعلقة بها

لا يوجد وصف دقيق لطُرق الحرير بالوثائق التاريخية المدونة، مما يؤكد ما ورد في الاكتشافات الأثرية الرئيسة، بالدمج مع ما تم تدوينه في مختلف الوثائق والسجلات، ومن هنا يمكن القول إن مصدر معلومات البشر في عصرنا الحالي عن طُرق الحرير ينبع من دخول علم الآثار الصين في العصر الحديث.

وتعتبر طُرق الحرير "خطًّا واحدًا"؛ هذا الخط لا يمكن رؤيته الآن، ومن هنا وجب التساؤل.. كيف بإمكاننا معرفة ما إذا كان هذا الخط موجودًا في العصور القديمة؟ يتكون هذا "الخط" من مئات آلاف "النقاط" التي تمكن علم الآثار من خلالها اكتشاف وجود طُرق الحرير، والتي تتصل بالعديد من "الطرق" المدفونة تحت الأرض أو المغمورة تحت الماء.

1) الاكتشافات الأثرية لطريق المراعي المنغولية والدراسات المتعلقة به:

في عصر ما قبل التاريخ تشكلت "ثقافات" مختلفة في العديد من المناطق كمناطق شرق آسيا، والبحر المتوسط، وأمريكا الوسطى والجنوبية، وشبه القارة الهندية جنوب آسيا، وتوضح الاكتشافات الأثرية خلال المئة عام الماضية أن هذه "الثقافات" المختلفة انبثقت منها حضارات خاصة بتلك المناطق كحضارة مناطق شرق آسيا، وحضارة مناطق البحر المتوسط، وحضارة مناطق أمريكا الوسطى والجنوبية، حيث كان يربط بين تلك المناطق تبادل ثقافي بدرجة معينة في العصور القديمة، فطبقًا للاكتشافات الأثرية في الصين ربما تلقت محاصيل القمح في عصر ما قبل التاريخ وما قبل عهد أسرة تشين الملكية، وكذلك الماشية كالأبقار والأغنام والخيول (كانت هذه الخيول في البداية من تربية الهندوأوربيين القدماء عند البحر الأسود، ونحجوا في تربيتها عند الساحل الشمالي لبحر قزوين)،

ووسـائل المواصـلات كعربـات الخيـول، والمعـادن المسـبوكة، والمشـغولات الذهبيـة، والمشـغولات الزجاجيـة (كالقواريـر الزجاجيـة)، وغيرهـا فـي ذلـك الوقـت، تلقـت أثـر حضـارة مناطـق البحـر المتوسـط، كمـا توسـعت المناطـق المركزيـة شـرق آسـيا (الحضـارة القديمـة للنهـر الأصفـر) بالتدريـج ناحيـة الغـرب فـي عصـر مـا قبـل التاريـخ، وفـي النصـف الثانـي مـن الألفيـة الرابعـة قبـل الميـلاد دخلـت ثقافـة حضـارة يانـغ شـاو[1] (أواسـط وأواخـر العصـر الحجـري الحديـث) مناطـق دلتـا نهـري خوانغشـوي والنهـر الأصفـر، ومناطـق الروافـد العليـا لنهـر مينجيانـغ، وفـي النصـف الثانـي مـن الألفيـة الثالثـة قبـل الميـلاد امتـدت هـذه الثقافـة لتدخـل مناطـق الروافـد العليـا للنهـر الأصفـر، ومناطـق شـمال غـرب مقاطعـة سيتشـوان، وغـرب ممـر خـه شـي (أو ممـر قانسـو)، وفـي نهايـة الألفيـة الثالثـة قبـل الميـلاد امتـدت هـذه الثقافـة غربًـا لتصـل إلـى مدينـة هامـي بمنطقـة شـينجيانغ، حيـث تعايشـت واندمجـت سـلالة المنغولييـن القادميـن مـن الشـرق مـع سـلالة القوقازييـن البدائييـن القادميـن مـن شـمال شـينجانغ والمتجهيـن جنوبًـا، وشـملت الثقافـة الممتـدة نحـو الغـرب مجـال الزراعـة كذلـك.[2]

وكانـت أحجـار اليشـم القديمـة ممـا تـم اكتشـافه مـن بيـن الأطـلال التـي تعـود إلـى أواخـر العصـر الحجـري الحديـث فـي الصيـن، مـن بينهـا بعـض الأحجـار التـي تتشـابه عناصرهـا المعدنيـة مـع أحجـار يشـم خوتـان (يشـم النفريـت)، ممـا يؤكـد احتماليـة وجـود علاقـات تربط بيـن مملكـة يوتيـان (مدينـة خوتـان بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا) ومناطـق الروافـد السـفلية للنهر الأصفـر، علـى الأقـل فـي أواخـر العصـر الحجـري الحديـث، فقد أظهـرت لنـا الاكتشـافات الأثرية تصنيـع مملكـة يوتيـان لمشـغولات اليشـم بكثـرة خـلال عصر ما قبل أسـرة تشـين الملكيـة، وفي عـام 1974م، بـدأت أعمـال التنقيـب فـي مقبـرة فوخـاو بمنطقـة ييـن شـيو (تقـع فـي مدينـة آن يانـغ بمقاطعـة خـه نـان حاليًـا)، وتـم اسـتخراج أكثـر مـن 500 مشـغولة مصنوعـة مـن اليشـم، ومـن خـلال تحديـد أنواعهـا وُجِـد أن يشـم خوتـان (يشـم النفريـت) يمثـل جـزءًا كبيـرًا منهـا.

1- ثقافة حضارة يانغ شاو: هي الثقافة الصينية بمناطق الروافد الوسطى والسفلي للنهر الأصفر. (المترجِمة)

2- لي شوي تشينغ: "الاتجاه التدريجي لرياح الشرق نحو الغرب: التطور الثقافي في شمال غرب الصين قبل التاريخ"، دار الأثريات للنشر، 2009م / قوه أو: "بحوث علم الآثار الخاصة بمجتمع أواخر عصر ما قبل التاريخ بمنطقة شينجيانغ"، دار نشر شنغهاي للكتب القديمة، 2012م.

[1] ويمكـن القـول كذلـك إن مـواد حجـر يشـم النفريـت وصلـت إلـى الشـرق قبـل 3000 عـام، حيـث بـدأ مسـار نقلهـا مـن منطقـة خوتـان إلـى مدينـة توربـان بمنطقـة شـينجيانغ، ومـن ثـم إلـى الشـمال مـرورًا بشـمال منطقـة شـينجيانغ، ووصـولًا إلـى مقاطعـة قانسـو حاليًـا، ومقاطعـة منغوليـا الداخليـة، ثـم جنوبًـا حتـى مقاطعـة نينغشـيا، بعدهـا شـرقًا عبـر مقاطعـة شانشـي، وجنـوب مقاطعـة خـه بيـي، حتـى مدينـة آن يانـغ بمقاطعـة خـه نـان، وفـي النهايـة اتجهـت شـرقًا حتـى مقاطعـة شـاندونغ، وهـذا هـو مسـار خـط نقـل أحجـار يشـم النفريـت قبـل 3000 عـام.[2] وفـي الوقـت نفسـه، اكتُشـفت كذلـك مـرارًا وتكـرارًا العديـد مـن الآثـار التـي تحمـل طابـع مـا قبـل عهـد أسـرة تشـين الملكيـة بيـن أطـلال المواقـع الأثريـة بالمناطـق الغربيـة، مثـل قطـع الفخـار المطليـة التـي ترجـع لعهـد أسـرة تشـين والمسـتخرجة مـن مقبـرة بازيريـك، وكذلـك المرايـا البرونزيـة "ذات الخطـوط الجبليـة الأربعـة" (Four mountain lines mirror) التـي ترجـع لعهـد الأسـر المتحاربـة وغيرهـا مـن القطـع الأثريـة.[3] كمـا تُظهـر المعلومـات الأثريـة أن الأجـداد القدمـاء العابريـن مـن مقاطعـة قانسـو إلـى شـرق منطقـة شـينجيانغ لـم يتوقفـوا عـن التقـدم فـي خطواتهـم نحـو الغـرب، حيـث اتخـذوا مـن واحـة مدينـة هامـي بمنطقـة شـينجيانغ قاعـدة لهـم، مسـتمرين فـي خطاهـم غربًـا عبـر طريقيـن أحدهمـا جنوبـي والآخـر شـمالي علـى طـول سلسـلة جبـال تيانشـان، ويتجـه أحـد الطريقين شـمالًا ليقطـع مروج باليكـون العشـبية شـمال شـرق منطقـة شـينجيانغ، وحـوض جونغـار، ومدينـة أوروموتشـي حاضـرة شـينجيانغ، أمـا الطريـق الآخـر فيتجـه غربًـا ليقطـع مدينـة توربـان، ومدينـة شانشـان، وحـوض توكسـون بشـينجيانغ.

وبعـد شـق طريـق الحريـر الصحـراوي، أصبـح طريـق المراعـي المنغوليـة فـي المقـام الثانـي بعـده، إلا أنـه مـا زال محتفظًـا بـدوره فـي عمليـة التبـادل الثقافـي بيـن قارتـي آسـيا وأوربـا، ففـي عهـد سـلالة كل مـن أسـرتي ويـي، وجيـن الملكيتيـن، والأسـرتين الجنوبيـة

1- معهد البحوث الأثرية التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية: "مقبرة فو خاو بمنطقة يين شيو"، دار الأثريات للنشر، 1980م / معهد البحوث الأثرية التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية: "الاكتشافات والأبحاث المتعلقة بمقبرة فو خاو بمنطقة يين شيو"، دار العلوم للنشر، 1994م، صفحة 324 / جانغ بيي شان: "تحديد أنواع مشغولات اليشم المكتشفة في مقبرة فو خاو بمنطقة يين شيو الواقعة في مدينة آن يانغ"، مجلة "الآثار"، 1982م، العدد 2.

2- لين ميي تسون: "15 فصلا حول آثار طريق الحرير"، دار نشر جامعة بكين، 2006م، صفحة 59.

3- London:J.M. Dent and Sons Ltd ، Frozen Tombs of Siberia ، S.I.Rudenko ، 1970م.

والشـمالية الملكيتيـن، اتخـذت قبيلـة الزيانبـة[1] مـن مدينـة بيونـج سـونج (مدينـة داتونـغ بمقاطعـة شـاندونغ حاليًـا) عاصمـة لهـم، وأسسـوا بهـا أسـرة ويـي الشـمالية، كمـا أنشـؤوا فـي المدينـة أول معبـد منحـوت فـي حجـارة الكهـوف علـى مسـتوى الصيـن وهـو "معبـد يـون قانـغ الحجـري"، وفـي الفتـرات اللاحقـة عمـل طريـق المراعـي المنغوليـة علـى الاتصـال بشـكل دائـم نحـو مقاطعـات شانشـي، منغوليـا الداخليـة، خـه بيـي، ومدنيـة بكيـن، ومقاطعـة لياونينـغ، وغيرهـا مـن المناطـق فـي الصيـن، وفـي السـنوات الأخيـرة تـم اكتشـاف مقابـر النبـلاء فـي المناطـق سـالفة الذكـر، حيـث تـم اسـتخراج العديـد مـن المشـغولات القادمـة مـن شـرق آسـيا وجنوبهـا مـن مشـغولات ذهبيـة، وفضيـة، ونحاسـية، وزجاجيـة، وعمـلات تابعـة للدولـة الساسـانية ببـلاد الفـرس، وكذلـك عمـلات ذهبيـة تابعـة للدولـة البيزنطيـة، ومشـغولات زجاجيـة تابعـة للدولـة الإسـلامية.[2]

وخـلال الفتـرة مـن القـرن الرابـع وحتـى القـرن الحـادي عشـر الميـلادي، أصبـح طريـق المراعـي المنغوليـة طريـق مـرور دولـي فـي شـمال شـرق قـارة آسـيا، يلعـب دورًا فـي غايـة الأهميـة فـي التبـادل الثقافـي بيـن الصيـن وكوريـا واليابـان مـن ناحيـة، ودول الغـرب مـن ناحيـة أخـرى؛ حيـث يبـدأ طريـق المراعـي المنغوليـة اتجاهـه مـن الصيـن نحـو الشـرق، دخـولًا إلـى شـبه الجزيـرة الكوريـة، ثـم مـرورًا بمضيـق الخيـول فـي كوريـا، ليصـل فـي النهايـة إلـى مدينـة كيوشـو اليابانيـة، ومـن بيـن الأعـداد الكبيـرة مـن المكتشـفات الأثريـة الصينيـة فـي اليابـان نجـد أن الكثيـر منهـا تـم نقلـه ونشـره لتلـك المناطـق عبـر طريـق المراعـي المنغوليـة.

1- هي قبيلة خليفة لسلالة الهون، أقامت على هضبة منغوليا، ويتحدثون اللغة الألطية وهي لغة مندرجة ضمن سلسلة اللغات المنغولية. (المترجِمة)

2- المركز الثقافي بمدينة تسه شيآن: "تقرير حول التنقيب في مقبرة الأميرة رورو التابعة لعهد أسرة ويي الشرقية بمدينة تسه شيان في مقاطعة خه بيي"، مجلة "الأثريات"، 1984م، العدد 4 / فريق التنقيب عن الأثريات التابع للهيئة الثقافية بمنطقة شه جياجوانغ: "مقبرة لي شي زونغ التابعة لعهد أسرة ويي الشرقية بمدينة زان خوانغ في مقاطعة خه بيي"، مجلة "الآثار"، 1977م، العدد 6 / فريق الأعمال الأثرية التابع للهيئة الثقافية بمقاطعة خه بيي: "العلب الحجرية التابعة لعهد أسرة ويي الشمالية المكتشفة في مقاطعة خه بيي"، مجلة "الآثار"، 1966م، العدد 5 / فريق التحقيق الأثري بالبرج الشمالي بمدينة تشاويانغ: "تقرير حول التنقيب في المعبد السماوي والمعبد الأرضي بالبرج الشمالي بمدينة تشاو يانغ بمقاطعة لياو نينغ"، مجلة "الأثريات"، 1992م، العدد 7 / لي ياو بوه: "مقبرة فنغ سو فو التابعة لعهد أسرة يان الشمالية في قرية شيقوان يينغ بمدينة بيي بياو في مقاطعة لياونينغ"، مجلة "الأثريات"، 1973م، العدد 3 / لجنة إدارة الأثريات بمقاطعة شانشي: "مقابر أسرة تانغ بقرية جينشينغ في الضاحية الجنوبية لمدينة تاي يوان"، مجلة "الآثار"، 1959م، العدد 9 / وانغ كه لين: "مقبرة خوي لوه التابع لقبيلة كو دي القديمة في عهد أسرة جي الشمالية"، جريدة "الآثار"، 1979م، العدد 3 / ما يو جي بمتحف مدينة داتونغ: "تقرير حول التنقيب في مقابر أسرة ويي الشمالية بقرية شياوجان في مدينة داتونغ"، مجلة "الأثريات"، 1983م، العدد 8 / فريق أعمال الأثريات بمدينة بكين: "تقرير حول التنقيب في مقبرة خوا فانغ زوجة الجنرال الشهير وانغ جيون التابع لعهد أسرة جين الغربية بالضاحية الغربية لمدينة بكين"، مجلة "الأثريات"، 1965م، العدد 12.

2) الاكتشافات الأثرية لطريق الحرير الصحراوي والدراسات المتعلقة به:

كان طريـق الحريـر الصحـراوي فـي البدايـة طريقًـا سياسـيًّا ودبلوماسـيًّا، فبالنظـر إلـى العلاقـات الوديـة التـي جمعـت بيـن دويـلات المناطـق الغربيـة السـت عشـرة وأسـرة هـان الغربيـة، والرغبـة فـي المبـاردة بتلـك العلاقـات مـع أسـرة هـان، أرسـل الإمبراطـور ليـو تشـه (إمبراطـور أسـرة هـان) الجنـرال جانـغ تشـيان فـي مهمـة للمناطـق الغربيـة، وأسسـت أسـرة هـان الملكيـة 4 مـدن علـى التوالـي فـي منطقـة ممـر خـه شـي بمقاطعـة قانسـو، وتلـك المـدن هـي مدينـة جيوتشـيوان، مدينـة أوويـي، مدينـة دونخوانـغ، ومدينـة جانغيـي، كمـا تـم إنشـاء العديـد مـن مقـرات إدارة للحكومـة المركزيـة فـي المناطـق الغربيـة (منطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، كمـا هـي الحـال فـي إدارة مدينـة أوليـي -أيضًـا- (تقـع حاليًـا شـرق مدينـة لونتـاي بمنطقـة شـينجيانغ)، وتطبيـق نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة بهـا[1]، وبهـذا أصبحـت المناطـق الغربيـة جـزءًا تابعًـا لإمبراطوريـة أسـرة هـان الملكيـة، وأصبحـت قبائـل المناطـق الغربيـة كافـة أفـرادًا تابعيـن للأمـة الصينيـة، ومـن خـلال الأعمـال الأثريـة التـي اسـتمرت لعـدة سـنوات فـي منطقـة شـينجيانغ، تـم اكتشـاف بقايـا منشـآت إداريـة عسـكرية واقتصاديـة تابعـة لعهـد أسـرتي هـان، وتانـغ الملكيتيـن، كان مـن أهمهـا "مواقـع أثريـة لبعـض المـدن القديمـة" التـي كانـت بمثابـة منصـات اجتماعيـة وسياسـية ذات مهـام عسـكرية واقتصاديـة مهمـة كتطبيـق نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة، ومهـام إداريـة عسـكرية مثـل إشـعال النـار (كإشـارة عسـكرية) فـي المنصـات الخاصـة لذلـك، وبنـاء الحصـون، وغيرهـا، ويُعـد هـذا كلـه بمثابـة ممارسـات لفـرض الحكومـة المركزيـة سـيادتها فـي المناطـق الغربيـة، ممـا يعكـس "هيمنـة الدولـة علـى الثقافـة" فـي المناطـق الغربيـة آنـذاك.

وكمـا قلنـا كانـت تُعـد تلـك المـدن منصـات سياسـية للدولـة، فوفقًـا للسـجلات المدونـة، كانـت الدولـة القديمـة تعمـل علـى "إنشـاء القـلاع والحصـون لحمايـة الإمبراطـور، وإنشـاء جـدران المـدن لحمايـة عامـة الشـعب"، وكانـت "المـدن" فـي التاريـخ الصينـي

1- يسمى بالصينية نظام تون تيان، ويعني استغلال الجنود والفلاحين في استصلاح الأراضي مقابل الحصول على الدعم، والإمداد، والضرائب الغذائية منهم. (المترجِمة)

القديم بمثابة منصات سياسية، وأشكال مصغرة من الدولة الكبيرة، وكان قصر الإمبراطور يمثل مركز سياسات الدولة، وكانت المدن بأشكالها المختلفة تعكس أشكال الحكم المختلفة. فلو أخذنا دويلة لوولان كنموذج، سنرى أنها كانت تتمتع بشكلين في العصور القديمة: شكل دائري، وآخر مربع. فقبل اتجاه أسرة هان نحو المناطق الغربية، كان نمط مدن المناطق الغربية يخضع لتأثير مناطق آسيا الوسطى، حيث كانت المدن تتخذ شكلًا دائريًّا، أما بعد فتح الجنرال جانغ تشيان للمناطق الغربية، فنرى تغيرًا في شكل مواقع المدن الأثرية هناك، حيث ظهرت مدن فريدة مربعة الشكل داخل تلك المدن، وتتطابق معظم الأثريات المستخرجة من تلك المدن مربعة الشكل مع الأثريات الموجودة داخل المدن نفسها بشكل أساسي، مثل المستندات والأختام الرسمية التي نقلتها أسرة هان الملكية لتلك المناطق لتمارس فرض سيادتها عليها، كما كانت تعد المدن التي بنتها أسرة هان في المناطق الغربية أدوات كذلك لإدارة الحكومة المركزية التابعة لأسرة هان الملكية لتلك المناطق وفرض سيطرتها عليها، فقد كشفت البحوث الأثرية في الوقت الحاضر العديد من أطلال المدن الأثرية التابعة لأسرة هان في المناطق الغربية، من بينها نجد أكثر المدن عددًا وأهمية في مدينة لونتاي، ومدينة لوب نور جنوب حوض تاريم، ومدينة روه تشيانغ بمنطقة شينجيانغ.

وكان أكثر عمل يلقى اهتمامًا في سفح الجبل جنوب سلسلة تيانشان الجبلية بمدينة لونتاي هو البحث عن مركز الإدارة السياسية في المناطق الغربية قديمًا والتابع لأسرة هان الملكية (أطلال مقرات إدارة الحكومة المركزية في المناطق الغربية)[1]، حيث يُرى عادة أن أطلال مدينة أوليي القديمة الواقعة في مجموعة

1- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية" المجلد السادس والتسعون (الجزء الأول) "السيرة الذاتية للمناطق الغربية" يدون: "تم تأسيس مقرات إدارة الحكومة المركزية في المناطق الغربية في العام الثالث من تقويم شين جيويه "التابع لأسرة هان الغربية (202 ق.م8-م)" (في العام 59 قبل الميلاد)، وتم تعيين العديد من القادة ذوي المناصب الرفيعة لقيادة تلك المقرات، وحماية الطرق الشمالية للمناطق الغربية، ومنذ تأسيس تلك المقرات وهي تتمتع بفرض سيطرتها على المناطق الغربية، ومع ضعف قبائل الهون واضطرارها للاقتراب من المناطق الغربية، خضعت لنظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية لاستصلاحها، حيث كانت مسؤولة عن أراضي دويلة شاتشه بمنطقة شيوجيان الشمالية (تقع حاليًا بالقرب من مدينة لونتاي بمنطقة شينجيانغ)، وكان ينتمي قادة فريق تطبيق نظام عسكرة الجنود والفلاحين بالأراضي الزراعية إلى مقر الحكومة المركزية، وكانت تلك المقرات تعمل كذلك على مراقبة حركات الدويلات الأجنبية وسكناتها مثل دويلة أوسون، ودويلة كانغجيو، وما إن تشتم رائحة تغيرات في سياسات تلك الدويلات، حتى تتدخل سواء باسترضاء تلك الدويلات أو بشن الهجوم عليها، وكان أحد تلك المقرات يعمل على إدارة مدينة أوليي القديمة، وكانت تذهب الجنود مسافة 1369 كم في ممر يانغقوان، لتتقرب من مسؤولي الزراعة بدويلة تشيولي ذات الأراضي الخصبة".

قـرى تسـيدايا بمدينـة لونتـاي هـي أطـلال لمقـرات الحكومـة المركزيـة فـي المناطـق الغربيـة فـي عهـد أسـرة هـان الملكيـة[1]، ومنـذ سـبعينيات القـرن العشـرين، وأعمـال البحـث الأثريـة ما زالـت قائمـة فـي مدينـة لونتـاي للتنقيـب عـن أطـلال مدينـة أغـورا القديمـة، ومدينـة كيوكشـر القديمـة (أو تسـمى بمدينـة كيوكتشـين القديمـة)، ومدينـة باوتـاي القديمـة (أو تسـمى بمدينة منصـات المدافـع)، ومدينـة خيتايتشـين القديمـة، ومدينـة جوقوتيتشـين القديمـة، ومدينـة كاركبوليـك القديمـة، وغيرهـا مـن أطـلال المـدن الأخـرى، مـن بينهـا بعـض أطـلال المـدن التـي تـم اكتشـاف قطـع أثريـة تابعـة لعهـد أسـرة هـان بهـا، إلا أنـه لا يمكـن فـي الوقـت الحاضـر تحديـد المـكان الدقيـق لأطـلال مقـرات إدارة الحكومـة المركزيـة التابعـة لأسـرة هـان فـي المناطـق الغربيـة.[2]

وكانـت مدينتـا لـوب نـور، ووروه تشـيانغ أكثـر الأماكـن التـي مارسـت فيها أسـرة هـان الملكية سـيادتها، حيـث تقـع دويلـة لوونـان، ودويلـة شانشـان القديمـة فـي هـذه المنطقـة، وتتمثـل أبـرز المواقـع الأثريـة التابعـة لعهـد أسـرة هـان الملكيـة والمكتشـفة فـي هـذه المنطقـة فـي أطـلال منطقـة توييـن بمدينـة لـوب نـور، ومدينـة LE القديمـة، ومدينـة LA القديمـة، ومدينـة LK القديمـة، ومدينـة LL القديمـة، ومدينـة "تشيرتشـيدوك" القديمـة، وغيرهـا، وفـي مـا يخص بالعلاقـة التـي تربـط بيـن هـذه المـدن القديمـة والسـجلات التاريخيـة المدونـة، فمـا زالـت محـل جـدال بيـن الأوسـاط الأكاديميـة فـي الوقـت الحاضـر؛ حيـث يـرى بعـض الدارسـين أنـه وفقًـا لـلأوراق المصنوعـة مـن الخيـزران وغيرهـا مـن الأدوات الأثريـة المكتشـفة، فربمـا تشـير أطـلال منطقـة توييـن بمدينـة لـوب نـور علـى طريـق دويلـة لـوولان القديمـة إلـى موقـع مقـر إدارة الحكومـة المركزيـة بالمناطـق الغربيـة[3]، وتشـير مدينـة LE منـذ القدم إلـى دويلة لوولان القديمـة، التـي أصبحـت في وقت لاحـق مقرًّا لحكم المناطـق الغربية لزمن طويـل[4]، وفي العام

1- خوانغ وين بي: "التدوين الأثري لمنطقة حوض تاريم"، دار العلوم للنشر، 1958م، صفحة 9.

2- تأليف ليو تشين جو، وباي ين شيانغ من معهد البحوث الأثرية التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية: "علم الآثار الصيني.. مجلد عهد أسرتي تشين وهان"، دار نشر الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، 2010م، صفحة 870.

3- منغ فان رين: "التاريخ الحديث لمدينة لوولان"، دار جريدة الإشراق للنشر، 1990م، صفحة 60 – 83.

4- لين ميي تسون: "البحث الأثري حول العاصمة الأولى لدويلة لوولان"، "المناطق الغربية في عهد أسرتي هان وتانغ.. والحضارة الصينية"، دار الأثريات للنشر، 1998م، صفحة 279 – 289.

الرابـع مـن تقويـم يوانفنـغ "التابـع لأسـرة هـان الغربيـة (202 ق.م-8م)" (العـام 77 قبـل الميـلاد)، انتقـل ملـك دويلـة لـوولان إلـى مدينـة روه تشـيانغ، حيـث اقتـرب مـن مدينـة شـوني بـوادي تشيرتشـين (حيـث تقـع مدينـة تشيرشـيدوك القديمـة)، لتكـون عاصمـة لدويلـة شانشـان[1]، وربمـا كانـت مدينـة LA القديمـة مقـر حكـم للمناطـق الغربيـة لزمـن طويـل، أو أطـلالًا لـ"مقـرات عسـكرة الجنـود بمدينـة لـوولان"[2]، وربمـا تشـير مدينـة LK القديمـة إلـى أطـلال مدينـة إيـدن التابعـة لعهـد أسـرة هـان الغربيـة، أمـا مدينـة LL القديمـة فربمـا تشـير إلـى مقـر الجنـود بمدينـة إيـدن فـي عهـد أسـرة هـان الغربيـة[3]، وتقـع مدينـة بوجداتشـين القديمـة علـى بعـد 12 كيلومتـرًا مـن جنـوب غـرب دويلـة يانتشـي (باللغـة الويغوريـة تسـمى قرشـهر، وتقـع بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، وتشـكل مربعًـا يبلـغ محيطـه أكثـر مـن 3000 متـر، وهـي أكبـر دويلـة تابعـة لأسـرة هـان الملكيـة فـي حـوض يانتشـي، وفـي مـا يتعلـق بدويلـة يانتشـي، اختلفـت وجهـات نظـر الأوسـاط الأكاديميـة، حيـث كان الاختـلاف حـول عاصمتهـا واقعًـا حـول مـا إذا كانـت مدينـة يوانتشـيو، أو مدينـة يولـي، أو مدينـة يانتشـيجين، وغيرهـا مـن وجهـات النظـر الأخـرى.[4]

كمـا توجـد أطـلال لمدينـة حجريـة قديمـة تابعـة لعهـد أسـرة هـان الشـرقية فـي مدينـة تشـيتاي بمنطقـة الحـدود الشـمالية لمنطقـة شـينجيانغ، وتـم سـابقًا اسـتخراج أعـداد كبيـرة مـن القطـع الأثريـة التابعـة لعهـد أسـرة هـان الملكيـة مـن تلـك المدينـة، وربمـا تـم تأسـيس مدينـة شـوليي القديمـة فـي هـذا المـكان فـي الماضـي لتكـون مقـرًا لعمـل

1- لين ميي تسون: "البحث الأثري حول مخطوطات مدينة دونخوانغ، ومجلد تاي تسانغ بمدينة شوبادوك"،"المناطق الغربية في عهد أسرتي هان وتانغ، والحضارة الصينية"، دار الأثريات للنشر، 1998م، صفحة 273 – 275.

2- منغ فان رين: "التاريخ الحديث لمدينة لوولان"، دار جريدة الإشراق للنشر، 1990م، صفحة 36 – 59 / لين ميي تسون: "متفرقات مدونة حول طريق الحرير"، دار الفنون الشعبية الجملية للنشر، 2004م، صفحة 90.

3- منغ فان رين: "التاريخ الحديث لمدينة لوولان"، دار جريدة الإشراق للنشر، 1990م، صفحة 101 – 114.

4- تشينغ شيو سونغ: "مدونات حول الممرات المائية بالمناطق الغربية"، المجلد الثاني، الهيئة الصينية للكتاب، 2005م / خان شيانغ: "عاصمة دويلة يانتشي، مقرات إدارة الحكومة المركزية بمدنية يانتشي، ومدينة يانتشيجين.. استطلاع حول مدينة يوجداتشين القديمة"، مجلة "الأثريات"، العدد 4 / خوانغ وين بي: "التدوين الأثري لمنطقة حوض تاريم"، دار العلوم للنشر، 1958م، صفحة 7 / منغ فان فان رين: "تحديد موقع مدينة يولي، وعاصمة دويلة يانتشي، ومدينة يانتشيجين"، البحوث الأثرية بمنطقة شينجيانغ ومجموعة المؤلفات التاريخية"، دار العلوم للنشر، 2000م.

الإداريين التابعين لحكومة أسرة هان[1]، وتمثل الحدود الشمالية مكان إقامة قبائل البدو الرحالة، كما تمثل البؤرة الاستيطانية والقاعدة التي اقتنصتها أسرة قبائل السهول الوسطى (أسرة قبائل قومية هان الصينية المقيمة في مناطق الروافد الوسطى والسفلى للنهر الأصفر) للسيطرة على المروج المحيطة، وفي منطقة باليكون تم اكتشاف النُصْب التذكاري الحجري لحاكم مدينة دونخوانغ الذي هزم جيوش الهون في عهد أسرة هان الملكية (في العام الثاني من تقويم يونغ خه التابع لأسرة هان الملكية، ويوافق عام 137م)، وكذلك النُصْب التذكاري الحجري للجنرال الشهير رين شانغ (في العام الخامس من تقويم يونغ يوان التابع لأسرة هان الملكية، ويوافق عام 93م)، وغيرها من الأثريات التي تعكس تاريخ فرض الحكومة المركزية لأسرة هان سيطرتها وسيادتها على تلك المناطق.[2]

وكانت هناك مدينة تُدعى بيي تينغ في العصور الوسطى القديمة (كانت تسمى كذلك بمدينة الحصون)، تقع في شمال مدينة جيموسار الواقعة في ولاية تشانغ جي ذات الحكم الذاتي لقومية هوي، وكانت تمتاز تلك المدينة القديمة بنطاقها الكبير، حيث تظهر بنحو ما على شكل مستطيل مقسم لجزأين: مدينة داخلية، وأخرى خارجية، وفي الزاوية الشمالية الغربية للمدينة تم استخراج أختام برونزية سُميت بـ"أختام ولاية بوليي"، كما استخرجت كذلك مجسمات مصنوعة بمستوى فني عالٍ لأسود برونزية، وأسود حجرية، ودروع نحاسية منقوش عليها عناقيد عنب، وعملات كاي يوان التابعة لعهد أسرة تانغ، وكرات حجرية منقوش عليها زهور، وأنابيب، وقطع فخارية، وغيرها، ومن خلال فحص شكل أطلال مدينة بيي تينغ، والقطع الأثرية المستخرجة منها، نجد أنه من السهل اكتشاف تطابق الثقافة الداخلية للمدينة، وقد اعتُمِدت أطلال مدينة بيي تينغ كتراث ثقافي عالمي (حيث تُعد المدينة جزءًا من مجموعة التراث الثقافي العالمي لـ"طريق الحرير").

وتُنسب الأطلال المكتشفة في المناطق الغربية في الوقت الحاضر والتي تعود

1- شيويه زونغ جنغ: "البحث الأثري حول مدن أوتوجو، جينبو، وشوليي"، مجلة "أثريات منطقة شينجيانغ"، 1988م، العدد 2.

2- داي ليانغ زوه: "جولة أثرية للتذكارات الحجرية القديمة في الحدود الشرقية لمنطقة شينجيانغ"، مجلة " أثريات منطقة شينجيانغ "، 1988م، العدد 4.

لعهـد أسـرة تانـغ الملكيـة للعديـد مـن المـدن القديمـة، مثـل مدينـة إي لـوه لـو بدويلـة كويتسـي القديمـة (مدينـة كوتشـه بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا "Kuqa County")، والتـي كانـت مقـرًّا لإدارة الحكومـة المركزيـة التابعـة لأسـرة تانـغ الملكيـة، وتقـع فـي مجموعـة قـرى آنشـي بالقـرب مـن مدينـة كوتشـي (بالويغوريـة Kuqa) بمنطقـة شـينجيانغ (وتُسـمى كذلـك بمدينـة بيلانـغ القديمـة أو مدينـة هـالادون)، وكذلـك مدينـة قاوتشـانغ (سـميت بجـدار قاوتشـانغ فـي عهـد أسـرة هـان)، وفـي عهـد أسـرتي هـان وويـي الملكيتيـن، كان مقـر قـادة فـرق تطبيـق نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة فـي هـذه المدينـة، وفـي وقـت لاحـق اتخـذت دويلـة تشـيانليانغ مـن مدينـة قاوتشـانغ عاصمـة للحكـم، بعدهـا أصبحـت مدينـة قاوتشـانغ عاصمـة لمملكـة تشيوشـه، ثـم مقـرًّا للحكـم للولايـة الغربيـة فـي عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، ثـم عاصمـة لمملكـة قبائـل الهويهـو (قبائـل الويغـور)، وتنقسـم المدينـة بأكملهـا إلـى 3 أجـزاء: مدينـة خارجيـة، وأخـرى داخليـة، ومدينـة قصـر الحاكـم، وتشـبه المدينـة فـي شـكلها علـى نحـو مـا مدينـة تشـانغ آن التابعـة لعهـد أسـرة تانـغ، ومـن بيـن أطـلال تلـك المـدن المكتشـفة صُنفَـت كذلـك كل مـن مدينـة جياوخـه، ومدينـة قاوتشـانغ كتـراث ثقافـي عالمـي (حيـث تعـد تلـك المـدن جـزءًا مـن مجموعـة التـراث الثقافـي العالمـي لـ"طريـق الحريـر").

وكان يعـد نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة شـكلًا مـن أشـكال الإدارة العسـكرية وتنظيـم الإنتـاج التـي تنفذهـا سـلالات الأسـر الصينيـة القديمـة فـي المناطـق النائيـة، وبـدأ تطبيـق هـذا النظـام فـي المناطـق الغربيـة فـي عهـد أسـرة هـان الغربيـة، وكانـت تتمتـع المعـدات العسـكرية المطبقـة لهـذا النظـام بالمناطـق الغربيـة

فـي عهـد أسـرة هـان بهويتيـن فـي غايـة الأهميـة[1]، وقـد كانـت هنـاك العديـد مـن القطـع الأثريـة والبقايـا المكتشـفة فـي منطقـة شـينجيانغ والمتعلقـة بنظام عسـكرة الجنـود والفلاحين فـي الأراضـي الزراعيـة، مثـل "الأختـام الرسـمية المطبوعـة" المسـتخرجة مـن بيـن أطـلال نيـا فـي مدينـة مينفنـغ بمنطقـة شـينجيانغ، ممـا يوضـح تطبيـق حكومـة أسـرة هـان الشـرقية لنظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة فـي مناطـق حـزام نهـر نيـا، وكذلـك تأسيسـها لوحـدات متخصصـة فـي إدارة شـؤون هـذا النظـام، كمـا يوضـح معظـم مـا احتـوت عليـه قصاصـات الأخشـاب المدونـة والمسـتخرجة مـن منطقـة توييـن فـي السـاحل الشـمالي لمدينـة لـوب نـور أمـورًا متعلقـة بتطبيـق هـذا النظـام، كمـا تبيـن أرصفـة الموانـئ المشـكلة عـن طريـق تغطيتهـا بـورق الصفصـاف، والتابعـة للعصـور القديمـة، والمكتشـفة فـي منطقـة السـاحل الشـمالي لنهـر الطـاووس شـمال مدينـة لـوب نور إلى أنـه بالتأكيـد كانت تُسـتخدم في مشـاريع إمـداد الميـاه، وقـد أوصلـت الاكتشـافات الأثرية فـي الضاحية الشـرقية لمدينـة لوولان إلـى إيجـاد بقايـا تابعـة للعصـور القديمـة كانـت تُسـتخدم في اسـتصلاح الأراضـي، كمـا لا بدَّ أن

1- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية" المجلد 96، (الجزء الأول) "السيرة الذاتية للمناطق الغربية" يدون: "في فترة سنوات تقويم شينغ التابع لأسرة هان الملكية اعتلى الإمبراطور شياو أو العرش، وفرضت الدولة سيطرتها علي كافة الأرجاء، وهنا، بدأ الجنرال جانغ تشيان خطواته نحو المناطق الغربية؛ حيث قام الجنرال المبتعث بشن هجومه على ميمنة قبائل الهون، ووطد علاقاته بدول جيانغخون شيه، شيوتووانغ، وسويكونغ تشي، ومن ثم قام ببناء مدينة جيوتشيوان، كما قام بنقل المواطنين ليسكنوا في أربع مدن هي أووبي، جانغيي، دونخوانغ، وليه سه، وذلك عبر ممري يانغقوان، ويومين، وبعد انتصار الجنرال لي جوانغ لي على دويلة داوان، تزلزلت المناطق الغربية، وأرسلت حكومة أسرة هان تعزيزات كثيرة من الجنود للإسهام في انتصاراتهم على المناطق الغربية، ونُصبت المقصورات على طول الطريق من مدينة دونخوانغ، وحتى مدينة يانزه، أما مدينة لونتاي، ومدينة تولي فاستقر بها مئات الجنود المشاركين في نظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية، تحت قيادة قادة تطبيق هذا النظام في المدينة، لفرض الحماية وإرسالهم لإمداد الجيوش خارج البلاد حين الحاجة لذلك".

*يشير النص السابق إلى ما تعنيه عبارة "تمتع المعدات العسكرية المطبقة لهذا النظام بالمناطق الغربية في عهد أسرة هان الملكية بهويتين في غاية الأهمية" المذكورة في النص، والهويتان هما: أولًا، عسكرة الجنود ومعداتهم العسكرية مع الفلاحين في الأراضي الزراعية لاستصلاحها، وثانيًا، انتظارهم لأي أمر بإمداد القوات العسكرية علي الحدود أو خارج البلاد. (المترجِمة)

كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية" المجلد 96، (الجزء الأول) "السيرة الذاتية للمناطق الغربية" يدون: "تم تأسيس مقرات إدارة الحكومة المركزية في المناطق الغربية في العام الثالث من تقويم شين جيويه "التابع لأسرة هان الغربية (202 ق.م8-م)" (في العام 59 قبل الميلاد)، وتم تعيين العديد من القادة ذوي المناصب الرفيعة لقيادة تلك المقرات، وحماية الطرق الشمالية للمناطق الغربية، ومنذ تأسيس تلك المقرات وهي تتمتع بفرض سيطرتها على المناطق الغربية، ومع ضعف قبائل الهون واضطرارها للاقتراب من المناطق الغربية، خضعت لنظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية لاستصلاحها، حيث كانت مسؤولة عن أراضي دويلة شاتشه بمنطقة شيوجيان الشمالية (تقع حاليًا بالقرب من مدينة لونتاي بمنطقة شينجيانغ)، وكان ينتمي قادة فريق تطبيق نظام عسكرة الجنود والفلاحين بالأراضي الزراعية إلى مقر الحكومة المركزية، وكانت تلك المقرات تعمل كذلك على مراقبة حركات الدويلات الأجنبية وسكناتها مثل دويلة أوسون، ودويلة كانغجيو، وما إن تشتم رائحة تغيرات في سياسات تلك الدويلات، حتى تتدخل سواء باسترضاء تلك الدويلات أو بشن الهجوم عليها، وكانت يعمل أحد تلك المقرات على إدارة مدينة أوليي القديمة، وكانت تذهب الجنود مسافة 1369 كم في ممر يانغقوان، لتتقرب من مسؤولي الزراعة بدويلة تشيولي ذات الأراضي الخصبة".

تعود بقايا نظام الري هائلة الحجم المكتشفة في مدينة ميلان إلى عهد أسرة هان الملكية، وأيضًا يُعد برج مراقبة شولوو الموجود بالقرب من منطقة لايسو في مدينة لونتاي جزءًا من بقايا ما تم استخدامه في تطبيق هذا النظام في عهد أسرة تانغ الملكية.

ويُعد بئر كاريز شرق منطقة شينجيانغ والمحفوظ حتى يومنا هذا أفضل دليل مادي على دخول الزراعة المحلية والتكنولوجيا الزراعية مناطق الحدود الشرقية في الوقت نفسه، ففي واقع الأمر يمثل بئر كاريز "قنوات الآبار" التي ذُكرت في كتاب "السجلات المؤرخة"، والتي تقع في منطقة ويي بيي بمقاطعة شانشي؛ حيث يدون كتاب "السجلات المؤرخة.. القنوات النهرية" قائلاً: "عملت الجنود على تمهيد السطح، وحُفر البئر بالفعل، ليمتد عمقه لأكثر من 40 قدمًا تحت الأرض، وانساب تيار المياه من أسفله، ومن هنا كانت بداية قنوات الآبار"[1]، وبهذا بدأت "قنوات الآبار" من منطقة قوانجونغ في عهد أسرة هان الغربية، وامتدت غربًا حتى منطقة شينجيانغ.

وعلى امتداد الخط بين مدينة دونخوانغ ومدينة قورلا نجد منصات إشعال النار العسكرية التابعة لعهد أسرة هان الملكية، وكانت هذه "المنصات" مشروعًا وطنيًّا قامت به الحكومة المركزية آنذاك، كما تُعد تلك المنصات إرثًا ثقافيًّا مهمًّا لطريق الحرير، فهي دليل تاريخي على شق سلالات الأسر القديمة لطريق الحرير، وحمايته، كما تُعد أدوات مادية تشهد على تطبيق الحكومات المركزية الصينية لإدارتها العسكرية في المناطق الغربية، ومن هنا، يمكن أن نوضح أن منطقة شينجيانغ جزء من الصين منذ 2000 عام، وتُعد أطلال منصات إشعال النار العسكرية التابعة لعهد أسرة هان الملكية والمتواجدة في قرية كيزيل بالحدود الجنوبية دليلاً تاريخيًّا ذا أهمية كبيرة، حيث أُدرجت من قِبل منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة ضمن قائمة التراث الثقافي العالمي، وذلك في عام 2014م (حيث تُعد تلك المنصات جزءًا من مجموعة التراث الثقافي العالمي لطريق الحرير)، مما يوضح

1- كتاب "السجلات المؤرخة" المجلد التاسع والعشرون.

اعتـراف المجتمـع الدولـي بالدولـة الصينيـة الموحـدة، والتـي شُـكلت منـذ 2000 عـام مضـت، ومـن بيـن مـا يتعلـق بأمـر الأطـلال المدرجـة ضمـن قائمـة التـراث العالمـي والتـي تمثـل جـزءًا مكونًـا لطريـق الحريـر نجـد كذلـك "أطـلال ممـر يوميـن" التابـع لعهـد أسـرة هـان والواقـع فـي منطقـة "ممـر خـه شـي"، و"أطـلال منطقـة شيوانتشـيوان جـي"، وأطـلال "مدينـة سـوه يانـغ" التابعـة لعهـد أسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن.

ونجـد العديـد والعديـد مـن البقايـا الأثريـة المكتشـفة فـي المناطـق الغربيـة والتـي تمثـل "ثقافـة أسـرة هـان"، واللغـة المكتوبـة تمثـل "النـواة الأساسـية لتـوارث الثقافـة". فقـد توصلـت الاكتشـافات الأثريـة إلـى أن الرمـوز الصينيـة تمثـل إحـدى اللغـات الأولـى المكتوبـة المسـتخدمة فـي المناطـق الغربيـة فـي عهـد أسـرة هـان الملكيـة، كمـا تمثـل اللغـة الرسـمية المسـتخدمة دائمًـا منـذ ألفـي عـام فـي تلـك المناطـق، وفـي سـبعينيات القـرن العشـرين، كشـفت أعمـال التنقيـب فـي مناطـق مدينـة لـوب نـور عـن اسـتخراج 63 مخطوطـة مصنوعـة مـن الخيـزران والأخشـاب مكتوبـة بالرمـوز الصينيـة، كمـا تـم اسـتخراج مخطوطـات ورقيـة مكتوبـة بالرمـوز الصينيـة مـن بيـن مقابـر زاجنلـوك والتـي تمثـل بقايـا أثريـة تعـود لثـلاث فتـرات ثقافيـة فـي الماضـي (فـي عهـد أسـرتي هـان وجيـن الملكيتيـن)، ومـن بيـن أطـلال نيـا تـم كذلـك اسـتخراج 8 مخطوطـات خشـبية أثريـة تعـود إلـى ملكيـة العائلـة الإمبراطوريـة مكتـوب عليهـا بالنمـط القديـم لخطـوط الرمـوز الصينيـة، ويمكـن القـول إن كافـة المخطوطات المكتشـفة فـي مناطـق شـينجيانغ المختلفـة وأنمـاط ونظـم كتابتهـا قـد تلقـت تأثيـرًا عميقًـا مـن حضـارة مناطـق الروافـد الوسـطى للنهـر الأصفـر، ولا بـدَّ أن تكـون هنـاك علاقـة تربـط بيـن دخـول هـذه النظـم الكتابيـة للمناطـق الغربيـة، وعسـكرة الجنـود علـى الحـدود لحمايتهـا، فالأعـداد الكثيـرة المكتشـفة مـرارًا مـن أول عمـلات تـم اسـتخدامها فـي المناطـق الغربيـة[1] (والمنقـوش عليهـا برمـوز صينيـة) هـي دليـل مهـم علـى اسـتخدام المناطـق الغربيـة للرمـوز الصينيـة فـي الكتابـة.

كمـا تـم كذلـك اكتشـاف رمـوز صينيـة علـى العديـد مـن المنسـوجات المزركشـة

1- تُسمى بعملات الخيول لوجود رسم خيل علي كل عملة منها، واسمها بالإنجليزية (sino-kharoshthi coin)، على وجه منها منقوش رموز تعود للغة قومية أقلية، والوجه الآخر منقوش عليه رموز صينية. (المترجِمة)

المستخرجة من مناطق مختلفة في منطقة شينجيانغ. فعلى سبيل المثال نجد عبارات مثل "حياة مديدة للأبناء والأحفاد"، "حظ كبير ومستقبل مشرق"، "نعمة الماء تهبط من السماء لتهبنا وأبناءنا وأحفادنا وإخواننا الأعزاء المحصول الوفير والعمر المديد"، "حظ سعيد وعمر مديد"، "كل الأمنيات"، "العالم يتخطى الحدود"، "وانغ جيويه وخوو جيويه.. تمنياتنا لكما بزواج مبارك، وعمر مديد لرؤية أولادكما وأحفادكما"، "النجوم الخمسة تظهر في الشرق لتنصر الصين"، و"كن مباركًا بيمناك"، وغيرها من العبارات الميمونة التي وجدت مكتوبة على منسوجات حريرية مزركشة تابعة لعهد أسرتي هان وجين الملكيتين، والمستخرجة من بين أطلال مقابر نييا، وذلك خلال الفترة 1995م – 1997م، ومثال آخر العبارات التي وجدت مكتوبة على قطع المنسوجات الحريرية المزركشة المكتشفة أواخر سبعينيات القرن العشرين في مقبرة قوتاي بمدينة لوب نور، مثل "حياة مديدة للأبناء والأحفاد"، "حظ كبير ومستقبل مشرق"، "العالم مستمر"، "قوانغ شان"، "انظر من الأعلى"، و"شاهد العالم، تمتع بعمر مديد، كعمر الوطن"، وغيرها من العبارات، وتعكس هذه القطع الحريرية الملئية بالعبارات وجود الثقافة "الرسمية" لأسرة هان الملكية في المناطق الغربية، والتي قد تمثل البقايا التاريخية لـ"الجزيات (الهدايا)" التي كانت تُقدم في ذلك الوقت، وكان يهتم حكام المناطق الغربية كثيرًا بملابس أسرة هان ويغبطونهم عليها[1]، وكان يمثل الحرير "هدية" مهمة من الهدايا التي تقدمها أسرة هان لهم، وكانوا يستخدمونه في حياتهم، ويُدفن معهم بعد موتهم، وعادةً يُستخرج هذا الحرير المُهدى من المقابر المحلية التابعة للأفراد ذوي المناصب العالية.

كما تعكس التوابيت المستخرجة من قبور الأفراد ذوي المناصب العالية في منطقة شينجيانغ تأثير الثقافة التقليدية الصينية على تلك المناطق. ففي عام 1998م، استُخرجت توابيت خشبية من مقابر النبلاء شمال مدينة لوولان القديمة (بمدينة روه تشيانغ حاليًا)، مرسوم على الحلقة الدائرية الموجودة على مقدمة

1- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية" المجلد 96، (الجزء الثاني) "السيرة الذاتية للمناطق الغربية": "أعجب ملك دويلة كويتسي بنظام ملابس أسرة هان، وعندما عاد لبلاده قام ببناء قصر له، وعين عمال نظافة فيه، وعند الدخول والخروج من القصر كان يُنادي باسم الشخص، وتُقرع الطبول، كما هي الحال في آداب القصور في أسرة هان".

التابـوت طائـر العنقـاء ذهبـي اللـون (يشـير إلـى الشـمس)، أمـا جانـب التابـوت فمرسـوم علـى الحلقـة الدائريـة الموجـودة عليـه ضفـدع (يشـير إلـى القمـر)، ليرمـز كل مـن العنقـاء والضفـدع إلـى ظاهـرة تعاقـب الليـل والنهـار، ويعبـر ذلـك عـن جـزء مـن التقاليـد الثقافيـة للأمـة الصينيـة، ونجـد فـي محتويـات القطـع الأثريـة المكتشـفة فـي مقابر أباطرة أسـر السـهول الوسـطى (أسـرة قبائـل قوميـة هـان الصينيـة المقيمـة فـي مناطـق الروافـد الوسـطى والسـفلى للنهـر الأصفـر) ومقابـر النبـلاء مـا يـدل علـى تقاليـد الأمـة الصينيـة بشـكل كبيـر، مثـل رسـوم قتاليـة تجمـع بيـن تنيـن ونمـر، ورسـوم تجمـع بيـن تنيـن، ونمـر، وعصفـور، وأحـادي القـرن الخرافـي، وتعـود هـذه الرسـوم إلـى العصـر الحجـري الحديـث، وتـم اسـتخراجها مـن بيـن أطـلال مدينـة شيشـوي بمدينـة بويانـغ التابعـة لمقاطعـة خـه نـان[1]. مثـال آخـر رسـوم النجـوم التـي تغطـي الصناديـق المطليـة المسـتخرجة مـن مقبـرة تسـنغ خـوو إي بمدينـة سويشـيان فـي مقاطعـة خوبيـي[2]، ومقبـرة الإمبراطـور تشـين الأول التـي تمثـل قصرًا مبنيًّـا تحـت الأرض "وفقًـا لقوانيـن الفلـك والجغرافيـا"[3]، ورسـوم الظواهـر الفلكيـة المسـتخرجة مـن المقابـر ذات الرسـوم الجداريـة المكتشـفة حـول جامعـة جياوتونـغ بمدينـة شـيآن[4]، ومقابـر بـو تشـيان تشـيو ذات الرسـوم الجداريـة التابعـة لعهـد أسـرة هـان الغربيـة والمكتشـفة فـي مدينـة لـوه يانـغ[5]، ومقابـر الرسـوم الجداريـة التابعـة لعهـد أسـرة هـان الغربيـة كذلـك والمكتشـفة فـي قريـة تشـيانجينغ تـوو بمدينـة لـوه يانـغ[6]، ورسـوم التنجيـم المسـتخرجة مـن مقابـر تابعـة لعهـد أسـرة هـان الغربيـة -أيضًـا- فـي مدينـة لـوه يانـغ[7]، ومقابـر الرسـوم

1- معهد البحوث الأثرية بمقاطعة خه نان، ومركز إدارة حماية الأثريات بمدينة بويانغ: "أطلال منحدر شيشوي بوه بمدينة بويانغ"، دار نشر جونغ جوو للكتب القديمة، ودار الأثريات للنشر، 2012م.

2- تحرير متحف مقاطعة خو بيي: "مقبرة تسنغ خوو إي بمدينة سويشيان"، دار الأثريات للنشر، 1980م.

3- كتاب "السجلات المؤرخة"، المجلد السادس "سيرة الإمبراطور تشين الأول".

4- معهد البحوث الأثرية بمقاطعة شانشي، وجامعة جياوتونغ بمدينة شيآن: "مقابر الرسوم الجدارية المكتشفة حول جامعة جياوتونغ بمدينة شيآن"، دار نشر جامعة جياوتونغ بمدينة شيآن، 1991م.

5- خوانغ مينغ لان بمتحف مدينة لوه يانغ: "تقرير حول التنقيب في مقابر بو تشيان تشيو ذات الرسوم الجدارية في مدينة لوه يانغ والتابعة لعهد أسرة هان الغربية"، مجلة "الأثريات"، 1977م، العدد 6.

6- فريق الأعمال الأثرية الثاني بمدينة لوه يانغ: "تقرير حول التنقيب في مقابر الرسوم الجدارية في قرية تشيانجينغ توو بمدينة لوه يانغ والتابعة لعهد أسرة هان الغربية"، مجلة "الأثريات"، 1993م، العدد 5.

7- فريق الأثريات بالهيئة الثقافية في مقاطعة خه نان: "تقرير حول التنقيب في مقابر الرسوم الجدارية بمدينة لوه يانغ والتابعة لعهد أسرة هان الغربية"، جريدة "الآثار"، 1964م، العدد 2.

الجدارية التابعة لعهد أسرة تشين والمكتشفة في حدائق جين قويوان بمدينة لوه يانغ كذلك[1]، وأيضًا رسوم التنجيم التي تشمل نقشًا لرسم الشمس والقمر بمدينة فيي تشنغ في مقاطعة شاندونغ[2]، وغير ذلك من الاكتشافات الأثرية الأخرى، وتعبر تلك الرسوم المنقوشة على ذلك التابوت المكتشف في منطقة شينجيانغ والتي يعود تاريخها لألفي عام مضت عن النقل الواضح لثقافة الأمة الصينية إلى المناطق الغربية.

وتعكس الأختام المكتشفة طابع "الثقافة الرسمية" لأسرة هان الملكية بشكل أكبر، فها هو الختم النحاسي مربع الشكل المستخرج من منطقة شينجيانغ، حيث نجد على رأسه مجسمًا صغيرًا لخروف نائم، ومحفور عليه بالرموز الصينية عبارة "من إمبراطور أسرة هان إلى زعيم قبيلة تشيانغ"، ويندرج هذا الختم ضمن ما تم توزيعه من أختام رسمية من الحكومة المركزية لأسرة هان على كافة الحكام التابعين للصين آنذاك، حيث أعطت الحكومة هذا الختم لقبيلة تشيانغ بعدما أصبحت تابعة لأسرة هان، وتتواجد قبيلة تشيانغ في واحات حوض تاريم، ومنطقة الوادي الغربي لنهر بامير بالمناطق الغربية، وأهم ما يمارسه أفراد تلك القبيلة هو تربية الماشية، وصيد الحيوانات، بالإضافة إلى الزراعة.

ومن بين المواقع الأثرية المكتشفة في منطقة شينجيانغ والتي تعود لعهد أسرتي هان وتانغ الملكيتين، اكتُشفت -أيضًا- بعض الكتب القديمة المكتوبة باللغة الصينية، مثل كتاب "محاورات كونفشيوس لـ"قونغ جه جانغ"" المستخرج من بين أطلال منصات إشعال النار العسكرية التابعة لعهد أسرة هان الغربية في مدينة لوب نور، وأجزاء من كتاب "استراتيجيات الدول المتحاربة"، وكذلك أجزاء من كتاب التنجيم "التنجيم بطريقة 99" التابعَين لأواخر عهد أسرة هان الشرقية والمستخرجيَن من بين أطلال خايتوو بمدينة لوب نور، وكذلك أجزاء من كتاب "مؤلفات تسانغ جيه" المستخرجة من بين أطلال نييا عام 1993م،

1- شيو جه يا بمتحف مدينة لوه يانغ: "مقابر الرسوم الجدارية في حدائق جين قويوان بمدينة لوه يانغ والتابعة لعهد أسرة شين"، "مجموعة مجلات المواد الأثرية"، العدد 9، 1985م.

2- لوه تزه وين: "الضريح الحجري لمقبرة قوه تشي بجبال شياوتانغ"، مجلة "الأثريات"، 1961م، العددين 4، 5.

وغيرهـا مـن الكتـب والمدونـات الأخـرى، ومـن ناحيـة أخـرى، تـم اكتشـاف العديـد مـن النسـخ للكتـب القديمـة مثـل "شـعر مـاو"، و"محـاورات كونفوشـيوس لـ"جنـغ شـيوان جـو""، و"النسـخة المزيفـة لكتـاب الوثائـق مـن تأليـف كونـغ آن قـوه"، و"بـر الوالدين لكونفوشـيوس"، و"الارتجـال"، و"كتـاب الألـف مجموعـة مـن الرمـوز الصينيـة المسـجوعة"، و"آداب الـكلام" لشـيويه داو خنـغ، والعديـد مـن الكتـب مجهولـة المؤلـف مثـل "تاريـخ أسـرة جيـن الملكيـة"، و"قوانيـن أسـرة تانـغ الملكيـة"، و"علـم طـب الإبـر الصينيـة"، و"تعاليـم البوذيـة".

وبعـد شـق طريـق الحريـر والتنقـل عبـره، عبـرت الديانـة البوذيـة مـن مناطـق جنـوب آسـيا مـرورًا بمناطـق آسـيا الوسـطى، والمناطـق الغربيـة، لتدخـل فـي النهايـة إلـى الصيـن، وتندمـج بالثقافـة الصينيـة التقليديـة، لتصبـح ديانـة مهمـة تمثـل جـزءًا مـن الحلقـة الثقافيـة الصينيـة، وتُعـد المناطـق الغربيـة محطـة فـي سلسـلة محطـات انتقـال البوذيـة ودخولهـا الثقافـة الصينيـة، لتعبـر بعدهـا إلـى مقاطعـة قانسـو، ومقاطعـة نينغشـيا، ومنطقـة جيـن بيـي (بمقاطعـة شـاندونغ حاليًـا)، وتدخـل بعدهـا إلـى داخـل الصيـن مباشـرة، وفـي الصيـن شـهدت البوذيـة مزيـدًا مـن التكامـل، لتنتشـر فـي النهايـة فـي كوريـا، واليابـان، ومناطـق شـمال فيتنـام.

3) الاكتشافات الأثرية لطريق الحرير الجنوبي الغربي والأدلة المتعلقة به:

نجـد العلاقـة بيـن طريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي ودخـول البوذيـة إلـى الصيـن، حيـث دخلـت البوذيـة إلـى الصيـن مـن خـلال طريقيـن همـا: طريـق الحريـر الصحـراوي مـرورًا بجنـوب آسـيا وآسـيا الوسـطى، حتـى وصلـت البوذيـة شـرق آسـيا، وطريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي مـن الهنـد وميانمـار، دخـولًا إلـى مقاطعـة يوننـان، وسيتشـوان وغيرهـا مـن المناطـق فـي الصيـن، حيـث اسـتكملت البوذيـة انتشـارها علـى طـول مناطـق وادي نهـر اليانجسـتي، واتجهـت شـرقًا وصـولًا إلـى مناطـق الروافـد السـفلى مـن نهـر اليانجسـتي، ولا بـدَّ لطريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي أن يكـون سـابقًا فـي نشـأته لطريـق الحريـر الصحـراوي، وذلـك لأنـه فـي وقـت ابتعـاث الجنـرال جانـغ تشـيان للمناطـق الغربيـة رأى فـي دولـة أفغانسـتان الحاليـة بعـض "الأقمشـة المصنعـة فـي مقاطعـة سيتشـوان

الصينيـة" والتـي تـم نقلهـا عبـر الهنـد، ممـا يعنـي كذلـك أنـه قبـل أن "يشـق" الجنـرال جانـغ تشـيان طريقـه نحـو المناطـق الغربيـة، كانـت هنـاك علاقـات تبـادل تجـاري وثقافـي تربـط بيـن مناطـق جنـوب غـرب الصيـن والهنـد[1]، وفـي السـنوات الأخيـرة، أشـار بعـض العلمـاء -طبقًـا للاكتشـافات الأثريـة فـي مقاطعتـي سيتشـوان ويوننـان- إلـى أنـه ربمـا كان طريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي موجـودًا بالفعـل منـذ عهـد أسـرتي شـيا، وشـانغ الملكيتيـن، واعتمدوا فـي دليلهـم علـى القطـع الأثريـة المسـتخرجة فـي كل مـن مـدن دالـي، جيـن نينـغ، تشـيوجينغ فـي مقاطعـة يوننـان، ومدينـة سانشـينغدوي القديمـة فـي مقاطعـة سيتشـوان، وغيرهـا مـن المناطـق التـي اسـتُخرج منهـا صدفـات الأسـنان المسـتخدمة فـي الطـب الصينـي التقليـدي، واكتُشـفت فيهـا أطـلال مدينـة سانشـينغدوي القديمـة (بمقاطعـة سيتشـوان)، وقطـع العـاج المسـتخرجة مـن أطـلال مدينـة جينشـا القديمـة بمدينـة تشـينغدو، ولا بـدَّ لتلـك القطـع الأثريـة كلهـا أن تكـون مصنوعـة فـي الهنـد، ولـو ثبـت صحـة هـذه الفرضيـة، إذن لا بـدَّ أن يمتـد طريـق الحريـر الجنوبـي الغربـي زمنيًّـا ليشـمل عهـد أسـرتي شـيا، وشـانغ الملكيتيـن.[2]

4) الاكتشافات الأثرية لطريق الحرير البحري والدراسات المتعلقة به:

تـم تتبـع مسـار طريـق الحريـر البحـري فـي الأسـاس مـن خـلال اكتشـاف عـدة أرصفـة قديمـة للسـفن، وبعـض السـفن الغارقـة، وكذلـك العديـد مـن الاكتشـافات الأثريـة الأخـرى حولـه، فعلـى سـبيل المثـال تـم اكتشـاف بعـض القطـع الأثريـة لظهـور السـلاحف المحفـور عليهـا بعـض الرمـوز الصينيـة القديمـة التـي يرجـع تاريخهـا لـ3000 عـام مضـت، وذلـك فـي منطقـة ييـن شـيو بمدينـة آن يانـغ، ومـن خـلال الفحـص والتحقـق تـم اكتشـاف عـودة هـذه الظهـور إلـى "السـلاحف الآسـيوية" التـي تعيـش فـي ماليزيـا، وقديمًـا فـي عهـد أسـرة شـانغ الملكيـة دخـل رسـم حيـوان وحيـد القـرن إلـى فـن صنـع المشـغولات البرونزيـة فـي الصيـن، وانتشـرت مجسـمات وحيـد القـرن البرونزيـة فـي

1- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية" المجلد الواحد والستون "سيرة الجنرال جانغ تشيان".

2- دوان يو: "طريق الحرير الجنوبي والطريق الواصل قديمًا بين الوسط والغرب"، مجلة "حضارة مدينة سانشينغدوي القديمة وتطور الأبحاث الثقافية في كل من مقاطعة سيتشوان ومدينة تشونغتشينغ ومقاطعة خوبيي" التي يعمل على إصدارها كل من قاعدة البحوث الرئيسة للعلوم الإنسانية والاجتماعية الملحقة بالتعليم العالي والتابعة لوزارة التعليم الصينية، ومعهد البحوث الثقافية بجامعة المعلمين بمقاطعة سيتشوان (الذي يضم مدينة تشونغتشينغ ومقاطعة سيتشوان وشمال مقاطعة خوبيي)، 2014م، العدد 1.

عهد الدول المتحاربة في عصر أسرتي تشين وهان الملكيتين، كما تم استخراج بعض مجسمات وحيد القرن الذهبية والفضية والبرونزية من مقابر الملك جونغ شان التابعة لعهد الدول المتحاربة، وذلك في مدينة بينغ شان بمقاطعة خه بيي، وتم كذلك استخراج هيكل عظمي حقيقي لحيوان وحيد القرن من المقبرة الجنوبية للملكة باو والدة الإمبراطور ليو خنغ (إمبراطور أسرة هان الملكية)، وتم -أيضًا- استخراج بعض مجسمات وحيد القرن الذهبية والفضية والبرونزية من مقبرة الإمبراطور ليو تشه (إمبراطور أسرة هان الملكية) بمنطقة ماولينغ، وكذلك استخراج مجسمات وحيد القرن بمقبرة الملوك بمنطقة جيانغتشيو والتابعة لعهد أسرة هان الملكية، وأيضًا استخراج المجسمات الحجرية لحيوان وحيد القرن من مقابر شيان لينغ للقدماء، وغيرها من مجسمات وحيد القرن التي يعود معظمها إلى مناطق جنوب آسيا، ويمتاز حيوان وحيد القرن في مناطق جنوب آسيا بأنواعه المختلفة، ففي الهند يمتاز بكبر حجمه، أما في جزيرة سومطرة بجنوب آسيا فيمتاز بصغر حجمه، ولربما كانت هناك علاقة تربط بين تواجد حيوان وحيد القرن ومجسماته في الصين في العصور القديمة وطريق الحرير البحري.

وفي المقابر القديمة التي تعود لعصر الدول المتحاربة والمكتشفة في شبه جزيرة شاندونغ تم استخراج كرات خرز زجاجية قادمة من الغرب، يعود تاريخها إلى القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد، وتنتمي إلى منتجات الساحل الشرقي للبحر المتوسط آنذاك، وفي عهد أسرتي هان وتانغ الملكيتين عبرت العديد من القطع الأثرية طريق الحرير البحري لتدخل الصين، كما نجد أواني الطعام الأثرية المنقوش عليها زهور اللوتس المستخرجة من مقبرة ملك دولة جي قوه التابعة لعهد أسرة هان الغربية في منطقة لينزه بمقاطعة شاندونغ، وكذلك العلب الفضية ذات نقوش زهور اللوتس المستخرجة من قرية شيشين بمدينة تشنغجوو في مقاطعة شاندونغ، وقطع العاج وأختام العاج ومشغولات العاج القادمة من قارة إفريقيا والمستخرجة من أطلال دولة نان يويه القديمة ومقبرة ملكها القديم في مدينة قوانغجوو، والعلب الفضية والمجوهرات ذات نقوش الزهور الذهبية القادمة من مناطق جنوب آسيا أو آسيا الوسطى، وحبوب شجر المصطكاء (المستكة)

القادمة من مناطق جنوب آسيا، والعديد من القطع الأثرية المستخرجة من مقابر أسرة هان الشرقية في مقاطعة قوانغدونغ مثل مشغولات الزجاج الرومانية، وحبات خرز حجرية مصنوعة من العقيق الأحمر، وحبات خرز ذهبية متعددة الأوجه، وعملات ومشغولات فضية تابعة لبلاد الفرس، كما تم استخراج العديد من القطع الأثرية كذلك من المقابر القديمة المكتشفة في مقاطعتي جيانغسو وفوجيان، مثل حبات خرز ذهبية متعددة الأوجه، ومشغولات الزجاج الرومانية، وقوارير فخارية مطلية بلون الأزرق الطاووسي، وأباريق فخارية مطلية تابعة لبلاد الفرس، ومن هنا يمكننا أن نستعيد مسار الطريق البحري القديم الذي يبدأ من ميناء الإسكندرية بمصر، مرورًا بالهند، ومناطق شرق آسيا، حتى شبه جزيرة شاندونغ بالصين، وبالنسبة لفترة حكم أسرة هان الملكية، والأسرتين الجنوبية والشمالية الملكيتين، اعتمدت الصين على طريق الحرير البحري الشمالي للاتصال وإجراء تبادل ثقافي بشكل متكرر مع بلدان شمال شرق آسيا المتمثلة في شبه الجزيرة الكورية وجزر اليابان، ويمثل العدد الكبير من القطع الأثرية الصينية التابعة لعهد أسرة هان الملكية، والأسرتين الجنوبية والشمالية الملكيتين والمستخرجة من هذه المناطق أكبر دليل تاريخي على وجود ذلك الاتصال منذ القدم، ومنذ العصور الوسطى القديمة وما بعدها، ومع تراجع استخدام طريق الحرير البري الواصل بين قارتي آسيا وأوربا، دخل طريق الحرير البحري أزهى عصوره على الإطلاق. ففي عهد الأسرة الملكية تانغ، سونغ، ويوان، وخاصة أسرتي سونغ ويوان، احتلت الصين مركز الريادة والتوجيه على مستوى طريق الحرير البحري، ليلعب هذا الطريق دورًا ذا أهمية قصوى، حيث بدأ الأسطول الصيني البحري ينشط في المحيط الهندي، ويبحر بعيدًا حتى وصل إلى الساحل الشرقي لقارة إفريقيا، وفي عهد أسرة يوان الملكية تمتع كل من مجال الملاحة وتقنية تصنيع السفن في الصين بمستوى متقدم على مستوى العالم أجمع.

الفصل الثالث

طُرق الحرير و"عصورها المزدهرة" في الصين

تعد أزهى عصور طُرق الحرير هي أكثر فترات الصين ازدهارًا أيضًا، فطريق الحرير الذي يمر بفترة زمنية زاهية يعني كذلك مرور المناطق الصينية التي يسلك منها بالفترة المزدهرة نفسها. فعلى سبيل المثال كان العصر الزاهي لطريق المراعي المنغولية هو نفسه العصر الزاهي والمزدهر لمناطق شمال الصين.. لماذا؟ لأن الثقافة الرئيسة لذلك الطريق تقبع في تلك المناطق الشمالية، وفي عهد أسرتي هان، وتانغ الملكيتين كانت تتخذ الدولة من وادي النهر الأصفر قاعدة لمركزها السياسي، والثقافي، والاقتصادي، وبالتالي ازدهر طريق الحرير الصحراوي آنذاك، وفي عهد أسرة تانغ الملكية وفي الفترة اللاحقة لها، قام الإمبراطور يانغ قوانغ (إمبراطور أسرة سوي الملكية) بشق القناة الكبرى[1]، لينتقل بعدها المركز السياسي للبلاد شرقًا، ثم شمالًا، حيث انتقلت العاصمة من مدينة تشانغ آن، ومدينة لوه يانغ، إلى مدينة كاي فنغ شرقًا، ثم شمالًا لتصبح بكين هي العاصمة، وذلك بعد انتهاء حكم أسرة سونغ الملكية، كما تحول المركز الاقتصادي للصين إلى السواحل الشرقية، حيث تحول طريق الحرير المستخدم آنذاك من طريق الحرير الصحراوي، إلى طريق الحرير البحري، ومن هنا، نجد الارتباط الواضح بين "عصور الازدهار" في الصين وطرق الحرير كافة، فقد بدأ طريق الحرير الصحراوي منذ إرسال الصين (أسرة هان الملكية) للجنرال جانغ تشيان لفتح المناطق الغربية، وتُعد كذلك فترتا حكم أسرة هان، وأسرة تانغ الملكيتين أزهى فترة مرت بها الصين في العصور القديمة، كما تُعد "فترتا حكم الإمبراطور ليو خنغ، والإمبراطور ليو تشي التابعَين لأسرة هان الملكية"، وكذلك "فترتا حكم الإمبراطور لي شه مين، والإمبراطور لي لونغ جي التابعَين لأسرة تانغ الملكية" من أزهى عصور الصين في ذلك الوقت، والتي شهدت كذلك ازدهار طُرق الحرير في الوقت نفسه.

1- القناة الكبرى (Grand Canal): تعد أقدم وأكبر قناة تم حفرها في العصور القديمة بسواعد الشعب الصيني، وذلك في مناطق السهول الشرقية للصين، وتمر بثمان مقاطعات صينية. (المترجِمة)

(1) تكويـن وتطـور كل مـن طُـرق الحريـر، والصيـن كدولـة موحـدة متعـددة القوميـات ذات سـلطة مركزيـة، والأمـة الصينيـة:

كان طريـق المراعـي المنغوليـة أقـدم طريـق حريـر يظهـر مـع ظهـور دولـة "الصيـن" قديمًـا، أمـا طريـق الحريـر الصحـراوي فكانـت بدايـة ظهـوره مـع توحيـد الصيـن كدولـة متعـددة القوميـات ذات سـلطة مركزيـة، وكان ذلـك تماشـيًا مـع تكويـن الأمـة الصينيـة وبدايات تطورهـا.

فبدايـة حكـم أسـرة تشـين بـدأت الصيـن تدخـل فـي عصـر الإمبراطوريـات المتعاقبـة فـي الحكـم، وبعـد تأسـيس أسـرة تشـين الملكيـة، وَحَّـد الإمبراطـور تشـين الأول الصيـن كدولـة متعـددة القوميـات ذات سـلطة مركزيـة، إلا أنـه سـرعان مـا تمـت الإطاحـة بـه بسـبب سياسـته القائمـة علـى الاسـتبداد وفـرض الضرائـب الباهظـة، وبتأسـيس أسـرة هـان الغربيـة حظيـت عمليـة توحيـد الصيـن كدولـة متعـددة القوميـات ذات سـلطة مركزيـة بالمزيـد مـن التطـور، مـن بيـن ذلـك التطـور كان إنشـاء طريـق الحريـر.

ولكـي تقـوم أسـرة هـان الغربيـة بإنشـاء طريـق الحريـر احتاجـت فـي البدايـة أن تقضي على قـوة الهـون، ومـن أجـل ضمـان مسـار طريـق الحريـر الـذي يبـدأ مـن مدينـة تشـانغ آن ليمـر بالمناطـق الغربيـة ومناطـق آسـيا الوسـطى، أسسـت أسـرة هـان الغربيـة 4 مـدن فـي منطقـة ممـر خـه شـي (بمقاطعـة قوانسـو حاليًـا)، وعلـى طـول حـزام سـفح الجبـل الموجـود جنـوب سلسـلة جبال تيانشـان أنشـأت أسـرة هـان الغربيـة مقـرات إدارة للحكومة المركزيـة الصينية في المناطـق الغربيـة، وبهـذا توسـعت حـدود الصيـن الغربيـة مـن وسـط مقاطعـة قانسـو (حيـث كانـت مدينـة لانجـوو تمثـل أقصـى حـدود الصيـن فـي عهـد أسـرة تشـين الملكيـة)، لتشـمل المناطـق الغربيـة (منطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، وفـي خضـم هـذا التنميـة الاجتماعيـة، لعـب طريـق الحريـر الصحـراوي دورًا مهمًـا للغايـة، فمـع وجـود قـوة "قبيلـة الهـون الجنوبيـة" شـمال البـلاد، وتأسـيس المـدن الأربـع فـي مناطـق شـمال شـرق الصيـن (علـى رأسـها مدينـة لـه لانغ)، سـاعد هـذا أسـرة هـان الملكيـة علـى إتمـام بنـاء الدولـة وترسـيخها فـي المناطـق الشـمالية والمناطـق الشـمالية الشـرقية، وفـي خضـم هـذا التطـور التاريخـي، يظهـر الـدور الحيـوي لطريـق الحريـر الصحـراوي، وطريـق المراعـي المنغوليـة، فبعـد تأسـيس أسـرتي تشـين وهـان

لتسع مدن على طول ساحل البحر الجنوبي، أصبحت المناطق الجنوبية والمناطق الجنوبية الشرقية للصين بمثابة "خط دفاع كبير" للأمة الصينية والصين القديمة، كما أصبحت تلك المناطق -تحت دعم الدولة وتأمينها- مركزًا لشق طريق الحرير البحري وتطوره، أما طريق الحرير الجنوبي الغربي فقد دفع من تنمية أسرة هان الغربية لـ"جموع القوميات الأقلية المقيمة في جنوب غرب البلاد"، وليس من الصعوبة أن نرى العلاقة الوطيدة للغاية التي تجمع بين كل من طريق المراعي المنغولية، طريق الحرير الصحراوي، طريق الحرير البحري، وطريق الحرير الجنوبي الغربي من جهة، وتكوين الأمة الصينية والصين كدولة موحدة ذات قوميات متعددة من جهة أخرى.

وفي بداية استخدام طُرق الحرير المختلفة، كانت كلها من أجل تقديم الجزيات والهدايا، والتبادل الثقافي بين الأمم المختلفة، مما يعكس التقاليد المختلفة للصين القديمة، مثل تسامحها الذي يجلب احترام الدول لها، وتناغمها مع الأمم المختلفة، ومصادقة الدول المجاورة، وقد امتدت هذه الثقافة دائمًا حتى الأجيال اللاحقة للمجتمع الصيني القديم، وانتشرت على يد الرحالة جنغ خه في رحلاته البحرية التي جاب فيها العالم أجمع.

(2) طريق الحرير وانطلاق الصين القديمة نحو العالم الخارجي:

في عصور كافة الأسر الملكية على مدار التاريخ الصيني، كان الخروج من الصين من خلال طُرق الحرير المختلفة في البداية، فلكي تخرج لا بدَّ أن تعبر طريق الحرير، وهو المسار نفسه الذي انتشرت عبره ثقافات الدول الأجنبية، وفنونها، وأديانها، ومنتجاتها الطبيعية داخل الصين وأثرت عليها، إلا أنه من منظور التاريخ العالمي، نجد أن الأهم هو انطلاق الصين نحو العالم. فمن هنا، وفي الوقت الذي يُعتبر فيه طريق الحرير إرثًا ثقافيًّا عالميًّا، نؤكد أن "نقطة بداية طريق الحرير كانت من مدينة تشانغ آن الصينية"، كما يمكن القول إن "طريق الحرير" في البداية كان مسار "الانطلاق نحو العالم الخارجي" بدايةً من مركز السياسة في الصين القديمة وهو مدينة تشانغ آن.

ومنـذ اسـتحداث علـم الآثـار فـي العصـر الحديـث، تـم اكتشـاف أعـداد كبيـرة مـن القطـع الأثريـة الصينيـة فـي كل مـن مناطـق آسـيا الوسـطى، وغـرب آسـيا، وجنوبهـا، وشـمال شـرقها، وجنـوب شـرقها، وقـارة إفريقيـا، وغيرهـا مـن الأماكـن الأخـرى، فعلـى سـبيل المثال تم اكتشـاف قطـع مـن الحريـر، وكذلـك قطـع أثريـة صينيـة تعـود إلـى عهـد أسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن، وذلـك فـي مناطـق آسـيا الوسـطى، وغـرب آسـيا، والمتمثلـة حاليًـا فـي دول أفغانسـتان، وكازاخسـتان، وأوزبكسـتان، كمـا تـم اكتشـاف بعـض قطـع الفخـار الصينـي الأثريـة التـي تعـود إلـى عهـد أسـرتي سـونغ ويـوان الملكيتيـن، وذلـك فـي الهنـد وباكسـتان جنـوب قـارة آسـيا، وكذلـك فـي دولـة كينيـا علـى السـاحل الشـرقي لقـارة إفريقيـا، وفـي دول كوريـا الشـمالية، وكوريـا الجنوبيـة، واليابـان، وفيتنـام، وغيرهـا مـن الأماكـن فـي شـمال شـرق قـارة آسـيا، وجنـوب شـرقها، تـم اسـتخراج العديـد مـن القطـع الأثريـة الصينيـة القديمـة مثـل المشـغولات البرونزيـة، وعمـلات أوجـو[1]، والمرايـا البرونزيـة، والأختـام، وقراميـد تغطيـة الأسـطح، وقطـع الحريـر، والقطـع الفخاريـة، وغيرهـا، وتمثـل هـذه البقايـا الأثريـة الدليـل التاريخـي علـى مـا أخـذه الصينيـون معهـم فـي رحلتهـم خـارج الصيـن، أو لمـا عـاد بـه الأجانـب إلـى بلادهـم بعـد زيارتهـم الصيـن.[2] وهـذا يوضـح بالكامـل دور طريـق الحريـر فـي انطـلاق الصيـن نحـو العالـم الخارجـي.

(3) طريق الحرير ودخول الأوربيين والآسيويين القدماء الصين:

كان طريـق الحريـر سـببًا فـي دخـول ثقافـة العالـم الخارجـي إلـى الصيـن، فقـد كان لطريـق المراعـي المنغوليـة الفضـل فـي إقامـة علاقـة وطيـدة بيـن مناطـق شـمال شـرق آسـيا، وأسـرة هـان الملكيـة والأسـر الملكيـة التـي تلتهـا، كمـا كان لطريـق الحريـر البحـري الفضـل كذلـك فـي إقامـة تلـك العلاقـات الوطيـدة كذلـك بيـن مناطـق جنـوب شـرق آسـيا، وأسـرة هـان الملكيـة ومـا تلاهـا مـن أسـر ملكيـة، لتتبلـور بذلـك "حلقـة الثقافـة الصينيـة"، أو مـا تُسـمى بـ"حلقـة الثقافـة الكونفوشيوسـية" التـي تتخـذ مـن الصيـن القديمـة نـواة

1- عملات معدنية تستخدم وزنها لتحديد قميتها الشرائية، كانت بداية استخدامها في العام 118م، واستمر استخدامها لمدة 400 عام، وهي أطول فترة في تاريخ الصين يتم فيها استخدام عملة معدنية واحدة. (المترجِمة)

2- معهد البحوث الأثرية التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية (تأليف ليو تشينغ جو، وباي يون شيانغ): "علم الآثار الصيني، مجلد أسرتي تشين وهان الملكيتين"، دار نشر الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، 2009م.

لهـا، وهنـاك تحيـز دائـم لوجهـة نظـر تفيـد بوصـف طريـق الحريـر علـى أنـه "المسـيطر علـى الصيـن وثقافتهـا"، فعلـى سـبيل المثـال يُـرى أن معظـم البقايـا الأثريـة الممثلـة للتـراث الثقافـي والعابـرة لطريـق الحريـر قديمًـا يعـود أصلهـا إلـى الديانـة البوذيـة ومـا تعلـق بهـا مـن معابـد، أو معابـد منحوتـة فـي الكهـوف، وكذلـك الديانـة الزرادشـتية، والمانويـة، والنسـطورية، وغيرهـا، وبالتالـي، فمـن منظـور التاريـخ العالمـي يمكـن القـول إن طريـق الحريـر كان سـببًا فـي "دخـول" ثقافـة العالـم الخارجـي إلـى الصيـن.

وتعـد أسـرتا هـان وتانـغ الملكيتان مؤسسـتي طريـق الحريـر، ففي البدايـة "تأثـرت" المناطق الغربيـة بطريـق الحريـر، حيـث نجـد العلاقـة الوطيـدة بيـن حركتـي الزراعـة والاقتصـاد قديمًـا فـي ممـرات سلسـلة جبـال تيانشـان، والتوجـه التدريجـي للزراعـة المحليـة نحـو الشـرق فـي الفتـرة التاليـة لعصـر مـا قبـل التاريـخ، فهنـاك العديـد مـن البقايـا الأثريـة المكتشـفة التـي تثبـت تأثـر المناطـق الغربيـة بطريـق الحريـر، نذكـر منهـا أطـلال المـدن القديمـة مربعـة الشـكل المكتشـفة فـي المناطـق الغربيـة، والبقايـا والقطـع الأثريـة التـي كانـت تُسـتخدم فـي تطبيـق نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة، والعديـد مـن بقايـا منصـات إشـعال النـار العسـكرية التابعـة لأسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن، وبئـر كاريـز المحفـوظ حتـى وقتنـا الحاضـر، وغيرهـا مـن القطـع الأثريـة الأخـرى، وبعـد شـق طريـق الحريـر، أصبحـت الرمـوز الصينيـة هـي اللغـة المكتوبـة الرسـمية للمناطـق الغربيـة، واتخـذت كافـة الكتـب القديمـة مـن الرمـوز الصينيـة أساسًـا فـي كتابتهـا، وتـم كذلـك اسـتخدام الرمـوز الصينيـة فـي الكتابـة علـى الأختـام، وملابـس الطبقـات العليـا، والأنصـاب التذكاريـة الحجريـة، والعمـلات، وتوضـح هـذه الاكتشـافات انتقـال الثقافـة الصينيـة إلـى المناطـق الغربيـة، وعلـى الرغـم مـن دخـول الديانـة البوذيـة الصيـن مـن خـلال طريـق الحريـر، إلا أنهـا اندمجـت بالثقافـة الصينيـة، حيـث تطـورت الديانـة البوذيـة المدمجـة بالثقافـة الكونفوشيوسـية والمتصلـة بديانـة الطاويـة، وتعاليـم كونفوشـيوس، لتصبـح الثقافـة الدينيـة التقليديـة للأمـة الصينيـة والتـي تمثـل ثـلاث ديانـات فـي ديانـة واحـدة، ممـا أدى إلـى انتقـال مركـز ديانـة البوذيـة مـن جنـوب آسـيا إلـى شـرق آسـيا والصيـن.

ومـن ناحيـة أخـرى، وبعـد انقضـاء فتـرة حكـم أسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن وفتـرة العصـور الوسـطى القديمـة كذلـك، وتماشـيًا مـع مـا نالـه طريـق الحريـر الصحـراوي، وطريـق الحريـر البحـري مـن المزيـد مـن التطـور، بـدأت ثقافـة الـدول الخارجيـة تدخـل إلـى الصيـن (تلـك الدولـة الشاسـعة والمتمتعـة بمـوروث ثقافـي "متناغـم") مـن كل الاتجاهـات بكـم كبيـر، مثـل مبعوثـي مناطـق شـمال شـرق آسـيا إلـى أسـرة تانـغ لتعلـم الثقافـة الصينيـة، والتجـار اليهـود الذيـن قدمـوا إلـى مدينـة كايفنـغ فـي عهـد أسـرة سـونغ الشـمالية، والتجـار المسـلمين الـذي قدمـوا إلـى مدينـة تشـيوان جـوو فـي عهـد أسـرتي سـونغ ويـوان، والرؤسـاء والمبعوثيـن القادميـن مـن دول جنـوب شـرق قـارة آسـيا إلـى قنـاة جينغخانـغ الكبـرى بالصيـن، ومعابـد الديانـة النسـطورية القديمـة فـي مدينـة بكيـن، وقـدوم الرحالـة الشـهير ماركوبولـو مـن إيطاليا إلـى الصيـن فـي عهـد أسـرة يـوان الملكيـة، وغيرهـم مـن القدمـاء الذيـن خطـوا خطواتهـم داخـل الحـدود الصينيـة، وتعرفـوا علـى الصيـن، ودفعـوا بعمليـة التبـادل الثقافـي والاقتصـادي بيـن الصيـن وخارجهـا، كمـا أثـاروا شـغف الصينييـن لمعرفـة العالـم الخارجـي.

ومجمـل القـول إنـه مـن بيـن طُـرق الحريـر الأربعـة القديمـة كان طريـق الحريـر الصحـراوي أهمهـا علـى الإطـلاق، وذلـك بسـبب وجـود علاقـة بيـن هـذا الطريـق وازدهـار الصيـن، وأمانهـا، وتطورهـا فـي عهـد أسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن، كمـا أن لـه علاقـة بتطبيـق أسـرتي هـان وتانـغ لـ"الدبلوماسـية المتناغمـة" مـع الـدول الأجنبيـة، وكذلـك فـإن لـه علاقـة بالتبـادل الثقافي بيـن دول العالـم شـرقًا وغربًـا منـذ القـدم.

الباب الثاني

تأثير برنامج التراث العالمي على مجال حماية التراث الثقافي في الصين

(ليو جوو)

بـدأ الحـراك الدولـي لحمايـة التـراث الثقافـي فـي الفتـرة مـا بيـن القـرن الثامـن عشـر والقـرن العشـرين الميـلادي، وذلـك بحمايـة بعـض الـدول الأوربيـة لبعـض أطـلال المواقـع الأثريـة، والقطـع الأثريـة التذكاريـة المكتشـفة، وبعـد أواسـط القـرن العشـرين بـدأ يتبلـور تدريجيًّا اتجـاه دولـي فـي هـذا الصـدد، وعلـى الرغـم مـن تعـدد مفاهيـم ومبـادئ حمايـة الأثريـات التـي يقـوم عليهـا هـذا الاتجـاه، إلا أنـه قـد تمكـن مـن التوصـل إلـى تفاهـم مشـترك نسـبيًّا فـي مـا يخـص القيـم الأساسـية للأثريـات، والهـدف الرئيـس لحمايتهـا، وخـلال عمليـة تطويـر اتجـاه حمايـة التـراث الثقافـي، بـدأت منظمـة اليونسـكو التابعـة للأمـم المتحـدة تلعب دورًا أساسـيًّا مـن خـلال برنامـج التـراث العالمـي.

فمـن خـلال برنامـج التـراث العالمـي وضعـت منظمـة اليونسـكو آليـة مراقبـة دوليـة فعالـة لحمايـة التـراث الثقافـي والطبيعـي، وتعمـل هـذه الآليـة -مـن خـلال "اتفاقيـة حمايـة التـراث العالمـي الثقافـي والطبيعـي"- علـى بلـورة فكـر موحـد فـي كافـة الـدول تجـاه قيمـة التـراث وحمايتـه، حيـث تقـدم المنظمـة الدعـم المختـص لحمايـة أي تـراث تـم تحديـده مـن خـلال المؤسسـات الاستشـارية المتخصصـة، أمـا حكومـات الـدول المتعاقـدة مـع اليونسـكو فتصـدر بيانًـا مـن خـلال لجنـة التـراث العالمـي يفيـد بطـرح وجهـة نظرهـا تجـاه مـا تقدمـه مـن حمايـة للتـراث العالمـي، وعلاقـة التـراث بالتنميـة الاجتماعيـة المعاصـرة، وتقـوم بإصـدار قراراتهـا النهائيـة فـي هـذا الصـدد، وذلـك مـن خـلال المشـاورات الوديـة مـع المنظمـة، أمـا منظمـة اليونسـكو فتعمـل -مـن خـلال مسـتند "دليـل العمـل باتفاقيـة التـراث العالمـي" المنقح بشـكل دوري مـن قِبـل مركـز التـراث العالمـي المسـؤول عـن شـؤون الاتفاقيـة والتابـع لمقـر الأمانـة العامـة لليونسـكو- علـى تعديـل اتجـاه تطويـر التـراث العالمـي وتوجيهـه، ومـن هـذه النقطـة يتبيـن لنـا مـا يعكسـه برنامـج التـراث العالمـي مـن المتطلبـات والمعاييـر الدوليـة المتخصصـة فـي مجـال حمايـة التـراث، كمـا يعكـس مناشـدة كافـة الـدول المتعاقـدة علـى الاتفاقيـة، وكذلـك توقعـات منظمـة اليونسـكو فـي مـا يتعلـق بتطـور العالـم المسـتقبلي، وقـد عملـت هـذه الآليـة علـى تحويـل برنامـج التـراث العالمـي ليصبـح نـواة ونموذجًـا لمجـال حمايـة التـراث الثقافـي والطبيعـي فـي عالمنـا الحاضـر، كمـا أحدثـت تأثيـرًا كبيـرًا فـي مـا يخـص حمايـة كافـة دول العالـم.

وقد بدأ تداول مفهوم "حماية الأثريات" في العصر الحديث في الصين منذ أوائل القرن العشرين، ففي عام 1930م أصدرت حكومة الصين الوطنية "قانون حفظ الأثريات القديمة"، وفي عام 1931م، أصدرت "قواعد تنفيذ قانون حفظ الأثريات القديمة"، وبدأت الجمعية الصينية لدراسة الهندسة المعمارية التي أسسها جو تشي تشيان بإجراء الاستقصاءات والدراسات حول المعمار في العصور القديمة، واستند السيد ليانغ سه تشينغ وغيره إلى الاستقصاءات حول المعمار في العصور القديمة لطرح أفكارهم الأساسية حول كيفية الإصلاح والترميم، وقد وضعت هذه الأفكار حجر الأساس لحماية المعمار الصيني القديم، وبعد خمسينيات القرن العشرين، شرعت الصين تدريجيًّا في أعمال حماية المعمار الرئيس القديم وترميمه، بما يتضمن نقل قصر يونغ له (Yong Le palace)، وترميم جزء من المبنى القديم لمعبد لونغ شينغ (Long Xing temple) بمدينة جنغ دينغ في مقاطعة خه بيي، وترميم جسر جاو جوو (Zhao Zhou brige)، وغيرها من المشروعات، وفي هذه الفترة، وفي ظل تأثير ما بعد الصراع السوفيتي الصيني المسلح على اتجاه ترميم المعمار التاريخي، بدأ يتلقى التفكير بترميم المعمار الصينية القديمة مزيدًا من التعزيز، وذلك في ثلاثينيات القرن العشرين، حيث أصبح هذا التفكير مبدأ أساسيًّا لحماية الأثريات، وبعد التنمية التي شهدتها الصين في فترة الستينيات والسبعينيات، بلور مجال حماية الأثريات في الصين منظومة متكاملة نسبيًّا، وبسبب محدودية العلاقة التي ربطت الصين بدول العالم الخارجي خلال تلك الفترة، أخذت منظومة حماية الأثريات في الصين (خاصة حماية المعمار التاريخي) تتطور في طريق مختلف، وبشكل موازٍ للحراك الدولي لحماية التراث الثقافي في العالم.

وفي ثمانينيات القرن العشرين، طرأ تغير على هذه الطريقة الموازية في التطور، فبسبب بداية الصين عام 1978م تطبيق "سياسة الإصلاح والانفتاح" (أي الإصلاح في الداخل، والانفتاح على الخارج)، تسارع امتداد رقعة اتصال الصين مع العالم الخارجي، كما رغب العالم الخارجي في أن تشارك الصين وتندمج بشكل أكبر في عملية تنمية العالم بأكمله، وفي فترة الثمانينيات، دفعت بعض الأحداث

المهمـة الخاصـة بمجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن مـع التعـاون الدولـي بالالتقـاء بيـن منظومـة حمايـة الأثريـات فـي الصيـن، والحـراك الدولـي لحمايـة التـراث الثقافـي فـي العالـم. ففــي مطلــع الثمانينيــات، قــام المركــز الدولــي لبحــوث حمايــة وترميــم التــراث الثقافــي (ICCROM)[1] ومقـره رومـا باختيـار دولـة الصيـن -والتـي لـم تكـن عضـوًا فـي المركـز بعـد- لتقديـم تدريـب للأعضـاء، وفـي عـام 1982م، قـام رئيـس المركـز (ICCROM)، والسـير فيلتـون المختـص بشـؤون حمايـة الأثريـات فـي إنجلتـرا بالوصـول إلـى جامعـة تشـينغخوا فـي مدينـة بكيـن لتعليـم الطـلاب المبادئ الدوليـة لحمايـة التـراث، وذلـك فـي إطـار التدريـب المشـترك بيـن جامعـة تشـينغخوا الصينيـة والهيئـة الصينيـة الوطنيـة للآثـار، وقـد أدت هـذه المجموعـة مـن التدريبـات إلـى تقديـم بعـض المواثيـق الدوليـة المهمـة الخاصـة بحمايـة التـراث الثقافـي ودخولهـا الصيـن فـي ذلـك الوقـت، مثـل "ميثـاق فينيسـيا 1964م".

وفــي ديســمبر 1985م، انضمــت الصيــن رســميًّا إلــى "اتفاقيــة حمايــة التــراث العالمــي الثقافـي والطبيعـي"، لتصبـح دولـة متعاقـدة علـى هـذه الاتفاقيـة، وفـي عـام 1987م، طالبـت الصيـن بـإدراج 6 أماكـن أثريـة فـي الصيـن (القصـر الإمبراطـوري، سـور الصيـن العظيـم، موقـع رجـل بكيـن البدائـي فـي قريـة جووكووديـان فـي مدينـة بكيـن، معبـد مـوه قـاو المنحـوت فـي الكهـف فـي مدينـة دونخوانـغ، مقبـرة الإمبراطـور تشـين الأول، ومنطقـة جبـال تايشـان) ضمـن قائمـة التـراث الثقافـي، ونجحـت فـي هـذا الأمـر، وفـي عـام 1988م، أرسـلت منظمة اليونسـكو فريقًـا مـن الخبـراء لإجـراء تقييـم لأحـوال حمايـة معالـم التـراث العالمـي فـي الصيـن، وتقديـم اقتراحاتهـم فـي هـذا الصـدد.

وفـي عـام 1989م، وقَّعـت الحكومـة الإيطاليـة علـى اتفاقيـة تأسـيس مركـز لحمايـة الأثريـات وترميمهـا فـي مدينـة شـيآن بمقاطعـة شانشـي الصينيـة، وذلـك علـى غـرار نمـوذج معامـل مركـز حمايـة الأثريـات فـي إيطاليـا.

ومـن بيـن الأحـداث المهمـة فـي هـذه الفتـرة إصـدار الصيـن "قانـون حمايـة الأثريـات

1- أُسِّس هذا المركز عام 1959م، وهو المنظمة الوحيدة في مجال التراث الثقافي التي تُعتبر منظمة حكومية ودولية في الوقت نفسه، حيث تقدم التدريب والدعم التقني في مجال حماية التراث الثقافي لكافة الدول الأعضاء، كما يُعتبر المركز من المؤسسات الاستشارية المتخصصة المدرجة ضمن "اتفاقية التراث العالمي" التابعة لليونسكو.

بجمهورية الصين الشعبية"، ولو عقدنا مقارنة بين هذا القانون و"اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي" لعام 1972م، فمن السهولة أن نجد أن الاتفاقية تتمتع بتطابق أساسي على مستوى إدراك قيمة حماية الأثريات، مما أدى كذلك إلى تمكن الصين من الشروع سريعًا في تطبيق أعمال فعالة على مستوى برنامج التراث العالمي.

الفصل الأول

مبادئ "ميثاق فينيسا" والمباحثات الصينية حولها

يُعد "ميثاق فينيسيا" مستندًا دوليًا أساسيًا لحماية التراث الثقافي في العصر الحديث، حيث تتمتع مبادئه بتأثير مهم في ما يخص مجال حماية التراث الثقافي المذكور في "اتفاقية التراث العالمي"، وباعتبار المؤسسات الاستشارية المتخصصة مسؤولة عن تقييم التراث الثقافي (كما هو منصوص عليه في "اتفاقية التراث العالمي")، فقد قام المجلس الدولي للآثار والمعالم الأثرية (ICOMOS) باعتبار "ميثاق فينيسيا" ميثاقه الدولي الأول لفترة طويلة، كما أكد على مبادئ "ميثاق فينيسيا" في ما يخص المواثيق الأخرى المتعلقة بحماية التراث العالمي (التراث الثقافي خاصة).

وهناك قضية قائمة أولًا وآخرًا في ما يتعلق بحماية الأثريات في الصين، وهي التمكن من استعادة المظهر الأصلي للمعمار الأثري عند ترميمه من عدمه.. فخلال الفترة منذ الخمسينيات وحتى التسعينيات من القرن العشرين، انحاز العديد من الخبراء في مجال حماية الأثريات إلى وجهة النظر التي ترى بأن الحفاظ على المظهر الأصلي للمعمار الأثري وقت بنائه يمكن أن يجسد أكثر قيمته الفعلية، بينما يتوجه الرأي السائد إلى أنه في ظل توافر الشروط اللازمة (بما يشمل نتائج البحوث المكتملة والموثوقة في ما يخص المظهر الأصلي للمعمار الأثري) ينبغي عندها استعادة المظهر الأصلي للمعمار وقت بنائه، وقد طرح بعض الخبراء وجهة نظر أخرى تفيد بأن استعادة المظهر الأصلي يُعد أسمى طموح في مجال حماية الأثريات، وأن حفظ المظهر الحالي يُعد أقل ما يمكن تقديمه في هذا الصدد[1]، وفي ظل المحدودية البالغة في الاعتمادات المالية المخصصة للترميم والصيانة، وكذلك اقتصار مهمة هيئات حماية الآثار على التعزيز وتقديم الدعم فقط، لا تظهر هذه القضية بشكل واضح، إلا أنه عندما تصبح الاعتمادات المالية المخصصة لحماية

1- المعهد الصيني للبحوث الأثرية: "مختارات من المعمار القديم لتشي يين تاو"، دار خوا شيا للنشر، 1992م، صفحة 28.

الآثـار وفيـرة، فمـن السـهل أن يصبـح الترميـم الوسـيلة التـي سـيتم اللجـوء إليهـا لحمايـة الأثريـات، أمـا المعمـار المرممـة فسـيظهر دائمًـا بمظهـر مختلـف كثيـرًا عـن شـكلها وسـماتها قبـل عمليـة الترميـم، وقـد بـرزت هـذه القضيـة بشـكل أكبـر فـي ثمانينيـات القـرن العشـرين، وبمواجهتهـا، بـدأ بعـض الباحثيـن -بعـد تقديـم "ميثـاق فينيسـيا" ودخولـه الصيـن- اسـتخدام مبـادئ "ميثـاق فينيسـيا" لتقييـم قضيـة اسـتعادة المظهـر الأصلـي للمعمـار الأثـري.

ويـرى الفريـق المؤيـد لـ"ميثـاق فينيسـيا" أن حمايـة الأثريـات تُعـد حمايـة لـكل قيـم الشـواهد التاريخيـة التـي تملكهـا تلـك الأثريـات، ويجـب علينـا حمايـة كافـة السـمات والمظاهـر الخاصـة بالمعمـار التاريخـي والتـي تكونـت خـلال فترتهـا التاريخيـة، كمـا ينبغـي علينـا تجنـب تغييـر مظهرهـا الأصلـي، وعلـى العكـس، يـرى الفريـق المناهـض للميثـاق أن "ميثـاق فينيسـيا" عبـارة عـن مبـادئ وضعتهـا أوربـا، وظهـرت نتـاج حمايـة المعمـار التاريـخ الـذي اتخـذ مـن حمايـة الأبنيـة الحجريـة الأوربيـة أساسًـا لـه، وبالتالـي فهـو لا يناسـب الأحـوال الأساسـية لمجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن، والتـي تتخـذ مـن الأبنيـة الخشـبية الصينيـة أساسًـا لهـا، فالخشـب مـادة غيـر قابلـة للصدأ، ولا يمكـن بـأي حـال صيانتـه وترميمـه بطريقـة صيانـة المـواد الحجريـة وترميمهـا، وقـد أثَّـر هـذا الجـدال علـى تشـكيل مبـادئ حمايـة المعمـار التاريخـي الخاصـة بالصيـن، كمـا أثَّـر كذلـك علـى تنميـة مجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن، وقـد أدى هـذا الانقسـام فـي طرائـق التفكيـر والتطبيـق الخاصـة بمجـال حمايـة الأثريـات إلـى اسـتخدام تعبيـرات غامضـة أو وسـطية فـي محتـوى النصـوص المتعلقـة بقانـون حمايـة الأثريـات، علـى سـبيل المثـال "عنـد إجـراء أعمـال الترميـم أو الصيانـة أو النقـل للوحـدات الأثريـة المحميـة (المواقـع الثوريـة، أبنيـة الأنصـاب التذكاريـة، المقابـر القديمـة، المعمـار القديـم، المعابـد المنحوتـة فـي الكهـوف، والمنحوتـات الحجريـة، وغيرهـا مـن الأثريـات بمـا يتضمـن القطـع الأثريـة التابعـة للمعمـار القديـم) يجـب احتـرام مبـدأ عـدم تغييـر المظهـر الأصلـي للموقـع الأثـري"[1]، إلا أن هـذه التعبيـرات الغامضـة أو الوسـطية لـم

1- الهيئة الصينية الوطنية لإدارة شؤون الأثريات: "مختارات من نصوص قانون الأثريات الصيني الجديد"، دار الأثريات للنشر، 1987م، صفحة 125.

تقدم يد العون في ما يخص تقديم حل حقيقي للقضية الأساسية التي يواجهها مجال حماية المعمار التاريخي.

ومن منظور توجيه الدول المتعاقدة على "ميثاق فينيسيا" لأعمال حماية التراث العالمي، وكذلك الوحدات الأثرية المحمية بكافة مستوياتها، فإن الهيئة الصينية الوطنية للآثار تصب اهتمامها على الرابط الذي يجمع بين مبادئ "ميثاق فينيسيا" ومنظومة حماية الأثريات في الصين، لتشكل مجموعة مبادئ أساسية تلائم المجال الدولي لحماية التراث الثقافي، وتجسد كذلك مفاهيم المنظومة الصينية لحماية الأثريات، وهذا يتطلب استخدام المبادئ الدولية لحماية التراث الثقافي والممثلة في "ميثاق فينيسيا" لمفهوم الحماية الصيني لإضافة المزيد من الشروح والتفاسير، ووضع قيود صارمة على عمليات ترميم المعمار الأثري وصيانته. ففي عام 1997م، قامت الهيئة الصينية الوطنية للآثار بالتعاون مع معهد جيتي الأمريكي لحماية الآثار (Getty Conservation Institute) بتنظيم مشروع بحث تعاوني بعنوان "برنامج حماية المواقع الأثرية في الصين"، وقد تكون فريق البحث الصيني من أعضاء مؤسسات حماية الأثريات على مستوى كافة المقاطعات، ومناطق الحكم الذاتي، والبلديات في الصين، برئاسة المعهد الصيني للبحوث الأثرية، بينما رشح خبراء معهد جيتي الأمريكي لجنة التراث الاسترالية للمشاركة في مشروع البحث، وقد أُطلق على النتائج النهائية لهذا البحث اسم "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين"، وفي عام 2000م، أُعيدت مراجعة تلك النتائج من قِبل الهيئة الصينية الوطنية للآثار، وقد عبر مستند "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين" في مقدمته عن أهدافه بوضوح قائلاً: "بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، وفي الوقت نفسه الذي تعمل فيه الصين على الحماية الفعَّالة لمجموعة هائلة من المواقع الأثرية التي شارفت على الدمار، بلورت نظريات ومبادئ توجيهية لحماية الآثار لتلائم ظروف الصين الداخلية، كما أصدرت الدولة "قانون حماية الأثريات بجمهورية الصين الشعبية"، وما يتعلق به من نصوص قانونية، وعلى هذا الأساس، ووفقًا للمبادئ الدولية الممثلة في "الميثاق الدولي لحماية المواقع الأثرية وترميمها"

(ميثاق فينيسيا 1964م)، وضعنا خصيصًا هذه "المعايير""[1].

ولو عقدنا مقارنة بين محتوى كل من "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين" و"ميثاق فينيسيا"، فسيمكننا أن نرى بوضوح أكثر العلاقة التي تربط بينهما؛ حيث يؤكد الباب الثالث من مستند "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين" على 10 مبادئ لحماية المواقع الأثرية، وهي: "واجب الحفاظ على المظهر الأصلي للموقع الأثري"، "تقليل التدخل في الموقع قدر الإمكان"، "تطبيق نظام الصيانة الروتينية للموقع بشكل دوري"، "حماية المظهر الأصلي للأجزاء الأثرية المحفوظة، وكذلك المعلومات التاريخية الخاصة بها"، "استخدام تقنية الصيانة والترميم وفقًا لمتطلبات حماية الموقع"، "الاستيعاب الصحيح للمعايير الجمالية"، "واجب حماية بيئة الموقع الأثري"، "عدم إعادة بناء ما لم يكن موجودًا أصلًا داخل المعمار الأثري"، "واجب حماية البقايا الأثرية المنقب عنها"، و"الوقاية من أي كوارث واردة الحدوث". من بين تلك المبادئ نجد توافق مبدأ "واجب الحفاظ على المظهر الأصلي للموقع الأثري" مع محتوى البند السابع من "ميثاق فينيسيا" الذي ينص على أنه "لا يمكن بأي حال فصل المعمار التاريخي عما يحتويه من شواهد تاريخية أو عن بيئته التي هو جزء منها"، كما نجد توافق مبدأ "تقليل التدخل في الموقع قدر الإمكان" مع محتوى البندين الحادي عشر والثالث عشر من "ميثاق فينيسيا" اللذين ينصان على أنه "يجب احترام المعطيات السليمة لكل الفترات الزمنية التي تحدد تشكيلات المعمار الأثري الحالي"، و"غير مسموح بأي إضافات على معالم المعمار الأثري"، وهناك -أيضًا- توافق بين مبدأ "حماية المظهر الأصلي للأجزاء الأثرية المحفوظة، وكذلك المعلومات التاريخية الخاصة بها"، ومحتوى البندين الثالث والحادي عشر من "ميثاق فينيسيا" اللذين ينصان على أن "الغرض من صيانة المعمار التاريخي وترميمه هو حمايته باعتباره أعمالًا فنية وشواهد تاريخية"، وأنه "يجب احترام المعطيات السليمة لكل الفترات الزمنية التي تحدد تشكيلات المعمار الأثري الحالي"، وهناك كذلك توافق بين مبدأ "استخدام تقنية الصيانة والترميم وفقًا لمتطلبات حماية الموقع"، ومحتوى البندين الثاني والعاشر

1- "مبادئ حماية المواقع الأثرية في الصين"، معهد جيتي الأمريكي لحماية الآثار، 2002م، صفحة 3.

مـن "ميثـاق فينيسـيا" اللذيـن ينصـان علـى أنـه "عنـد صيانـة المعمـار التاريخـي وترميمـه لا بـدَّ مـن الاسـتعانة بـكل العلـوم والأسـاليب التقنيـة التـي تسـتطيع المسـاهمة فـي دراسـة التـراث المعمـاري وحمايتـه وترميمـه"، وأنـه "عندمـا نثبـت أن الأسـاليب التقليديـة غيـر ملائمـة لحـل المشـكلة، يمكننـا حينهـا اسـتخدام أي أسـلوب حديـث أو أي تقنيـة صيانـة لتقويـة المعمـار الأثـري، ولكـن فـي البدايـة يجـب التأكـد مـن هـذا الأسـلوب أو التقنيـة بالتجريـب العلمـي الكامـل، وإثبـات فعاليتهـم عـن طريـق التجربـة"، كمـا نجـد كذلـك توافقًـا بيـن مبـدأ "الاسـتيعاب الصحيـح للمعاييـر الجماليـة"، ومحتـوى البنـود التاسـع والحـادي عشـر والثانـي عشـر مـن "ميثـاق فينيسـيا" التـي تنـص علـى أن "الترميـم عمليـة عاليـة التخصـص.. تعتمـد علـى احتـرام المـواد القديمـة والوثائـق الأصليـة، ويجـب أن تتوقـف هـذه العمليـة حينمـا تبـدأ أي تكهنـات، وفـي هـذه الحـال يجـب أن يكـون أي عمـل إضافـي لا بـدَّ مـن القيـام بـه متميـزًا عـن التكويـن الخارجـي الواضـح للمعمـار الأصلـي، كمـا يجـب أن يحمـل طابعًـا معاصـرًا"، وأنـه "يجـب احتـرام المعطيـات السـليمة لـكل الفتـرات الزمنيـة التـي تحـدد تشـكيلات المعمـار الأثـري الحالـي، وذلـك لأن هـدف الترميـم ليـس السـعي وراء وحـدة الطـراز والتصميـم"، وأن "الأجـزاء الموضوعـة محـل الأجـزاء الأخـرى المفقـودة يجـب أن تتكامـل بشـكل منسـجم مـع الـكل، ولكـن يجـب فـي الوقـت نفسـه تمييزهـا بوضـوح عـن الأجـزاء الأصليـة لكـي لا يـؤدي ذلـك إلـى تزييـف الشـواهد الفنيـة والتاريخيـة الأصليـة للمعلـم الأثـري"، وهنـاك -أيضًـا- توافـق بيـن مبـدأ "واجـب حمايـة بيئـة الموقـع الأثـري"، ومحتـوى البنـد السـادس مـن "ميثـاق فينيسـيا" الـذي ينـص علـى أن "صيانـة معمـار تاريخـي معيـن يـدل علـى الحفـاظ علـى البيئـة المحيطـة بـه، وحيثمـا وُجِـدت البيئـة التقليديـة للموقـع الأثـري فيجـب الحفـاظ عليهـا"، كمـا نجـد التوافـق بيـن مبـدأ "عـدم إعـادة بنـاء مـا لـم يكـن موجـودًا أصـلًا داخـل المعمـار الأثـري"، ومحتـوى البنـد الخامـس عشـر مـن "ميثـاق فينيسـيا" الـذي ينـص علـى أن "جميـع أعمـال إعـادة البنـاء يجـب اسـتبعادها مقدمًـا، ولا يُسـمح فقـط إلا بإعـادة تركيـب الأجـزاء الموجـودة المبعثـرة"، وفـي النهايـة، نجـد التوافـق بيـن مبـدأ "واجـب حمايـة البقايـا الأثريـة المنقـب عنهـا"، ومحتـوى البنـد الخامـس عشـر مـن "ميثـاق فينيسـيا" الـذي ينـص علـى أنـه "يجـب الحفـاظ علـى الأطـلال الأثريـة، وكذلـك اتخـاذ الإجـراءات

اللازمـة لتحقيـق المحافظـة المسـتدامة لمعالـم المعمـار التاريخـي، وكذلـك كافـة القطـع الأثريـة المكتشـفة".

وبمواجهـة الجـدل القائـم دائمًـا فـي مجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن فـي مـا يخـص "المظهـر الأصلـي" و"المظهـر الحالـي"، فقـد قـدم مسـتند "معاييـر حمايـة المواقـع الأثريـة فـي الصيـن" شـرحًا واضحًـا لتحديـد الأثريـات التـي يجـب الحفـاظ علـى مظهرهـا الحالـي، والأثريـات التـي يمكـن اسـتعادة مظهرهـا الأصلـي قائـلاً:

"يمكـن أن يتضمـن مبـدأ عـدم تغييـر المظهـر الأصلـي للأثريـات عنصـري الحفـاظ علـى المظهـر الحالـي، واسـتعادة المظهـر الأصلـي، وتتمثـل الأثريـات التـي يجـب الحفـاظ علـى مظهرهـا الحالـي فـي:

1. الأطـلال الأثريـة القديمـة، خاصـة تلـك التـي لا تـزال تحتـوي علـى بقايـا مـا كان يُسـتخدم فـي الأنشـطة البشـرية العديـدة علـى سـطح الأرض.

2. المواقع الأثرية ذات التصاميم الجماعية.

3. كل المواقـع الأثريـة المفـردة التـي تمتلـك قيمًـا تعـود لفتـرات تاريخيـة مختلفـة وينـدرج كل منهـا ضمـن مجموعـة مـن المواقـع الأثريـة.

4. كل الوحـدات الأثريـة أو التقنيـات الفنيـة التـي تمتلـك قيمًـا تعـود لفتـرات تاريخيـة مختلفـة وينـدرج كل منهـا ضمـن مجموعـة مـن المواقـع الأثريـة.

5. المشـغولات الفنيـة ذات الهيئـة المحفوظـة فـي الوقـت الحالـي، والمسـتقلة أو الملحقـة بالمعمـار الأثـري.

6. المواقع الأثرية التي أُتلفت هيئتها جراء كارثة طبيعية كبرى وتمتلك قيمة بحثية.

7. المواقع الأثرية التي أُتلفت هيئتها جراء أحداث تاريخية كبرى وتمتلك قيمة تذكارية.

8. المواقع الأثرية التي لم يطرأ على بيئتها التاريخية تغير كبير.

وتتمثل الأثريات التي يجب استعادة مظهرها الأصلي في:

1. المواقـع الأثريـة التـي كانـت تتمتـع بمظهـر أصلـي قبـل انهيارهـا، دفنهـا، تشـويهها، أو تحولهـا لمنطقـة قاحلـة.

2. المواقع الأثرية التي كانت تتمتع بمظهر أصلي قبل تغير شكلها، أو تغير مكانها.

3، وجـود أي بقايـا أثريـة كافيـة لإثبـات أنهـا تمثـل الأجـزاء الأصليـة القليلـة المفقـودة مـن الموقـع الأثـري.

4. علـى الرغـم مـن عـدم وجـود بقايـا أثريـة، ولكـن مـن خـلال البحـوث العلميـة، ومقارنـة القطـع الأثريـة التـي تعـود للفتـرة نفسـها، يمكـن تحديـد بعـض الوحـدات الأثريـة الأصليـة لتمثـل الأجـزاء الأصليـة القليلـة المفقـودة أو التـي تـم تغييرهـا مـن قبـل.

5. مـن خـلال الحجـج التـي تثبـت تحديـد قيمـة الأجـزاء الأثريـة ومرجوعهـا التاريخـي، يمكـن إزالـة الأجـزاء التـي تمـت إضافتهـا فـي العصـور اللاحقـة مـن عصـر الموقـع الأثـري والتي لا تمتلـك أي قيمـة معينـة، وبعدهـا اسـتعادة الهيئـة التـي تعـود للفتـرة التاريخيـة المطلوبـة.

6. البيئة التاريخية التي يمكن أن تجسد القيمة الأثرية للموقع الأثري.[1]

ومـن الواضـح أن مسـتند "معاييـر حمايـة المواقـع الأثريـة فـي الصيـن" -والـذي يمثـل التوجيهـات والقوانيـن المعمـول بهـا فـي مجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن- يعكـس اندماجًـا بيـن مبـادئ حمايـة الأثريـات المعمـول بهـا فـي الصيـن، والمبـادئ الدوليـة لحمايـة الأثريـات فـي العصـر الحديـث والممثلـة فـي "ميثـاق فينيسـيا"، وقـد أصبـح هـذا الاندمـاج كذلـك قاعدة لتطـور مفهـوم حمايـة التـراث الثقافـي السـائد فـي الصيـن.

1- "مبادئ حماية المواقع الأثرية في الصين"، معهد جيتي الأمريكي لحماية الآثار، 2002م، صفحة 17.

الفصل الثاني

مباحثات حول قضية "الأصالة"

علي الرغم من أن قضية "الأصالة" تُعد قضية قديمة قدم الزمن في مجال حماية التراث الثقافي في أوربا، إلا أن هناك فارقًا كبيرًا عند المقارنة بين مفهوم الأصالة المادية الذي يؤكد عليه الغرب، ومفاهيم التغير والانتقال والنسبية التي تؤكد عليها فلسفة الشرق، فبالرغم من أنه في ما يخص مجال حماية الأثريات في الصين، يكمن تعبير مصطلح "الأصالة" في تقييم استعادة المعمار القديم، إلا أن الأصالة تُعتبر بمثابة تطبيق لمعيار التقييم، وبالمثل فإنها -أيضًا- تتلقى تأثيرًا من برنامج التراث العالمي المعمول به دوليًّا، ففي عام 1977م، طرحت الطبعة الأولى من "دليل العمل باتفاقية التراث العالمي" بوضوح أنه "يجب أن يمر المعلم التراثي خلال عملية تحقق من أصالته، وتشمل أصالة المادة المصنوع منها، وتقنيته الفنية، والبيئة التي يقع فيها، ولا تقتصر الأصالة في استعادة الشكل والتركيب فقط، بل تشمل كذلك التغيرات والإضافات التي لحقت بالمعلم التراثي في عصر لاحق له بعد تبلور قيمته الفنية والتاريخية"[1]، وفي عام 1985م، وبعد انضمام الصين لـ"اتفاقية التراث العالمي"، بدأت الصين عام 1987م بالمطالبة بإدراج بعض الأماكن الأثرية في الصين ضمن قائمة التراث العالمي، وعلى الرغم من الحاجة لإجراء تقييم لأصالة الموقع التراثي، إلا أنه باستثناء الرأي السائد القائل بعدم إدراج مشاريع إعادة البناء ضمن قائمة المطالبة، والذي لم يثر أي مناقشات موسعة أو معمقة في هذا الصدد، حتى أنه لم يظهر كاهتمام للأوساط العامة، فبالتالي لم تظهر قضية أصالة المشروع المطالب بإدراجة ضمن قائمة التراث العالمي إلا بمظهر القضية الشكلية وحسب، أما ما تسبب حقًّا في إثارة مباحثات ومناقشات حول قضية الأصالة في الصين فقد كان مؤتمر نارا الذي عقدته لجنة التراث العالمي عام 1994م لمراجعة كل ما يتعلق بمعيار الأصالة،

1- UNESCO， Operation Guiderline 1977， CC-77/CONF.001/8 Rev， p.3.

خاصة بعد تقديم "مستند الأصالة الخاص بمؤتمر نارا" ودخوله الصين، وبعد فترة التسعينيات استمرت كافة المباحثات حول قضية الأصالة في الاستناد إلى معرفة وفهم بنود "ميثاق فينيسيا"، وبسبب استمرار مستند "دليل العمل باتفاقية التراث العالمي" في العمل بمبادئه فقط حتى عام 2005م حين بدأ يعكس ما تناوله "مستند الأصالة الخاص بمؤتمر نارا"، لذا اهتمت الصين كذلك في مباحثاتها حول قضية الأصالة خلال تلك الفترة بالبقاء المادي فقط، ولم تتطرق إلى مباحثات "مستند الأصالة الخاص بمؤتمر نارا" ذي الإطار الثقافي المتكامل والموسع بشكل أكبر، ومما يستحق الذكر أن ترجمة كلمة "authenticity" إلى الصينية شهدت كذلك فروقات مثيرة للاهتمام، حيث استخدمت المصادر الرسمية كلمة "الأصالة"، بينما طرح بعض الباحثين ضرورة تتبع مصدر الكلمة في لغتها الأصلية، وعلى ذلك يجب أن تترجم إلى "الحقيقة الأصيلة"، وقد أدى ذلك إلى لجوء البعض إلى المعنى الحرفي للكلمة خلال مناقشة هذه القضية، مما أدى إلى ظهور مبدأ "الجوانب الأصيلة الأربعة". ففي عام 2005م، عبر "إعلان تشيو فو" -خلال مؤتمر الخبراء والحرفيين في مجال المعمار الأثري- بوضوح عما يعنيه هذا المبدأ، قائلاً: "يتمثل المعمار الأثرية القديم الذي يتخذ من الهيكل الخشبي أساسًا له في تلك التي صُنعت من الطوب، القراميد، الأحجار، الأخشاب، وغيرها من المواد البنائية الأخرى، وصُممت بعناية من قِبل حرفيين مهرة من العصور القديمة، وبُنيت بشكل عبقري، ونُفذت ديكوراتها بتركيز كبير، لتنقل إلينا صورة للجهد الكبير، والحكمة الهائلة في مجال البناء، كما أنها تتمتع بقيم علمية، وفنية، وتاريخية، ومن هنا، فإنه بالنسبة للمعمار الأثري المختلف، يتوجب العمل على ترميمها وفقًا لـ"الشكل الأصلي، ومواد البناء الأصلية، والهيكل الأصلي، والتقنية الفنية الأصلية الخاصة بها"، وذلك باستخدام طرق الترميم العلمية، لكي يظل ذلك المعمار يتمتع بقيمه العلمية، والفنية، والتاريخية، وطبقًا لمبدأ "عدم تغيير المظهر الأصلي" فلا يمكن اعتبار المعمار القديم المرمم بشكل علمي "آثارًا زائفة""، وتمثل وجهة النظر هذه الفكر الصيني، حيث تعكس في ذاتها الصراع القائم بين المفهوم الصيني التقليدي حول ترميم المعمار القديم، والمفهوم الحديث حول حماية الأثريات، مما أدى

بدوره إلى تشجيع إعادة بناء المعالم الأثرية بدرجة معينة.

ومما يلفت الانتباه أن المباحثات حول قضية الأصالة خلال هذه الفترة أدت إلى زيادة اهتمام الناس بقضية أصالة البقايا الأثرية المادية، كما رفعت من مستوى المباحثات حول فهم مبادئ "ميثاق فينيسيا" إلى المستوى النظري، وهذا بلا شك يملك مغزى مهمًّا في ما يخص تطوير المجال المتكامل لحماية الأثريات في الصين، خاصة بعد عام 2004م حينما تحول هذا المجال إلى مجال لحماية التراث الثقافي عامة.

وامتدت المباحثات حول قضية الأصالة لفترة، ففي عام 2007م، عُقد الحدث المهم في مدينة بكين وهو "المنتدى الدولي لمناطق شرق آسيا.. حماية المعمار الأثري بين الفكر والتطبيق"، وفي عام 2008م، استضافت بكين دورة الأولمبيات الصيفية، ولاستقبال هذا الحدث أقامت بكين أعمال إصلاح وبناء لبنية المدينة التحتية، وتضمنت هذه الأعمال -أيضًا- ترميم بعض المعمار الأثري وصيانته، خاصة القصر الإمبراطوري، والمعبد السماوي، والقصر الصيفي، وغيرها من مشروعات الصيانة لمعالم التراث العالمي في المدينة، وقد أثارت هذه الإصلاحات اهتمام لجنة التراث العالمي، ففي عام 2006م، طالبت الجمعية العمومية في قراراتها الحكومة الصينية بتقديم توضيح لهذه المشروعات، وطالبتها كذلك بعقد مؤتمر دولي في مجال حماية التراث الثقافي لإجراء المباحثات حول هذه المشروعات، وفي عام 2007م، عُقد هذا المؤتمر بالفعل على خلفية هذه المطالبات الدولية.

وخلال هذه الفترة دخلت المباحثات حول قضية الأصالة مرحلة جديدة، حيث تم إدراج محتوى "مستند الأصالة الخاص بمؤتمر نارا" كاملًا في طبعة عام 2005م لـ"دليل العمل باتفاقية التراث العالمي"، وهذا بالتالي يؤكد على أن أصالة الموقع الأثري تتضمن "الشكل والتصميم، مواد البناء والقطع الأثرية المادية، الاستخدام والوظيفة، التقليد والتقنية، الموضع والمناسبة، الروح والعاطفة، وغيرها من

العناصر الأخرى الداخلية أو الخارجية"[1]، وعلى أساس "مستند الأصالة الخاص بمؤتمر نارا" تم إضافة عنصر "اللغة وغيرها من الأشكال الأخرى للبقايا الأثرية غير المادية" كذلك، وفي واقع الأمر، تؤكد هذه التعبيرات على دمج برنامج التراث العالمي لمجالي حماية التراث المادي، وحماية التراث غير المادي، كما تؤكد على تحول برنامج التراث العالمي من التأكيد على حماية البقايا الأثرية المادية، إلى التأكيد على الحماية المتكاملة للثقافة التقليدية التي تجسد التعدد الثقافي، وخلال "المنتدى الدولي لمناطق شرق آسيا.. حماية المعمار الأثري بين الفكر والتطبيق" لاقى هذا الفهم لقضية الأصالة مزيدًا من المباحثات والإثباتات التطبيقية، وفي نهاية المنتدى تم اعتماد "مستند بكين" القائل: "إن المعمار والأطلال الأثرية تُعد في ذاتها مصدرًا معلوماتيًّا يحتوي على أهمية أساسية تتجسد في العديد من العناصر كالشكل والتصميم، ومواد البناء والقطع الأثرية المادية، والاستخدام والوظيفة، والموضع والبيئة، ومنظومة المعرفة التقليدية، والتقاليد الشفهية والفنون، والروح والعاطفة، وغيرها من العناصر الأخرى، ويجب أن يتمثل هدف أي عمليات صيانة وترميم في الحفاظ على أصالة مصادر المعلومات هذه دون أي ضرر، وفي ظل توافر الظروف الممكنة، يجب تقديم الاحترام اللازم للطرق التقليدية المستمرة دون انقطاع"[2]، كما أكد المستند على أنه "تنبع السمات الأساسية للتراث الثقافي من تنوع قوى الإبداع البشرية، ويتجسد التنوع الثقافي في غزارة الأرواح والأفكار البشرية، كما أنه يمثل جزءًا مكونًا لاستقلالية التراث الإنساني، ومن هنا، يُعد الاستقصاء عن أصالة المعالم الأثرية أمرًا بالغ الأهمية، وخلال عملية الترميم والصيانة ينبغي توافر الوعي الكامل بخصائص الموارد التراثية للمعلم الأثري، كما ينبغي حفظ السمات التاريخية الشكلية وغير الشكلية له"[3]، ويُعتبر "المنتدى الدولي لمناطق شرق آسيا.. حماية المعمار الأثري بين الفكر والتطبيق" استرجاعًا لطرق حماية الأثريات في مناطق شرق آسيا والممثلة في طرق حماية المعمار الصيني التقليدي ذي الهيكل الخشبي، بما يتضمن معالجة القضايا على كافة

1- الهيئة الصينية الوطنية للآثار وغيرها: "مختارات من مستند الحماية الدولية للتراث الثقافي"، دار الأثريات للنشر، 2007م، صفحة 280.

2- الهيئة الصينية الوطنية للآثار وغيرها: "مختارات من مستند الحماية الدولية للتراث الثقافي"، دار الأثريات للنشر، 2007م، صفحة 383.

3- الكتاب السابق، صفحة 382.

المستويات الخاصة بمفهوم الحماية وصولًا إلى تقنيات الحماية، مما دفع من مفهوم الحماية من منظور الأصالة، خاصة حماية كافة الأهداف التي نطمح إليها، وحماية الفكر الفعال، كما عبر المنتدى عن أنه في ظل ظروف المجتمع المعاصر، خاصة في ظل التنمية الهائلة لكافة أنواع الوسائل التكنولوجية، يجب علينا تحقيق الاندماج الحقيقي والوثيق بين التقنيات التقليدية لحماية الأصالة -والتي يجب أن تكون بارزة- والتقنيات المعاصرة، وعلى أساس هذا المنتدى، عقدت الصين مرة أخرى عام 2008م مؤتمرًا دوليًّا خاصًّا لحماية الرسومات الأثرية الملونة، وتم التباحث فيه حول قضية حماية الرسومات الملونة على جدران المعمار القديم في ظل الثقافة الاجتماعية المعاصرة، وعلى أساس التقنيات المعاصرة.

الفصل الثالث

التأثيرات المتعلقة بتطور أنواع التراث العالمي

عُقدت الدورة الثامنة والعشرون من مؤتمر الجمعية العمومية للجنة التراث العالمي عام 2004م في مدينة سوجوو الصينية، واستمرت وسائل الإعلام بتقديم تقارير إخبارية كثيرة خاصة بالمؤتمر، كما أثارت المعروضات والمنشورات في المؤتمر والمتعلقة بالتراث العالمي اهتمامًا واسعًا من المجتمع تجاه قضية التراث العالمي، وفي الوقت نفسه، أدركت الأوساط الصينية الخاصة بحماية الأثريات الفروق بين مجال حماية الأثريات، ومجال حماية التراث الثقافي المنبثق من برنامج التراث العالمي، خاصة العديد من القضايا التي تستحق التفكر فيها مثل أنواع التراث العالمي، وطرق المطالبة بإدراج المواقع الأثرية ضمن قائمة التراث العالمي، وقضية الأصالة، وقضية التعبير عن التكاملية في المعالم التراثية، وغيرها من القضايا.

ومنذ عام 2006م، بدأت كل من الهيئة الصينية الوطنية للآثار والحكومة المحلية لمدينة أوشي الصينية عقد دورة واحدة سنويًا لـ"منتدى أوشي لحماية التراث الثقافي في الصين"، وذلك لإجراء المباحثات حول أنواع الصيانة والترميم الجديدة الخاصة بحماية التراث العالمي، وإدخال كافة المفاهيم، والنظريات، والطرق الخاصة بمجال حماية الأثريات للصين، وفي واقع الأمر، يُعد هذا المنتدى كذلك علامة مهمة تمثل قفزة مجال حماية الأثريات في الصين إلى حماية التراث الثقافي، وقد تمثل موضوع الدورة الأولى لمنتدى أوشي عام 2006م في حماية التراث الصناعي، وفي دورته الثانية عام 2007م تمثل موضوعه في حماية العمارة الريفية[1]، وفي دورته الثالثة عام 2008م تمثل موضوعه في حماية التراث المعماري التابع للقرن العشرين، وفي الدورة الرابعة للمنتدى عام 2009م تمثل

1- المعمار العامي: مصطلح يُعبر عن المساكن العامة التي يبنيها عامة الناس (وليس مهندسون متخصصون) باستخدام الموارد المحلية المتاحة، وقد رفض البعض تسميتها بمعالم تراثية، إلا أن البعض الآخر يوافق على هذا باعتبارها تعكس الظروف البيئية والثقافية والتاريخية للوقت الذي أُنشئت فيه. (المترجِمة)

موضوعـه فـي حمايـة التـراث الخـاص بالمسـارات الثقافيـة، وفـي الـدورة الخامسـة للمنتـدى عـام 2010م تمثـل موضوعـه فـي حمايـة المشـاهد الثقافيـة، وتمثـل موضـوع الـدورة السادسـة للمنتـدى عـام 2011م فـي حمايـة تـراث القنـاة الكبـرى، أمـا الـدورة السـابعة عـام 2012م فتمثـل موضوعهـا فـي مـرور 14 عامًـا علـى اعتمـاد "اتفاقيـة التـراث العالمـي 1972م": "التـراث العالمـي.. تنميـة مسـتمرة".

وقـد أثـرت مباحثـات منتـدى أوشـي حـول أنـواع التـراث مباشـرة علـى تنميـة مجـال حمايـة التـراث الثقافـي فـي الصيـن، فعلـى سـبيل المثـال أثـرت مباحثـات المنتـدى عـام 2006م حـول حمايـة التـراث الصناعـي إيجابيًّـا علـى دخـول التنميـة الصناعيـة فـي الصيـن مرحلـة التعديـل الهيكلـي والتحديـث الصناعـي، وأثـارت قضيـة حمايـة التـراث الصناعـي واسـتغلاله اهتمـام مجموعـة مـن المـدن التـي تمتلـك عـددًا كبيـرًا مـن المعمـار الصناعـي تجـاه هـذه القضيـة، واعتُبـر مجـال حمايـة التـراث الصناعـي واسـتغلاله قـوة محركـة للتنميـة الجديـدة فـي المـدن، واعتبـرت كافـة المقاطعـات -مـن مقاطعـة قوانغدونـغ فـي الجنـوب، حتـى مقاطعـة خيـي لونغجيانـغ فـي الشـمال- حمايـة التـراث الصناعـي واسـتغلاله قضيـة مهمـة لتنميـة المـدن تحتـاج لإجـراء المباحثـات حولهـا، وظهـرت العديـد مـن الحـالات المهمـة لمواقـع التـراث الصناعـي التـي تحتـاج لحمايـة واسـتغلال جيـد لهـا، بدايـة مـن مصانـع الخمـور فـي مدينـة تشـينغداو، وحتـى مصانـع المعكرونـة فـي مدينـة أوشـي، ومـن مذابـح الماشـية فـي مدينـة شـنغهاي، حتـى مصانـع سـبك المعـادن فـي مدينـة شـينيانغ، وغيرهـا، وقـد دفعـت صيانـة مصنـع جيانغيـان لتصنيـع السـفن فـي مدينـة شـنغهاي مـن اسـتغلال معـرض إكسـبو العالمـي 2010 فـي شـنغهاي للمنشـآت الصناعيـة الخاصـة بهـذا المصنـع فـي أعمـال المعـرض، أمـا المنشـآت الصناعيـة التابعـة لخمسـينيات القـرن العشـرين فـي مدينـة بكيـن مثـل مصانـع "798" فـي منطقـة الفنـون (DAD: Dashanzi Art District) ببكيـن فقـد تـم اسـتغلالها لتحفيـز التنميـة السـريعة للفنـون المعاصـرة فـي الصيـن والدفـع بهـا، وقـد عملـت صيانـة التـراث الصناعـي علـى تحفيـز اهتمـام وفكـر العامليـن فـي مجـال حمايـة التـراث الثقافـي فـي الصيـن فـي مـا يخـص قضيـة اسـتغلال التـراث، فبسـبب أنظمـة الدولـة، وعلـى الرغـم ممـا ينـص عليـه محتـوى القانـون الصينـي لحمايـة الأثريـات

مـن الاسـتغلال المعقـول للأثريـات، إلا أن الحمايـة تؤكـد بشـكل أكبـر علـى اسـتمرار الاسـتثمار الحكومـي فـي مجـال الأثريـات، وقـد أدى هـذا بدرجـة معينـة إلـى ظهـور قضيـة الفصـل بيـن مجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن والمتطلبـات الاجتماعيـة، أمـا الحـالات الكثيـرة التـي ظهرت فـي مجـال حمايـة التـراث الصناعـي والتـي تعنـي بالاسـتغلال الفعـال والمعقـول للمنشـآت الأثريـة فقـد دفعـت بـلا شـك بالمزيـد مـن المباحثـات حـول قضيـة الاسـتغلال الجيـد فـي مجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن، وقـد وصلـت هـذه المباحثـات إلـى ذروتهـا عـام 2013م.

ولطالمـا كانـت قضيـة حمايـة التـراث المعمـاري العامـي فـي الصيـن تـؤرق الكثيريـن، فمنـذ زمـن طويـل كانـت تؤكـد منظومـة حمايـة الأثريـات فـي الصيـن -والتـي تتخـذ مـن الدولـة والحكومـات المحليـة قائدَيـن لهـا- علـى مبـدأ الملكيـة العامـة، واعتـادت مـن خـلال الشـراء وغيـره مـن الوسـائل أن تضـم المعمـار الأثـري وتحولـه لمتاحـف أو مـزارات عامـة مفتوحـة للسـياح، إلا أنـه بالنسـبة للكـم الكبيـر الموجـود مـن المعمـار الأثـري العامـي فتبـدو هـذه الوسـيلة غيـر مناسـبة، حيـث إن هنـاك العديـد مـن القضايـا التـي يجـب علـى مجـال حمايـة التـراث المعمـاري العامـي أن يواجههـا ويحلهـا، مثـل: كيفيـة الاهتمـام بشـكل كامـل بمتطلبـات اسـتخدام الفلاحيـن لهـذا المعمـار، وكيفيـة وضـع الظـروف المعيشـية للفلاحيـن وتحسـينها فـي عيـن الاعتبـار، وكيفيـة الدفـع بالتنميـة الاجتماعيـة فـي القـرى، ومـن ناحيـة أخـرى، هنـاك كذلـك العديـد مـن القضايـا التـي تثيـر جـدلًا واسـعًا بشـكل دائـم فـي مجـال حمايـة الأثريـات، منهـا علـى سـبيل المثـال العلاقـة التـي تربـط بيـن التـراث المعمـاري العامـي ومـا يجسـده مـن معتقـدات تقليديـة، وبيئـة ريفيـة طبيعيـة، وطـرق الاسـتغلال المسـتدامة لمـورد الأراضـي، وتقـوم المباحثـات فـي هـذا الصـدد فـي أساسـها علـى التمييـز بيـن مجـال حمايـة الأثريـات، ومجـال حمايـة التـراث الثقافـي، وقـد عمـل تقديـم الكـم الهائـل للحـالات المطبقـة علـى تنشـيط المباحثـات حـول هـذه القضايـا، ممـا دفـع بالتفكـر فـي العلاقـة بيـن حمايـة الأثريـات والتنميـة الاجتماعيـة، كمـا دفـع بتبلـور التعبيـرات المتعلقـة بهـذه القضايـا فـي نسـخة مسـتند "معاييـر حمايـة المواقـع الأثريـة فـي الصيـن" المنقحـة عـام 2015م.

وقد دفع مجال حماية التراث المعماري التابع للقرن العشرين بالمباحثات حول إدراك قيمة الصيانة التقنية، وقيمة حماية التراث، وبالنسبة لدولة الصين ذات التقاليد الثقافية والتاريخ العتيقين والمستمرين دائمًا منذ زمن بعيد، فهي تؤكد دومًا على حماية المعمار القديم، خاصة المعمار ذو الهيكل الخشبي، وعلى الرغم من أنه في خمسينيات القرن العشرين بدأ طرح قضية حماية المعمار التابع للعصرين الحديث والمعاصر، لكن -وبسبب تأثير المفاهيم السياسية- فإن أغلب المعمار المتعلق بالحراك الثوري في العصرين الحديث والمعاصر في الصين (ويُعرف بالمعمار التذكاري)، والذي لاقى اهتمامًا في ما يخص قضايا حماية الأثريات، قد صُنف بعضه -والذي تعكس تقنية معمارية جديدة، وذوقًا جماليًّا فريدًا- كنتاج للعدوان الاستعماري، أو لم يستطع بعضه أن يتلقى الحماية والصيانة اللازمة لكونها أبنية متعلقة ببعض الائتلافات ذات رؤوس المال الكبيرة، ولهذا، استحدثت بعض الحكومات المحلية إجراءات حماية لهذا النوع من الأبنية، مثل وضع مخطط "حماية المعمار المميز التابع للعصرين الحديث والمعاصر"، وغيرها من الإجراءات، وفي عام 1990م، عندما أعلنت مدينة بكين الدفعة الرابعة من الوحدات الأثرية المحمية التي ترقى لمستوى البلديات، تم إدراج "منطقة بحيرة ويمين التابعة لجامعة يين تشينغ" -والتي تستخدمها جامعة بكين- ضمن قائمة الوحدات المحمية، مما لاقى معارضة كبيرة من بعض الأساتذة بالجامعة، وبالنسبة لاسم القائمة التي تضم الدفعة الخامسة لأهم الوحدات الأثرية المحمية على مستوى الصين -والمتمثلة في الأبنية المشابهة الواقعة في المنطقة نفسها- فقد تغير اسمها ليصبح "مجموعة أبنية منطقة بحيرة ويمين في حرم جامعة يين تشينغ"، ولا يزال الجدل في ما يخص حماية العديد من المعمار الأثري التابع للعصرين الحديث والمعاصر قائمًا بشكل دائم، وقبل عام 1996م، أُطلق على هذا النوع من الأبنية الأثرية اسم "المواقع الثورية وأبنية الأنصاب التذكارية"، أما في عام 1996م، وبعد إعلان القائمة التي تضم الدفعة الرابعة من أهم الوحدات الأثرية المحمية على مستوى الصين، فقد أُطلق على هذا النوع من الأبنية الأثرية اسم "المواقع التاريخية المهمة التابعة للعصرين الحديث والمعاصر، والأبنية التمثيلية".

وخلال منتدى أوشي عام 2008م، لم تكن المباحثات حول التراث المعماري العالمي التابع للقرن العشرين متمثلة في قضية تقنية صيانة ذلك التراث من منظور الحماية وحسب، بل كان الأهم شرح الأحوال البحثية لتاريخ المعمار التابع للعصرين الحديث والمعاصر في الصين، وكذلك الأبحاث التاريخية لأحوال المعمار التابع للقرن العشرين، مما يؤكد على فهم قيمة ذلك التراث من منظور الفن المعماري والتقنية المعمارية، وفي الوقت نفسه، تناولت المباحثات كذلك المغزى من تواصل المهام الأصلية لبرنامج التراث المعماري التابع للقرن العشرين في حماية المعمار، ولا شك أنه كان لهذه المباحثات أهمية كبرى في إدراك قيمة حماية التراث والتي تكمن في حمايته الفعلية، واستغلال كافة جوانبه بشكل جيد، وبالنظر لجوهر الحماية نجد أنها تبدأ من حماية البقايا المادية للموقع الأثري، حتى حماية كافة القيم الداخلية التي يعسكها الموقع من قيم ثقافية، واجتماعية، ويدل هذا على التحول من إدراك القيم المفردة، إلى إدراك القيم المركبة، والتحول من حماية الأثريات، إلى حماية التراث الثقافي، والتحول من حماية البقايا المادية فقط، إلى الاهتمام بشكل مساوٍ بكل من الحماية، والاستغلال الجيد.

وفي ما يتعلق بمباحثات عام 2009م حول التراث الخاص بالمسارات الثقافية، فقد أجريت على خلفية دفع الهيئة الصينية الوطنية للآثار للمطالبة بإدراج طريق الحرير ضمن قائمة التراث العالمي. ففي ذلك الوقت، أوكلت الهيئة أمر إجراء البحوث النظامية حول التراث الخاص بالمسارات الثقافية الدولية للمؤسسات المختصة، وفي الوقت نفسه، أُجريت هذه المباحثات على أساس الدراسات المتخصصة المجراة حول القيم الأساسية لطريق الحرير، حيث يكمن هدف هذه المباحثات في دفع جميع الحكومات المحلية، والمؤسسات والخبراء المشاركين في أعمال المطالبة بإدراج طريق الحرير ضمن قائمة التراث العالمي لفهم كل القيم التي تعكسها المعالم التراثية للمسارات الثقافية بصورة أوضح، وكذلك فهم طرق ومسارات اختيار عناصر المعالم التراثية المعنية، والمطالبة بإداراجها في قائمة التراث العالمي، وحمايتها، كما تناولت المباحثات كذلك قضايا المسارات الثقافية الأخرى المحتملة في الصين، وفي ما يتعلق بمباحثات منتدى أوشي عام 2009م

حـول المعالـم التراثيـة للمسـارات الثقافيـة، وإدراج طريـق الحريـر ضمـن قائمـة التـراث العالمـي عـام 2014م، فقـد دفـع كلا الأمريـن بشـكل كبيـر مـن فهـم الصيـن لمفهـوم تـراث المسـارات الثقافيـة، وكذلـك دفعـا مـن المباحثـات المسـتقبلية حـول طريـق حريـر "سيتشـوان-الهنـد"، و"طريـق خيـول الشـاي القديـم"، و"طريـق الشـاي القديـم"، و"المسـيرة الطويلـة للمسـارات الثقافيـة"، وبسـبب مـا أثارتـه المسـارات الثقافيـة مـن اهتمـام مشـترك للعديـد مـن الحكومـات المحليـة والمؤسسـات المتخصصـة لحمايـة هـدف واحـد مشـترك، فقـد تجـاوزت أهميتهـا كثيـرًا مبـدأ الحمايـة نفسـه، لتعـدل مـن المنظومـة الصينيـة لحمايـة التـراث الثقافـي، وتجعلهـا تتمتـع بتأثيـر عميـق للغايـة.

وتـدل مباحثـات منتـدى أوشـي عـام 2010م حـول المشـاهد الثقافيـة علـى القفـزة المهمـة لفهـم الصيـن قيمـة حمايـة التـراث الثقافـي، وبالمثـل، فـإن تلـك المباحثـات قـد عُقـدت علـى أسـاس الأعمـال التحضيريـة التـي اسـتمرت سـنوات عديـدة للمطالبـة بـإدراج الحقـول المدرَّجـة التابعـة لقوميـة هـا نـي بمدينـة خونـغ خـه فـي مقاطعـة يوننـان ضمـن قائمـة التـراث العالمـي، وفـي الوقـت نفسـه، عُقـدت تلـك المباحثـات كذلـك علـى خلفيـة إدراج منطقـة جبـل أوتـاي عـام 2009م ضمـن قائمـة التـراث الثقافـي العالمـي كنـوع مـن أنـواع المشـاهد الثقافيـة، وأيضًـا علـى خلفيـة التحضيـر للمبـادرة مـرة أخـرى عـام 2011م بالمطالبـة بـإدراج منطقـة البحيـرة الغربيـة بمدينـة خانغجـوو ضمـن قائمـة التـراث العالمـي كنـوع مـن أنـواع المشـاهد الثقافيـة، وقـد قـدم المنتـدى توضيحًـا لخصائـص المشـاهد الثقافيـة مـن حيث طبيعتهـا، وأنواعهـا، وقيمتهـا، وقـدم تحليـلاً للمشـاهد الثقافيـة المدرجـة بالفعـل ضمـن قائمـة التـراث العالمـي، وقـد كان لهـذه المباحثـات أثـرًا مهمًّـا علـى مجـال حمايـة المشـاهدة الثقافية فـي الصيـن، حيـث بـدأ العاملـون فـي مجـال حمايـة العديـد مـن الواحـدات الأثريـة بالاهتمـام بقيمـة المشـاهد التراثيـة، والأهـم مـن ذلـك كان اعتمـاد الهيئـة الصينيـة الوطنيـة للآثـار عـام 2010م رسـميًّا تدشـين أعمـال تنقيـح نسـخة عـام 2000م مـن مسـتند "معاييـر حمايـة المواقـع الأثريـة فـي الصيـن"، لتشـمل المشـاهد الثقافيـة، خاصـة بعدمـا قدمتـه المباحثـات حـول قضيـة المسـارات الثقافيـة مـن دعـم كبيـر لفهـم "القيمـة الثقافيـة" وضبطهـا، لتصبـح النسـخة المنقحـة مـن مسـتند "معاييـر حمايـة المواقـع الأثريـة فـي الصيـن" تحمـل أهـم

محتوى في نُسخها كافة.

وفـي مـا يخـص مباحثـات منتـدى أوشـي عـام 2011م حول تـراث القنـاة الكبرى، فقـد عُقدت كذلـك علـى خلفيـة الفتـرة الأساسـية التـي طُولـب فيهـا بـإدراج القنـاة الكبـرى ضمـن قائمـة التـراث العالمـي، وهـي كذلـك الفتـرة التـي أُثيـر فيهـا اهتمـام واسـع مـن كافـة المؤسسـات الحكوميـة للمناطـق علـى طـول القنـاة الكبـرى، وقـد أُدرجـت القنـاة الكبـرى (خانغجـوو- بكيـن) عـام 2006م كمعمـار قديـم ضمـن قائمـة الدفعـة السادسـة لأهـم الواحـدات الأثريـة المحميـة علـى مسـتوى الصيـن، فهـي ظاهـرة تسـتحق التباحـث حولهـا بجـدارة، فهـي مـن جانـب تعكـس اهتمـام الأوسـاط الصينيـة العاملـة علـى حمايـة التـراث الثقافـي (أو حمايـة الأثريـات) تجـاه الحمايـة المتكاملـة للقنـاة الكبـرى، ومـن جانـب آخـر تعكـس اهتمـام تلـك الأوسـاط كذلـك بمـا تجلبـه طبيعتهـا وحمايتهـا المتكاملـة مـن صعـاب وحيـرة كبيـرة، وبالمثـل، تؤثـر هـذه الحيـرة -بمـا لا يخفـى علـى أحـد- علـى الحكـم علـى قيمـة القنـاة الكبـرى كتـراث عالمـي، كمـا تؤثـر علـى وضـع طـرق الحمايـة والصيانـة لهـا، ومـن هنـا، أجـرت المؤسسـات البحثيـة المـوكل إليهـا الأمـر مباحثـات وتحقيقـات حـول هـذه القضايـا المتعلقـة بدراسـة قيمـة القنـاة الكبـرى كتـراث عالمـي، وقـد نالـت هـذه المناقشـات والتحقيقـات مزيـدًا مـن التعمـق خـلال منتـدى أوشـي، كمـا دفعـت هـذه المباحثـات مـن فهـم مـا تمثلـه القنـاة الكبـرى مـن نـوع فريـد للتـراث يُدعـى بـ"التـراث الحـي"، ممـا يؤثـر بالتالـي علـى إدراك القيمـة الوظيفيـة الأصليـة لهـذا النـوع مـن التـراث.

وفـي مـا يخـص مباحثـات منتـدى أوشـي عـام 2012م حـول التـراث العالمـي وتنميتـه المسـتدامة، فهـي فـي واقـع الأمـر تمثـل اسـتمرارًا وامتـدادًا للمباحثـات المتراكمـة حـول واجـب الدمـج بيـن حمايـة التـراث الثقافـي مـن جهـة، والتنميـة الاجتماعيـة، وبنـاء المـدن والقـرى، وتحسـين مسـتوى معيشـة الشـعب مـن جهـة أخـرى، وقـد تطابقـت هـذه المباحثـات بالكامـل مـع اسـتراتيجية اليونسـكو متوسـطة الأجـل، حيـث تحـول برنامـج حمايـة المنظمـة للتـراث العالمـي مـن الشـواهد المهمـة للمشـغولات الفنيـة العظيمـة، والتاريـخ الإنسـاني، إلـى الدفـع بالحـوار الثقافـي، والبنـاء، وتخفيـف حـدة الفقـر، وقـد

دخل مجال حماية التراث الثقافي في الصين بشكل عام خلال هذه الفترة في التيار الرئيس للحراك الدولي لحماية التراث الثقافي، كما أنه -بمرور الوقت- لعب دورًا مهمًّا في هذا الصدد.

وفي عام 2012م، عدلت الهيئة الصينية الوطنية للآثار القائمة التحضيرية للأماكن الأثرية المطالب بإدراجها ضمن قائمة التراث العالمي. فبالتفكير في حماس كافة الأماكن للمطالبة باعتمادها كتراث عالمي، طرحت الهيئة -أثناء عملية تحضير قائمة المطالبة- خطة إدارية لتطبيق ما نصَّ عليه إعلان مطالبة تلك الأماكن، وتوفير الحماية اللازمة لها، ومن ثم، عملت الأمانة العامة لجمعية حماية المواقع الأثرية في الصين على إجراء تصفية أولية لمحتويات قائمة المطالبة، بعدها أجرى الخبراء الفحوصات والدراسات اللازمة، وتم إرسال الخبراء لإجراء زيارات تفتيشية للمواقع الأثرية، لتقديم تقرير عما عملوا على تفتيشه هناك، وفي النهاية تقوم لجنة الخبراء من خلال التصويت باختيار المشروعات التي ستُدرج في القائمة التحضيرية، وقد استندت هذه الخطوات على خطوات البرنامج الرسمي للمطالبة بالإدراج ضمن قائمة التراث العالمي، مما رفع من المستوى الكلي للمشروعات المضافة في القائمة التحضيرية، وأثار –أيضًا- اهتمام الحكومات المحلية تجاه هذا العمل، وتعكس لنا القائمة التحضيرية المحددة في النهاية إدراك الصين لأهمية حماية التراث الثقافي، وتشمل المشروعات المضافة للقائمة التحضيرية ما يلي: منطقة محور الوسط في بكين، القناة الكبرى (أُدرجت عام 2014م ضمن قائمة التراث العالمي)، المصنع الصيني الأثري لإنتاج النبيذ الأبيض، الأبنية ذات الهيكل الخشبي التابعة لعهد أسرة لياو الملكية، مجموعة أبنية قوانشنغ الثقافية، مجموعة مساكن شانشان القديمة، صخرة يانشان المنحوتة، أطلال المدن القديمة ومقابر القدماء التابعة لعهد أسرة لياو الملكية، أطلال خونغشان الثقافية، جدران المدن الصينية التابعة لعهد أسرتي مينغ وتشينغ الملكيتين، الأطلال القديمة لمقر الفرقة 731 التابعة للجيش الياباني أثناء فترة غزوه الصين، أطلال المدن القديمة التابعة لعهد أسرة جين الملكية، منطقة البحيرة الغربية الرشيقة بمدينة يانغجوو والمشاهد الثقافية بحديقة يانشانغ (أُدرجت مع القناة الكبرى ضمن قائمة التراث العالمي

عـام 2014م)، مجموعـة معابـد خويشـان القديمـة بمدينـة أوشـي، قريـة شويشـانغ القديمـة بمدينـة جيانغنـان، طريـق الحريـر (أُدرج عـام 2014م ضمـن قائمـة التـراث العالمـي)، طريـق الحريـر البحـري، أطـلال ليانغجـو القديمـة، أطـلال أفـران الخـزف الأخضـر المصقـل، الجسـر الخشـبي الواصـل بيـن مقاطعتـي فوجيـان وجـه جيانـغ، جزيـرة كولانغسـو (Kulangsu)، منطقـة الممـرات الثلاثـة والأزقـة السـبعة بمدينـة فوجـوو، البنـاء ذا الطـوب الأحمـر جنـوب مقاطعـة فوجيـان، مجموعـة المسـاكن الدائريـة جنـوب مدينـة قانجـوو بمقاطعـة جيانغشـي، مقبـرة الإمبراطـور جـو إي ليـو التابعـة لمجموعـة المقابـر الملكيـة فـي عهـد أسـرتي مينـغ وتشـينغ الملكيتيـن، المواقـع التراثيـة الخاصـة بالتعديـن والتصنيـع بمدينـة خوانـغ شـه، مواقـع تـو سـه الأثريـة (أُدرجـت عـام 2015م ضمـن قائمـة التـراث العالمـي)، منطقـة العنقـاء ذات منظومـة الدفـاع الإقليمـي، مجموعـة القـرى التابعـة لقوميـة دونـغ الصينيـة، أطـلال مملكـة نانيويـه القديمـة، قنـاة لينغتشـيو المائيـة، المشـاهد الثقافيـة للوحـات خواشـان الحجريـة (أُدرجـت عـام 2016م ضمـن قائمـة التـراث العالمـي)، جسـر طيـور الكركـي البيضـاء ذات النقـوش الحجريـة، أطـلال جزيـرة صيـد الأسـماك بمدينـة تشـونغتشـينغ، طريـق سيتشـوان (أو طريـق الثـور الذهبـي بمدينـة قوانغيـوان)، أطـلال الحضـارة الصينيـة القديمـة فـي مقاطعـة سيتشـوان ومدينـة تشـونغتشـيغ وغيرهـا مـن المناطـق، أبـراج المراقبـة والقـرى التابعـة لقوميـة التبـت وقوميـة تشـيانغ، القـرى التابعـة لقوميـة ميـاو، أطـلال منجـم الزئبـق بقريـة وانشـان، الحقـول المدرَّجـة التابعـة لقوميـة هـا نـي بمدينـة خونـغ خـه فـي مقاطعـة يوننـان (أُدرجـت عـام 2013م ضمـن قائمـة التـراث العالمـي)، حديقـة الشـاي القديمـة بقريـة وانشـان فـي مدينـة بـو أر بمقاطعـة يوننـان، حقـول الملـح القديمـة بقريـة يانجينـغ الواقعـة فـي مدينـة مانغكانـغ بمنطقـة التبـت، أطـلال مدينـة تونغـوان القديمـة (مدينـة الاتحـاد) بمدينـة يوليـن بمقاطعـة شانشـي حاليًـا، المقابـر التابعـة لعهـد أسـرة شـيا الغربيـة، بئـر كاريـز، منطقـة معابـد جـه ليـان بهونـغ كونـغ، وحدائـق نانليـان بهونـغ كونـغ أيضًـا، وتتمتـع هـذه المشـروعات بتعدد كبيـر فـي أنواعهـا، وتعبـر قيمتهـا عـن العديـد مـن المعانـي المهمـة تاريخيًّـا، وفنيًّـا، وعلميًّـا، وثقافيًّـا، واجتماعيًّـا.

وقـد دفـع برنامـج حمايـة التـراث العالمـي بفهـم وإدراك أنـواع المعالـم التراثيـة

التـي تتطلـب الحمايـة، كمـا دفـع بامتـداد مجـال حمايـة التـراث مـن اهتمامـه بالناحيـة التاريخيـة فقـط، إلـى الاهتمـام كذلـك بالحيـاة العصريـة، ومـن الاهتمـام بالمشـغولات الفنيـة والشـواهد التاريخيـة فقـط، إلـى الاهتمـام –أيضًـا- بالمواقـع الأثريـة التـي تعكـس تنوعًـا ثقافيًّـا فـي ذاتهـا، ومـن الاهتمـام بالمعمـار الإنسـاني فقـط، إلـى الاهتمـام كذلـك بالبيئـة الطبيعيـة التـي منحتهـا الثقافـة طابعًـا خاصًّـا، وقـد أدى هـذا التغيـر -بدرجـة معينـة- إلـى تجـاوز عـدد الأثريـات غيـر القابلـة للنقـل والمحـددة بعـد إجـراء المسـح العـام الثالـث للأثريـات فـي الصيـن والمعلـن عنهـا عـام 2011م عـدد 760 ألـف موقـع أثـري (766722 موقـع)، لتمثـل مـا يقـارب ضعـف عـدد الأثريـات المعلـن عنهـا عـام 1980م بعـد إجـراء المسـح العـام الثانـي للأثريـات فـي الصيـن.

الفصل الرابع

التنمية المستدامة لمجال حماية الأثريات من حماية المشغولات الفنية والشواهد التاريخية إلى الاهتمام بالمجتمع

دائمًا ما يؤكد مجال حماية الأثريات في الصين على حماية المشغولات الفنية القديمة، والشواهد التاريخية، ففي سياق حماية الأثريات يكون التأكيد على ما تحتويه الآثار المحمية من قيم تاريخية، وفنية، وعلمية، خاصة التأكيد على ما تحتويه تلك القيم من معلومات تاريخية، وكذلك التأكيد على ما تمتلكه الآثار المحمية من قيم للشواهد التاريخية، حيث إنها تمثل "بقايا مادية تعكس لنا النظم الاجتماعية، والنتاج الاجتماعي، والحياة الاجتماعية لمختلف العصور"[1]، ومن بين تلك الآثار نجد المعمار التاريخي الذي يمثل بشكل أكبر "الجزء المكون الأكثر أهمية من بين البقايا الأثرية المادية للعصور القديمة التي تبلور حكمة الشعب العامل، فهي في البداية تعكس لنا مختلف الفترات التاريخية للعصور القديمة، ومستوى تطور التقنية المعمارية والفن المعماري لمختلف المناطق، ومختلف القوميات، وفي الوقت نفسه، تعكس -أيضًا- -من جانب واحد- بعض الأحوال الثقافية، والسياسية، والاقتصادية لأماكن محددة في أزمنة محددة، وبالتالي، فإن من أهم أهداف حماية المعمار القديم وصيانتها هو اعتبارها دليلًا ماديًّا مهمًّا وعلمًا مستقلًا لدراسة التاريخ، بما يشمل تاريخ التطور الاجتماعي، وتاريخ التقنيات العلمية، وتاريخ المعمار التاريخي نفسه، وباعتبار كافة قيم الشواهد التاريخية المذكورة قيمًا تاريخية كذلك"[2]. فالمعمار التاريخي "يُعتبر بقايا مادية تعمل على إلهاب روح الحماسة الوطنية والثقة الوطنية"[3]، وتُعتبر -أيضًا- "أمثلة

1- "اللائحة المؤقتة لإدارة حماية الأثريات" 1961م، "مختارات من القانون الجديد لحماية الأثريات في الصين"، دار الأثريات للنشر، 1987م، صفحة 44.

2- تشي ينغ تاو: "احترام التقنيات التقليدية ودراستها" (1982)، مقتطفات لتشي ينغ تاو حول المعمار القديم"، دار خواشيا للنشر، 1992م، صفحة 137.

3- لوه جه وين: "لماذا يجب حماية المعمار القديم؟" (1980)، "مقتطفات للوه جه وين حول المعمار القديم"، دار الأثريات للنشر، 1998م، صفحة 213.

مادية لدراسة التاريخ (بما يشمل تاريخ التطور الاجتماعي، وتاريخ التقنيات العلمية، وتاريخ التطور المعماري)"[1]، و"مرجعًا مهمًّا للتصاميم المعمارية والابتكارات الفنية الحديثة"[2]، و"مكانًا لتلقي الثقافة والاستجمام، وقاعدة مادية مهمة للشؤون السياحية"[3]، ويُعد فهم هذه القيم فهمًا وإدراكًا عامًّا لقيم الأثريات، ففي فترة الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، عبَّر الحراك الدولي لحماية التراث الثقافي عن محتوى مطابق بالكامل لفهم قيم الأثريات المراد حمايتها، قائلاً: "تتشبع المواقع الأثرية التاريخية للشعوب في مختلف العصور بمعلومات زمنية ترجع للزمن الماضي ومحفوظة حتى وقتنا الحاضر، لتصبح شواهد حية للقدماء"[4]، "ولا تشتمل النقاط الأساسية للمواقع التاريخية على إمكانها إبراز البيئة الحضرية أو الريفية لحضارة مستقلة، وتطورها المهم، أو شواهد لأحداث تاريخية وحسب"[5]. "وفي هذه الاتفاقية، يمثل كل ما يلي "تراثًا ثقافيًّا": أولًا: الأثريات التي تملك قيمًا عامة بارزة سواء من المنظور التاريخي أو الفني أو العلمي، مثل المعمار، الأنصاب التذكارية المنحوتة أو اللوحات التذكارية، الأجزاء أو الهياكل التي تملك طابعًا أثريًّا، النقوش والكتابات، المعابد المنحوتة في الكهوف، والوحدات الأثرية المركبة. ثانيًا: المعمار المفرد أو المتصل الذي يحتوي طرازه المعماري، أو متوسط توزيعها، أو مشهدها البيئي على قيم عامة بارزة سواء من المنظور التاريخي أو الفني أو العلمي. ثالثًا: الأطلال التي تملك قيمًا عامة بارزة سواء من المنظور التاريخي، أو الجمالي، أو من منظور علم الأجناس البشرية، أو علم الأنثروبولوجيا كالمشاريع البشرية، أو المشاريع المشتركة بين الطبيعية والبشر، وأطلال الأماكن الأثرية، وغيرها"[6]، ويؤكد إدراك وفهم هذا النوع من القيم على حماية البقايا الأثرية المادية، وكل ما تحتويه من معلومات تاريخية، وهذا

1- الكتاب السابق، صفحة 214.

2- الكتاب السابق، صفحة 215.

3- الكتاب السابق، صفحة 217.

4- "ميثاق فينيسيا" (1964م)، "مختارات من المستند الدولي لحماية التراث الثقافي"، دار الأثريات للنشر، 2007م.

5- الكتاب السابق.

6- "اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي" (1972م)، "مختارات من المستند الدولي لحماية التراث الثقافي"، دار الأثريات للنشر، 2007م، صفحة 71-70.

النوع من الحماية يمثل في جوهره حماية على غرار المتاحف.

وخلال الفترة من ثمانينيات وحتى أواسط تسعينيات القرن العشرين، ركز فهم مستندات منظمة اليونسكو لمفهوم التراث الثقافي في الأساس على الذاكرة التاريخية، والوعي الثقافي الذاتي سواء كان الفردي أو الجمعي، وغيرها من النواحي[1]. أما بعد فترة التسعينيات، فبدأت مستندات المنظمة تؤكد على ضرورة دمج التراث بشكل أكبر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كما أكدت على مجهود منظمة اليونسكو في تدشين مشروعات إعادة بناء المدن التي تعمل على دمج التراث التاريخي مرة أخرى في الحياة اليومية، وكذلك أكدت على تأثير التراث على مجال السياحة[2]، وقد تلقى هذا التبلور الجديد للمفاهيم تأثير النتائج المحققة من المشروعات التي طُبقت على مدار عشر سنوات منذ عام 1988م وحتى عام 1997م، ليتوسع ويتعمق أكثر فهم المعاني والتأثيرات التي يتمتع بها مجال حماية التراث الثقافي، وخلال تطبيق الاستراتيجية متوسطة الأجل (2002م- 2007م)، شكل التراث الثقافي جزءًا مكونًا أساسيًّا للتنوع الثقافي، وأُدرج مجال حماية التراث الثقافي في إطار قابل للتنمية المستدامة.[3]

ومنذ أواسط ثمانينيات القرن العشرين، بدأ يظهر تناقض وصراع بين مجال حماية الأثريات في الصين، والتنمية المتسارعة لمجال السياحة، فدائمًا ما تأمل الحكومات المحلية في تحقيق أقصى قدر من تطوير الأثريات غير القابلة للنقل لتصبح مزارات سياحية، وبالتالي تحصيل أكبر قدر ممكن من العوائد الاقتصادية، وقد تلقى هذا المطلب مقاطعة صارمة من أوساط حماية الأثريات، ولتحقيق السيطرة على الموارد الأثرية حاولت بعض الحكومات المحلية -من خلال تأسيس بعض شركات الإدارة السياحية- الحصول على حق تشغيل الوحدات الأثرية المحمية وإدارتها، أو التنازل مباشرة عن حق التشغيل والإدارة للمؤسسات المعنية، وخلال

1- UNESCO Second Medium-Term Plan (1984—1989) , p.226, 227, Draft Medium- Term Plan (1990—1995) , p.57, 58.

2- UNESCO Medium-Term Strategy (1996—2001), p.31.

3- UNESCO Medium-Term Strategy (2001—2007), p.39.

هـذه العمليـة، اندلعـت -واحـدة تلـو الأخـرى- الأحـداث الناجمـة عـن تأسـيس الحكومـة المحليـة لمقاطعـة شانشـي لمجموعـة شـركات سـياحية لأجـل محاولـة السـيطرة علـى كافـة الوحـدات الأثريـة المحميـة فـي المقاطعـة، بمـا يشـمل بعـض الأماكـن الأثريـة المعتمـدة كتـراث عالمـي كمقبـرة الملـك تشـين الأول، وكذلـك مـزارات كونفوشـيوس التـي شـهدت حادث "غسـيل مـزارات كونفوشـيوس الثلاثـة"[1] والـذي قامـت بـه شـركة خواتشـياو بمدينـة تشـيوفو فـي مقاطعـة شـاندونغ، وقـد أثـارت هـذه المشـكلات اهتمامًـا واسـعًا مـن قِبـل المجتمـع، كمـا أدت إلـى زيـادة البنـد الرابـع والعشـرين فـي نـص "قانـون حمايـة الأثريـات بجمهوريـة الصيـن الشـعبية"، والـذي ينـص علـى أنـه: "لا يُسـمح بالتنـازل عـن الأثريـات غيـر القابلـة للنقـل المملوكـة للدولـة، أو رهنهـا، كمـا لا يُسـمح للوحـدات الأثريـة المحميـة المملوكـة للدولـة والموجـودة فـي المتاحـف، أو أماكـن الإيـداع، أو المحولـة إلـى مـزارات سـياحية أن تُـدار مـن قِبـل المؤسسـات كمـورد أصولـي لهـا"[2].

وخـلال تطبيـق برنامـج حمايـة التـراث العالمـي، تُعـد كذلـك القضيـة العالقـة بيـن الحمايـة والحيـاة أولًا وآخـرًا قضيـة أساسـية تواجـه مجـال حمايـة الأثريـات فـي الصيـن؛ حيـث إن هنـاك العديـد مـن المواقـع الأثريـة التـي تقـع فـي هـذه المشـكلة مثـل مدينـة ليجيانـغ القديمـة، ومدينـة بينغيـاو القديمـة اللتيـن أُدرجتـا ضمـن قائمـة التـراث العالمـي عـام 1997م، ومجموعـة القـرى القديمـة الواقعـة جنـوب مقاطعـة أنخـوي التـي أُدرجـت ضمـن قائمـة التـراث العالمـي عـام 2000م، والمشـاهد الثقافيـة للحقـول المدرَّجـة التابعـة لقوميـة هـا نـي بمدينـة خونـغ خـه فـي مقاطعـة يوننـان التـي أُدرجـت ضمـن قائمـة التـراث العالمـي –أيضًـا- فـي عـام 2013م، وقـد سـاعد التفكـر والنقـاش المسـتمر حـول قضيـة حمايـة تلـك المواقـع التراثيـة وتطورهـا علـى التصـادم بيـن كافـة أنـواع المفاهيـم المختلفـة.

1- مزارات كونفوشيوس الثلاثة هي بيت كونفوشيوس، ومعبد كونفوشيوس، وغابة كونفوشيوس، ويشير هذا الحادث إلى قيام الشركات المختصة بإدارة تلك الأمكنة بغسيلها وتنظيفها مما دمر بعض الأجزاء الأثرية فيها. (المترجِمة)

2- الهيئة الصينية الوطنية للآثار: "مختارات من مستند قانون حماية التراث الثقافي بجمهورية الصين الشعبية"، دار الأثريات للنشر، 2007م، صفحة 7.

كمـا أدت قضيـة المخالفـة بإنشـاء أبنيـة حـول البـرج الأسـود الأثـري بمدينـة فوجـوو عـام 2005م إلـى الشـروع فـي مشـروع حمايـة منطقـة الممـرات الثلاثـة والأزقـة السـبعة الأثريـة بالمدينـة نفسـها، وفـي النهايـة أدت مشـروعات الحمايـة الأثريـة إلـى الدفـع بشـكل كبيـر للغايـة مـن نهضـة الثقافـة التقليديـة وحركـة العمـران فـي المـدن، وقـد طرحـت الهيئـة الصينيـة الوطنيـة للآثـار العديـد مـن المطالـب كاعتبـار الأثريـات ممثلـة عـن كرامـة الشـعب، وضـرورة دفـع مجـال حمايـة الأثريـات للتنميـة الاجتماعيـة، وحركـة العمـران فـي المـدن والقـرى، وتحسـين مسـتوى معيشـة الشـعب، ومـن خـلال زيـادة الاسـتثمار فـي مجـال حمايـة الأثريـات، يمكـن تدشـين مشـروعات ضخمـة لأجـل حصـول مجـال التـراث الثقافـي علـى الاهتمـام والدعـم الاجتماعـي؛ مـن بيـن هـذه المشـروعات نجـد المشـروعين الأبـرز وهمـا تدشـين أعمـال المطالبـة بـإدراج طريـق الحريـر، والقنـاة الكبـرى ضمـن قائمـة التـراث العالمـي، ويتضمـن هـذان المشـروعان أكثـر مـن 10 مقاطعـات، ممـا أثـار اهتمامًـا واسـعًا مـن المجتمـع والمؤسسـات الحكوميـة المعنيـة، ومـن خـلال الحمايـة والمعالجـة البيئيـة اللتيـن جعلتـا مـن التـراث الثقافـي معرَّفًـا أساسـيًّا للمـدن، فقـد عملتـا مـن منظـور جديـد وأكثـر إيجابيـة علـى الدفـع بتأثيـر التـراث الثقافـي علـى حركـة العمـران فـي المـدن، فهـا هـي أعمـال صيانـة مدينـة جينشـا القديمـة فـي مدينـة تشـينغدو الصينيـة، وتأسـيس متحـف للآثـار بهـا قـد أصبحـا مشـروعين مثالييـن يُحتـذى بهمـا، حيـث أثـارا شـغفًا كبيـرًا للعديـد مـن المـدن، وبحمايـة التـراث الصناعـي واسـتغلاله جيـدًا، خاصـة دمـج اسـتغلال التـراث الثقافـي مـع الصناعـات الثقافيـة والإبداعيـة، وإنشـاء الحدائـق الوطنيـة للمواقـع الأثريـة القديمـة فـي كل أنحـاء الصيـن، أثـارت كلهـا ردود أفعـال اجتماعيـة كبيـرة، وفـي عـام 2013م، أجـرت الهيئـة الصينيـة الوطنيـة للآثـار خصيصًـا مباحثـات ومناقشـات حـول الاسـتغلال المعقـول للأثريـات، وأدخلـت فيهـا مفهـوم "الإحيـاء"، حيـث أدت هـذه المباحثـات دورًا أكثـر إيجابيـة فـي الدفـع بمجـال حمايـة التـراث الثقافـي.

ومنـذ زمـن طويـل، ومجـال حمايـة المواقـع الأثريـة القديمـة -خاصـة مواقـع المـدن القديمـة، أو أطـلال المسـتوطنات البشـرية الثقافيـة الكبيـرة- يقـع دائمًـا فـي قضيـة صـراع بيـن الحمايـة الثقافيـة وعمـران المـدن فـي الصيـن، حيـث إن هنـاك صراعًـا دائمًـا

فـي ظـل وجـود المـدن الحديثـة بيـن هـذه المواقـع الأثريـة ذات مسـاحة الأرض الكبيـرة، واسـتغلال المـدن المعاصـرة لمـورد الأرض. فقبـل عـام 2004م وبعـده، ولمواجهـة التناقـض بيـن هـذه المواقـع الأثريـة الضخمـة وحركـة العمـران فـي المـدن، طرحـت الهيئـة الصينيـة الوطنيـة للآثـار مطلبًـا يقضـي بصياغـة مخطـط لحمايـة المواقـع الأثريـة الضخمـة، فـي محاولـة لتنسـيق العلاقـة بيـن الحمايـة والعمـران فـي المـدن والقـرى مـن المنظـور التخطيطـي، وفـي عـام 2012م، وعلـى أسـاس مخطـط حمايـة المواقـع الأثريـة الضخمـة طرحـت الهيئـة مـرة أخـرى مطلبًـا يقضـي بإنشـاء حدائـق وطنيـة للمواقـع الأثريـة القديمـة، وقـد لاقـى هـذا المطلـب اسـتجابة كبيـرة مـن الحكومـات المحليـة فـي البـلاد، وقـد شـكلت بعـض تلـك الحدائق مـزارات عامـة جديـدة لتلقـى ترحابًـا مـن عمـوم المواطنيـن فـي المـدن، كمـا أُدرجـت بعـض تلـك الحدائـق ضمـن قائمـة التـراث العالمـي، أو ضمـن القائمـة التحضيريـة للمطالبـة باعتمادهـا كتـراث عالمـي، مثـل حديقـة قصـر دامينـغ للمواقـع الأثريـة التـي أصبحـت عنصـرًا مشـكلًا لتـراث طريـق الحريـر، والتـي اعتُمـدت كتـراث عالمـي، أمـا حديقـة خـه ليانـغ، وحديقـة ليانغجـو، وحديقـة جينشـا، وحديقـة سانشـينغدوي فقـد أُدرجـت كلهـا ضمـن القائمـة التحضيريـة للمطالبـة باعتمادهـا كتـراث عالمـي.

وعلـى الرغـم مـن أنـه لا يـزال هنـاك انقسـام وصـراع علـى مسـتوى المفاهيـم، إلا أنـه فـي العمـوم أصبـح مجـال حمايـة التـراث الثقافـي فـي الصيـن يأخـذ منحـى تطويريًّـا لـدوره فـي الدفـع بالتنميـة الاجتماعيـة المسـتدامة.

الفصل الخامس

التطور من حماية الأثريات إلى حماية التراث الثقافي

يستند مجال حماية الأثريات في الصين إلى الحماية القائمة على فهم القيم الفنية والقيم التاريخية للمشغولات الفنية القديمة، والمعمار الأثري، والمواقع الأثرية القديمة، ويؤكد على اعتبار الآثار المحمية معروضات يتم عرضها في المتاحف، كما يعمل بأقصى قدرته على جعل الآثار المحمية تترسخ في الوقت الذي يعكس قيمتها، ولا تتوقف منظومة حماية الأثريات في الصين -والتي تتخذ من الحكومة مسؤولًا رئيسًا عنها- عن التأكيد على هذا المفهوم للحماية، وفي ثمانينيات القرن العشرين، بدأ مجال حماية الأثريات في الصين يتطور بشكل متسارع، حيث نجد حدثَين ذوَي مغزى مهم خلال هذا التطور، وهما: الأول: تأسيس منظومة حماية المدن التاريخية والثقافية عام 1982م، حيث أعلن مجلس الدولة الصيني قائمة بأسماء الدفعة الأولى من المدن التاريخية والثقافية المملوكة للدولة، والثاني: نشر نتائج سلسلة الأبحاث التي قام بها كل من تشين جه خوا، ولوو تشينغ شي الأستاذين من جامعة تشينغخوا في بكين حول المعمار العامي في البر الصيني، حيث تم نشرها بمساعدة مجلة "الصوت الصيني ECHO" بتايوان، وتدل حماية المدن التاريخية والثقافية على بداية اهتمام الصين بقضية حماية التاريخ والثقافة من المنظور الكلي للمدن، كما تدل على التبلور التدريجي للمستويات الثلاثة للآثار المحمية (المدن، والأحياء، والمعمار التاريخي) وهي لا تشتمل فقط على المعمار الرمزي المهم، ونسيج الأحياء، بل تشمل كذلك منظومة الحماية الجديدة لطراز المدينة الكلي، وتقع مسؤولية الإدارة المعنية على وزارة الإنشاءات المسؤولة عن العمران في المدن، والهيئة الصينية الوطنية للآثار، وقد توسعت مرة أخرى رقعة منظومة الحماية الجديدة تلك -والتي توجهها الحكومة- بشكل تدريجي لتشمل البلديات والقرى التاريخية والثقافية، وتُعد الأبحاث حول المعمار العامي من الأعمال المبكرة نسبيًا لأوساط علم تاريخ المعمار الصيني، فقد بدأت "جمعية

دراسة الآثار الصينية" في أربعينيات القرن العشرين باستقصاء ودراسة المعمار العامي في قرية ليجوانغ التاريخية بمقاطعة سيتشوان، وقد أعلنت الجمعية مجموعة من النتائج المتعلقة بالبحث كذلك، وبعد فترة الخمسينيات، شرع مركز البحوث التابع لمعهد دراسات علم المعمار الصيني، وبعض معاهد دراسة المعمار بإجراء البحوث والدراسات حول المعمار السكني في مختلف المناطق، وتبلورت مجموعة من النتائج التي تمثلت في كتاب "المعمار السكنية بمقاطعة جه جيانغ"، إلا أن هذه الأبحاث ركزت أساسًا على دراسة علم التصنيف، الذي يركز على تسجيل وتحليل سمات المعمار وطرازه، مما يدفع بالهدف الأساسي وهو أن تتخذ تصاميم المعمار الحديث من عناصر المعمار القديم مرجعًا لها، ويكمن المغزى المحقق من سلسلة نتائج بحوث الأستاذين تشين جه خوا، ولوو تشينغ شي حول المعمار العامي في أنهما لم يدرسا السمات الهيكلية والفنية للمعمار من منظور علم المعمار فحسب، بل أجريا الدراسة من منظور علم الاجتماع أيضًا، حيث أجريا بحثًا وتفسيرًا حول تاريخ المعمار العامي وثقافته، ولم تكن دراسة للمعمار المفرد من منظور المعمار السكني وحسب، بل كانت كذلك دراسة للعلاقة بين النمط الكلي للقرى من ناحية، والقرى والبيئة من ناحية أخرى، وذلك من منظور القرى نفسها.

وفي مجال حماية الأثريات، ظهرت بعض الأسماء لمجموعات من الأبنية السكنية القروية ضمن قائمة الدفعة الثالثة لأهم الوحدات الأثرية المحمية على مستوى الصين والمعلن عنها عام 1988م، مثل مساكن دينغتسون، ومساكن تشيانكوو، ومساكن لوجاي الأثرية بمدينة دونغيانغ، إلا أنه من الواضح أن هذه الحماية استندت – أيضًا- إلى تفسير الطراز المعماري والسمات الفنية المعمارية للأبنية السكنية المحلية النموذجية، حيث تم اختيار مقاطعات شنشي، أنخوي، وجه جيانغ كأماكن سكنية نموذجية لإجراء عملية الحماية عليها، وبالمثل، يستخدم مجال الحماية وسيلة الشراء الحكومية، ويؤسس هيئات خاصة لإدارة شؤون الحماية، وذلك لبناء المتاحف لحماية الآثار وعرضها، وقد تم إدراج قرية جوقه الأثرية بمدينة لانشي، ومساكن قرية جانغ له الأثرية ضمن قائمة الدفعة الرابعة لأهم الوحدات الأثرية المحمية على مستوى الصين والمعلن عنها عام 1996م، وعلى الرغم من أنه لا

توجد فروق كبيرة من حيث الشكل والتصنيف بين قرية جوقه الأثرية ومساكن قرية جانغ له الأثرية من ناحية، ومساكن دينغتسون، ومساكن تشيانكوو، ومساكن لوجاي بمدينة دونغيانغ الأثرية من ناحية أخرى، لكن من حيث الحماية، فقد كانت هناك محاولات حماية مختلفة لكل منهما، وقد دعت الهيئة الصينية الوطنية للآثار السيد تشين جه خوا ليصيغ مخططًا لحماية قرية جوقه الأثرية، ويدفع من إنشاء آليات إدارة الحماية فيها والتي تتخذ من سكان القرية أساسًا لها، وقد أحدث هذا المخطط نتائج حماية جيدة نسبيًّا، ومستمرة. إلا أن طرق الحماية هذه جلبت -في الوقت نفسه- مشكلة جديدة من ناحية التعرف على التركيب الأثري لمساكن تلك القرية التي تُعد واحدة من أهم الوحدات الأثرية المحمية على مستوى الصين، وكيفية إدارتها، مما أدى إلى عدم حصول طرق الحماية هذه على مزيد من التعزيز والتنمية.

وفي عام 1997م، أُدرجت مدينة ليجيانغ القديمة، ومدينة بينغياو القديمة ضمن قائمة التراث العالمي، ولا تختلف مفاهيم الحماية وطرقها بين هذه المدن التاريخية القديمة بأكملها باعتبارها تراثًا عالميًّا، والمدن التاريخية والثقافية الأخرى، كما لا تختلف عن الوحدات الأثرية المحمية، وهذا بلا شك يمثل تحديًا جديدًا لمفاهيم وطرائق الحماية في الصين، ففي عام 2001م، عقد مكتب منظمة اليونسكو بمنطقة آسيا والمحيط الهادئ منتدى دوليًّا في مدينة ليجيانغ الصينية بعنوان "إدارة حماية تراث المدن التاريخية"، ودعا إليه 4 مدن معتمدة كتراث عالمي، و4 مدن تاريخية ليست معتمدة كتراث عالمي لإجراء النقاش في المنتدى، وتطرق محتوى النقاش في هذا المنتدى إلى العديد من النواحي، حيث تجاوز بكثير القضية السطحية لحماية الشكل المادي لتراث المدن القديمة، وتطرق -بشكل متعدد المستويات- إلى التنمية المستدامة للمدن التاريخية، ومشاركة سكان تلك المدن في شؤون الحماية والإدارة، والتشارك في أرباح الحماية والتطوير، وغيرها من القضايا، وبالنسبة لمجال حماية المدن التاريخية في الصين، فقد أظهرت هذه النقاشات لهجة خطابية مختلفة عن تلك التي تؤكد دائمًا على الحماية السطحية للمدن التاريخية، واقتصاد السياحة، لتؤكد باستمرار على الدور الإيجابي لسكان

تلك المدن في تقديم هذا النوع من الحماية، خاصة كونهم سيتشاركون فوائد وأرباحًا من خلال عملية الحماية، وفي النهاية شكَّل المنتدى "نموذج مدينة ليجيانغ" الذي يتضمن الحماية، ودور السكان، والاستثمارات، وتشارك الأرباح، وغيرها من النقاط، وقد أحدثت نقاشات هذا المنتدى تأثيرًا عميقًا على حماية وإدارة مدينة ليجيانغ ذاتها، وباعتبارها مدينة معتمدة كتراث عالمي، فقد لعبت طرق الحماية والإدارة في مدينة ليجيانغ دورًا نموذجيًّا لدفع طرق الحماية في المدن التاريخية الأخرى في الصين، وعلى الرغم من أنه لا تزال هناك العديد من القضايا القائمة في ما يخص مجال حماية مدينة ليجيانغ المعتمدة كتراث عالمي، إلا أنها سعت جاهدة في تجسيد الحماية القائمة على التنوع الثقافي، خاصة بالدمج بين التراث المادي، والتراث غير المادي، وفي الوقت نفسه الذي تؤكد فيه مدينة ليجيانغ على حماية العديد من العناصر كمعمار المدن القديمة، والأحياء الأثرية، والأماكن الأثرية الفارغة، فهي تهتم –أيضًا- بحماية الثقافة والموسيقى التقليدية لقومية ناشي، وتوارثها، وقد أحدثت هذه الأعمال في فترة محددة تأثيرًا على حماية المدن التاريخية الأخرى في الصين.

وبعد تسعينيات القرن العشرين، أكدت منظمة اليونسكو -بشكل تدريجي- على الحماية القائمة على التنوع الثقافي، وكذلك أكدت على دور حماية التراث في حماية الثقافة، وكذلك تأثير الحماية على التنمية الاجتماعية المستدامة، وقد أثار كذلك اختفاء التنوع الثقافي والثقافة التقليدية خلال عملية التنمية المتسارعة للعمران في المدن والقرى مناقشات في كافة الأوساط الصينية، وقد تعززت الضغوط بشكل مستمر على هذه المناقشات من قِبل بعض الأنشطة العمرانية مثل حراك العمران في المدن الجديدة، وعملية التمدن الجديد، وغيرها من الأنشطة.

وبعد دخول القرن الواحد والعشرين، أدرك الناس بالتدريج قضية حماية التراث الحي، وعملوا على تطبيق هذا النوع من الحماية، فعلى سبيل المثال كان للمطالبة بإدراج منطقة جبل أوتاي عام 2009م ضمن قائمة التراث الثقافي العالمي مسارات مختلفة من منظور التراث الثقافي، حيث يمكن أن تؤكد على كل ما تحويه

تلـك المنطقـة مـن عـدد هائـل مـن بقايـا المعمـار القديـم، ومـا تعكسـه تلـك البقايـا الأثريـة مـن فـن معمـاري قديـم، وتطـور تقنـي، وهـي تعبـر كذلـك عـن الطـرق الأساسـية للحمايـة التقليديـة التـي تنتهجهـا الصيـن تجـاه البقايـا التاريخيـة، والمعمـار الأثـري، إلا أن القيـم التـي تحويهـا منطقـة جبـل أوتـاي كتـراث ثقافـي تؤكـد علـى التأثيـر المسـتمر دائمًـا للأراضـي المقدسـة للديانـة البوذيـة علـى تطـور البوذيـة بشـكل عـام، لتبـرز سـمات منطقـة جبـل أوتـاي كتـراث حـي، وطبيعتـه، وبعـد المطالبـة بـإدراج بمنطقـة جبـل أوتـاي ضمـن قائمـة التـراث العالمـي نجـد المطالبـة بـإدراج المشـهد الثقافـي فـي كل مـن منطقـة البحيـرة الغربيـة بمدينـة خانغجـوو، والحقـول المدرَّجـة التابعـة لقوميـة هـا نـي بمدينـة خونـغ خـه فـي مقاطعـة يوننـان ضمـن قائمـة التـراث العالمـي، والتـي تؤكـد كذلـك علـى تمتـع تلـك المنطقتيـن التراثيتيـن بسـمات التـراث الحـي، وتعتبـر المطالبـة بـإدراج المواقـع الأثريـة كتراث عالمـي، وحمايتهـا، وإدارتهـا عمليـة تأسـيس نظاميـة، حيـث تشـكل عمليـة تصنيفهـا ودراسـتها أكثـر جـزء أساسـي فـي المطالبـة بإدراجهـا كتـراث عالمـي، وسـواء كانـت مدينـة ليجيانـغ القديمـة، أو مدينـة بينغيـاو القديمـة، أو مجموعـة القـرى القديمـة الواقعـة جنـوب مقاطعـة أنخـوي، وصـولًا إلـى منطقـة جبـل أوتـاي الأثريـة، ومنطقـة البحيـرة الغربيـة بمدينـة خانغجوو، والمشـهد الثقافـي للحقـول المدرجـة التابعـة لقوميـة هـا نـي بمدينـة خونـغ خـه، فقـد حظيت الصيـن بتطـور متسـارع فـي مـا يخـص فهـم مـا يتعلـق بالتـراث الحـي، وتطبيـق طـرق حمايتـه، وعلـى الرغـم مـن تأكيـد طـرق التعبيـر عـن قيمـة الآثـار المحميـة، وطـرق حمايتهـا علـى "المـادة" أو التقاليـد الثقافيـة أو القدمـاء أنفسـهم، وأنـه لا يـزال هنـاك جـدل وانقسـام حـول هـذه الأمـور، إلا أنـه سـواء كان التـراث العالمـي ممثـلًا فـي المـدن التاريخيـة، أو المشـاهد الثقافيـة، أو القـرى التقليديـة العاديـة، أو المعمـار الأثـري التابـع للعصـر الحديـث والمسـتغل حاليًـا، فـإن البشـر يتجهـون -بشـكل أكبـر مـع مـرور الوقـت- إلـى إدراك مـا يواجهونـه مـن قضايـا خاصـة بحمايـة الأثريـات مـن منظـور حمايـة التنـوع الثقافـي، وحمايـة التـراث الحـي، ففـي السـنوات الأخيـرة، تعكـس لنـا أعمـال صيانـة المعمـار العامـي فـي العديـد مـن القـرى التقليديـة هـذا الاتجـاه.

خاتمة

يستند مجال حماية الأثريات في الصين إلى تطور العلوم المعنية به خلال فترة عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، حيث تبلورت تدريجيًّا -على خلفية الثقافات المحددة- منظومة حماية الأثريات، ومفاهيم تلك الحماية، وفي عام 1985م، انضمت الصين إلى "اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي"، وتطور الأمر سريعًا لتصبح الصين إحدى أكثر الدول التي تحتوي على كم هائل من معالم التراث العالمي، ويلعب برنامج التراث العالمي دورين مهمين في عملية تنمية مجال حماية الأثريات في الصين: الأول: هو تحفيزه للصين بأن تحسن تدريجيًّا منظومة إدارة الحماية فيها، والثاني: هو بناء جسر يربط بين منظومة حماية الأثريات في الصين، والحراك الدولي لحماية التراث الثقافي، مما يؤدي بدوره إلى ظهور نوع من التفاعل المتبادل بينهما.

وفي عام 2000م، اعتمدت الصين مستند "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين"، والذي يستند إلى قاعدة المبادئ التي أكد عليها مجال حماية الأثريات في الصين منذ وقت طويل، والتي تقضي باستعادة المظهر الأصلي، أو حفظ المظهر الحالي للمواقع الأثرية، كما أن معايير هذا المستند تلتحم في محتواها مع المنظومة الدولية لحماية الأثريات والممثلة في "ميثاق فينيسيا"، وقد أصبح هذا المستند قاعدة مهمة للتنمية المتسارعة لمجال حماية الأثريات في الصين بعد عام 2000م، حيث تطور من الاهتمام بحماية الأثريات، إلى الاهتمام بحماية التراث الثقافي.

وفي عام 2004م، عُقدت الدورة الثامنة والعشرون من مؤتمر الجمعية العمومية للجنة التراث العالمي في مدينة سوجوو الصينية، لتُحدث أثرًا عميقًا على مجال حماية التراث الثقافي في الصين، خاصة دراسة أنواع التراث الثقافي الجديدة التي تشمل المشاهد الثقافية، والمسارات الثقافية، وتطبيق طرق حمايتها، التي

وسعت مدارك فهم قيم الأثريات المحمية، مما دفع بالمباحثات حول نظريات وطرائق حماية الأثريات، وفي الوقت نفسه، وخلال عملية تطبيق مشاريع الحماية الكبرى، مثل المطالبة باعتماد طريق الحرير، والقناة الكبرى كتراثين عالميين، أجريت مشروعات إنقاذ وصيانة لمعبد الملكين، ومعبد التنين المروض بمدينة دوجيانغيان، وذلك على إثر زلزال وينتشوان عام 2008م، مما درَّب مجموعة من الفرق المختصة التي تملك قدرة فائقة على حماية التراث الثقافي، كما قامت مؤسسات البحوث المتخصصة الممثلة في فريق متحف القصر الإمبراطوري في بكين، ومعهد بحوث مدينة دونخوانغ بتنفيذ برامج بحثية حول الحماية النموذجية للأثريات، مثل أعمال الصيانة بقصر جيوان تشين جاي الواقع في منطقة القصر الإمبراطوري، ومشروع صيانة معبد موه قاو المنحوت في الكهف في مدينة دونخوانغ (وهو المعبد الخامس والثمانون ضمن مجموعة المعابد المنحوتة في حجارة الكهوف)، ومن هنا، ظهر كذلك المستوى الذي وصل إليه مجال حماية الأثريات في الصين.

وتعكس نسخة مستند "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين" المنقحة عام 2015م أحوال تنمية مجال حماية الأثريات في الصين، واتجاهها، وتستند هذه النسخة المنقحة إلى تطبيق الحماية على عدد هائل من المواقع الأثرية، بما يشمل معالم التراث العالمي، وعلى أساس فهم قيم الآثار المحمية، والقيم التاريخية، والفنية، والعلمية الأصلية للآثار المحمية، طرح المستند مرة أخرى محتوى يضم القيم الاجتماعية، والقيم الثقافية للأثريات؛ حيث تعكس القيم الاجتماعية التي تعبر عنها الأثريات اتجاه التحول من تأكيد مجال حماية التراث على حماية المشغولات الفنية، والشواهد التاريخية، إلى التأكيد على دفع الحماية بالتنمية المستدامة، كما تعكس تأكيد الصين -بعد عام 2000م- على دفع مجال حماية الأثريات لحراك العمران بالمدن والقرى، وكذلك دفع عملية تحسين مستوى معيشة المواطنين، وتعكس لنا –أيضًا- نتائج مجموعة الأنشطة التطبيقية لبناء الحدائق الوطنية للمواقع الأثرية، والمتاحف الاجتماعية، وغيرها من المشروعات، وتعكس كذلك الاستغلال الجيد للمواقع الأثرية المحمية بعد عام 2013م، والدفع بمجموعة من

المباحثات حول "إحياء" التراث الثقافي، أما القيم الثقافية التي تعبر عنها الأثريات فتستند إلى دفع الصين عام 2002م بوضع مخطط لحماية الأثريات، واعتباره قاعدة لأعمال الحماية تلك، ويستند تحليل القيم خلال عملية التخطيط لأهم الواحدات الأثرية المحمية على مستوى الصين إلى تحليل وتقييم القيم التي تمتلكها العديد من المواقع الأثرية التي يُطالب بإدراجها كتراث عالمي، منها "مجموعة أبنية "السماء والأرض" القديمة بمدينة دنغ فنغ بمقاطعة خه نان"، و"منطقة جبل أوتاي"، و"المشاهد الثقافية بمنطقة البحيرة الغربية بمدينة خانغجوو"، و"الحقول المدرَّجة التابعة لقومية ها ني بمدينة خونغ خه في مقاطعة يونان"، و"طريق الحرير"، و"القناة الكبرى"، وغيرها من المشروعات، لتؤكد على العلاقة بين حماية الشكل المادي للتراث، وحماية التنوع الثقافي، وحماية التقاليد الثقافية الموروثة المتميزة.

وتستخدم نسخة مستند "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين" المنقحة عام 2015م في محتواها مباشرة ما يرتبط بـ"الأصالة"، و"التكاملية" في حماية التراث العالمي، حيث إنها تندمج مع المبادئ المعنية بحماية الأثريات في الصين، لتشكل تعبير ما تجسده مميزات حماية الأثريات في الصين من مبادئ "الأصالة" و"التكاملية"، وبالاستناد إلى القضية الواقعية التي تواجه أعمال حماية الآثار سواء كانت أحياء تاريخية، أو قرى قديمة، أو غيرها، فقد طرحت النسخة المنقحة من مستند "معايير حماية المواقع الأثرية في الصين" مبدأ خاصًّا لحماية "التقاليد الثقافية"، لتؤكد على وجوب تحفيز حماية التراث المادي لحماية التقاليد الثقافية، كما يجب أن تكون تلك التقاليد الثقافية متكاملة.

وبالنسبة لمجال حماية التراث الثقافي، فسواء في ما يخص فهم القيم الاجتماعية، والقيم الثقافية، والتعبير عنها، أو في ما يخص إحياء الأثريات المحمية واستغلالها بشكل جيد، أو في ما يخص المشاركة الاجتماعية في حماية التراث الثقافي، أو حتى حماية الأثريات، أو حماية التراث الثقافي، فعلى الرغم من أنه لا يزال هناك آراء مختلفة وفهم مختلف (أو حتى معارضة شديدة) في داخل الأوساط المعنية

بحمايـة التـراث الثقافـي فـي الصيـن فـي مـا يخـص تلـك الأمـور، وأنـه -أيضًـا- لا تـزال هنـاك العديـد مـن القضايـا القائمـة الخاصـة بتقنيـة الحمايـة، وإدراة الحمايـة على مسـتويات التطبيق كافـة، إلا أنـه بشـكل عـام يظهـر تقـدم كبيـر، وتنميـة متسـارعة فـي مجـال الحمايـة، كمـا تظهـر القـدرات الفائقـة لمجـال حمايـة التـراث الثقافـي فـي الصيـن، واتجـاه تنميتـه الجيـد.

وتُعـد تنميـة مجـال حمايـة التـراث الثقافـي الصينـي -خاصـة بعـد عـام 2000م- قفـزة مـن التفكيـر إلـى التطبيـق، ومـن المفاهيـم إلـى التشـغيل، كمـا يعـد تطـورًا مـن حمايـة الأثريـات، إلـى حمايـة التـراث الثقافـي، وتحـولاً مـن الاهتمـام بالأثريـات المحفوظـة كشـواهد تاريخيـة، إلــى الاهتمــام بحمايــة الثقافــة ككل، والتنــوع الثقافــي، وتــوارث تلــك الثقافــة، وتطويرهــا، وخـلال تلـك العمليـة الكليـة يلعـب برنامـج التـراث العالمـي دورًا مهمًّـا ومحفـزًا للغايـة.

الباب الثالث

طريق حرير ممرات سلسلة جبال تيانشان (تشين لينغ)

يُعد طريق الحرير العابر للقارات الثلاث آسيا، إفريقيا، وأوربا الشريان الأكبر لحركة المواصلات بين شرق العالم وغربه في العصور القديمة، حيث يتمتع بتأثير عميق على مستوى تاريخ الحضارات الإنسانية، فمنذ أكثر من مئة عام مضت وطريق الحرير دائمًا ما يمثل الموضوع الرئيس الذي يثير اهتمام الأوساط العلمية الدولية، كما أنه يفتن الناس دومًا بحضارته البديعة، وفي عام 2014م، اتحدت كل من الصين، وكازخستان، وقيزغيزستان للمطالبة بإداراج "طريق حرير ممرات سلسلة جبال تيانشان" كمشروع تراث عالمي، ونجحوا في ذلك، ليجذب بذلك طريق الحرير -مرة أخرى- أنظار العالم بأسره.

الفصل الأول

لمحة عامة حول طريق حرير ممرات سلسلة جبال تيانشان..

طريق بعيد وشاسع بلا حدود

تُعد البيئة الجغرافية الفرضية المكانية الأساسية للأنشطة البشرية، حيث إنها تشكل -إلى حد كبير- أنماط معيشة البشر، وتقيدها، وقد قدم فرناند بروديل (Fernand Braudel) -بروفيسور التاريخ بمدرسة أنال الفرنسية- كمًّا كبيرًا من صفحات عمله الضخم "المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني" ليناقش فيها الدور العميق للعوامل الجغرافية على حياة البشر؛ حيث يرى بروديل أن تاريخ الصراع البيئي للبشر على سطح الكرة الأرضية هو ما شكَّل الاستمرارية الطويلة للتاريخ، وأن البيئة الجغرافية قد ساهمت مرة أخرى في معرفة البشر للوجه الحقيقي للتاريخ، وفهمهم له، فمنذ فترة طويلة من الزمن، وعناصر البيئة الجغرافية لبعض المناطق الخاصة تتمتع بتأثير بارز على البشرية جمعاء.

ومنذ القدم، والمناطق الداخلية في منطقة أوراسيا تشتهر بجفاف مناخها، وندرة أمطارها، فبسبب عدم انتقال الكثير من بخار الماء إلى المناطق الداخلية في أوراسيا (بسبب دوران الغلاف الجوي)، لذا، لا يمكن للرطوبة (عنصر الماء) أن تُطلَق في الغلاف الجوي على هيئة سقوط للأمطار، أما هضبة بامير والمناطق البارزة المحيطة بها فتمتلك دورًا مهمًّا في إعاقة تيار الهواء الرطب المتجه شمالًا، وفي ظل ظروف الجفاف طويل المدى، شكلت الهضاب المشتبكة بأعالي الجبال، والأحواض الجبلية، ومناطق المرواح الفيضية أمام الجبال صحراء غوبي، وذلك بسبب دور الرياح الشديدة، أما المناطق التي ترسَّب بها في الأصل مواد رملية وفيرة فقد شكلت صحراء هي الأخرى، وذلك في ظل دور قوى الرياح. فها هي صحراء تاكلامكان الشهيرة التي تكونت في ظل ظروف الجفاف الشديد، وهبوب الرياح التي يصل ارتفاعها إلى 12 مترًا، وتصل سرعتها أحيانًا إلى 30 مترًا/ثانية،

وتقـع منطقـة شـينجيانغ الصينيـة فـي المناطقـة النائيـة مـن أوراسـيا، وتطـوق جهاتهـا الأربـع العديـد مـن الجبـال المرتفعـة مثـل جبـال ألتـاي، جبـال باميـر، جبـال كاراكـورام (قراقـرم)، جبال كونلـون، وجبـال ألتـون، وتنتشـر سلسـلة جبـال تيانشـان فـي مركـز شـينجيانغ، حيـث تقسـم منطقـة شـينجيانغ إلـى قسـمين كبيريـن: جنوبـي، وشـمالي، وتكـون نمطًـا جغرافيًّـا مكونًـا مـن ثلاثـة جبـال وحوضيـن جبلييـن، أمـا المناطـق الواقعـة بيـن سلاسـل الجبـال المسـتوية فتشـكل مجموعـة متباينـة الأحجـام مـن الأحـواض الجبليـة (مثـل حـوض بايتشـينغ، حـوض يانتشـي، حـوض توربـان، حـوض هامـي، وحـوض يوليـدوس)، والأوديـة الجبليـة (مثـل وادي إيلـي، ووادي أوشـين).

وفـي ظـل تأثيـر بُعـد منطقـة شـينجيانغ عـن المحيـط، وتطويقهـا بالجبـال المرتفعـة، تتمتـع المنطقـة بالسـمات النموذجيـة للمنـاخ الجـاف؛ حيـث يبلـغ متوسـط حجـم ترسـيب الميـاه السـنوي فيهـا 145 ملـم، ليحتـل بذلـك نسـبة 23% مـن حجـم ترسـيب الميـاه السـنوي فـي الصيـن (630 ملـم)، ولا يقـل هـذا الحجـم عـن متوسـط القيمـة علـى مسـتوى الصيـن وحسـب، بـل يمثـل -أيضًـا- أقـل حجـم بالمقارنـة مـع بقيـة المناطـق التـي تقـع فـي دائـرة العـرض ذاتهـا، ومـع ذلـك، فهنـاك اختـلاف كبيـر كذلـك بيـن جنـوب شـينجيانغ وشـمالها، حيـث يبلـغ متوسـط حجـم الترسـيب السـنوي فـي المناطـق السـهلية شـمالًا 150-200 ملـم، بينمـا قـد يصـل متوسـط الترسـيب إلـى 250-300 ملـم فـي المناطـق الغربيـة، أمـا المناطـق السـهلية جنوبًـا فيبلـغ متوسـط الترسـيب فيهـا أقـل مـن 70 ملـم، ويتمثـل أقـل حجـم ترسـيب فـي حـوض تووكيشـيون، حيـث يبلـغ 7 ملـم فقـط، ويبلـغ متوسـط الترسـيب السـنوي فـي جبـل جونغشـان شـمال شـينجيانغ 400-600 ملـم، وقـد يصـل متوسـط الترسـيب بمنحـدر وادي إيلـي المواجـه للريـاح وحـده إلـى 1000 ملـم. أمـا جبـل جونغشـان الواقـع فـي المنحـدر الجنوبـي لجبـال تيانشـان فيبلـغ متوسـط ترسـيبه السـنوي 300-500 ملـم، وفـي المنحـدر الشـمالي لجبـال كونلـون 200-400 ملـم، وفـي المنحـدرات المواجهـة للريـاح قـد يصـل إلـى 500 ملـم، وفـي المناطـق الجبليـة فـي فصـل الصيـف تُشـكل الميـاه المرسـبة مباشـرة مجـاري سـطحية تصـب فـي المجـاري النهريـة، لتمثـل مصـدر مـاء أساسـيًّا للـري الزراعـي؛ حيـث تأتـي نسـبة 80% مـن الميـاه المسـتخدمة فـي ري الحقـول الزراعيـة بمنطقـة شـينجيانغ مـن الأنهـار،

وبعـد ذوبـان الجليـد المتراكـم فـي المناطـق الجبليـة فـي فصـل الشـتاء، تصبـح مصـدر مـاء أساسـيًّا للأنهـار فـي فصـل الربيـع.[1]



أطلال نيبا بأعماق صحراء تاكلامكان الجافة



الأراضي العشبية الواقعة في السفح الشمالي لجبال تيانشان

ووفقًـا للظـروف الجغرافيـة فـي منطقـة شـينجيانغ فـإن شـمال المنطقـة ينـاسـب

1- المعهد الثاني لرسم الخرائط بمنطقة شينجيانغ الويغورية ذاتية الحكم: "أطلس خريطة منطقة شينجيانغ الويغورية ذاتية الحكم"، دار نشر الخرائط الصينية، 2009م.

الرعـي والترحـال، أمـا جنوبهـا فيناسـب السـكن والاسـتقرار، وفـي مختلـف المناطـق علـى طـول خـط طريـق الحريـر، تؤثـر الاختلافـات الجغرافيـة والبيئيـة بشـكل عميـق فـي الملامـح الحضاريـة لـكل منطقـة، ففـي منتصـف طريـق الحريـر نجـد الأطـراف المحيطـة بحـوض تاريـم الـذي يعتمـد علـى الميـاه الذائبـة مـن جليـد الجبـال، والميـاه الجوفيـة، لتتشـكل فيـه العديـد مـن الواحـات المحيطـة بالصحـاري، وصحـراء غوبـي، والجبـال الشـاهقة، وبسـبب اختـلاف ظـروف الجغرافيـا الطبيعيـة والمنـاخ، نجـد الفـروق الكبيـرة نسـبيًّا فـي نتـاج الحضـارة، وأنمـاط المعيشـة بيـن الواحـات، والسـهول العشـبية. ففـي العمـوم، يتركـز سـكان السـهول العشـبية أساسًـا فـي البـدو والرعـاة المتنقليـن بحثًـا عـن المـاء والـكلأ، أمـا سـكان مناطـق الواحـات فيمثـل نمـط معيشـتهم نصـف رعـي ونصـف زراعـة، وأصبحـت الروابـط التـي تربـط بيـن أماكـن إقامـة سـكان الواحـات المنتشـرين علـى طـول النهـر بمثابـة شـبكة طـرق رئيسـة لطريـق الحريـر بمنطقـة شـينجيانغ.

ويتمثـل طريـق الواحـات الرابـط بيـن الشـرق والغـرب فـي عهـد أسـرة هـان الملكيـة فـي: البدايـة مـن مدينـة تشـانغ آن شـرقًا، حتـى مدينـة لونغشـي غربًـا، عبـر ممـر خـه شـي، وصـولًا إلـى مدينـة دونخوانـغ، ومـن مدينـة دونخوانـغ ينقسـم إلـى قسـمين جنوبـي، وشـمالي. يتخطـى الطريـق الجنوبـي ممـر يانغقـوان، عبـر الأطـراف الجنوبيـة لحـوض تاريـم، ويمـر بمدينـة يوتيـان (مدينـة خوتـان بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، ومدينـة بيشـان (مدينـة بيشـان بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، ومدينـة شاتشـه (مدينـة ياركنـد بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، وصـولًا إلـى مدينـة شـوليي (مدينـة كشـغار بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، أمـا الطريـق الشـمالي فيمـر بمدينـة بايلونغـدوي (منطقـة يـاردان شـمال شـرق مدينـة لـوب نـور بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، وصـولًا إلـى مدينـة لـوولان (تقـع علـى الضفـة الشـمالية الغربيـة لمدينـة لـوب نـور بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، ومـن خلفـه يقـع السـفح الجنوبـي لجبـال تيانشـان، ثـم يمـر عبـر مدينـة يانتشـي (مدينـة قرشـهر بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، ومدينـة كويتسـي (مدينـة كوتشـه بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا "Kuqa County")، ويصـل -أيضًـا- إلـى مدينـة شـوليي (كشـغار حاليًـا)، ومـن مدينـة شـوليي يتجـه غربًـا نحـو هضبـة باميـر، ليصـل إلـى مدينـة داشـيا (مدينـة باختـر شـمال أفغانسـتان حاليًـا)، أو يتجـه غربًـا عبـر مدينـة داوان (منطقـة حوض فرغانة بآسـيا

الوسـطى حاليًـا)، ثـم يتجـه جنوبًـا ليصـل -أيضًـا- إلـى مدينـة داشـيا (باختـر حاليًـا)، ومـن مدينـة داوان يتجـه غربًـا عبـر مدينـة كانغجيـو (فـي دويلـة سـوجديان الواقعـة بيـن نهـري أموداريـا "جيحـون" وسـيرداريا "سـيحون")، ثـم مدينـة ألانـي (تقـع شـمال بحـر أرال "بحـر خـوارزم" حاليًـا)، ومـن مدينـة داشـيا (باختـر حاليًـا) يمكـن أن يتجـه جنوبًـا ليصـل إلـى الهنـد، ومـن ثـم يتجـه غربًـا ليمـر بالإمبراطوريـة الفرثيـة (السـلالة البارثيـة الفارسـية)، ليصـل بعدهـا إلـى الإمبراطوريـة السـلوقية (منطقـة سـوريا حاليًـا)، ومدينـة الإسـكندرية فـي مصـر، وفـي أواخـر عهـد أسـرة هـان الغربيـة، فكـر قـادة تطبيـق نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن بالأراضـي الزراعيـة فـي شـق طريـق جديـد يبـدأ مـن مملكـة قوشـه (مدينـة جيموسـار بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، ويمـر بممـر السـفن الخمـس، ليصـل مباشـرة إلـى ممـر يوميـن، ولتجنـب التعـرض للمحـن فـي مدينـة بايلونغـدوي، وبسـبب العرقلـة التـي سـببها ملـك غوشـه، لـم تكـن هنـاك نتائـج مرجـوة فـي مـا يخـص شـق هـذا الطريـق، ومـع ذلـك، يمكننـا أن نـرى أنـه فـي النهايـة، بالوصـول إلـى عهـد أسـرة سـوي الملكيـة، تطـور طريـق السـفن الخمـس الجديـد ليصبـح ممـرًا شـماليًّا رئيسًـا لحركـة المـرور البريـة؛ حيـث يبـدأ مـن ممـر يوميـن، ويمـر عبـر مدينـة إيـوو (مدينـة هامـي بمنطقـة شـينجيانغ حاليًـا)، بمحـازاة السـفح الشـمالي لجبـال تيانشـان، ثـم يتجـه غربًـا عبـر النهـر الشـمالي (نهـر سـوياب بكازخسـتان)، وأبعـد مـا قـد يصـل إليـه هـذا الطريـق هـو الإمبراطوريـة البيزنطيـة، وعلـى أسـاس المسـار الرئيـس لهـذا الطريـق، تفرعـت العديـد مـن الطـرق الثانويـة المنشـقة عنـه.

ويجـب القـول إن أصعـب مسـار لطريـق الحريـر هـو الممـرات الشـمالية والجنوبيـة المحازيـة لحـوض تاريـم، وذلـك بسـبب انتشـار الصحـاري، وصحـراء غوبـي، وسـوء الظـروف الطبيعيـة، ويمكـن أن نقـرأ العديـد والعديـد مـن روايـات القدمـاء حـول هـذا الطريـق. ففـي القـرن الخامـس الميـلادي، دوَّن الراهـب فـا شـيان فـي كتابـه "السـيرة الذاتيـة للبوذيـة" حـول رحلتـه البحثيـة نحـو الغـرب قائـلًا: "هنـاك العديـد مـن الأشـباح، والريـاح السـاخنة فـي الصحـاري والأنهـار، كل مـن يواجههـا يفنـى، ولا ينجـو أحـد. لا طيـور فـي السـماء، ولا حيوانـات علـى الأرض، وعنـد التطلـع بنظرنـا نحـو الأفـق، للبحـث عـن مـأوى، لا نـدرك مـا العمـل وقتهـا، فـلا يوجـد أمامنـا سـوى هيـاكل عظميـة

لأنـاس ميتيـن"، وبعدهـا بأكثـر مـن مئـة عـام، دوَّن –أيضًـا- بيـي جيـو التابـع لعهـد أسـرة سـوي الملكيـة فـي كتابـه "السـيرة الذاتيـة المصـورة للمناطـق الغربيـة" قائـلًا: "فـي شـرق مدينـة قاوتشـانغ بولايـة شـيجوو، وبالاتجـاه نحـو الجنـوب الشـرقي مسـافة 650 كيلومترًا وصـولًا إلـى مدينـة جواجـوو، نجـد غطـاء صحراويًّـا يغطـي المنطقـة بالكامـل، وأعشـابًا مـن الصعـب السـير خلالهـا، وأخطـارًا محيطـة بالجهـات الأربـع، والطـرق هنـاك صعـب تذكرهـا بشـكل سـليم، ولا يجـد المـارة دليـلًا لهـم سـوى عظـام البشـر والحيوانـات، وروث الجمـال والخيـول، كمـا أن الطـرق مدججـة بالأشـباح فـي كل مـكان، فالبشـر والحيوانـات المـارة لا تعـود عـادة، فقـد سـبق وسـمع بعـض النـاس العابريـن بتلـك الصحـراء أصـوات هتـاف، دون أن يـروا أحـدًا، وأيضًـا أصـوات غنـاء وبـكاء، واختفـى العديـد مـن الأشـخاص فـي طرفـة عيـن، ومـات العديـد –أيضًـا- لهـذا السـبب، تحـت غطـاء مـن جميـع أنـواع الأرواح الشـريرة"، ويتمثـل كل مـا رواه كل مـن فـا شـيان، وبيـي جيـو فـي منطقـة صحـراء غوبـي، والصحـراء الواقعـة فـي شـرق منطقـة شـينجيانغ فقـط، أمـا صحـراء تاكلامـكان فالأخطـار فيهـا أكثـر بكثيـر بالمقارنـة بهذيـن المكانين فـي شـينجيانغ، وفـي القـرن الثالـث عشـر، ذكـر ماركوبولـو فـي مذكـرات سـفره منطقـة مدينـة لـوب نـور قائـلًا: "لا يمكـن العثـور علـى طعـام فـي هـذه الصحـراء، ولهـذا انقرضـت الطيـور والحيوانـات مـن ذلـك المـكان، ومـع ذلـك، هنـاك أمـر عجيـب يحـدث هنـا، أرجـو قصَّـه علـى الملـك، وهـو أن بعـض المـارة الراكبيـن عبـر هـذه الصحـراء ليـلًا، يضـل أحدهـم طريقـه، إمـا بسـبب غفوتـه، أو تأخـره عـن الآخريـن، ومـا إن يبـدأ البحـث عنهـم، حتـى يسـمع أصـوات أشـباح مشـابهة لأصـوات أقرانـه، وأحيانًـا تنـادي الأشـباح باسـمه، وتجعلـه يضـل طريقـه عـدة مـرات، وقـد مـات إثـر هـذا الأمـر العجيـب العديـد والعديـد مـن الأشـخاص، حتـى أنهـم يسـمعون بالنهـار أصـوات أشـباح، وأحيانًـا أصـوات موسـيقى، مـن بينهـا أصـوات الطبـول هـي الأبـرز، وكل مـن يمـر عبـر تلـك الصحـراء، يواجـه تلـك المتاعـب نفسـها".

الفصل الثاني

معالم التراث العالمي في ممرات سلسلة جبال تيانشان.. السماء تقبض على بحر الغيوم بأعلام التنين

في يونيو من عام 2014م، اتحدت كل من الصين، وكازخستان، وقيزغيزستان للمطالبة بإداراج "طريق حرير ممرات سلسلة جبال تيانشان" كمشروع تراث عالمي، وقد نجحوا في هذا الأمر، حيث تم اعتماده خلال انعقاد الدورة الثامنة والثلاثين من مؤتمر الجمعية العمومية للجنة التراث العالمي، والذي عقدته منظمة اليونسكو في العاصمة القطرية الدوحة، ويمثل طريق الحرير طريقًا خطيًّا من معالم التراث العالمي، بطول 5000 كيلومتر تقريبًا، ويشمل 33 موقعًا أثريًّا متعدد الأنواع، وتبلغ المساحة الإجمالية المطالب بإدراجها ضمن منطقة معلم التراث العالمي 426.8 كيلومتر مربع، وتبلغ المساحة الإجمالية لمنطقة المعلم والمنطقة العازلة معًا 2344.64 كيلومتر مربع؛ من بينها يقع 22 موقعًا أثريًّا، وأبنية قديمة، وغيرها من الأطلال الأثرية داخل الحدود الصينية، حيث تقع 4 مواقع في مقاطعة خه نان، و7 مواقع في مقاطعة شانشي، و5 مواقع من نصيب مقاطعة قانسو، وأخيرًا 6 مواقع من نصيب منطقة شينجيانغ الويغورية ذاتية الحكم، أما كازخستان فيقع فيها 8 مواقع أثرية، وتمتلك قيرغيزستان 3 مواقع، ومع ذلك، يعتبر كل هذا جزءًا واحدًا فقط من مسار طريق الحرير القديم، وليس الكل، ففي السنوات الأخيرة، تتحضر كذلك العديد من الدول -التي يمر عبرها مسار طريق الحرير القديم- بإيجابية للمطالبة بإدراج بقية طرقه ضمن قائمة التراث العالمي.

وخلال مؤتمر الجمعية العمومية، تقدمت لجنة التراث العالمي بالتقييم التالي حول طريق حرير ممرات سلسلة جبال تيانشان:

يشهد طريق الحرير على الحقبة الزمنية التي امتدت من القرن الثاني قبل الميلاد وحتي القرن السادس عشر الميلادي، والتي شهدت التبادل الاقتصادي، والثقافي، والتطور الاجتماعي بين

قارتـي آسـيا وأوربـا، خاصـة تبـادل الحضـارات القائمـة علـى الرعـي والزراعـة؛ حيـث يُعـد طريـق الحريـر مثـالًا ممتـازًا علـى دفـع تنميـة المـدن الكبـرى، والتنميـة الحضريـة، ودعـم منظومـة إدارة مرافـق الميـاه لحركـة التجـارة، وذلـك مـن خـلال التجـارة لمسـافات طويلـة عبـره، وهنـاك ارتبـاط مباشـر بيـن طريـق الحريـر والعديـد مـن الأحـداث التاريخيـة الكبـرى كإرسـال الجنـرال جانـغ تشـيان لفتـح المناطـق الغربيـة، كمـا أنـه يعكـس بعمـق انتشـار ديانات البوذيـة، والمانويـة، والمجوسـية، والزرادشـتية وغيرهـا مـن الديانـات، وكذلـك أيديولوجيـات تخطيـط المـدن فـي الصيـن القديمـة، ومنطقـة آسـيا الوسـطى، وغيرهـا مـن المناطـق.

وخـلال عمليـة المطالبـة بـإدراج طريـق الحريـر ضمـن قائمـة التـراث العالمـي، أكـد الخبـراء الدوليـون بشـدة علـى أنـه بسـبب الإدارة الفعالـة مـن قبـل أسـرة قبائـل السـهول الوسـطى، فقـد ضمنـت سلاسـة عبـور طريـق الحريـر دون أي عوائـق.

وقـد أشـارت تلـك التعليقـات التـي طرحهـا خبـراء التـراث العالمـي الدوليـون إلـى العديـد مـن النقـاط المهمـة حـول طريـق حريـر ممـرات سلسـلة جبـال تيانشـان، ومـن أهمهـا مـا أكـدوا عليـه مـن الـدور الحاسـم لأسـرة قبائـل السـهول الوسـطى فـي شـق طريـق الحريـر وصيانتـه، وهـي نقطـة مميـزة تسـتحق الالتفـات إليهـا. فقـد دوَّن كتـاب "تاريـخ أسـرة هـان الملكيـة.. مجلـد السـيرة الذاتيـة للمناطـق الغربيـة" قائـلاً:

"فـي فتـرة سـنوات تقويـم شـينغ التابـع لأسـرة هـان الملكيـة، اعتلـى الإمبراطـور شـياو أو العـرش، وفرضـت الدولـة سـيطرتها علـى كافـة الأرجـاء، وهنـا، بـدأ الجنـرال جانـغ تشـيان خطواتـه نحـو المناطـق الغربيـة؛ حيـث قـام الجنـرال المبتعـث بشـن هجومـه علـى ميمنـة قبائـل الهـون، ووطَّـد علاقاتـه بـدول جيانغخـون شـيه، شـيو تووانـغ، وسـويكونغ تشـي، ومـن ثـم قـام ببنـاء مدينـة جيوتشـيوان، كمـا قـام بنقـل المواطنيـن ليسـكنوا فـي 4 مـدن هـي أوويـي، جانغيـي، دونخوانـغ، وليـه سـه، وذلـك عبـر ممـري يانغقـوان، ويوميـن، وبعـد انتصـار الجنـرال لـي جوانـغ لـي علـى دويلـة داوان، تزلزلـت المناطـق الغربيـة، وأرسـلت حكومـة أسـرة هـان تعزيـزات كثيـرة مـن الجنـود للإسـهام فـي انتصاراتهـم علـى المناطـق الغربيـة، ونُصبـت المقصـورات علـى طـول الطريـق مـن مدينـة دونخوانـغ، وحتي مدينـة يانـزه، أما مدينـة لونتاي، ومدينـة تـو لـي فاسـتقر بهـا مئـات الجنـود المشـاركين فـي نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة، تحـت قيـادة قـادة تطبيـق هـذا النظـام فـي المـدن، وذلـك لفـرض

الحماية وإرسالهم لإمداد الجيوش خارج البلاد حين الحاجة لذلك".

وتشير عبارة "إرسالهم لإمداد الجيوش خارج البلاد حين الحاجة لذلك" إلى الضمان المادي والأمني لكافة المبتعثين شرقًا وغربًا، حيث كان للحكومة المركزية السيادة لإدارة المناطق الغربية، وضمان سلاسة طريق الحرير وعبوره دون عوائق، وقد حققت منظومة الإدارة العسكرية بناء العديد من البُنى التحتية في المناطق الغربية كبناء المدن، ومنصات إشعال النار، والمرافق الخاصة بتطبيق نظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية، وغيرها من مشروعات البناء.

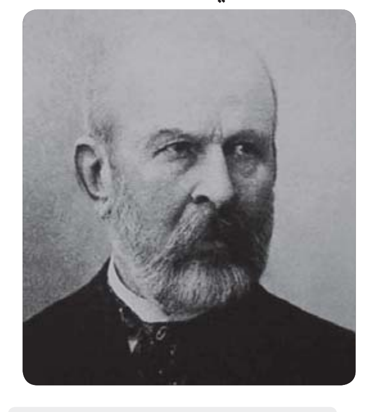


منصة كيزيل غاها لإشعال النار

جدول (1) التراث العالمي لطريق حرير ممرات سلسلة جبال تيانشان

الدولة	المواقع الأثرية
الصين	قصر ويي يانغ التابع لعهد أسرة هان الملكية بمدينة تشانغ آن/ قصر دامينغ التابع لعهد أسرة تانغ الملكية بمدينة تشانغ آن/ برج دايان الكبير/ برج شياويان الصغير/ برج معبد شينغجياو/ معبد بوذا الكبير المنحوت بالكهف بمدينة بينشيان/ مقبرة الجنرال جانغ تشيان/ أطلال مدينة لوه يانغ التابعة لعهد أسرتي هان وويي الملكيتين/ بوابة دينغ دينغ الأثرية بمدينة لوه يانغ والتابعة لعهد أسرتي سوي وتانغ الملكيتين/ بوابة هانقو بمدينة شين آن القديمة التابعة لعهد أسرة هان الملكية/ خندق خاودون الحجري بطريق شياوخان القديم/ ممر يومين/ معبد جبل مايجي المنحوت بالكهف/ معبد بينغ لينغ المنحوت بالكهف/ أطلال مدينة سوه يانغ القديمة/ أطلال مدينة شيوان تشيوان جه القديمة/ أطلال مدينة بيي تينغ القديمة/ أطلال مدينة قاوتشانغ القديمة/ أطلال مدينة جياو خه القديمة/ منصة كيزيل غاها لإشعال النار/ معبد كيزيل المنحوت بالكهف/ معبد سوباشي البوذي.
كازخستان	أطلال كايااليك/ أطلال تالجار/ أطلال أكتوبي/ أطلال قوران/ أطلال أوميك/ أطلال أكيار تاسمانيا/ أطلال كوستوبي/ أطلال كارامورجان.
قيرغيزستان	أطلال أكبيشيم/ أطلال برانا/ أطلال كوراسنا ريتشكا.

وتماشيًا مع طرح الصين لمبادرة "الحزام والطريق"، أصبح طريق الحرير موضوع حوار ساخن على المستوى الدولي، وخاصة داخل البر الصيني، حيث تزايدت بشدة أعداد المهتمين بهذا الموضوع، ومع ذلك، هناك تساؤل يستحق طرحه في هذا الصدد.



عالم الجغرافيا الألماني فيرديناند فون ريتشهوفن

(Ferdinand von Richthofen)

من المعروف لدى الجميع أن مفهوم "طريق الحرير" قد تم طرحه من قِبل عالم الجغرافيا الألماني فيرديناند فون ريتشهوفن (1833م- 1905م)؛ حيث يرى ريتشهوفن أن "طريق الحرير قد عمل على ربط الصين بمناطق ما وراء النهر (المناطق الواقعة بين نهري أموداريا "جيحون" وسيرداريا "سيحون" في منطقة آسيا الوسطى)، وكذلك ربط

الصين بدولة الهند، وذلك خلال الفترة 114 ق.م- 127م، ليصبح طريق الحرير مسارًا لحركة المرور التجارية في المناطق الغربية"، ومن خلال مفهوم ريتشهوفن لـ"طريق الحرير" نجد أنه يحتوي على زمان ومكان محددين، وكذلك توضيح لمحتواه، وبعد طرح ذلك المفهوم بفترة زمنية ليست بطويلة، طرح عالم التاريخ الألماني أربارت هيرمان (A.Herrmann) عام 1910م في كتابه "طريق الحرير القديم بين الصين وسوريا" قائلًا: "ينبغي علينا أن نمد ما يعنيه هذا المسمى إلى الطريق المؤدية إلى منطقة سوريا الواقعة في الغرب البعيد"؛ حيث يرى هيرمان بضرورة المد الطويل للإطار المكاني لطريق الحرير ناحية الغرب، وبعد هذا الطرح، وتماشيًا مع تراكم أطروحات الأوساط العلمية، توسع مفهوم طريق الحرير مرة أخرى على المستويين الزماني والمكاني. فعلى المستوى المكاني، امتد الطريق من الصين نحو الشرق ليصل إلى كوريا، واليابان، ونحو الغرب ليصل بعيدًا إلى إفريقيا، أما المستوى الزماني، فقد بدأ الطريق منذ فترة عهد الإمبراطور ليو تشه (إمبراطور أسرة هان الملكية)، وحتي القرن السادس عشر.

وقد دوَّن كتاب "السجلات المؤرخة" حول إرسال الجنرال جانغ تشيان في مهمة للمرة الثانية إلى المناطق الغربية، قائلًا:

بعد مضي أكثر من عام على وفاة الجنرال جانغ تشيان، عاد إلى الصين تقريبًا كل السفراء الذين قد أرسلهم سابقًا في مهام إلى دويلة داشيا وغيرها من البلدان، وعاد بصحبتهم كذلك سفراء من تلك الدول، ومنذ هذه اللحظة، بدأت الدول الواقعة في الشمال الغربي بإقامة العلاقات المتبادلة مع أسرة هان الملكية، وبسبب شق الجنرال جانغ تشيان للطريق المؤدية إلى المناطق الغربية، أطلق العديد من السفراء والمبتعثين لخارج الصين لقب "بوه وانغ خوو"[1] على الجنرال جانغ تشيان، وبهذا، كسبت أسرة هان الصينية ثقة الدول الأجنبية.

ويشير هذا التدوين بوضوح إلى "شق" الجنرال جانغ تشيان لطريق الحرير، ويمكن القول إنها المرة الأولى التي يُشق فيها بشكل رسمي طريق يصل إلى

1- لقب أطلقه إمبراطور أسرة هان الملكية على الجنرال جانغ تشيان، ومن ثم اشتهر به في الأوساط العامة، ويعني "الفارس الشهير الراغب دائمًا في العودة لموطنه"، فقد قضى سنوات عديدة في إنهاء مهامه في المناطق الغربية، من بينها قضى 15 عامًا يهيم في البلدان هربًا من بطش الهون، والعودة لموطنه. (المترجِمة)

المناطق الغربية، مما يجعل هذا العمل يحمل طابعًا رسميًّا من قِبل الحكومة الصينية، ويمكن القول كذلك إنه بعد إرسال الجنرال جانغ تشيان في مهمته للمناطق الغربية، بدأت تظهر العلاقات الرسمية المتبادلة بين حكومة أسرة قبائل السهول الوسطى الصينية، ومختلف المناطق الغربية الشاسعة، ويُقصد بـ"شق الطريق" الانطلاق -أيضًا- من هذا المعنى نفسه، ففي واقع الأمر يتوجب علينا الاعتراف بأن مستوى فهم الناس لطريق الحرير يتجدد باستمرار بالتماشي مع تقدم الأوساط العلمية، إلا أنه في كل الأحوال لا يوجد مجال للشك في أن الجنرال جانغ تشيان هو من شق طريق الحرير في البداية.



قطعة أثرية مستخرجة من مقبرة الجنرال جانغ تشيان ومختومة بلقب "بوه وانغ خوو"

إذن، السؤال الآن.. هل كان هناك تبادل حضاري بين الشرق والغرب قبل مجيء الجنرال جانغ تشيان؟ الجواب.. نعم بكل تأكيد؛ حيث تشير الاكتشافات الأثرية التي قام بها الباحثون في العصر الحديث إلى أن التبادل الحضاري بين الشرق والغرب كان موجودًا بالفعل منذ القدم في عصور ما قبل التاريخ، خاصة شعوب السهول الأوراسية التي كانت تتنقل وتتداول المواد المختلفة بين الشرق والغرب، ومن هنا، تداول العديد من الناس الكلام حول "طريق الحرير" من قبل مجيء أسرة هان الملكية حتى، وأنا شخصيًّا (تشين لينغ "محرر هذا الباب من الكتاب") أرى أن هناك سوء تفاهم في هذا الأمر، فأن يكون هناك تبادل بين الشرق والغرب قبل ظهور أسرة هان الملكية لهو أمر حقيقي، إلا أنه لا يضاهي التبادل عبر "طريق الحرير"، فوفقًا لما دوَّنه كتاب "السجلات المؤرخة"، فإنه قبل ابتعاث الجنرال جانغ تشيان لقضاء مهامه في المناطق الغربية، قد عرف أحوال بعض القبائل المقيمة هناك، مما يوضح ضرورة وجود اتصال بشري ومادي، وتداول للمعلومات بين الشرق والغرب قبل ذلك الوقت، ومع ذلك، لا تزال كتب التاريخ القديمة تنسب

للجنرال جانغ تشيان مهمة "شق" الطريق المؤدية للمناطق الغربية، مما يؤكد أن مهمة الجنرال جانغ تشيان كانت -في أعين الناس وقتها- منقطعة النظير.

ويجب القول إن شق الجنرال جانغ تشيان لطريق الحرير المؤدية إلى المناطق الغربية كان عملاً سياسيًّا وطنيًّا، ولهذا السبب بالتحديد، وتماشيًا مع تأسيس الحكومة الصينية المركزية وقتها مجموعة من المنظومات السياسية، والإدارية العسكرية في المناطق الغربية، فقد كان هناك ضمان وتحفيز كلي، وتعميق كبير كذلك للعلاقات بين الشرق والغرب، فقبل اتجاه الجنرال جانغ شيان نحو الغرب، كان التبادل الحضاري بين الشرق والغرب تلقائيًّا، وذا طبيعة شعبية، ولا مجال لمقارنة مدى عمق هذا التبادل واتساع نطاقه مع نظيرهما بعد شق طريق الحرير بشكل رسمي.

ولهذا، فأنا أرى شخصيًّا أنه يمكن تقسيم التبادل الحضاري بين الشرق والغرب إلى 4 مراحل منذ عصر ما قبل التاريخ، وحتى القرن السادس عشر الميلادي:

جدول (2) التقسيم الزمني لطريق الحرير

قبل القرن الثاني الميلادي	العصر المبكر لطريق الحرير
من القرن الثاني الميلادي، وحتي القرن الثالث الميلادي	العصر الكلاسيكي القديم لطريق الحرير
من القرن الرابع الميلادي، وحتي القرن التاسع الميلادي	العصر الذهبي لطريق الحرير
من القرن العاشر الميلادي، وحتي القرن السادس عشر الميلادي	عصر اضمحلال طريق الحرير

ويُطلق كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية.. مجلد السيرة الذاتية للمناطق الغربية" على المناطق الغربية اسم "الدويلات الست والثلاثون التي انقسمت تباعًا لتشكل أكثر من 50 دويلة"، كما يدوِّن الكتاب قائلاً: "عاشت كافة دول المناطق الغربية حياة رغيدة، فقد كانوا يسكنون المدن المحصنة بالجدران الداخلية والخارجية، وكانوا يمتلكون الحقول والماشية، وكانت تختلف تقاليدهم عن تقاليد قبيلة

الهـون، وشـعب دويلـة أوسـون"، ومـن هنـا، يتبيـن لنـا أنـه قبـل توجـه الإمبراطـور ليـو تشـه (إمبراطـور أسـرة هـان الملكيـة) نحـو المناطـق الغربيـة، كانـت هنـاك العديـد مـن المـدن الموجـودة بالفعـل فـي المناطـق الغربيـة، ومـن المعـروف لـدى الجميـع، أن المناطـق الغربيـة فـي عهـد أسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن كانـت عبـارة عـن بـؤر تتنافـس عليهـا بشـكل متكـرر قبائـل السـهول الوسـطى، والقبائـل الرعويـة الشـمالية للفـوز بهـا، فالمناطـق الغربيـة فـي الأصل كانـت تخضـع لسـيطرة الهـون، وبعـد مهاجمـة أسـرة هـان الصينيـة لقبائـل الهـون والقضـاء عليهـا، "تـم نقـل المواطنيـن المحلييـن ليسـكنوا فـي 4 مـدن، وذلـك عبـر ممـري يانغقـوان، ويوميـن"، "ونُصبـت المقصـورات علـى طـول الطريـق مـن مدينـة دونخوانـغ، وحتـى مدينـة يانـزه"، وأسسـت الحكومـة المركزيـة منظومـة حواجـز دفـاع عسـكرية، وبـدأت فـي تطبيـق نظـام عسـكرة الجنـود والفلاحيـن فـي الأراضـي الزراعيـة لاسـتصلاحها، "ولإمـداد الجيـوش خـارج البـلاد حيـن الحاجـة لذلـك"، وتماشـيًا مـع إدراج المناطـق الغربيـة داخـل مناطـق الحـدود الصينيـة، بـدأت قبائـل السـهول الوسـطى كذلـك فـي إنشـاء المـدن فـي المناطـق الغربيـة؛ حيـث عملـت علـى إجـراء الإصلاحـات فـي البُنـى التحتيـة لبعـض مـدن الواحـات الأصليـة، بينمـا عملـت علـى إنشـاء بعـض المـدن الأخـرى الجديـدة، ويمكننـا الآن رؤيـة المواقـع الأثريـة القديمـة فـي المناطـق الغربيـة، والتـي يعـود معظمهـا إلـى مـا بعـد عهـد أسـرة هـان الملكيـة.

ولبعـض الأسـباب التـي تعـود للخلفيـة الجغرافيـة والتاريخيـة، تمتلـك المناطـق الغربيـة العديـد مـن المميـزات المختلفـة عـن بقيـة المناطـق، ليظهـر بهـا مزيـج فريـد للتعـدد الثقافـي؛ حيـث يمكـن القـول إن المـدن القديمـة الواقعـة فـي المناطـق الغربيـة كانـت تمثـل نقـاط الدعـم الأساسـية لطريـق الحريـر القديـم، ومـن خـلال التعـرف علـى تلـك المـدن، يمكـن اسـتيعاب وفهـم الهيـكل الأساسـي لتاريـخ طريـق الحريـر وثقافتـه.

فعلـي طـول خـط طريـق الحريـر توجـد المئـات مـن المواقـع الأثريـة القديمـة التـي ظهـرت للعديـد مـن الأسـباب، إلا أنـه لـم يُـدرج الكثيـر منهـا ضمـن قائمـة المطالبـة باعتمادهـا كتـراث عالمـي، وسـنختار فـي الجـزء التالـي مـن هـذا الكتـاب أهـم بعـض تلـك المـدن القديمـة لنقـدم لمحـة عامـة عـن أحوالهـا، ومـن خـلال شـرح البيئـة الجغرافيـة،

والتطـور التاريخـي، والاكتشـافات الأثريـة المتعلقـة بتلـك المـدن، سـنُظهر مكانتهـا ودورهـا فـي مسـيرة طريـق الحريـر، ممـا سيسـاعد القـارئ فـي التعـرف علـى الثقافـة المنوعـة لطريـق الحريـر القديـم.

الفصل الثالث

مدينة بيي تينغ القديمة.. ولادة المدينة مع ظهور انقسام في قبائل الهون

تقـع أطـلال مدينـة بيـي تينـغ القديمـة التابعـة لعهـد أسـرة تانـغ حاليًـا فـي قرية بوه تشـينغ زه التـي تقـع علـى بعـد 12 كيلومتـرًا تقريبًـا شـمال مدينـة جيموسـار بمنطقـة شـينجيانغ، وتقـع مدينـة جيموسـار شـرق السـفح الشـمالي لسلسـلة جبـال تيانشـان، فـي الطـرف الجنوبـي الغربـي لحـوض جونغـار، وترتبـط شـرقًا بمدينـة تشـيتاي، وغربًـا بمدينـة فوكانـغ، وشـمالًا بجبـال مدينـة قاراماي التـي تصـل إلـى مدينـة فويـون، ويحدهـا جنوبًـا جبـال بوجـدا، ومدينتي أوروموتشـي، وتوربـان، ومـن حيـث الموقـع الجغرافـي، نجـد أن موقـع مدينـة جيموسـار مهـم للغايـة، فهـي تمثـل نقطـة مشـتركة للسـيطرة علـى الحـدود الجنوبيـة، والشـمالية، والشـرقية.

وقبـل مجـيء أسـرة هـان الغربيـة لسـدة الحكـم، كانـت منطقـة جيموسـار موقعًـا لمزاولـة شـعب أوسـون أنشـطتهم اليوميـة، ومـع توسـع قـوة قبائـل الهـون، أُدرجـت هـذه المنطقـة تحـت رايـة الهـون وسـيطرتها. "وبتولـي الإمبراطـور ليـو شـيون (إمبراطـور أسـرة هـان الملكيـة) زمـام الحكـم، أرسـل العديـد مـن القـادة للولايـة علـى دولـة شانشـان وغيرهـا مـن الـدول الأخـرى فـي المناطـق الغربيـة، وبعدمـا هـزم القـادة دولـة قوشـه، لـم يتمكنـوا مـن القضـاء علـى أهلهـا بشـكل كامـل، فقامـوا بتقسـيم الدولـة إلـى مملكتيـن و6 دويـلات تقـع فـي منطقـة الجبـل الشـمالي، وإبـان فتـرة حكـم أسـرة هـان الملكيـة، تولـت أمـور الولايـة علـى الطـرق الجنوبيـة للمناطـق الغربيـة، ولـم تكـن قـد تمكنـت بعـد مـن دمجهـا مـع الطـرق الشـمالية بشـكل كامـل"، وبعدمـا تقسـمت دولـة قوشـه، تولـى ملـك مملكـة قوشـه الخلفيـة حكـم مدينـة أوتـو.

وتقـع مدينـة أوتـو حاليًـا فـي حـزام مدينـة جيموسـار، ويـرى بعـض الباحثيـن أن كلمـة

أوتـو عبـارة عـن ترجمـة صوتيـة مـن اللغـة الصينيـة لكلمـة "باغـودا" أو "بـوذا""[1]، وفـي ذلـك الوقـت لـم تكـن الديانـة البوذيـة قـد انتشـرت فـي منطقـة السـفح الشـمالي لسلسـلة جبـال تيانشـان، ولهـذا، يبـدو سـبب هـذه التسـمية غيـر معقـول بشـكل نسـبي، وقـد طـرح العالـم شيوسـونغ التابـع لعهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة فـي كتابـه "الشـرح التكميلـي لمجلـد السـيرة الذاتيـة للمناطـق الغربيـة" قائـلاً إن اسـم مدينـة أوتـو -الـذي يرجـع لعهـد الخاقـان إيليـج الموالـي لأسـرة هـان الملكيـة- عبـارة عـن نقـل صوتـي لمصطلـح باغـودا (بـوذا) الـذي ظهـر لاحقًـا فـي عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة[2]، وقـد ترجـم العالـم الفرنسـي إدوارد شـافانس فـي كتابـه "السـجلات التاريخيـة حـول الأتـراك الغربييـن" كلمـة خاقـان أوتـو (مسـمى آخـر للمدينـة) إلـى "Kagan Buddha""[3]؛ حيـث تشـير "Kagan" إلـى خاقـان، أمـا العالـم اليابانـي هيساشـي ماتسـودا فأظهـر شـكه حـول هـذا الطـرح[4]، وأنـا شـخصيًّا أرى أنـه يمكـن تصديـق روايـة العالـم شيوسـونغ حـول الربـط بيـن "باغـودا" و"أوتـو"، فبالنسـبة لهـذا الطـرح فـإن "باغـودا" تعنـي "بـوذا"، وهـو أمـر قابـل للنقـاش حولـه، وممـا يسـتحق الالتفـات إليـه، مـا ذكـره كتـاب "تاريـخ أسـرة هـان الملكيـة"، المجلـد الرابـع والتسـعون، الجـزء الأول "السـيرة الذاتيـة لقبائـل الهـون": "فـي عهـد ملـك الهـون (الملقـب بـ"لـوان دي") اعتمـدت بلاده تسـمية السـماء بــ"Tängri"، والأبنـاء الذكـور بــ"Gutu"، والملـك بــ"da-gh""؛ حيـث كان يطلـق الهـون علـى أبنائهـم الذكـور اسـم "ku-t"u<M. kou-dou<*kwah-ðah""[5]، وبالبحـث فـي صوتيـات اللغـة الصينيـة القديمـة، أميـل أنـا شـخصيًّا إلـى اعتبـار كلمـة أوتـو ترجمـة منشـقة مـن كلمـة "Gutu" مـن لغـة قبائـل الهـون، وتعنـي الولـد الذكـر، ويـدوِّن مجلـد "السـيرة الذاتيـة لقبائـل الهـون"، قائـلاً: "بعـد تنصيـب هولوجـو زعيمًـا لقبائـل الهـون، عيَّـن زوشـيان -وهـو واحـد مـن طبقـة النبـلاء- كجنـرال مسـؤول عـن ميسـرة قبائـل الهـون، وبعـد عـدة سـنوات مـات

1- تسين جونغ ميان: "تفسير مجلد السيرة الذاتية للمناطق الغربية"، الهيئة الصينية للكتاب، 1981م، صفحة 493-491.

2- شيوسونغ: "الشرح التكميلي لمجلد السيرة الذاتية للمناطق الغربية" الجزء الثاني، انظر "سجلات قنوات المياه في المناطق الغربية" (ملحق بالكتاب الأصلي)، إعداد وتنظيم جو يو تشي، الهيئة الصينية للكتاب، 2005م، صفحة 495.

3- Édouard Chavannes, Documents sur les Tou-kiue (Turcs) occidentaux, St.Peterburg, 1903, p.12.

4- هيساشي ماتسودا: "دراسة جغرافية حول تاريخ سلسلة جبال تيانشان في العصور القديمة"، ترجمة تشين جيون موو، دار نشر الجامعة المركزية للقوميات، 1981م، صفحة 386-375.

5- إيدوين جورج بوليبلانك: "منظومة الحروف الساكنة في اللغة الصينية القديمة"، ترجمة بان أو يون، وشيو وين كان، الهيئة الصينية للكتاب، 1999م، صفحة 170.

هولوجو، ولم تكن هناك شرعية للقائد شيانشيان -ابن الجنرال زوشيان- لتولي الزعامة؛ لأنه كان برتبة قائد (وهي أقل من رتبة الجنرال)، لذا، تولى أبوه الجنرال زوشيان الزعامة، وعيَّن ابنه جنرالًا مسؤولًا عن ميسرة قبائل الهون، وحكما معًا المناطق الغربية"، ومن هنا، نجد أنه من غير المعروف لدينا إذا كانت هناك علاقة تربط بين مسمى "أوتو" وهذا الحدث سالف الذكر أم لا..

وفي بداية حكم أسرة هان الشرقية، "تم إنشاء العديد من مقرات الإدارة للحكومة المركزية في المناطق الغربية، وتم تعيين قادة تطبيق نظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية، حيث تعينت أماكن تطبيق هذا النظام في مدينة جينبو بمملكة قوشه الخلفية، وكانت مقرًّا للقائد قوان تشونغ (قائد تطبيق النظام)، وفي مدينة ليوجونغ بمملكة قوشه الأمامية، انضم مئات الجنود والفلاحين لتطبيق النظام بالأراضي الزراعية"[1]، وكانت تقع مدينة بوتشانغ التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية في جنوب سلسلة جبال تيانشان، أما مقر إقامة القادة المسؤولين عن تطبيق نظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية فكان في مدينة جينبو الواقعة شمال سلسلة جبال تيانشان، وفي عهد الإمبراطور ليو جاو (في عهد أسرة هان الشرقية)، تم تعيين قادة لتطبيق النظام، وكان مقرهم في مدينة خووتشينغ بمملكة قوشه.

وبعد ذلك، تعاقب في السيطرة على المناطق الشرقية من السفح الشمالي لجبال تيانشان العديد من قبائل الرعي كقبائل الروران، والتيلي، والأتراك الغربيين (التركمان)، وكان الأتراك الغربيون هم من أنشؤوا مدينة خاقان أوتو في هذا المكان، وفي العام الرابع عشر من تقويم جينقوان (640م)، سوَّت أسرة تانغ الملكية دولة قاوتشانغ بالأرض، "ففي البداية، أرسلت قبائل الأتراك الغربيين تعزيزاتها من الجنود لمدينة أوتو، وتأثرت بذلك دولة قاوتشانغ، لدرجة أن نزل

1- يرى السيد يوتاي شان أن قائد تطبيق نظام عسكرة الجنود والفلاحين بالأراضي الزراعية كان مقره في مدينة جينبو، وليس في مقرات الإدارة نفسها. انظر كتاب يو تاي شان: "دراسة تاريخية حول العلاقة بين أسر هان، وويي، وجين، والشمالية والجنوبية من ناحية، والمناطق الغربية من ناحية أخرى"، دار نشر الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، 1995م، صفحة 265-264.

الخوف والرعب بشعبها، وتم القضاء عليها، وحل محلها مدينة تينغجوو"[1]، ومن هنا، أنشأت أسرة تانغ مدينة تينغجوو، وسكنتها قبائل أشيناهورو (آخر قبيلة تابعة للأتراك الغربيين)، وفي العام الرابع من تقويم يونغ ويي التابع لأسرة تانغ الملكية (653م)، تم إنشاء مقرات إدراة الحكومة المركزية (مقرات ياوتشه)، وأُنشَئت مدينة جينمانجوو في المنطقة التي تمارس فيها قبيلة شاتو أنشطتها، وفي العام الثاني من تقويم تشانغ آن (702م)، اتُخذت مدينة تينغجوو كمقر لإدارة الحكومة المركزية في مدينة بيي تينغ، وفي العام 840 م، وبعد هجرة قبائل الويغور نحو الغرب، أصبحت مدينة بيي تينغ عاصمة الويغور في الولاية الغربية، وقد ذكر أوو يانغ شيوان في كتابه "السيرة الذاتية لقبيلة شيه شه التابعة لدولة قاوتشانغ" قائلاً: "تقع مدينة بيي تينغ حاليًا في مدينة بيشباليك"، وتُكتب باللغة التركية "Beshbaliq"، حيث تترجم "besh" إلى الخامس، وتترجم "baliq" إلى مدينة، لتعني المدينة الخامسة، والتي تشير إلى مدينة بيي تينغ.

وبالنسبة لشكل مدينة بيشاباليك، كان للأوساط العلمية دومًا ثلاثة آراء مختلفة[2]؛ حيث يرى الفريق الأول أن حزام مدينة بيي تينغ يشمل 5 مدن، تُسمى في مجملها "بيشاباليك"، ويرى الفريق الثاني أنه كانت هناك 5 مدن مهمة تقع داخل حدود دولة قاوتشانغ الويغورية، ولها مسمى مدمج وهو "بيشاباليك"، أما الفريق الثالث فيرى أن "بيشاباليك" تشير إلى هيكل مدينة بيي تينغ، أي أن مدينة بيي تينغ تتكون من 5 أجزاء داخلية.

وبعد القرن السابع الميلادي، حظيت مدينة تينغجوو (بيشاباليك) بعمليات ترميم لعدة مرات على الأقل، وهناك فقرة في كتاب وانغ يان ديه "السجلات التاريخية حول دولة قاوتشانغ" حول وصف مدينة بيي تينغ[3]، يقول فيها:

في الشهر الرابع لجأ الملك شه تزه إلى مدينة بيي تينغ للاحتماء من قيظ الشمس..

1- "كتاب تاريخ أسرة تانغ الملكية القديم،" المجلد 198"، السيرة الذاتية لدولة قاوتشانغ".

2- تاكيو أبي (اليابان): "دراسة حول تاريخ دولة الويغور الغربية"، ترجمة سونغ سو يينغ، ليو ميي سونغ، شيو بوه فو، دار شعب شينجيانغ للنشر، 1985م.

3- "تاريخ أسرة سونغ الملكية"، المجلد 490، "السيرة الذاتية لقومية الويغور".

وكانـت المدينـة تمتلـئ بالخيـول، حيـث كان الملـوك تلـو الملـوك يربـون كافـة أنواعهـا، وخلفاؤهـم كذلـك، وكانـوا يرعونهـا فـي السـهول حـول الأنهـار التـي كانـت تمتـد لأكثـر مـن 50 كيلومتـرًا، وكانـت تُقسـم الخيـول إلـى مجموعـات بحسـب لـون شـعرها، ولـم يكـن يُعـرَف عددهـا بالتحديـد، وتمتـاز مدينـة بيـي تينـغ بطـول أنهارهـا واتسـاع فروعهـا، التـي كانـت موطنًـا لمولـد النسـور والصقـور، وكانـت تمتـاز بألـوان أعشـابها المتعـددة، إلا أنهـا لا تنبـت أزهـارًا، وكانـت مسـكنًا لفئـران الرمـال الكبيـرة، التـي كانـت طعامًـا للطيـور الجارحـة، وحـدد ملـك المدينـة يومًـا لمقابلـة مبعـوث الملـك شـه تـزه، آمـلاً ألا يتعجـب مـن حالـه، وفـي اليـوم السـابع، قابـل خادمـي الملـك وأبنـاءه، وانحنـوا جميعًـا أمامـه تعبيـرًا عـن شـكرهم لـه، وكان بجوارهـم حاملـو الطبـول الذيـن قامـوا بقرعهـا عنـد انحنائهـم، ومـا إن سـمع الملك صـوت قرع الطبـول حتـى انحنـى هـو الآخـر، وبعـد ذلـك، انحنـى كل مـن أبنـاء وبنـات الملـك، وأقاربـه كذلـك تعبيـرًا عـن شـكرهم، وبـدأت الوليمـة المعـدّة، مـع اسـتعراض للعـروض المضحكـة، حتـى شـفق اليـوم التالـي، وفـي صبـاح اليـوم التالـي، تجمـع الجميـع فـي بـركات السـباحة، وقُرعـت الطبـول علـى حـواف البـركات الأربـع، وفـي صبـاح اليـوم التالـي، تجولـوا فـي المعبـد البـوذي، ثـم فـي معبـد تايننـغ الـذي أُنشـئ فـي العـام الرابـع عشـر مـن تقويـم جينقـوان.

ويُسـتخرج ملـح النشـادر مـن الجبـل الشـمالي لمدينة بيي تينـغ، ودائمًـا ما تتصاعـد الغازات مـن وسـط الجبـل، دون وجـود سـحب ضبابيـة فـي السـماء، وإذا أُشـعلت النـار فـي المسـاء، يمكـن رؤيـة الطيـور والفئـران وقـد مالـت ألوانهـم إلـى الحمـرة، وكان ينتعـل مسـتخرجو تلـك المـواد الأحذيـة ذات النعـال الخشـبية، والجلـود المحترقـة، فقـد كان فـي أسـفل الجبـل كهـوف بهـا طيـن أخضـر، وتغيـرت الصخـور الموجـودة أمـام تلـك الكهـوف لتكـون الحبيبـات الرمليـة التـي يسـتخدمها المسـتخرجون لصنـع الجلـود، وفـي المدينـة كانـت هنـاك العديـد مـن الأبنيـة المحاطـة بالأشـجار والأعشـاب، وكانـت تمتـاز تلـك الأبنيـة ببياضهـا الناصـع، وضبـط تصميمهـا، وبراعـة حرفيتهـا، وامتلكـت المدينـة مشـغولاتها الذهبيـة، والفضيـة، والبرونزيـة، وكذلـك مشـغولات اليشـم المصقولـة.

ووفقًـا لوصـف وانـغ يـان ديـه، فبعـد بنـاء أسـرة تانـغ الملكيـة مدينـة تينغجـوو، تعـرض تصميـم المدينـة، وأشـكال أبنيتهـا الداخليـة لعمليـات ترميـم واسـعة النطـاق، ممـا أحـدث تأثيـرًا كبيـرًا علـى التصميـم الشـكلي لمدينـة تينغجـوو فـي مـا بعـد، أمـا عندمـا انتقلـت قبائـل الويغـور للعيـش فـي قاوتشـانغ، فقـد تحولـوا لرعـاة شـبه مسـتقرين، وكانـت

المدينـة -علـى الأقـل- قـد اتجهـت نحـو الشـرق فـي هـذا الوقـت، وهـو الاتجـاه الصحيـح، كمـا تجـاوزت الضفتيـن الشـرقية والغربيـة للنهـر، فـلا بـدَّ أن تكـون الضفـة الغربيـة للنهـر الموجـودة حتـى عصرنـا الحالـي جـزءًا مـن المدينـة فقـط لا غيـر.



مدينة بيي تينغ القديمة

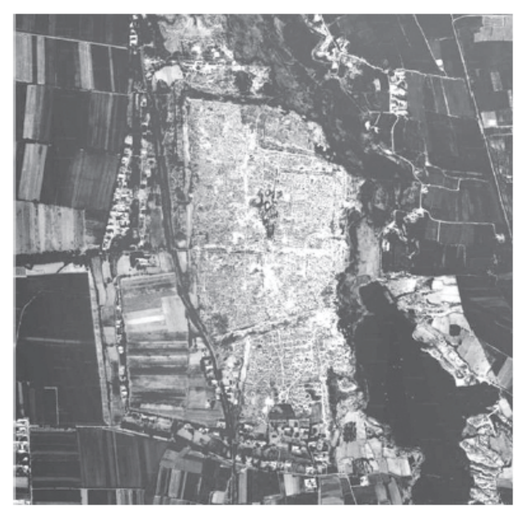
وتظهـر مدينـة بيـي تينـغ القديمـة المحفوظـة فـي وقتنـا الحاضـر بشـكل مسـتطيل غيـر منتظـم الشـكل، بطـول 1666 متـر تقريبًـا مـن الشـمال للجنـوب، وبعـرض 959 متـرًا تقريبًـا مـن الشـرق للغـرب، وبمسـاحة حوالـي 1304092 متـر مربـع، وتحتـوي فـي الأسـاس علـى 3 مـدن مهمـة، هـي المدينـة الخارجيـة، والمدينـة الداخليـة، ومدينـة قصـر الحاكـم؛ حيـث أُلحقـت مدينـة صغيـرة عنـد منطقـة الوسـط للجـدران الشـمالية للمدينـة الخارجيـة، كمـا كانـت هنـاك بعـض المـدن لتربيـة الأغنـام والخيـول فـي شـمال المدينـة الأصليـة، وفـي الماضـي، كانـت هناك بعـض أعمـال البحـث والتنقيـب الأثـري المتقطـع فـي مدينـة بيـي تينـغ، إلا أنـه لا تـزال هنـاك العديـد مـن القضايـا غيـر الواضحـة حـول تصميـم المدينـة القديمـة بأكملهـا، وقـد حـاول بعض الباحثيـن اسـتغلال بعـض الوسـائل الحديثـة لترميـم مدينـة بيـي تينـغ، إلا أنهـم لـم يتمكنـوا بعـد مـن إقنـاع النـاس بالشـكل المرمـم، فمـن خـلال رؤيـة هيـكل أطـلال المدينـة المحفوظـة، ونطاقهـا، نـرى أنهـا ليسـت تابعـة لفتـرة حكـم أسـرة تانـغ الملكيـة وحسـب، بـل لا بدَّ أن تشـمل كذلـك أطـلالًا تابعـة لفتـرات زمنيـة مختلفـة، فهنـاك بعـض الأجـزاء التـي ربمـا تعـود لفتـرة زمنيـة أقـدم مـن فتـرة حكـم أسـرة تانـغ، وهنـاك البعـض الآخـر الـذي ربمـا تـم ترميمـه بعـد

انقضاء عهد أسرة تانغ الملكية، ولحل هذه القضايا المتعلقة لا بدَّ أن نعتمد على التنقيبات الأثرية العلمية في المستقبل.

وبدمج السجلات والوثائق التاريخية مع مظهر أطلال المدينة، والقطع الأثرية المستخرجة منها، يمكن لنا تأكيد نقطتين، هما: أولًا: أن هذه الأرض كانت مقرًّا لأنشطة مختلف القوميات والقبائل المتعاقبة منذ عهد أسرة هان الملكية، وحتى عهد أسرة يوان الملكية، وتشمل الأطلال آثارًا ثقافية مختلفة متعلقة بالرعي والزراعة. ثانيًا: منذ ما بعد عهد أسرة تانغ الملكية، تلقت مدينة بيي تينغ القديمة تأثيرًا شديدًا من ثقافة قبائل السهول الوسطى، فلم تكن المدينة مجرد مدينة مهمة في المناطق الغربية تخضع لإدارة الحكومة الصينية المركزية وحسب، بل كانت -أيضًا- نقطة مهمة في مسار انتشار ثقافة أسرة هان شمال سلسلة جبال تيانشان، حتى أنه يمكن القول إن مدينة بيي تينغ تُعد معلمًا بارزًا ومهمًّا لثقافة أسرة هان في شمال سلسلة جبال تيانشان.



شكل تخطيطي لمدينة بيي تينغ القديمة



صورة من القمر الصناعي لمدينة بيي تينغ القديمة

الفصل الرابع

مدينة قاوتشانغ القديمة.. القوات العسكرية لمدينة قاوتشانغ مثل الثلوج المتساقطة

تقـع مدينـة قاوتشـانغ القديمـة فـي حـوض توربـان بمنطقـة شـينجيانغ، وكانـت تخضـع إداريًّـا لقريـة قلعـة توربـان التابعـة للحكومـة الصينيـة المركزيـة، والمحفوظـة حتـى يومنـا هـذا، والتـي تبعـد مسـافة 45 كيلومتـرًا عـن شـرق مدينـة توربـان، ويقـع شـمال المدينـة منطقـة الجبـال المشـتعلة، والتـي سُـميت قديمًـا بجبـال الصخـور الحمـراء، ويبلـغ طـول المدينـة مـن الشـرق للغـرب حوالـي 100 كيلومتـر، ويبلـغ عرضهـا مـن الشـمال للجنـوب 10 كيلومتـرات، كمـا يبلـغ متوسـط ارتفاعهـا فـوق سـطح البحـر 400-500 متـر، وتحتـوي منطقـة الجبـال المشـتعلة علـى خنـدق الخـوخ، وخنـدق العنـب، وخنـدق تويـو، وخنـدق الخشـب، ومنطقـة شـينغجينكوو الحجريـة، وخنـدق ليانموتشـين، وغيرهـا مـن المواقـع الأثريـة، وكلهـا ممـرات تربـط بيـن شـمال الجبـال المشـتعلة وجنوبهـا، وفـي كتـب مدينـة توربـان يُطلـق علـى كل مـن خنـدق تويـو، وخنـدق الخشـب، ومنطقـة شـينغ جينكـوو، وخنـدق يـار أسـماء وادي دينغقـو، ووادي نينغرونـغ، ووادي شينشـينغ، والـوادي الغربـي، وتقـع مدينـة قاوتشـانغ القديمـة تحديـدًا فـي طريـق المـرور فـي السـفح الجنوبـي للجبـال المشـتعلة، ويقـع فـي شـمال غـرب المدينـة بـرج تايتسـانغ، ومجموعـة مقابـر أسـتانة القديمـة، وفـي شـمال شـرق المدينـة يقـع معبـد شـينغجينكوو، ومعبـد بيزيكليـك المنحوتـان فـي الكهـف، أمـا معبـد خنـدق تويـو المنحـوت فـي الكهـف فيقـع -أيضًـا- فـي شـمال شـرق المدينـة ولكـن لمسـافة أبعـد، وعلـى بعـد 50 كيلومتـرًا غـرب المدينـة توجـد مدينـة جياوخـه القديمـة.

وتقـع مدينـة توربـان تمامًـا فـي موقـع مدينـة قاوتشـانغ القديمـة، ففـي السـنة الثالثـة مـن تقويـم يوانفنـغ (108ق.م)، أرسـلت أسـرة هـان الملكيـة الجنـرال جـاو بـوه نـو علـى رأس جيشـه المكـون مـن عشـرات آلاف الجنـود للمناطـق الغربيـة، مـن أجـل أسـر ملـك

لـوولان، والقضـاء علـى دولـة قوشـه، "ولهـذا، اصطـف الجيـش عنـد ممـر يوميـن"[1]، وبعـد القضـاء علـى دولـة قوشـه، "قامـوا بتقسـيم الدولـة إلـى مملكتيـن و6 دويـلات تقـع فـي منطقـة الجبـل الشـمالي"[2]، وتشـمل الدويـلات السـت: دويلـة تشـيه ميـي الشـرقية، ودويلـة تشـيه ميـي الغربيـة، ودويلـة بيـي لـو الأماميـة، ودويلـة بيـي لـو الخلفيـة، ودويلـة بوليـي الأماميـة، ودويلـة بوليـي الخلفيـة، وباتصـال تلـك الدويـلات مـع دويلـة قوشـه الخلفيـة، يصبـح عـدد الدويـلات الموجـودة شـمال سلسـلة جبال تيانشـان سـبع دويـلات، ويتشـابه نطـاق توزيعها إلى حـد كبيـر مـع المنطقـة الضخمـة التـي تضـم حاليًـا مـدن إيـوو، وهامـي، وباليكـون، ومولـي، وتشـيتاي، وجيموسـار شـرقًا، حتـى مـدن فوكانـغ، وميتشـيوان، وتشـانغجي، وخوتوبـي، ومنـاص غربًـا[3]، أمـا مدينـة قوشـه الأماميـة فتقـع فـي جنـوب سلسـلة جبـال تيانشـان، ويعـادل نطاقهـا حوالـي حجـم حـزام مدينـة توربـان حاليًـا (بمـا يشـمل مدينـة توربـان، ومدينـة شانشـان، ومدينـة توكسـون).

"ففـي البدايـة قامـت أسـرة هـان الملكيـة ببنـاء مدينـة جيوتشـيوان، ثـم أمـرت بنقـل المواطنيـن ليسـكنوا فـي 4 مـدن هـي أوويـي، جانغيـي، دونخوانـغ، وليـه سـه، وذلـك عبـر ممـري يانغقـوان، ويوميـن"[4]، وبعـد تثبيـت سـيطرتهم علـى ممـر خـه شـي، تحـول مركـز المعركـة مـع قبائـل الهـون إلـى المناطـق الغربيـة، وبسـبب وجـود شـبكة طـرق مروريـة فـي مدينـة توربـان، تحولـت المدينـة إلـى بـؤرة عـراك بيـن أسـرة هـان الصينيـة وقبائـل الهـون للفـوز بسـيادة المناطـق الغربيـة والسـيطرة عليهـا، وفـي العـام الأول قبـل الميـلاد، تقاتلـت أسـرة هـان مـع قبائـل الهـون للفـوز بمدينـة قوشـه، وتقابـل الجيشـان فـي 5 معـارك متتاليـة، وأُطلـق عليهـا فـي السـجلات التاريخيـة اسـم "المعـارك الخمـس لاقتنـاص قوشـه".

فـي العـام الثانـي من تقويم يونغيـوان الذي وضعه الإمبراطـور ليو جـاو (90م)، قضى الجنرال

1- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية"، المجلد السادس والتسعون (الجزء الأول)، "السيرة الذاتية للمناطق الغربية".

2- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية"، المجلد السادس والتسعون (الجزء الأول)، "السيرة الذاتية للمناطق الغربية". بوجود اختلاف آراء بين الأوساط العلمية حول زمن القضاء علي مدينة جوشه وتقسيمها/ تسان وانغ سو: "مسودة حول تاريخ مدينة قاوتشانغ (نظام الحكم)"، دار الأثريات للنشر، 1998، صفحة 11-10.

3- تسان وانغ سو: "مسودة حول تاريخ مدينة قاوتشانغ (نظام الحكم)"، دار الأثريات للنشر، 1998م، صفحة 28-11.

4- كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية"، المجلد 96 (الجزء الأول)، "السيرة الذاتية للمناطق الغربية".

دوو شيان على قبائل الهون، وهاجمت الجنود مدينة إيوو لاقتناصها، وأرسل ملك مملكة قوشه الأمامية والخلفية أبناءهما لتقديم الهدايا، وبدأت السهول الوسطى والمناطق الغربية تستعيدان الاتصال في ما بينهما، وفي العام الثالث من تقويم يونغيوان، قضى الجنرال جنغ كوي على الممالك الشمالية، وسقطت مدينة كويتسي وغيرها من المدن، وعينت أسرة هان المبعوث بان تشاو لولاية المناطق الغربية، وتمركزت مدينة تاقان داخل حدود دويلة كويتسي لحمايتها، واستعادت بذلك نظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية لاستصلاحها، والمرافق المتعلقة به، كما تمركزت جدران مدينة قاوتشانغ في الجزء الأمامي من مدينة قوشه.

وفي العام الثاني من تقويم يانقوانغ (123م)، تبنى الإمبراطور ليو خو (إمبراطور أسرة هان الملكية) رأي جانغ دانغ والي مدينة دونخوانغ، بأن يتولى الجنرال بان يونغ منصب الولاية على المناطق الغربية، ويطبق نظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية بمدينة ليوجونغ القديمة، وأرسل الجنرال بان يونغ جيوش عدة دول مجاورة للذهاب إلى مملكة قوشه الأمامية، والقضاء على إيلي زعيم قبائل الهون الشمالية، ومن ثم استعاد الجزء الأمامي من مملكة قوشه حركة المرور فيه، ومع انهيار أسرة هان الشرقية، انقطعت مرة أخرى العلاقات بين المناطق الغربية وأسرة القبائل الوسطى في عهد الإمبراطور ليو خونغ (إمبراطور أسرة هان الشرقية).

وفي نهاية عهد أسرة هان الشرقية، تعرضت لحالة فوضى عارمة، وبطبيعة الحال لم تستطع قبائل السهول الوسطى وضع مدينة قاوتشانغ في الاعتبار، وفي العام الخامس والعشرين من تقويم جيان آن (220م)، استطاع الإمبراطور تساو بي القضاء على حركة التمرد في مدينة ليانغجوو، لتستعيد الطرق المؤدية إلى المناطق الغربية حركة المرور من جديد، وفي العام الثالث من تقويم خوانغتشو (222م)، أرسلت الجنود من كل من مدينة شانشان، وكويتسي، ويوتيان، وبهذا استعادت المناطق الغربية حركة المرور بها، واستقر قادة تطبيق نظام عسكرة الجنود والفلاحين في الأراضي الزراعية في مدينة قاوتشانغ، ومنذ هذا الوقت وحتى عهد أسرة جين الغربية، وقادة تطبيق هذا النظام يتحملون مسؤولية قيادة

المشاركين في النظام من الجنود والفلاحين، واستقرار المناطق الغربية.

وفي العام الثاني من تقويم شيان خه التابع لأسرة جين الشرقية (327م)، بدأ ملك دولة تشانليانغ جانغ جيون في بناء مدينة قاوتشانغ، وفي عهد حكم الدويلات اللاحقة مثل تشيانتاي، خووليانغ، شيليانغ، وبيي ليانغ، كانت مدينة قاوتشانغ دائمًا مدينة تابعة لدولة ليانغجوو، وفي السنة الثامنة عشرة من تقويم جيانبينغ التابع لفترة حكم بيي ليانغ (460م)، قضى القائد جيوتشي آنجوو على قبائل الروران، وبهذا انتهى عهد مدينة قاوتشانغ الذي استمر لمدة 134 عامًا.

وفي العام 491 الميلادي، قتل أفوجولو (ملك مملكة قبيلة تيلي) الأخ الوريث لأسرة هان (رئيس مدينة قاوتشانغ)، وعيَّن جانغ منغ مينغ -المنتمي لمدينة دونخوانغ- ملكًا بديلًا لمملكة قاوتشانغ، وبعد فترة قصيرة من تولي أسرة جانغ الحكم، قضى أهل قاوتشانغ على الملك، وتُوِّج ما رو ملكًا لقاوتشانغ، وللتخلص من اضطهاد مملكة تيلي، أرسل ما رو رسولًا إلى أسرة ويي الشمالية عام 497م، لطلب ضم قاوتشانغ إلى الإمبراطورية الصينية، وبهذا الطلب أثار ما رو سخط شعب قاوتشانغ، ومن ثم قُتل ما رو، وعُيِّن بدلًا عنه تشيو جيا ملكًا للمدينة، وبهذا دخلت مدينة قاوتشانغ في عهد حكم أسرة تشيو، واستمر حكم أسرة تشيو لمدينة قاوتشانغ منذ عام 502 م، وحتى العام الرابع عشر من تقويم جينقوان (640م) حين قضت عليها أسرة تانغ الملكية، وبهذا تعاقب على حكم المدينة 10 أسر ملكية، لمدة وصلت لأكثر من 130 عامًا.

وبعد قضاء أسرة تانغ على مدينة قاوتشانغ، أنشأت بدلًا عنها شيجوو (الولاية الغربية)، وأنشأت كذلك مقرات إدارة الحكومة المركزية في المناطق الغربية، وفي العام الثاني من تقويم شيانتشينغ (657م)، قاد إيلي -التابع لأسرة تانغ الملكية- جيشه للقضاء على قبائل أشيناهورو، وقبائل الأتراك الغربيين، وبهذا، تخلصت جميع دول المناطق الغربية من سيطرة قبائل الأتراك الغربيين، وتحولت لتكون تحت راية أسرة تانغ الملكية، وللسيطرة بشكل أكبر على الجهة الغربية، نقلت أسرة تانغ مقرات إدارتها من شيجوو (الولاية الغربية) إلى مدينة كويتسي، وذلك

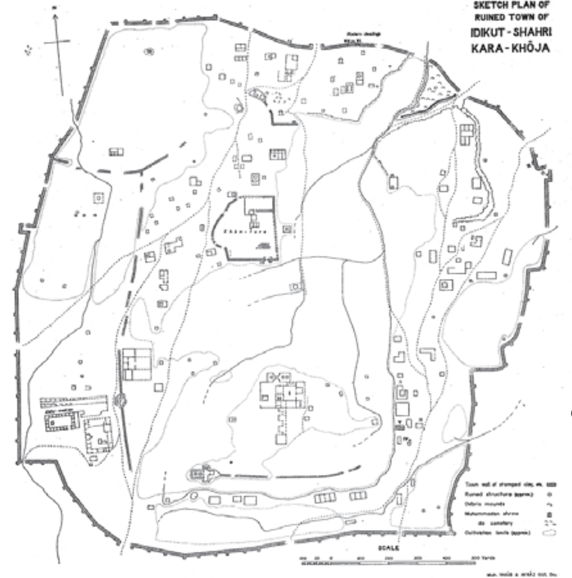
فـي العـام الثالـث مـن تقويـم شيانتشـينغ (658م)، وارتقـت مدينـة شـيجوو لتصبـح مقـرًّا لإدارة الحكومـة الصينيـة فـي المناطـق الغربيـة، وعُيِّـن تشـيو جـه جـان واليًـا عليهـا.

وأثنـاء حركـة التمـرد التـي قادهـا كل مـن آن لـو شـان، وشـه سـه مينـغ، ضعفـت بشـدة قـدرة أسـرة تانـغ الملكيـة فـي السـيطرة علـى المناطـق الغربيـة، وانتهـزت دولـة توبـوه الفرصة لتوسـع أراضيهـا نحـو الغـرب، أمـا قبائـل الويغـور فوسـعوا -أيضًـا- قوتهـم فـي هـذا الوقـت وصـولًا إلـى الطريـق الشـمالي لسلسـلة جبـال تيانشـان، وفـي العـام 786م أو 787م، وبعـد احتـلال دولـة توبـوه لمدينـة شـاجوو بفتـرة قصيـرة، بـدأت تتحـول للقتـال للفـوز بالمـدن المهمـة الخاضعـة لحكـم أسـرة تانـغ الملكيـة فـي المناطـق الغربيـة، وفـي العـام الخامـس مـن تقويـم جينيـوان (789م)، هاجمـت قـوات التحالـف التابعـة لقبائـل توبـوه، وقبائـل جـه لـوه لـو، وغيرهـا مـن القبائـل الأخـرى مقـرات إدارة الحكومـة المركزيـة فـي مدينـة بيـي تينـغ، عندهـا أرسـل قائـد جيـش مدينـة بيـي تينـغ يانـغ شـي قـو إلـى مدينـة شـيجوو لحمايتهـا، وفـي العـام الثامـن مـن تقويـم جينيـوان (792م)، أصبحـت مدينـة شـيجوو -أيضًـا- فـي قبضـة قبائـل توبـوه، ومـن هنـا، انهـار حكـم أسـرة تانـغ للمناطـق الغربيـة بالكامـل، وكذلـك انتهـت فتـرة حكـم أسـرة تانـغ لمدينتـي شـيجوو، وقاوتشـانغ.

وبعـد انهيـار حكـم أسـرة تانـغ للمناطـق الغربيـة بفتـرة قصيـرة، اسـتعادت قبائـل الويغـور السـيطرة علـى مدينـة بيـي تينـغ، وامتـدت سـيطرتها حتـى مدينـة كويتسـي غربًـا، ودخلـت قبائـل توبـوه تحـت رايـة حكـم قبائـل الويغـور، ووفقًـا لمـا دوَّنـه الكتـاب القديـم حـول الأتـراك الغربييـن المحفـوظ فـي مدينـة برليـن، فقـد وصـل الخاقـان كوتلـوك بيلـج (ملـك قبائـل الويغـور) عـام 803م إلـى مدينـة قاوتشـانغ، ودعـا ثلاثـة معلميـن مـن الديانـة المانويـة لنشـر ديانتهـم فـي هضبـة منغوليـا، أمـا كتـاب "مجموعـة ترانيـم الديانـة المانويـة" فقـد ذكـر أنـه فـي فتـرة حكـم الخاقـان ألـب بيلـج (808م -821م)، كان هنـاك عـدد هائـل مـن كهنـة الديانـة المانويـة فـي كل مـن مدينـة بيـي تينـغ، ومدينـة قاوتشـانغ، ومدينـة يانتشـي، ومدينـة كويتسـي، وغيرهـا مـن المـدن الأخـرى.

وفـي العـام 840م، انهزمـت قبائـل الويغـور تحـت ضغـط قبائـل القيرغيـز، وتجـزأت

إلـى أشـلاء، مـن بينهـا، انتقـل فـرع منهـا إلـى شـرق سلسـلة جبـال تيانشـان، وفـي العـام 866م، هاجـم القائـد الويغـوري بوجوجيـون مدينتـي شـيجوو، وبيـي تينـغ، وغيرهمـا مـن المـدن، واحتلهـا جميعًـا، وغيـر شـكل المدينتيـن، ليُطلـق عليهمـا اسـم مدينـة شـيجوو الويغوريـة، ومدينـة قاوتشـانغ الويغوريـة.



شكل من تخطيط عالم الآثار
مارك أوريل ستين لمدينة قاوتشانغ



مدينة قاوتشانغ القديمة

وفـي وقتنـا الحاضـر، يوجـد ثلاثـة جـدران مهمـة لمدينـة قاوتشـانغ القديمـة محفوظـة حتـى الآن، وخلـف جـدران المدينـة الخارجيـة يوجـد نهـر خوتشـينغ، والـذي تعـرض لدمـار هائـل فـي معظمـه، ولـكل معلـم مـن هـذه المعالـم نجـد وجهـات النظـر المتعـددة والمتباينـة حـول العصـر الـذي وُجـدت فيـه، وطبيعتهـا، ويظهـر جـزء المدينـة الخارجيـة لمدينـة قاوتشـانغ علـى شـكل مسـتطيل غيـر منتظـم، حيـث يطـول شـكله قليـلاً فـي الشـمال والجنـوب، ويضيـق قليـلاً فـي الشـرق والغـرب، وتبلـغ مسـاحة المدينـة الكليـة 1.980.000 متـر مربـع[1]، وقـد حُفظـت جـدران المدينـة بشـكل جيـد نسـبيًّا، حيـث يبلـغ سـمك جـدران المدينـة الخارجيـة 12 متـرًا، بطـول 5-11.5 متـرًا لأجزائـه المتبقيـة، ومحيـط 5440 متـر تقريبًـا (الجـدار الجنوبـي 1420 متـر، الجـدار الشـمالي 1320 متـر، الجـدار الغربـي 1370 متـر، والجـدار الشـرقي 1320 متـر)، كمـا يُوجـد لجـدران المدينـة الخارجيـة تلـك عـدة ركائـز، وتبلـغ المسـافة بيـن كل ركيزتيـن حوالـي 30-45 متـرًا.

وفـي عـام 1962م، أجـرى عالـم الآثـار يـان ويـن رو بحثًـا حـول مدينـة قاوتشـانغ القديمـة، ويشـير بحثـه إلـى تقسـيم المدينـة إلـى 3 أجـزاء: مدينـة خارجيـة، وأخـرى داخليـة، ومدينـة لقصـر الحاكـم، "وبالنظـر إلـى بقايـا المدينـة الخارجيـة المحفوظـة، نجـد أن جدرانهـا الغربيـة والجنوبيـة متكاملـة نسـبيًّا، وهنـاك بوابتـان لجدارهـا الغربـي، أما بوابة طـرف المدينة الشـمالي فـلا تـزال تحتفـظ بضميمـة (مدينـة صغـرى للدفـاع) متعرجـة، أما الجـدران الشـمالية والشـرقية فربمـا كانـت تحتـوي علـى بوابتيـن أيضًـا، وتحتـوي البوابـة الجنوبيـة علـى 3 ثغـرات، ولـو كانـت تلـك الثغـرات فـي الوسـط، فذلـك يعنـي –أيضًـا- أنهـا أطـلال لبوابـة، مما يعنـي وجـود 3 بوابات لتلـك الجـدران"[2]، وطبقًـا لمـا طرحـه السـيد يان، فـإن مدينـة قاوتشـانغ تحتوي علـى 9 بوابات، لتشـمل بوابتيـن لـكل مـن الجـدار الشـرقي، والغربـي، والشـمالي، و3 بوابـات للجـدار الجنوبـي،

1- طبقًا لبيانات القياس الحديثة نسبيًّا، فإن مساحة مدينة قاوتشانغ الإجمالية تبلغ 1.980.000 متر مربع. انظر كتاب هيئة الآثار بمنطقة شينجيانغ، ومكتب مجلة شينجيانغ المصورة: "التراث الثقافي لطريق الحرير بمنطقة شينجيانغ"، دار نشر شباب شبجيانغ، 2010م، صفحة 50. أما الباحث منغ فان رين فقد ذكر في مقالته عام 2000م أن مساحة المدينة تبلغ 2.200.000 مليون متر مربع، ولا ندري أيهما أدق في بياناته.

2- يان وين رو: "دولة قاوتشانغ القديمة بمدينة توربان"، مجلة "الأثريات"، 1962م، العدد 7، و8.

ووفقًا لما توضحه صورة القمر الصناعي للمدينة، فإن جدران المدينة الخارجية الشرقية، والغربية، والجنوبية تحتوي على 5 بوابات بضمائمها الدفاعية على الأقل، كما يختلف شكل كل ضميمة عن الأخرى، ونحن نرى شخصيًّا بأن الأشكال المختلفة لضميمة كل بوابة هو انعكاس لأشكالها المختلفة، أو اختلاف العصور التي حظيت فيها تلك الضمائم بعمليات ترميم وإصلاح، وطبقًا لعينات كربون 14 التي تُستخدم لتعيين عمر الأثريات، يقع تاريخ تلك المدينة في الفترة 390م -1160م، لتعاصر بذلك 3 فترات تاريخية، هي فترة حكم بيي ليانغ، وفترة حكم أسرة تشيو للمدينة، وفترة حكم الويغور للمدينة أيضًا، مما يؤكد مرور جدرانها الخارجية لعمليات ترميم متعددة.

وقد ذكرت الكتب الأثرية المستخرجة من مدينة توربان أن مدينة قاوتشانغ تحتوي على عدة بوابات بأسماء مختلفة، مثل بوابة تشينغيانغ، بوابة جيانيانغ، بوابة جينجانغ، بوابة جينفو، بوابة شيوان ديه، بوابة أوتشينغ، وبوابة خوانغتشينغ، ويمكن القول بأن تلك الأسماء السبعة تعود إلى البوابتين الجنوبية والشمالية للجدار الشرقي، والبوابتين الجنوبية والشمالية للجدار الغربي، والبوابة الشمالية، والبوابة الأولى ناحية الغرب للجدار الجنوبي، والبوابة الغربية للجدار الشمالي، كما ذكرت تلك الكتب الأثرية -أيضًا- بوابة لومين، والتي يجب أن تكون البوابة الأولى ناحية الشرق للجدار الجنوبي للمدينة الخارجية لدولة قاوتشانغ، وليس من الصعب ملاحظة أن أسماء كل بوابة من بوابات الجدران الخارجية للمدينة قد تلقت بشكل كبير تأثيرًا من مدينة تشانغ آن التابعة لعهد أسرة هان، ومدينة لوه يانغ التابعة لعهد أسرتي هان ووي الملكيتين، وكذلك مدينة تشيانليانغ القديمة، خاصة اسم البوابات الشرقية التي تُظهر ذلك التأثير بشكل واضح للغاية.

وتقع المدينة الداخلية في وسط المدينة الخارجية، وتظهر على شكل مستطيل من الشمال للجنوب، ويبلغ طوله 1000 متر من الشمال للجنوب، وعرضه 800 متر من الشرق للغرب، ويميل من الشرق ناحية الغرب، وتحمي الجدران الغربية والجنوبية المدينة بشكل جيد نسبيًّا، أما الجدران الشرقية والشمالية فلم يتبق منها

أي بقايا تقريبًا، وتبلغ المسافة بين الجدران الغربية للمدينة الداخلية والجدران الغربية للمدينة الخارجية حوالي 300 متر، بينما تبلغ المسافة بين الجدران الجنوبية للمدينة الداخلية والجدران الجنوبية للمدينة الخارجية حوالي 200 متر، وتتكون الجدران من التربة المدكوكة، حيث دُكَّت التربة مع الماء بسمك مقارب لسمك جدران المدينة الخارجية، وتتمتع أرض الزاوية الشمالية الشرقية بارتفاع نسبي، كما تحتوي الزاوية الجنوبية الشرقية على أرضيات من القراميد، أما وسط الجهة الشمالية وبعض أجزاء الزاوية الشمالية الغربية فتحتوي على أطلال لبعض قواعد البناء.

وقد ذكر كتاب "مدونات قوانغ فيي حول مدينة قاوتشانغ في العالم الثامن عشر من تقويم جانغ جه (548م)" المستخرج من مقابر أستانة أن "قاوتشانغ مدينة كبرى تحوي بداخلها مدينة صغيرة"[1]، مما يوضح أنه في بداية القرن السادس الميلادي كانت لمدينة قاوتشانغ جزآن داخلي وخارجي، وقد دوَّن كتاب "النُصْب التذكاري لمعبد قونغ ديه.. من بناء القائد جيوتشي آن جوو" الذي اكتشفه فريق البحث الألماني -بالقرب من قلعة الخاقان- أن القائد آن جوو قد تبرع ببناية لاستخدامها في تشييد ذلك المعبد في العام الثالث من تقويم تشينغبينغ (445م)[2]، ومن هنا، يمكن أن نستنتج أن الجزء الداخلي للمدينة كان مسكنًا لأسرة جيوتشي نفسها، وقد تكشف عن التنقيبات الأثرية في منطقة شينجيانغ للجدار الغربي للمدينة الداخلية أن طول الجدار الترابي الأصلي للجزء السفلي من جدران المدينة يبلغ 4.5 مترًا، وهذا يوضح أن العهد الذي تم فيه بناء المدينة الداخلية لا يجب أن يكون متأخرًا عن العهد الذي تم فيه بناء المدينة الخارجية، وفي المجمل، يمكننا -من خلال كافة المعلومات التي في أيدينا حاليًا- أن نتوصل إلى ما يلي: (1) لا بدَّ أن يكون العام الذي تم فيه لأول مرة بناء المدينة الداخلية مبكرًا عن العام الذي تم فيه بناء المدينة الخارجية، ولا بدَّ أن يعود زمن بناء دائرة المدينة الداخلية

1- "الكتب الأثرية المستخرجة من مدينة توربان"، المجلد الثاني، صفحة 144.

2- أتسوشي إكيدا: "مختصر البحث حول الأنصاب التذكارية الثلاثة في مدينة قاوتشانغ"، ترجمة شيه جونغ قوانغ، مجلة "دراسات حول مدينة دونخوانغ"، 1988م، العدد 1، و2، صفحة 161-146.

الموجـودة حاليًـا إلـى بدايـة القـرن الرابـع الميـلادي أو أقـل. (2) فـي عهـد حكـم مدينتـي تشـيانليانغ، وبيـي ليانـغ، لا بـدَّ أن تكـون المدينـة الداخليـة مقـر الدوائـر الحكوميـة لدولـة قاوتشـانغ. (3) كانـت المدينـة الداخليـة فـي السـابق مقـر سـكن للقائـد جيوتشـي آن جـوو، وبعدهـا صـارت معبـدًا بوذيًّـا تبـرع بـه ذلـك القائـد.

وتقـع قلعـة الخاقـان فـي شـمال مدينـة قاوتشـانغ القديمـة، علـى شـكل مسـتطيل، ويبلـغ طولهـا مـن الشـرق للغـرب 200 متـر، وعرضهـا مـن الشـمال للجنـوب 300 متـر، وتمثـل جـدران القصـر الخلفـي الجـدران الشـمالية للمدينـة الخارجيـة، أمـا الجـدران الغربيـة فـلا تـزال تحتفـظ ببعـض بقايـا قواعدهـا، ويمثـل القصـر الجنوبـي (مدينـة القصـر الجنوبـي) الجـدران الشـمالية للمدينـة الداخليـة، أمـا القصـر الشـرقي فقـد تدمـر بالكامـل، ويقـع بينهـم أطـلال مـن قاعـدة بنـاء، يعلوهـا أجـزاء مـن بنايـة مرتفعـة يصـل طولهـا إلـى 15 متـرًا، لتمثـل المبانـي المنهـارة فـي الجـزء الشـرقي، وتظهـر قاعـدة البـرج علـى شـكل مسـتطيل، ويـرى السـيد يـان ويـن رو أنـه لا يمكـن أن تكـون قلعـة الخاقـان هـي قصـر ملـك دولـة قاوتشـانغ، "فحتـى لـو كانـت قصـرًا للملـك، فـلا بـدَّ أنهـا كانـت –أيضًـا- مدينـة لقصـر ملـك قاوتشـانغ فـي مـا قبـل عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، وليسـت قصـرًا لملـك قاوتشـانغ المنتمـي لقبائـل الويغـور فـي مـا بعـد عهـد أسـرة تانـغ"، ويُعـد هـذا الطـرح معقـولًا نسـبيًّا، فـكل مـن كتـاب "النُصْـب التـذكاري لمعبـد قونـغ ديـه.. مـن بنـاء القائـد جيوتشـي آن جـوو" المسـتخرج مـن قلعـة الخاقـان، وبـرج شـان ييـه، يوضحـان أن قلعـة الخاقـان ربمـا كانـت المبنـى الـذي تبـرع بـه القائـد آن جـوو لتحويلـه لمعبـد، أمـا كتـاب "السـيرة الذاتيـة لراهبـي البوذيـة بمعبـد تسـي إن الكبيـر" فيذكـر أن قصـر الحاكـم بدولـة قاوتشـانغ "كان يحتـوي علـى أماكـن لتأديـة الراهبيـن لطقـوس ديانتـي البوذيـة والطاويـة، وكان الملـك يدعوهـم للمبيـت"، ويشـير هـذا إلـى احتماليـة أن يكـون المـكان المشـار إليـه هـو القلعـة نفسـها.

وكمـا قلنـا، تظهـر القلعـة علـى شـكل مسـتطيل، وتقـع فـي أقصـى شـمال المدينـة بأكملهـا، وتمثـل جـدران القصـر الخلفـي الجـدران الشـمالية للمدينـة الخارجيـة، أمـا الجـدران الغربيـة فـلا تـزال تحتفـظ ببعـض بقايـا قواعدهـا، وتقريبًـا يمكـن رؤيـة اتجـاه

قواعد المدينة، ويمثل القصر الجنوبي (مدينة القصر الجنوبي) الجدران الشمالية للمدينة الداخلية، أما القصر الشرقي فقد تدمر بالكامل، في ظروف غير واضحة. "وتتكون أطلال قواعد منطقة مدينة القصر من التربة المدكوكة، بسمك يصل إلى 35-48 سم، حيث تتشابه بشكل كبير مع آخر طبقات من التربة المدكوكة التي تم استخدامها في بناء جدران مدينة يواندا، ومدينة قوشه القديمتين، ومن هنا، يمكننا أن نستنتج أن قاعدة قصر هذه المدينة ربما تم بناؤها في فترة أواسط، وأواخر حكم الويغور لمدينة قاوتشانغ".[1]

وتحتوي مدينة قاوتشانغ وأطلال المناطق المحيطة المتعلقة بها على مختلف الديانات، مما يعكس بالكامل وجود التعدد الثقافي، وميزة المزج بين مختلف الثقافات.

ويذكر كتاب "تاريخ أسرة ويي الملكية.. السيرة الذاتية لمدينة قاوتشانغ" أن شعب مدينة قاوتشانغ "كان يهتم بشؤون الدنيا، ويؤمن بوجود الإله، ويصدق في الطرائق البوذية"، ويرى عامة الباحثين أن كلمة "إله" المذكورة تلك يشمل جزء منها معتقدات الديانة الزرادشتية، وفي عام 1965م، تم استخراج كتاب "النبض الذهبي" من مقابر أنجياليك بمدينة توربان، والتي تعود لعهد حكم مدينة بيي ليانغ، ومدون في نهاية المجلد ما يلي:

في اليوم الثالث عشر من الشهر الثامن من عام قنغ أو، تزوج الجنرال سوه من زوجته البوذية، في معبد خوتياننان (معبد الملكة الأم) شرق مدينة قاوتشانغ، وكتبا معًا جزءًا من هذا الكتاب "النبض الذهبي"، وانتهى الأمر بقطع أيديهما، ويمتاز الكتاب بخطه الكبير وحبره الجيد، وكتاباته البارعة، ويحتوي الكتاب على الكلام فقط دون أي إضافات أخرى.

ويُرى عامة أن عام "قنغ أو" يشير إلى العام الرابع من تقويم تشينغ شيوان في فترة حكم دولة بيي ليانغ (431م)[2]، وهذا يوضح أنه قد شُيِّد معبد شرق مدينة

1- يان وين رو: "مدينة قاوتشانغ القديمة الواقعة في مدينة توربان"، مجلة "الأثريات" للنشر، 1962م، العدد 7،و8.

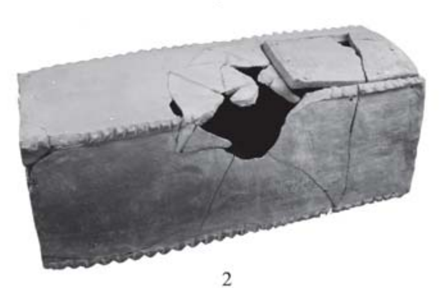
2- راو زونغ إي: "بحث حول أغاني الديانة الزرادشتية للتبشير"، زاي راو شه: "مجموعة اختيار البلاط الملكي.. مجلد التاريخ"، هونغ كونغ، الهيئة الصينية للكتاب، 1982م، المجلد الأوسط، صفحة 480.

قاوتشانغ في القرن الخامس الميلادي على الأقل، ومن عبارة "في معبد خوتيانان (معبد الملكة الأم) شرق مدينة قاوتشانغ" يمكننا أن نستنتج أنه لا بدَّ أن هذا المعبد كان معروفًا للسكان المحليين، ومن ثم، أصبح معلمًا جغرافيًّا كمعبد للملكة الأم، وهذا يوضح انتشار الديانة الزرادشتية في مناطق مدينة قاوتشانغ، مع وجود أماكن محددة للعبادة آنذاك.

وقد ذكر كتاب "أضاحي البقر والأغنام بمدينة قاوتشانغ في العام الخامس من تقويم خانغ خه (535م)" المستخرج من مقابر أستانة M524 أن "الأضاحي كانت تُقدَّم في معبد دينغقو"، وطبقًا لما حققه كتاب "صور وخرائط لمدينة شيجوو" فيجب أن يكون موقع معبد دينغقو في خندق تويو بمدينة شانشان في توربان حاليًا، وفي عام 1981م، نقب مركز إدارة الوثائق في مدينة توربان بمنطقة شينجيانغ عن مقبرتين في منحدر الجانب الغربي من مدخل خندق تويو بمدينة شانشان، وتم استخراج صناديق لحفظ العظام من كل مقبرة منهما، مما يوضح أن خندق تويو لم يكن يحتوي على المعبد وحسب، بل كان يحتوي -أيضًا- على مقابر الراهبين المؤمنين بالزرادشتية.



1



2

صناديق حفظ العظام المستخرجة
من خندق تويو

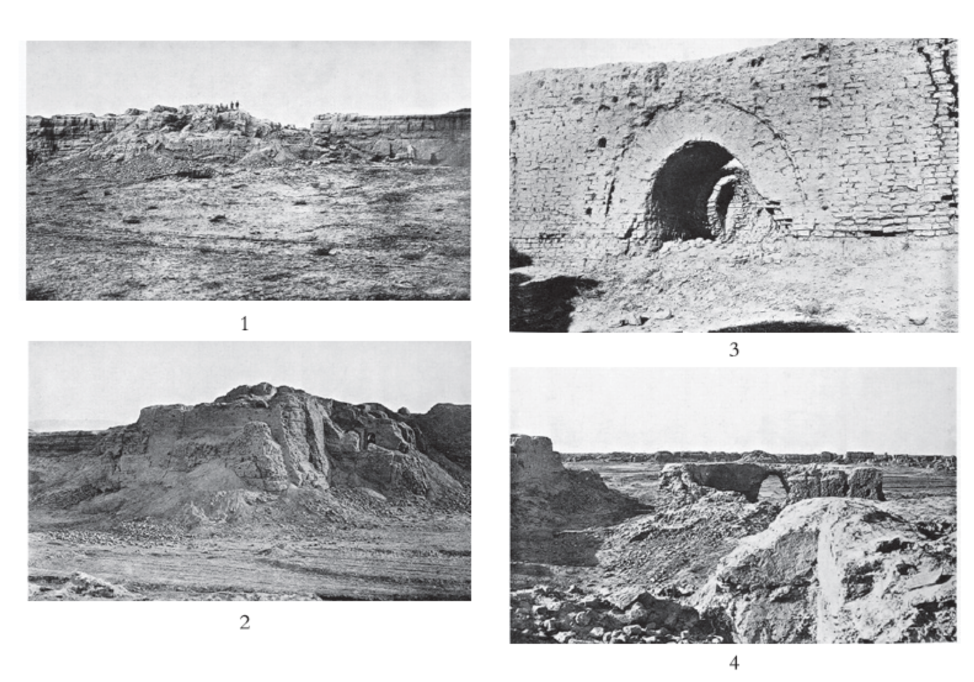
وقد بدأ اكتشاف معابد الديانة المانوية المحفورة في حجارة الكهوف في مدينة توربان في بداية القرن العشرين، فخلال الفترة 1902م -1914م، قام متحف

برليـن الشـعبي بتمويـل فريـق بقيـادة العالميـن ألبـرت غرونويديـل، وألبـرت فـون لوكـوك لإجـراء 4 أبحـاث فـي منطقـة شـينجيانغ، حيـث أجـرى الفريـق أعمـال تنقيـب هائلـة فـي العديـد مـن المواقـع الأثريـة، مثـل معبـد بيزيكليـك، ومنطقـة شـنغجينكوو، وخنـدق تويـو، ومدينـة جياوخـه القديمـة، ومدينـة قاوتشـانغ القديمـة، واسـتخرجوا كمًّـا هائـلاً مـن الكتـب الأثريـة القديمـة، التـي تُعـد وثائـق متعلقـة بالديانـات البوذيـة، والمانويـة، والنسـطورية.

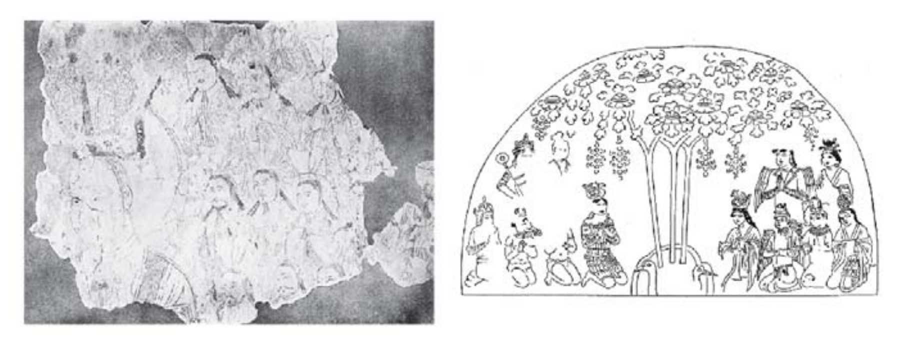
ويُـرى عامـة أن المواقـع الأثريـة التـي تقـع فـي مدينـة قاوتشـانغ القديمـة، والتـي أعطاهـا فريـق البحـث الألمانـي رقمًـا تسلسـليًّا مكونًـا مـن K وα تمثـل معابـد للديانـة المانويـة، مـن بينهـا تحتـوي المواقـع الأثريـة K علـى غرفـة لتخزيـن الكتـب داخـل معبـد الديانـة المانويـة، ونجـد أن معبـد بيزيكليـك (المعبـد رقـم 38 مـن بيـن المعابـد المكتشـفة المحفورة فـي حجارة الكهـوف، بينمـا أطلـق عليـه غرونويديـل رقـم 25)، والمعبـد رقـم 27 (أطلـق عليـه غرونويديـل رقـم 17)، والمعبـد رقـم 22 حسـب ترقيـم غرونويديـل (أطلـق عليـه عالـم الآثـار اليابانـي تـاكاو موريا‌سـو رقـم 35)، والمعبـد رقـم 8 (أطلـق عليـه غرونويديـل المعبـد الشـمالي رقـم 1)، كلهـا معابـد للديانـة المانويـة، وفـي عـام 1980م، وأثنـاء التنقيـب فـي معبـد بيزيكليـك- معبـد كهـوف بـوذا الألـف رقـم 65 (رقـم 21 قديمًـا)، تـم اكتشـاف 3 رسـائل خطيـة مكتوبـة بلغـة شـعب سـوجديان، و5 رسـائل بلغـة قبائـل الويغـور، وكلهـا كتبهـا رهبـان الديانـة المانويـة، ممـا يوضـح أن المعبـد رقـم 65 قـد يكـون –أيضًـا- معبـدًا للديانـة المانويـة فـي الأصـل، وتتـوزع معابـد الديانـة المانويـة تلـك فـي الأصـل علـى هيئـة مجموعـات، لتشـكل معبـدًا تلـو الآخـر، ويمتلـك كل معبـد مـن تلـك المعابـد سـماته ومهامـه الفريـدة.

وقـد طـرح بعـض الباحثيـن سـابقًا أن خنـدق تويـو، ومنطقـة شـنغجينكوو يحتويـان علـى معابـد للديانـة المانويـة، إلا أن الأوسـاط العلميـة تختلـف فـي آرائهـا حـول هـذا الصـدد. ففـي الأعـوام الأخيـرة، عندمـا قمـتُ بالتنقيـب الأثـري فـي مدينـة توربـان، اكتشـفتُ بعـض مغـارات الكهـوف ذات الأشـكال الغريبـة فـي مجموعـات المعابـد المنحوتـة فـي الكهـوف فـي منطقـة خنـدق تويـو، ومنطقـة شـنغجينكوو، ولـم يكـن شـكلها يشـير إلـى معابـد

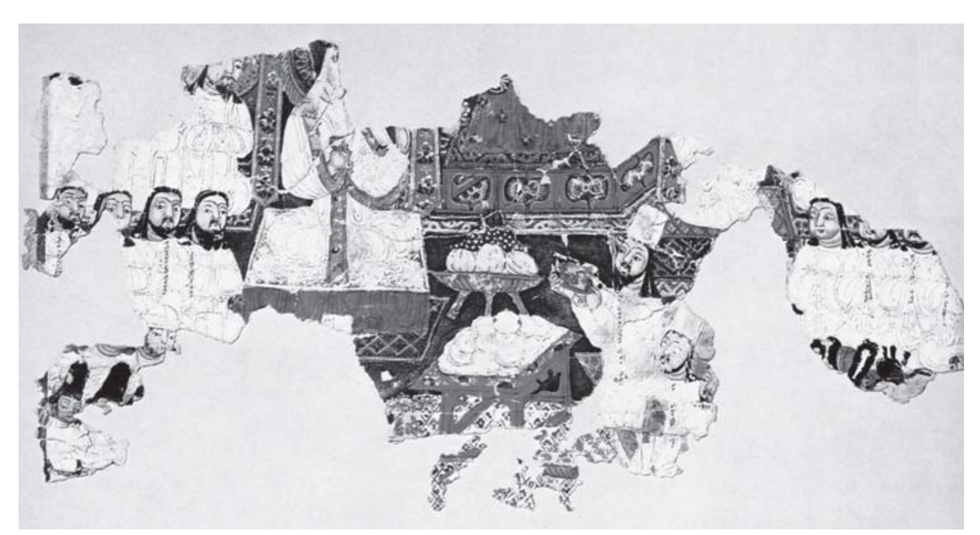
الديانـة البوذيـة المنحوتـة فـي الكهـوف، خاصـة المنطقـة الشـمالية للمعبـد الواقعـة فـي منطقـة شـنغجينكوو، والتـي تشـبه فـي شـكلها الأساسـي البنـاء علـى طقـوس الديانـة المانويـة، ومـن هنـا، أرى شـخصيًّا أن فكـرة أنـه لا يـزال يوجـد معابـد للديانـة المانويـة مـن بيـن مجموعـات المعابـد المنحوتـة فـي الكهـوف فـي منطقـة خنـدق تويـو، ومنطقـة شـنغجينكوو تسـتحق الالتفـات إليهـا.

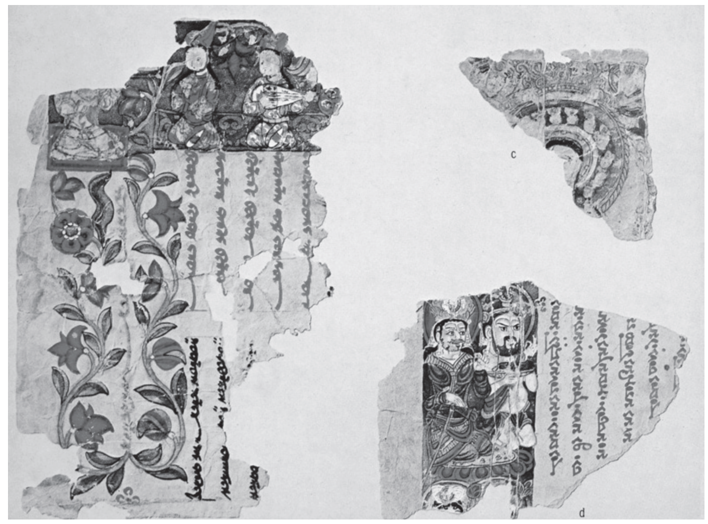


معبد الديانة المانوية الذي أعطاه غرونويديل الرقم التسلسلي α



بعض أشكال اللوحات الجدارية للديانة الماونية في مدينة قاوتشانغ





وثائق وكتابات للديانة المانوية مستخرجة من مدينة قاوتشانغ

وقد ذُكر الموقع الأثري الخاص بالديانة النسطورية والموجود في المناطق المحيطة بمدينة قاوتشانغ القديمة في تقرير لوكوك حول أعمال التنقيب، وذلك في كتابه "خوه جوو"[1]، وطبقًا لوصف لوكوك، فقد شُيِّدت هذه الكنيسة في الزاوية الشمالية الشرقية لمدينة قاوتشانغ، في الاتجاه الجنوبي بعد النهر خارج المدينة.

1- الاسم القديم لمدينة توربان. (المترجِمة)

وقد مرت هذه الكنيسة بالعديد من عمليات الترميم، ولم يتبقَّ منها سوى أطلال 3 غرف؛ في الغرفة C توجد لوحة جدارية لفارس بطول مترين، على جبينه صليب أصفر اللون، ويحمل على كتفه الأيمن سارية علم بصليب على طرفها، وعلى الجدار الشرقي للغرفة نفسها توجد –أيضًا- صورة لفارس، ولكنها مدمرة، ولم يتبقَّ منها سوى القدم اليسرى، و4 شخصيات في الجزء السفلي، وفي الجهة اليمنى توجد صورة رجل كبير وطويل، يمسك في يده اليمنى مبخرة، وفي يده اليسرى وعاء، وفي الجهة اليمنى توجد صورة لثلاثة أشخاص صغار الحجم، يحملون في أيديهم فروع أشجار، الاثنان اللذان في المقدمة ذكور، والاثنان اللذان في الخلف إناث.

وقد سبق لفون لوكوك أن أظهر شكَّه مرة في أنه ربما كانت اللوحة الجدارية الموجودة على الجدار الشرقي للغرفة C مادة تخص الديانة المانوية، وبعدها رأى أنها لوحة جدارية ترجع للديانة المسيحية، ومن هنا، أطلق على هذا الموقع الأثري اسم كنيسة الديانة النسطورية، وقد أسهب في طرحه قائلاً إن مادة اللوحة الجدارية تعبر عن طقوس الديانة المسيحية التي يقوم بها المسيحيون في يوم الأحد الذي يسبق عيد القيامة لديهم، أما نمط اللوحة فقد تأثر بالدولة البيزنطية القديمة، وفي واقع الأمر، وقبل طرح فون لوكوك، قام غرونويديل بالإشارة -بشكل خافت- إلى العلاقة التي تربط بين اللوحة الجدارية بالجدار الشرقي للغرفة C، والدولة البيزنطية القديمة، أما العالم الياباني يوشيمورا كيميجيرو فقد أشار إلى أن صورة الفارس الكبير الموجود في يسار اللوحة ترمز إلى يسوع، والثلاثة الآخرين الموجودين في يمين اللوحة يرمزون بالترتيب إلى بيتر، وجون، ومريم العذراء، وما يمسكونه في أيديهم يرمز إلى سعف النخيل، ليعبر المشهد عن "أحد الشعانين" (Palm Sunday)، ويُشار في الإصحاح الثاني عشر من الإنجيل "العهد الجديد.. إنجيل يوحنا" إلى أن سعف النخيل المحمول في أيديهم قد استُخدم للترحيب بدخول يسوع إلى القدس، وفي "الإنجيل" ذُكِر أن يسوع كان يمتطي حمارًا، وبالتالي، فإن الأرجل الظاهرة في النصف الأعلى من اللوحة الجدارية المدمرة، والتي اعتُقد في البداية أنها تعود إلى حصان، تشير إلى أقدام حمار في واقع الأمر.

ونحـن نصـدق أن تلـك اللوحـة الجداريـة بكنسـية الديانـة النسـطورية فـي مدينـة قاوتشـانغ القديمـة، والتـي تصـف دخـول يسـوع إلـى القـدس لا بـدَّ أن يعـود تاريخهـا إلـى مـا بعـد عـودة يسـوع إلـى الحيـاة (كمـا فـي معتقـدات الديانـة المسـيحية)، كا يمكـن القـول كذلـك إنهـا تمثـل عمـلاً فنيًّـا يعـود إلـى أواسـط القـرن التاسـع الميـلادي، ومـن هنـا، يمكننـا أن نسـتنتج أن الأعـوام التـي ترممـت فيهـا الكنيسـة كانـت قبـل أواسـط القـرن التاسـع الميـلادي.

وفـي العصـور القديمـة، كان للكنائس المسـيحية شـكلان أساسـيان، همـا: الطولـي، والمركزي؛ حيـث تطـور الشـكل الطولـي علـى غـرار البازيليـكا (Basilica)[1] التـي ترجـع إلـى الحضـارة الرومانيـة القديمـة، خاصـة التي تحتـوي علـى محـور طولـي واضـح، وتتمتـع صـالات الكنائـس بمسـاحة كبيـرة داخـل الغـرف، وكانـت تُسـتخدم فـي الأسـاس كأماكـن للعبـادة، بوجهـة نحـو الغـرب، وتسـتخدم عمـوم الكنائـس المسـيحية فـي أوربـا الشـكل الطولـي (ويُسـمى -أيضًـا- بشـكل الصليـب اللاتينـي)، أمـا الشـكل المركـزي فقـد تطـور لاحقًـا فـي الثقافـة البيزنطيـة ليأخـذ شـكل الصليـب اليونانـي، بوجهـة نحـو الغـرب، ففـي بدايـة عهـد الدولـة البيزنطيـة، كانـت وجهـة كافـة الكنائـس المسـيحية نحـو الشـرق تقريبًـا، أي أن مدخـل الكنائـس الرئيـس فـي الطـرف الغربـي، وكان تقـع الغـرف التـي تتخـذ شـكل نصـف الدائـرة (مـكان المذبـح) فـي الجهـة الشـرقية، ومـن خـلال ترتيـب محتـوى اللوحـات الجداريـة مـن حيـث النمـط والوجهـة والسـرد، نجـد أنـه لا بـدَّ لمعابـد الديانـة النسـطورية فـي مدينـة قاوتشـانغ أن تكـون قـد تلقـت تأثيـرًا مـن الحضـارة البيزنطيـة.

وقـد اكتشـف فريـق التنقيـب الألمانـي كذلـك أطـلالًا لمعبـد آخـر للديانـة النسـطورية، وذلـك فـي منطقـة بولايـك (Bulayïq) شـمال مدينـة توربـان، وقـد اكتُشـفت فيـه العديـد مـن الكتابـات والوثائـق المسـيحية المكتوبـة بلغـات مختلفـة كلغـة سـوريا، ولغـة سـوجديان، واللغـة الفارسـية القديمـة، واللغـة الفارسـية الجديـدة، واللغـة الويغوريـة، وغيرهـا.

1- وتعني بالإغريقية "صالة الملك" أو "القاعة الملكية". (المترجِمة)

مدينة سوياب القديمة.. اكتمال البدر عند الضفة الغربية لنهر سوياب في فصل الخريف

تُعد مدينة سوياب (وتُسمى -أيضًا- Sujab) ذات مكانة مهمة للغاية في تاريخ المناطق الغربية في عهد أسرة تانغ الملكية، فقد كانت ذات مرة إحدى المدن الأربع في محافظة آن شي في عهد أسرة تانغ، حيث كانت مدينة مهمة تدير من خلالها أسرة تانغ المناطق الغربية وتحكمها.

وقد دوَّن شيوان زانغ بإيجاز في المجلد الأول من كتابه "السجلات التاريخية حول المناطق الغربية في عهد أسرة تانغ الملكية" حول موقع مدينة سوياب وأحوالها، قائلًا: "على بعد أكثر من 250 كيلومترًا شمال غرب مدينة تشينغتشه، تقع مدينة سوي يي شوي (مسمى آخر لمدينة سوياب)، وفي محيط المدينة لمسافة 3 -3.5 كيلومترات كانت تتوزع مساكن تجار البربر القادمين من الدول المجاورة، وكانت تتميز المدينة بتربتها الهشة، ومحاصيل القمح، والعنب، وغاباتها ذات الأشجار الرفيعة، وكان جوها باردًا بحيث كانت مقابلة للرياح دائمًا، وكانت ملابس الناس مصنوعة من شعر الحيوانات الكثيف"، وترى الغالبية العظمى من العلماء في العصر الحديث أن مدينة سوياب هي نفسها مدينة توكموك (Tokmok) التي تقع في شمال دولة قيرغيزستان حاليًا، على مقربة من مدينة أكبيشيم (Ak-Bešim) التي تقع على بعد 8 كيلومترات جنوب غربها، عند خطوط طول 75° 12′ 22″ شرقًا، وخطوط عرض 42° 48′ 10″ شمالًا، وعلى بعد حوالي 60 كيلومترًا غربًا تقع مدينة بيشكيك (Biškek) حيث مكان الروافد العليا لمجرى نهر تشو.

وبالنظر إلى المدينة كوحدة جغرافية أكبر، تقع مدينة سوياب في أقصى شرق الأنهار السبعة الشهيرة بمنطقة آسيا الوسطى، وتتكون الأنهار السبعة أساسًا من حوض بحيرة بالكاش، وحوض نهر تشو، ويقع هذان الحوضان على متوسط

ارتفـاع يبلـغ 300-400 متـر فـوق مسـتوى سـطح البحـر، حيـث يقـع حـوض نهـر تشـو فـي أسـفل نقطـة، ويظهـر اتجـاه حـوض نهـر تشـو مـن الشـرق للغـرب، بطـول 200 كيلومتـر، وعـرض 80 كيلومتـرًا عنـد أعـرض منطقـة بـه، ويبلـغ متوسـط ارتفـاع القمـم الجبليـة علـى ضفتيـه 3700 متـر، وتكثـر الينابيـع الحـارة فـي أعالـي تلـك الجبـال، كمـا تتميـز بمنـاخ لطيـف فـي منطقـة الـوادي، ويتصـل وادي نهـر تشـو شـرقًا ببحيـرة إيسـيك كـول (Issykul)، وغربًـا بحـوض تـاراس، ووادي فرغانـة (Ferghana) أيضًـا، ويمثـل وادي نهـر تشـو ممـرًا عشـبيًّا مهمًّـا يربـط بيـن أوربـا وآسـيا، فـالأرض هنـا مسـتوية، والأعشـاب المائيـة كثيفـة، ممـا جعلـه أحـد الأماكـن المهمـة لمزاولـة الرُعـاة أنشـطتهم منـذ القـدم.

وبالنظـر إلـى رسـم مخطـط نهـر تشـو الأثـري الذي وضعـه عالـم الآثـار السـوفيتي كوزيمياكو (P.N.Koženmjako) نجـد أنـه كان هنـاك أكثـر مـن 18 مدينـة قديمـة كان لهـا جـدران، مـن بينهـا 13 مدينـة تقـع فـي منطقـة فـرع نهـو تشـو الجنوبـي، بينمـا تقـع 3 مـدن أخـرى فـي منطقـة فـرع نهـو تشـو الشـمالي، وعامـة تبلـغ المسـافة بيـن تلـك المـدن القديمـة 10-14 كيلومتـرًا، وهنـاك بعـض المـدن التـي لا تصـل المسـافة بينهـا إلـى 3 كيلومتـرات حتـى، وتقـع مدينـة أكبيشـيم شـرق هـذه المـدن القديمـة، أمـا فـي الجنـوب الشـرقي فتقـع مدينـة بولانـا القديمـة (وتُسـمى مدينـة بالاسـاجون)، وقـد أُدرجـت مدينـة بولانـا القديمـة –أيضًـا- ضمـن قائمـة الدفعـة الأولـى للمطالبـة باعتمادهـا كتـراث ثقافـي عالمـي لطريـق الحريـر.

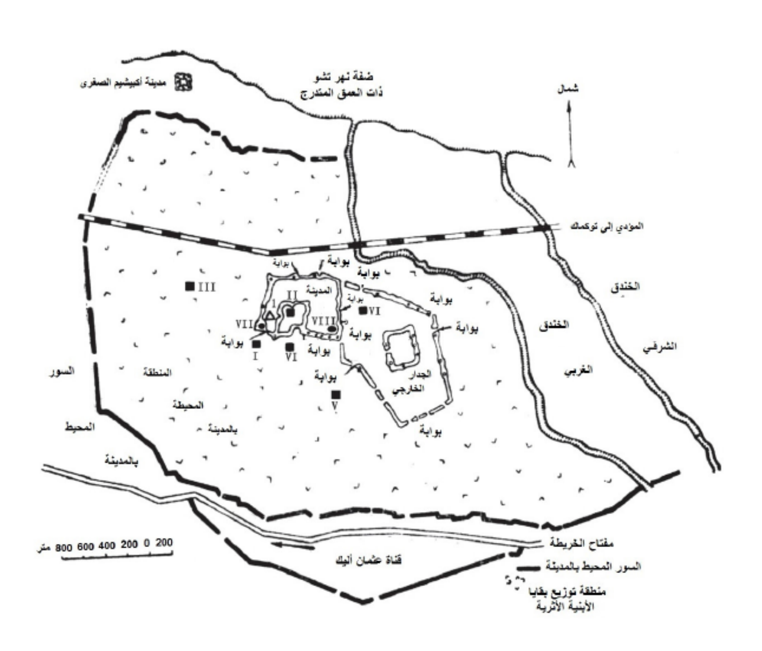
ومدينـة سـوياب مدينـة معروفـة لـدى الجميـع فـي الصيـن، ويرجـع السـبب الأساسـي لارتباطهـا بالشـاعر لـي بـاي الشـهير، فقـد دوَّن فـان تشـوان جنـغ فـي كتابـه "الكتابـات التذكاريـة علـى مقبـرة لـي قونـغ شـين مسـاعد الإمبراطـور وعضـو الأكاديميـة الملكيـة فـي عهـد أسـرة تانـغ" حـول جـد الشـاعر لـي بـاي، قائـلًا: "عانـى مـن مشـاق الحيـاة الكثيـرة فـي نهايـة عهـد أسـرة سـوي الملكيـة، وكان يمتلـك مسـكنًا واحـدًا فـي مديـة سـوياب".

وقـد بـدأت الدراسـات العلميـة حـول مدينـة سـوياب فـي نهايـة القـرن التاسـع عشـر،

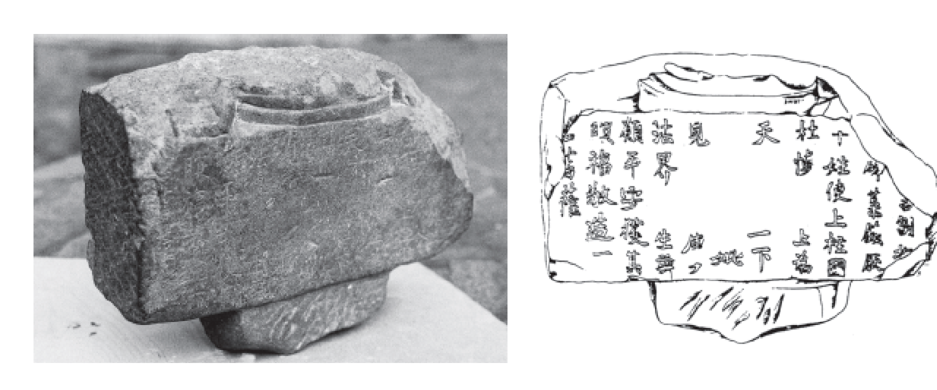
وبالوصول إلى عام 1903م، ظهر إدوارد شافانس الباحث الفرنسي الشهير في الشؤون الصينية صاحب الكتاب الشهير "السجلات التاريخية حول الأتراك الغربيين"، وقد ذكر فيه -وفقًا للسجلات التاريخية الصينية- أنه إن لم يكن الموقع الأصلي لمدينة سوياب في مدينة توكموك، فلا بدَّ أن تكون قريبة منها وليست بعيدة، وفي عام 1961م، استنتج الإنجليزي جيرارد كلاوسون (Gerard Clauson) -الباحث في اللغة التركية- أن مدينة أكبيشيم هي نفسها مدينة سوياب الشهيرة المذكورة في السجلات التاريخية الصينية، وذلك وفقًا لتقارير التنقيب التي قام بها الباحث السوفيتي كازلاسوف، ولكن، لم تُثر وجهات نظر هؤلاء الباحثين الكثير من الاهتمام، فلا يزال يرى العديد من علماء الرياضيات أن مدينة أكبيشيم هي نفسها مدينة بالاساجون، أما مدينة سوياب فتقع في مكان آخر غير هذا الموقع، وفي عام 1982م، وباستثناء المعبد البوذي الذي تم اكتشافه عند الجدران الخارجية لمدينة سوياب، تم اكتشاف قاعدة تذكارية في المدينة أيضًا، أسسها القائد دو خواي باو تخليدًا لذكرى والديه، وهو القائد الذي تولى مرارًا قيادة مقر إدارة الحكومة المركزية في مدينة آنشي، وفرع المقر ذاته في آنشي، كما تولى رئاسة مدينة سوياب نفسها، وكان يعمل على قمع قبائل الأتراك الغربيين العشر هناك، وفي النهاية تم اعتماد الرأي القائل بأن مدينة أكبيشيم هي نفسها مدينة سوياب.

ولم تسجل السجلات التاريخية الصينية سوى أجزاء محدودة في ما يخص تشييد مدينة سوياب، وشكلها، فقد ذكر كتاب "تاريخ أسرة تانغ الملكية الجديد"، المجلد الثالث والأربعون، الجزء الثاني "الجغرافيا التاريخية" الباب السابع أنه: "في العام الأول من تقويم دياولو التابع لأسرة تانغ (679م)، شيَّد القائد وانغ فانغ إي (قائد مقر إدارة الحكومة المركزية) مدينة سوياب، بإجمالي 12 بوابة في جهاتها الأربع، وبسبب كثرة الالتواءات في طرق المدينة، عمل على الانزلاقات والتعرجات في طرقها"، وقد ذكر كذلك كتاب "تاريخ أسرة تانغ الملكية القديم"، المجلد 189، الجزء الأول، "السيرة الذاتية للقائد وانغ فانغ إي": "قام القائد بتشييد مدينة سوياب، وأقام 12 بوابة في جهاتها الأربع، وعمل على إخفاء التعرجات في طرقها، وانتهت أعمال البناء بعد 50 يومًا، وسارعت كافة دول المناطق الغربية

لزيـارة المدينـة، وتقديـم الهدايا"، ومـن هنـا، نجـد أن السـجلات التاريخيـة الصينيـة ذكـرت أن القائـد وانـغ فانـغ إي أنهـى بنـاء المدينـة بعـد 50 يومًـا، وفـي هـذا مبالغـة، ففـي واقـع الأمـر، لا بـدَّ أن يكـون القائـد انـغ فانـغ إي قـد عمـل فـي هـذه المـدة علـى إجـراء توسـيعات لمدينـة سـوياب القديمـة، وليـس بنائهـا مـن جديـد.



شكل تخطيطي لتصميم مدينة سوياب القديمة



النُصْـب التـذكاري الـذي أقامـه القائـد دو خواي بـاو الذي قمع قبائـل الأتراك الغربيين العشـر

ويمكـن تقسـيم مدينـة أكبيشـيم القديمـة المحفوظـة حتـى وقتنـا هـذا إلـى قسـمين: المدينـة الكبـرى الخارجيـة، والمدينـة الداخليـة، كمـا يمكـن تقسـيم المدينـة الداخليـة إلـى 3 أقسـام: مدينـة شهرسـتان (šahristan)، ومدينـة قصـر الحاكـم (citadel)، والجـدار الخارجـي (rabad).

وتحيـط بالمدينـة الخارجيـة الجـدران مـن 3 جهـات: الجنوبيـة، والغربيـة، والشـمالية، أمـا الجهـة الشـرقية فيقـع فيهـا الخنـدق المـؤدي إلـى الطريق الشـمالي الغربـي، والخنـدق المؤدي إلـى الطريـق الجنوبـي الشـرقي، وفـي الشـمال الغربـي خـارج المدينـة فـي مـكان ليـس ببعيـد توجـد أطـلال مسـتوية تظهـر علـى شـكل مسـتطيل، يُطلـق عليهـا السـكان المحليـون اسـم مدينـة أكبيشـيم الصغـرى.

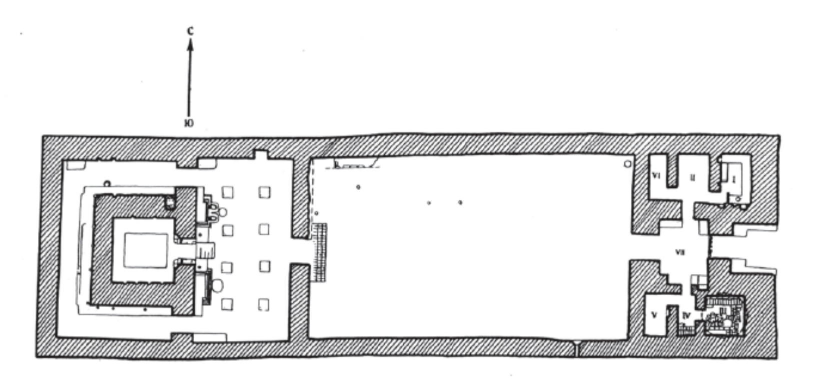
وتقـع مدينـة شهرسـتان فـي الزاويـة الشـمالية الغربيـة للمدينـة القديمـة، وتـم تشـييدها علـى قمـة التـل، وتظهـر علـى هيئـة شـكل رباعـي الزوايـا غيـر منتظـم، وتبلـغ مسـاحتها حوالي 35 هكتـار (350 ألـف متـر مربـع)، ومـن منظـور الموقـع الجغرافـي، نجـد أنهـا تقـع فـي مركـز مدينـة سـوياب، ويوجـد فـي مدينـة شهرسـتان مناطـق سـكنية، كمـا يوجـد بهـا طريـق متقاطـع (الطريـق المؤديـة مـن الشـمال للجنـوب، والطريـق المؤديـة مـن الشـرق للغـرب)، وقـد أوضـح التنقيـب الأثـري خـلال الفتـرة 1953م- 1954م أن مدينـة شهرسـتان تتمتـع بوفـرة فـي مسـتوياتها الثقافيـة، حيـث إنهـا تحتـوي علـى 4 مسـتويات ثقافيـة لفتـرة تمتـد إلـى 5-10 قـرون، وتقـع الجـدران الخارجيـة للمدينـة فـي شـرقها، وتظهـر تلـك الجـدران علـى هيئـة شـكل خماسـي الزوايـا غيـر منتظـم، بمسـاحة 60 هكتـار (600 ألـف متـر مربـع) تقريبًـا، ويبلـغ إجمالـي طـول الأسـوار الخارجيـة حوالـي 3970 متـر، ويبلـغ إجمالـي البوابـات فـي الجهـات الجنوبيـة، والشـمالية، والشـرقية للمدينـة 5 بوابـات، بالإضافـة إلـى بوابتيـن متصلتيـن بالجـدار الشـرقي لمدينـة شهرسـتان، ليصبـح الإجمالـي 7 بوابـات للمدينـة.

ومـن حيـث الاكتشـافات الأثريـة، نجـد أن مدينـة سـوياب تحتـوي علـى العديـد مـن المواقع الأثريـة لمختلـف الديانـات، ويرجـع ذلـك إلـى عيـش مجموعـات مختلفـة دينيًّـا معًـا داخـل المدينـة.

وحتـى يومنـا هـذا، تـم اكتشـاف 3 معابـد بوذيـة فـي مدينـة سـوياب، مـن بينهـا يقـع معبـدان فـي الجهـة الخارجيـة للأسـوار الجنوبيـة لمدينـة شهرسـتان (ويُطلـق عليهمـا بالترتيـب المعبـد البـوذي الأثـري الأول، والمعبـد الثانـي فـي مدينـة سـوياب)، ويقـع المعبـد الثالـث فـي الجهـة الجنوبيـة لجـدران المدينـة.

يقـع المعبـد البـوذي الأول فـوق ربـوة علـى بعـد 100 متـر جنـوب غـرب مدينـة شهرسـتان، ويحتـوي علـى 3 أجـزاء: بوابـة المدخـل (البوابـة الجبليـة)، والسـاحة الداخليـة، وقاعـة التعبـد إلـى بـوذا، وتترتـب هـذه الأجـزاء مـع الارتفـاع المتـدرج للربوة التـي بُنـي المعبد عليهـا، ويظهر المعبـد علـى شـكل مسـتطيل، وتفتـح أبوابـه ناحيـة الشـرق، ويبلـغ ارتفـاع الجـدران المتبقيـة مـن المعبـد حوالـي 3 متـر، وتظهـر البوابـة الجبليـة الشـرقية علـى شـكل "مقعـر"، بحيـث تفتـح بوابـة علـى الجانـب الشـمالي، وأخـرى علـى الجانـب الجنوبـي للمدخـل، وبالداخـل يوجـد 3 غـرف فـي الشـرق والغـرب، لإقامـة الرهبـان، وعلـى كل جانـب مـن الجانبيـن الأيمـن والأيسـر للمدخـل المـؤدي إلـى منتصـف القاعـة الأماميـة يوجـد تمثـال لمايتريـا المتأمـل (يضـع رجلـه اليمنـى علـى اليسـرى فـي وضعيـة تأمـل)، ويُسـتخدم فـي صنـع هـذه التماثيـل الطينيـة فـي العمـوم عيـدان القصـب أو الخشـب، بحُلـي بديعـة الجمـال، وفـي منتصـف القاعة الخلفيـة توجـد قاعـدة تمثـال علـى هيئـة مربـع بمحيـط 4.8 متـرًا، وارتفـاع 3.6 متـرًا، وقـد تـم اكتشـاف تمثـال بـوذا برونـزي كبيـر فـي ذلـك المـكان، وكذلـك تـم اكتشـاف 12 قطعـة مـن الحلـي البونزيـة المجوفـة، كمـا يوجـد رواق يربـط بيـن الجـدران الخارجيـة والقاعـة الخلفيـة، وتمـلأ الصـور واللوحـات الجداريـة جـدران القاعـة الأماميـة والأروقـة، ويـرى كازلاسـوف أن هـذا المعبـد البـوذي الأول يرجـع عهـده إلـى القـرن 7-8 الميـلادي، ووفقًـا لهـذا، يـرى بعـض الباحثيـن أن هـذا المعبـد هـو نفسـه معبـد دايـون (المعبـد السـماوي) الـذي بنـاه القائـد وانـغ فانـغ إي، كمـا طـرح بعـض الباحثيـن السـوفيتينن برنامـج ترميـم وصيانـة للمعبـد البـوذي الأول، بحيـث يشـكل كل مـن البوابـة الجبليـة وقاعـة التعبـد الجـزء العلـوي للمعبـد، وتشـكل المنطقة الوسـطى قبـة كقبـاب المسـاجد، ويـدل هـذا البرنامـج بـكل وضـوح علـى عـدم الإلمـام بطـرق البنـاء علـى الطـراز الصينـي.

ويظهـر المعبـد البـوذي الثانـي علـى شـكل مقـارب للمسـتطيل، وتتجـه بوابتـه الجبليـة جهـة الشـمال، ويحتـوي علـى جـدران مزدوجـة تحيـط بـه، واكتُشـفت فيـه قاعـدة تمثـال، وبقايا متناثـرة مـن تمثـال قديـم، وكانـت اللوحـات الجداريـة تتخـذ مـن شـكل بـوذا الواقـف أساسًـا لشـكلها، ويحيـط بالجهـات الثـلاث للجـدران الداخليـة للمعبـد قاعـات التعبـد لبـوذا، لتشـكل أروقـة داخليـة، كمـا يوجـد بابـان عنـد فنـاء المعبـد يؤديـان إلـى الأروقـة الداخليـة تلـك، وتمتلـئ أرض تلـك الأروقـة ببقايـا اللوحـات الجداريـة المتناثـرة، وكذلـك بقايـا التماثيـل، وقواعدهـا، ورأس بوديسـاتفا (بوداسـف)، وقاعـدة زهـور اللوتـس، وغيرهـا مـن الأثريـات، وفـي الجهـة الشـمالية لقاعـة التعبـد لبـوذا يوجـد فنـاء مسـتطيل الشـكل، وتظهـر قاعـة التعبـد لبـوذا علـى شـكل صليـب، وتحتـوي علـى نوافـذ فـي جدرانهـا الشـرقية، والجنوبيـة، والغربيـة، بحيـث يوجـد أمـام كل نافـذة قاعـة تمثـال، وقـد اسـتنتج المنقبـون بـأن يرجـع هـذا المعبـد البـوذي الثانـي إلـى القـرن 7-8 الميـلادي.



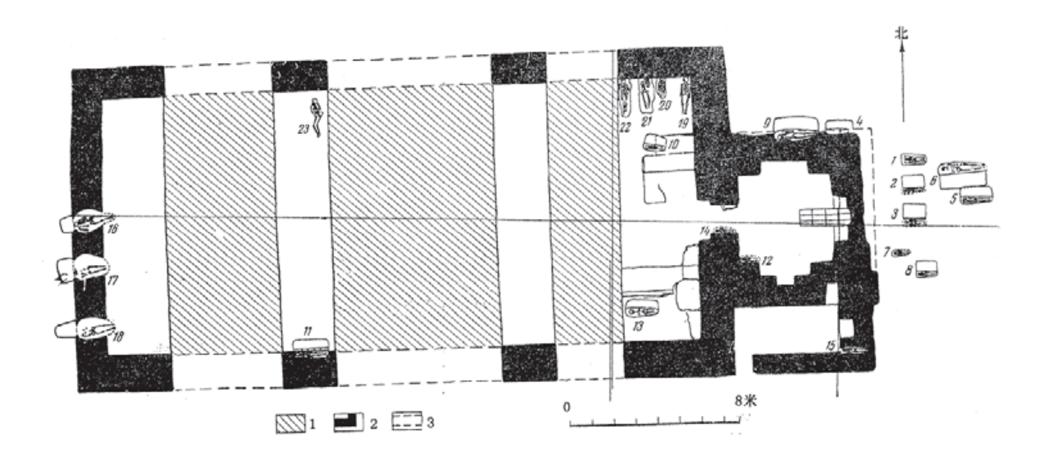
شكل تخطيطي للمعبد البوذي الأول

وفـي مدينـة أكبيشـيم تـم التنقيـب عـن معبديـن للديانـة النسـطورية، يقـع المعبـد الأول علـى ربـوة علـى مسـافة 165 متـرًا شـرق الأسـوار الشـرقية لمدينـة سـوياب، ويقـع المعبـد الثانـي فـي الزاويـة الجنوبيـة الشـرقية لمدينـة شهرسـتان.

يبلـغ طـول المعبـد النسـطوري الأول 36 متـرًا، وعرضـه 15 متـرًا، ويتجـه مـن الشـرق إلـى الغـرب، وينقسـم إلـى 3 أجـزاء: سـاحة المعبـد، والقاعـة المقدسـة، والغـرف الجانبيـة؛

تقـع سـاحة المعبـد فـي أقصـى غـرب المعبـد، علـى هيئـة مسـتطيل، ويحيـط بالسـاحة مـن جهاتهـا الأربـع صفـوف مـن الأعمـدة التـي ربمـا كانـت أروقـة فـي الماضـي، وتتصـل السـاحة شـرقًا بالقاعـة المقدسـة التـي تظهـر علـى شـكل صليـب بزاويـة، وتحتـوي علـى 3 نوافـذ فـي الجـدران، كمـا يوجـد علـى جدرانهـا البقايـا المحفوظـة مـن اللوحـات الجداريـة، وفـي الجهـة الجنوبيـة مـن القاعـة المقدسـة توجـد غرفـة جانبيـة مسـتطيلة الشـكل، تحتـوي جدرانهـا علـى نوافـذ صغيـرة، وبهـا صليـب برونـزي، ومـن بيـن البقايـا الأثريـة المسـتخرجة مـن المعبـد يوجـد 4 عمـلات تعـود إلـى قبائـل التورجـش (التـرك القدامـى)، وعملـة واحـدة مـن عمـلات تشـيان يـوان الصينيـة، وقـد اسـتنتج المنقبـون أن هـذا المعبـد النسـطوري الأول يعـود إلـى القـرن الثامـن الميـلادي.

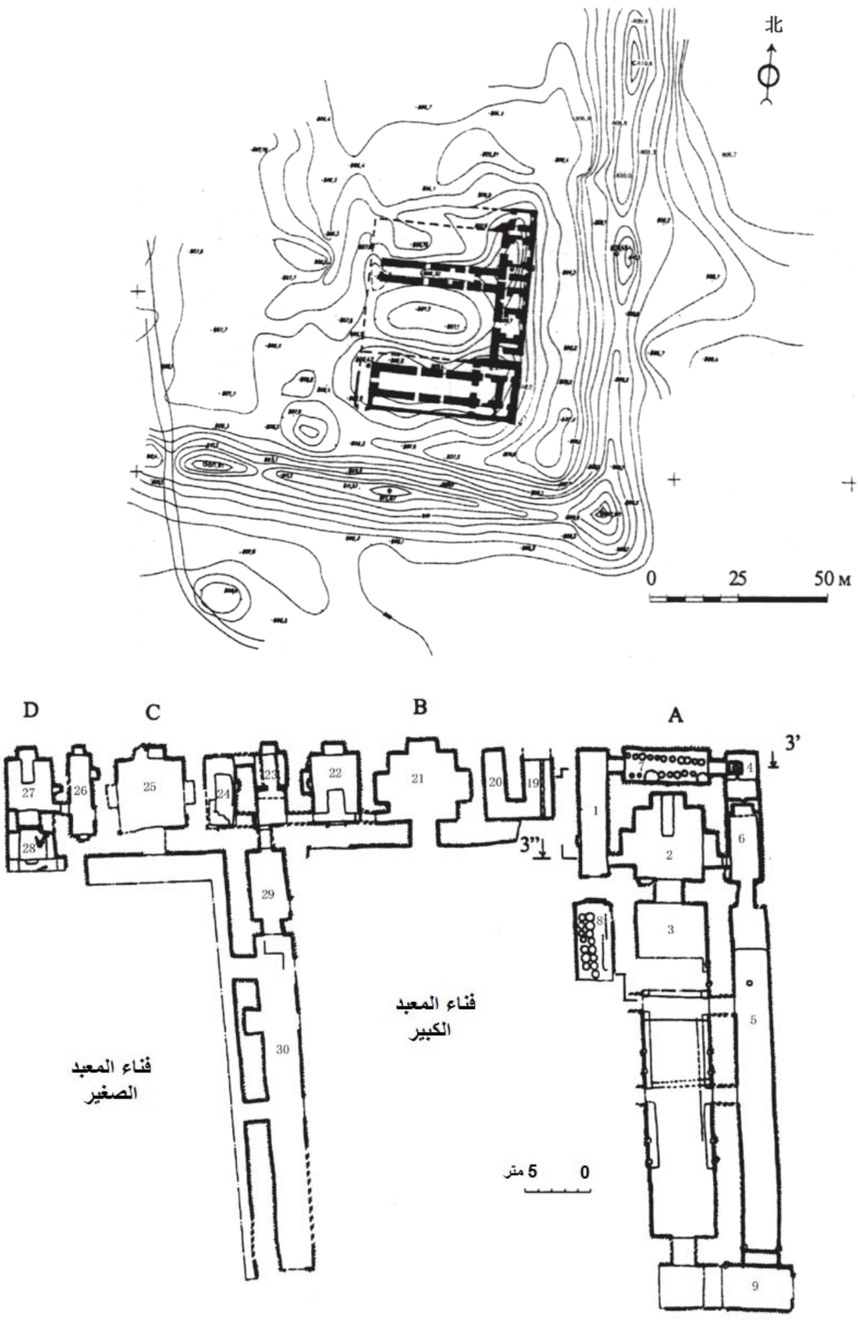
وقـد تـم اكتشـاف 18 مقبـرة لرهبـان مؤمنيـن بالديانـة النسـطورية، وذلـك تحـت قواعـد جـدران هـذا المعبـد النسـطوري، وفـي سـاحته، وفـي جهاتـه الأربـع كذلـك، ويرجـع تاريـخ تلـك المقابـر إلـى مـا قبـل بنـاء المعبـد نفسـه، وقـد تكـون تلـك المقابـر -علـى حسـب معلوماتنـا فـي الوقـت الحاضـر- مقابـر المسـيحيين الأوائـل فـي منطقـة آسـيا الوسـطى.



صورة القمر الصناعي للمعبد النسطوري الأول

أمـا المعبـد النسـطوري الثانـي فيمكـن تقسـيمه إلـى 4 مناطـق، بأرقـام تسلسـلية مـن الجنـوب للشـمال A/B/C/D. أقدمهـا فـي البنـاء منطقـة A، يليهـا مناطـق B/C/D.

فـي أقصـى الجنـوب تقـع منطقـة A، وتحتـوي علـى القاعـة المقدسـة (رقـم 2)، ومجموعـة مـن القاعـات مقوسـة السـقف (رقـم 1، أرقـام 4-8)، وبنائيـن آخريـن يحمـلان رقـم 3، ورقـم 9، وفـي المبنـى رقـم 2 تـم اسـتخراج عملتيـن مـن عمـلات قبائـل التورجـش، ومـدون علـى لوحاتـه الجداريـة باللغـة الويغوريـة، وفـي المبنـى رقـم 6 نجـد صـور الأزهـار تزيـن سـقفه. أمـا المبنـي رقـم 4 فـكان مصنعًـا لصنـع نبيـذ العنـب فـي منطقـة آسـيا الوسـطى، وربمـا كان المبنيـان رقـم 7، ورقـم 8 قبويـن لتخزيـن نبيـذ العنـب، وتتخـذ منطقـة B مـن المبنـى رقـم 21 مركـزًا لهـا، ويقـع فـي جهتهـا الغربيـة فنـاء بمسـاحة 18×30 متـرًا؛ مـن بينهـا ينقسـم المبنـى رقـم 23 إلـى طابقيـن، وتـم اكتشـاف عظـام بشـر فـي طابقـه السـفلي، أمـا المبنـى رقـم 24 فقـد تـم اكتشـاف بقايـا كتـب مقدسـة مكتوبـة بلغـة شـعب سـوجديان فـي داخلـه، أمـا المنطقـة C فيمثـل المبنـى رقـم 25 أساسًـا لهـا، ويقـع فـي جهتهـا الغربيـة فنـاء بمسـاحة 10×31 متـرًا، وتقـع المنطقـة D فـي أقصـى شـمال المعبـد، وتحتـوي علـى الأبنيـة رقـم 26-28.



شكل تخطيطي للمعبد النسطوري الثاني





بقايا اللوحات الجدارية بالمبنى رقم 2 في المعبد النسطوري الثاني

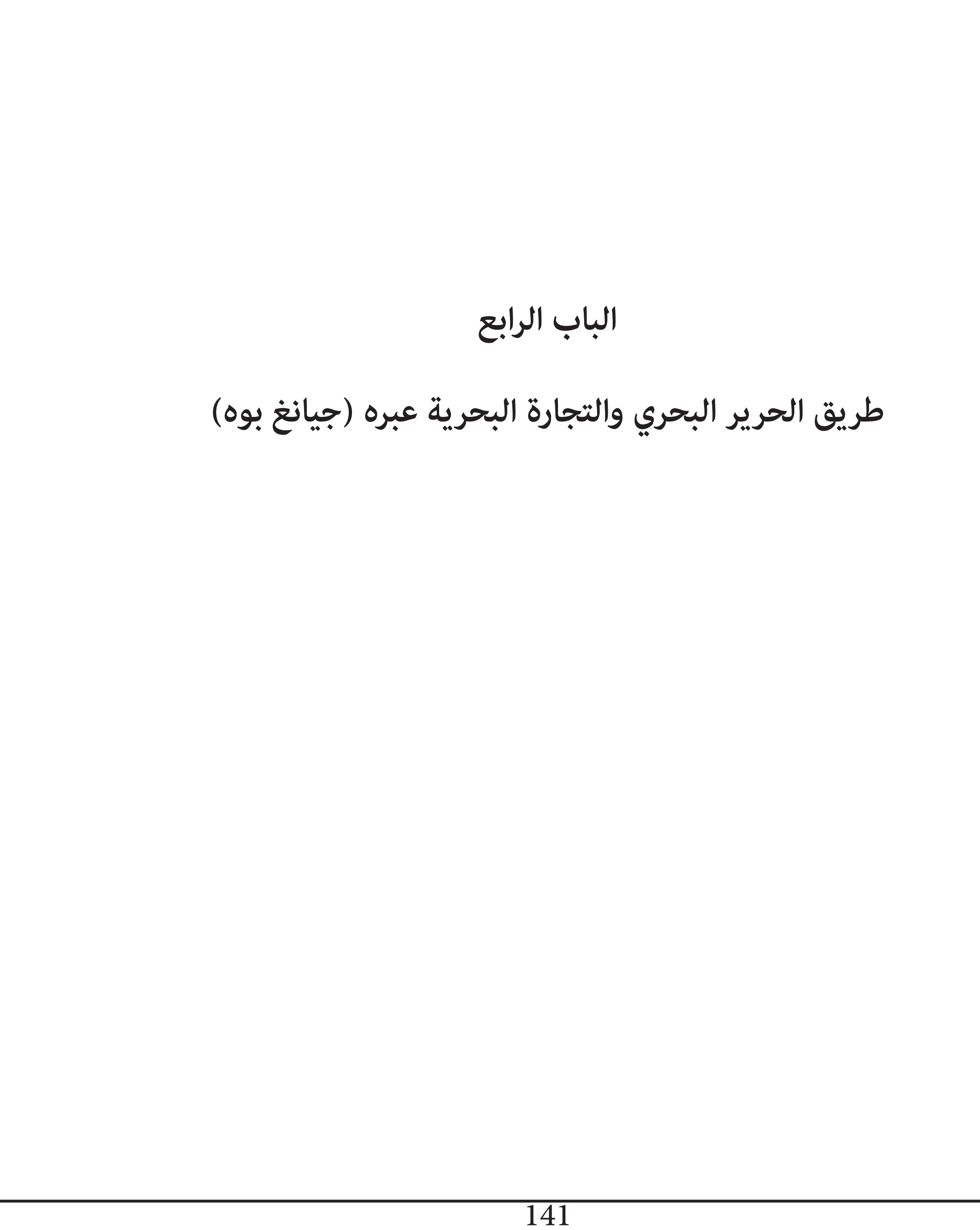
وفي جنوب غرب الأسوار الخارجية للمدينة يوجد موقع أثري، مصنوع من القراميد العادية، والقراميد المزخرفة معًا؛ من بينها يوجد 27 قرميدًا دائري الشكل عليه صليب، ويرى بعض الباحثين أن هذا الموقع هو قلعة المدينة، ويرى باحثون آخرون أنه يمثل برج النيرفانا[1] الخاص بالديانة الزرادشتية، وبرؤية القراميد وأحواض المياه التي تحتوي على شكل صليب، نميل أكثر إلى رأينا بأن يكون هذان

1- مفهوم النيرفانا: هي حالة الخلو من المعاناة، وتعتبر النيرفانا حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق. (المترجِمة)

الموقعان عبارة عن مقابر للمؤمنين بالديانة النسطورية.

وتوجد حفرة مربعة الشكل في النصف الشمالي من منصة مقابر المؤمنين بالديانة النسطورية، وتبلغ مساحتها 0.95×0.9 متر مربع، بعمق 0.9 متر، ومن هذه الحفرة تم استخراج بقايا صناديق مربعة الشكل، وبيضاوية الشكل كانت تُستخدم لحفظ عظام الموتى (ossuary)، من بينها كان هناك صندوق عليه زخارف لورق الشجر، وفي شرق تلك المنصة كانت هناك -أيضًا- غرفة للمقابر، تتجه من الشرق للغرب، بطول 4 أمتار تقريبًا، وعرض 0.7-1.2 متر تقريبًا، وارتفاع 1.2 متر، وفي داخل تلك الغرفة تم اكتشاف 3 بقايا صناديق حفظ عظام الموتى على شكل بيضاوي، ولها غطاء، وجمجمتان كاملتان، ولا بدَّ أن يكون هذان الموقعان يمثلان مقابر المؤمنين بالديانة الزرادشتية.

وتؤكد لنا المواد الأثرية المذكورة سابقًا أن مدينة سوياب لا تحتوي على الديانتين المانوية، والنسطورية بسبب "توزيع مساكن تجار البربر القادمين من الدول المجاورة" وحسب، بل -أيضًا- بسبب الديانة البوذية التي انتقلت إلى منطقة السهول الوسطى الصينية في عهد حكم أسرة تانغ الملكية، وكذلك بعض الأبنية على طراز قبائل السهول الوسطى؛ ظاهرة كهذه حيث توجد حضارات متعددة في مدينة واحدة، تعرض لنا بشكل جيد الملامح المتنوعة للمدن القديمة على خط طريق الحرير.



الباب الرابع

طريق الحرير البحري والتجارة البحرية عبره (جيانغ بوه)

الفصل الأول

مفهوم طريق الحرير البحري

يُعد طريق الحرير البحري الممر المائي الذي كان يعتمد فيه القدماء على الرياح الموسمية وتيارات المحيط، باستغلال تقنيات الإبحار التقليدية لإجراء التبادل بين الشرق والغرب من خلاله، وهو كذلك حلقة الوصل التي تعمل على نقل الاقتصاد، والثقافة، والعلوم، والأديان، والأيدلوجيات بين مختلف الحضارات في الشرق والغرب. باختصار، يُعتبر طريق الحرير البحري مسار حركة مرور التجارة البحرية، ومن أهم القبائل التي شاركت في الأنشطة التجارية عبر طريق الحرير البحري هم: الصينيون القدماء، والفرس (العرب)، والهنود، والماليزيون، وأخيرًا تجار الغرب المستعمرون، وذلك بعد انقضاء عصر الاستكشاف.

ومن منظور التاريخ الصيني القديم، تبلور طريق الحرير البحري في عهد أسرتي تشين وهان الملكيتين، ونضج في عهد أسرتي سوي وتانغ الملكيتين، وكذلك في عهد الأسر الخمس اللاحقة لهما، وازدهر في عهد أسر سونغ ويوان ومينغ الملكية، وتدهور في أواسط وأواخر عهد أسرة تشينغ الملكية، ويشمل طريق الحرير البحري التجارة الرسمية التي كانت تديرها الدولة بنفسها، كما كان يغطي أشكال التجارة الشعبية التلقائية، وقد وصل ازدهار التجارة الرسمية إلى قمته في فترة رحلات الرحالة جنغ خه الشهير للمحيط الأطلسي (1405م- 1433م)، أما التجارة الشعبية فقد اتخذت من عهد أسرة مينغ الملكية (1567م) -وهو "زمن الانفتاح العظيم على البحار"- رمزًا لها، وقد سبق لها أن ازدهرت بشكل كبير في فترة ما.

ومن منظور الإطار العالمي، لا بدَّ وأن تتخذ نهاية عصر طريق الحرير البحري -والذي يتخذ من التجارة البحرية سمة رئيسة له- من ظهور السفن البخارية رمزًا لها، ومن المميزات البارزة للتجارة البحرية ما يلي: 1) الاعتماد على الرياح

الموسـمية، وتيـارات المحيـط، حيـث كانـت تقـرر عناصـر البيئـة الجغرافيـة مسـار الإبحـار القديـم؛ 2) اسـتخدام السـفن الشـراعية كأدوات للشـحن والنقـل؛ 3) اعتمـاد تقنيـات الملاحـة علـى البوصلـة أو الملاحـة الفلكيـة ("تتبـع النجـوم لعبـور المحيـط")؛ 4) كان أهـم مـن شـارك فـي الأنشـطة التجاريـة هـم الصينيـون القدمـاء، والهنـود، والفـرس (العـرب)؛ 5) كانـت تتمثـل أهـم البضائـع التجاريـة فـي المنتجـات المحليـة الخاصـة أو منتجـات مصانـع المشـغولات اليدويـة التقليديـة، وبعـد دخـول عصـر السـفن البخاريـة، طـرأ تغيـر واضـح علـى التجـارة البحريـة، ويتمثـل فـي مـا يلـي: 1)) لـم يعـد نظـام الطاقـة يعتمـد علـى الريـاح الموسـمية وتيـارات المحيـط، بـل كان يمكـن للبشـر "كبـار الحجـم نسـبيًّا" اختيـار مسـار الإبحار بأنفسـهم. 2) حلَّـت البواخـر محـل السـفن التقليديـة ذات الشـراع الخشـبي. 3) أصبحـت الرسـوم البيانيـة لخطـوط الطـول والعـرض البحريـة، والبوصلـة أهـم أدوات الملاحـة، وذلـك بسـبب تطـور تقنيـات المسـح البحـري. 4) أصبـح تجـار الغـرب المسـتعمرون رواد التجـارة البحريـة. 5) أصبـح المحـرك البخـاري رمـز الثـورة الصناعيـة، حيـث أصبحـت المنتجـات الصناعيـة فـي العصـر الحديـث تدريجيًّـا أسـاس البضائـع المنقولـة بحريًّـا.

وهنـاك نقطـة أخـرى تسـتحق الذكـر، ألا وهـي أنـه مـن منظـور التاريـخ الصينـي، فإنـه بعـد الدخـول إلـى عصـر السـفن البخاريـة، طـرأ –أيضًـا- تغيـر كبيـر للغايـة علـى آليـة إدارة الصيـن للتجـارة البحريـة، فمنـذ عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، بـدأت الأسـر الإقطاعيـة فـي الصيـن فـي تأسـيس "مكاتـب للشـحن الخارجـي" فـي مـدن الموانـئ البحريـة، وغيرهـا مـن الآليـات لإدارة التجـارة البحريـة، وكانـت تشـبه وظيفتهـا وظيفة الجمـارك في عصرنـا الحالي، واسـتمرت التجارة فـي ظـل هـذه الآليـة فـي عهـد أسـر سـونغ، ويـوان، ومينـغ، وتشـينغ، ولـم تتغيـر حتـى بعـد سـماح حكومـة أسـرة تشـنيغ بـ"الإتجـار بالمنتجـات الأجنبيـة" فـي موانـئ مدينة قوانجـوو، وفي نهايـة عهـد أسـرة تشـينغ، وبسـبب توقيـع "معاهـدة إنهـاء ثـورة الملاكميـن 1901م"، خسـرت الصيـن بالكامـل سـلطتها علـى الجمـارك (وتـم تعويضهـا بضمـان رسـوم الضرائـب البحريـة وضرائـب الملـح)، ممـا جعـل دول الغـرب تسـيطر بالكامـل علـى الجمـارك الصينيـة، وبهـذا، تغيـر مفهـوم طريـق الحريـر البحـري بالكامـل مـن مفهومـه التقليـدي عنـد دول الشـرق إلـى

طريق التجارة الاستعمارية، وهو تغير كبير للغاية على مستوى طبيعة التجارة البحرية.

ويعكس طريق الحرير البحري التبادل الثقافي بين مختلف الحضارات القديمة، فمنذ القدم، تبلورت بعض الدوائر التجارية المستقلة نسبيًّا، مثل الدائرة التجارية لشمال شرق آسيا، والدائرة التجارية لبحر الصين الجنوبي، والدائرة التجارية لخليج البنغال، والدائرة التجارية للخليج الفارسي- بحر العرب- البحر الأحمر- شرق إفريقيا- والبحر الأبيض المتوسط، وتماشيًا مع تلك الدوائر تشكلت بالمثل دائرة الحضارة الكونفوشيوسية القديمة شرق آسيا، ودائرة الحضارة الهندية، ودائرة الحضارة الفارسية- وحضارة العرب- وحضارة البحر الأبيض المتوسط.

وبسبب تحكم القبائل المختلفة في أنشطة التجارة البحرية، شكَّل كل منها خطًّا تجاريًّا وشبكة تجارية خاصة بها، فقد كان خط التجارة عبر طريق الحرير البحري عند الصينيين القدماء -زمن إبحار جنغ خه نموذجًا- يعتمد مسار الإبحار التالي: مدينة نانجينغ (الصين) – مدينة تشيوانجوو (الصين)- مدينة تشامبا (فيتنام)- مدينة باليمبانج (إندونيسيا)- ميناء جالي (سيريلانكا)- جوري (مدينة كلكتا في الهند)- الخليج الفارسي (مضيق هرمز)، وقد ربط هذا المسار البحري كلًّا من الدائرة التجارية لبحر الصين الجنوبي، والدائرة التجارية للهند- سريلانكا، والدائرة التجارية للفرس- العرب، لتصبح شبكة دولية للتجارة البحرية، كما عمل على مد هذه الشبكة لتصل إلى شرق إفريقيا، ومنطقة البحر المتوسط، وبعد الدخول إلى عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى، وعصر الملاحة، أسس تجار الغرب المستعمرون خطًّا ملاحيًّا للتجارة مختلفًا عما أسسه الفرس (والعرب)، والهنود، والصينيون في القدم، مثل خط التجارة الذي أسسه البرتغاليون: مدينة لشبونة (البرتغال)- كيب تاون (جنوب إفريقيا)- مضيق هرمز- ولاية غوا (الهند)- ملقا (ماليزيا)- مكاو (الصين)- ناغازاكي (اليابان)، وخط التجارة الذي أسسه الإسبانيون: ميناء مانيلا (الفلبين)- ميناء أكابولكو (المكسيك)- بيرو (أسبانيا)، أما خط مكاو-مانيلا فكان لربط الشبكة التجارية البرتغالية بالشبكة التجارية الإسبانية.

ومـن الناحيـة الإقليميـة، نجـد أن التـراث الثقافـي لطريـق الحريـر البحـري تمثلـه المواقـع الأثريـة للموانـئ البحريـة الموجـودة فـي كل مـن المـدن الصينيـة تشـيوانجوو، قوانغجـوو، نينغبـوه، ونانجينـغ، وغيرهـا، بمـا يشـمل بقايـا أنقـاض الموانـئ القديمـة الموجـودة علـى طـول خـط السـاحل، والأدوات المسـتخدمة فـي الملاحـة، والمرافـق والأدوات المسـتخدمة فـي التجـارة البحريـة، وبقايـا القرابيـن، والمواقـع الأثريـة لمصانـع إنتـاج السـفن، والسـفن الغارقـة، ومرافـق الإنتـاج، وغيرهـا.

وتمثـل المواقـع الأثريـة لتلـك الموانـئ بقايـا التـراث الثقافـي لطريـق الحريـر البحـري، ومـن أهـم المواقـع الأثريـة لتلـك الموانـئ داخـل الحـدود الصينيـة ميـناء قوانغجـوو، ميـناء تشـيوانجوو، ميـناء فوجـوو، ميـناء جانغجـوو، ميـناء نينغبـوه، ميـناء نانجينـغ، ميـناء يانغجـوو، ميـناء خـه بـو، وميـناء دينغجـوو، وغيرهـا مـن الموانـئ الأخـرى، ومـن أهـم المواقـع الأثريـة لتلـك الموانـئ خـارج الصيـن نجـد ميـناء تشـامبا فـي فيتنـام، ميـناء باليمبانـج "القديـم" فـي إندونيسـيا، ميـناء ملقـا فـي ماليزيـا، ميـناء جالـي فـي سـيريلانكا، ميـناء جـوري فـي مدينـة كلكتـا بالهنـد، وميـناء مضيـق هرمـز بالخليـج الفارسـي، وغيرهـا مـن الموانـئ الأخـرى. أمـا الموانـئ التـي ظهـرت فـي فتـرة التجـارة الاسـتعمارية لـدول الغـرب فمـن أهمهـا: ميـناء لشـبونة (البرتغـال)، ميـناء كيـب تـاون (جنـوب إفريقيـا)، ميـناء مضيـق هرمـز، ميـناء غـوا (الهنـد)، ميـناء ملقـا (ماليزيـا)، ميـناء باتافيـا (إندونيسـيا)، ميـناء مانيـلا (الفلبيـن)، ميـناء مـكاو (الصيـن)، وميـناء ناغازاكـي (اليابـان)، وغيرهـا.

ومـع تطـور طريـق الحريـر البحـري، تشـكلت العديـد مـن موانـئ التوزيـع الدوليـة الشـهيرة مثـل ميـناء قوانغجـوو، ميـناء تشـيوانجوو، ميـناء ملقـا، وميـناء جـوري، وغيرهـا، وفـي الوقـت نفسـه، تشـكلت العديـد مـن المراكـز التجاريـة مثلمـا كان فـي سـريلانكا، وريوكـو، وجـزر المالديـف، أمـا فـي الصيـن القديمـة، ومـع تطـور التجـارة البحريـة الخارجيـة نحـو جنوب شـرق آسـيا، وشـمال شـرقها، تشـكل علـى الترتيـب "ميناءيـن للسـفر إلـى خـارج البـلاد عبـر البحـر" وكان موقعهمـا فـي جزيـرة شياتشـوان بمقاطعـة قوانغدونـغ، وجـزر جـوه شـان بمقاطعـة جـه جيانـغ.

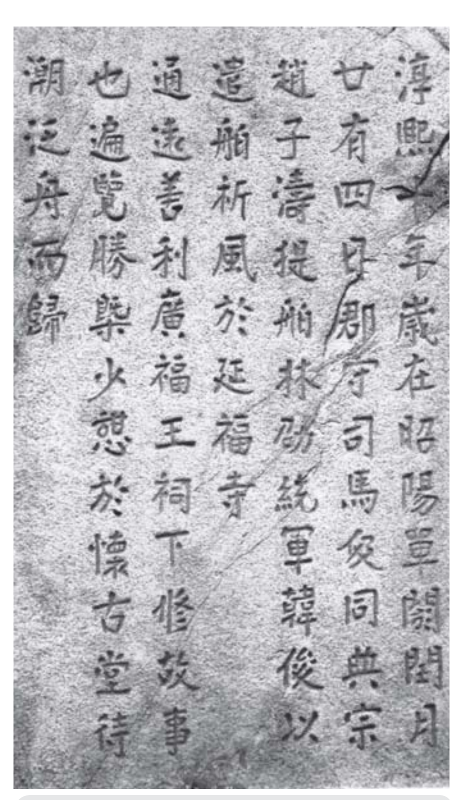
الفصل الثاني

الرياح الموسمية وتيارات المحيط.. طريق الحرير البحري والتجارة البحرية

يُعد طريق الحرير البحري تبلورًا لحكمة الحضارة الإنسانية في حركة المرور، وقد شهد تبلوره فترات تاريخية طويلة، أما الرياح الموسمية وتيارات المحيط فتمثل أهم العناصر الطبيعية التي كانت تؤثر على عملية الإبحار.

وسواء كانت الصين القديمة، أو الهند، أو بلاد الفرس (العرب)، أو منطقة البحر الأبيض المتوسط، فقد اكتشف البشر بشكل متزامن نظام الرياح الموسمية، فلو أخذنا نموذج مناطق جنوب شرق الصين، ومناطق جنوب شرق آسيا المطلة على البحر، سنجد أنه في شتاء كل عام تسود الرياح الشمالية الشرقية، لتهب من المناطق المطلة على البحر جنوب شرق الصين، نحو جنوب شرق آسيا، وفي صيف كل عام، تسود الرياح الجنوبية الغربية، لتهب من إندونيسيا وحزام شبه جزيرة مالايو جنوب شرق آسيا، نحو المناطق المطلة على البحر جنوب شرق الصين، وبسبب وضوح وانتظام الرياح الموسمية في أقاليم البحر الصيني الجنوبي، أطلق عليها البحارة الصينيون القدماء اسم "الرياح التجارية"، واستغل السكان القاطنون في "أماكن هبوب الرياح" نظام الرياح الموسمية بشكل بارع، وشرعوا في مزاولة التجارة البحرية ذهابًا وإيابًا بين المناطق المطلة على البحر جنوب شرق الصين، ومناطق جنوب شرق آسيا، بحيث يبدؤون الرحلة التجارية في الشتاء، ويعاودون أدراجهم في الصيف، ويستمرون في ذلك عامًا بعد عام.

ويقـع مضيـق ملقـا -الرابـط بيـن المحيـط الهـادي والمحيـط الأطلنطـي- عنـد تقاطـع مـرور حركـة تجـارة الريـاح الموسـمية، فقديمًـا كان يحتـاج الأسـطول التجـاري إلـى التوقـف فـي هـذا الميـناء عنـد الوصـول إليـه، لانتظـار تحـول اتجـاه الريـاح، ثـم يسـتمر فـي إبحـاره، ومـن هنـا، تشـكَّلَ الميناءان الكبيـران: ميناء باليمبانـج فـي إندونيسـيا، وميـناء ملقـا فـي ماليزيـا، وبسـبب كـون كل مـن مدينـة شـيووين فـي شـبه جزيـرة ليـي جـوو، ومدينـة جـوري فـي الضفـة الجنوبيـة الغربيـة للهنـد عقدتـي تحويـل للرياح الموسـمية أيضًـا، لـذا، تحـولا منـذ القـدم إلـى ميناءيـن للتجارة البحرية.



منحوتات صلاة الرياح المكتشفة في جبل جيوره بمدينة تشوانجوو

وقـد أدت تقاليـد التجـارة البحريـة إلـى تحـول "صـلاة الريـاح" نشـاطًا بحريًّـا تعبديًّا مهمًّـا، وتُعد المنحوتـة الحجريـة لصـلاة الريـاح المكتشـفة فـي جبـل جيـوره بمدينـة تشـيوانجوو إرثًـا ثمينًـا خلفـه لنـا هـذا النـوع مـن التعبـد، وتقـع هـذه المنحوتـة فـي أعالـي جبـل جيـوره فـي الضفـة الشـمالية لمدينـة جينجيانـغ بمدينـة نـان آن فـي مقاطعـة فوجيـان، ويبلـغ عـدد النقـوش المنحوتـة مباشـرة علـى منحـدرات الجبـال -التـي ترجع إلـى الفتـرة مـن عهـد أسـرة سـونغ الشـمالية وحتـى عهـد أسـرة تشـين- والمحفوظة حتـى يومنا هـذا 75 منحوتـة، منهـا 13 منحوتـة تخـص صـلاة الريـاح والإبحـار، وقـد دُوِّنـت عليهـا الحقائـق التاريخيـة حـول صـلاة الريـاح للموظفيـن المحلييـن فـي مكاتـب الشـحن ومكاتـب البلديـة فـي مدينـة تشـيوانجوو، وذلـك خـلال الفتـرة مـن العـام الثالـث مـن تقويـم تشـونغ نينـغ التابـع لعهـد أسـرة سـونغ الشـمالية (1104م)، وحتـى العـام الثانـي مـن تقويـم شـيان تشـون التابـع

لعهد أسرة سونغ الجنوبية (1266م)، وبهذا أصبحت هذه المنحوتات بقايا أثرية ثمينة لدراسة طريق الحرير البحري في مدينة تشوانجوو في عهد أسرة سونغ الملكية.

وتُعد تيارات المحيط كذلك عنصرًا مهمًّا مؤثرًا على الملاحة البحرية، فعلى سبيل المثال نجد تيار كوروشيو غرب المحيط الهادي تيارًا قويًّا للغاية من حيث سرعته، ومعدل تدفقه، وبالتالي كان له تأثير مهم على الملاحة الإقليمية في كل من مقاطعة فوجيان، وتايوان في العصور القديمة، ويرجع سبب "عصر التجارة البحرية الكبرى" عبر المحيط الهادي (1565م-1815م) إلى اكتشاف الإسبان نظام تيار المحيط الهادئ (وهو حلقة التيارات المارة عبر التيار الاستوائي الشمالي- تيار كوروشيو- تيار الهادئ الشمالي- تيار كاليفورنيا البارد)، ومن هنا، ظهر خط الملاحة بين ميناء مانيلا في الفلبين، وميناء أكابولكو في المكسيك.

وكانت تقرر التجارة البحرية المتأثرة بالعناصر الطبيعية سمات الشحن والنقل عبر طريق الحرير البحري. ففي البداية، أدى تحول الرياح الموسمية وتكرارها إلى جعل تفاعل الرياح ثنائي الاتجاه ممكنًا، ومن ثم، أدى كون هذا النوع من الرياح موسميًّا ودوريًّا إلى جعل التجارة البحرية تمتلك كذلك سمة دورية، فعلى سبيل المثال كانت الرحلة التجارية من المناطق المطلة على البحر جنوب شرق الصين إلى جنوب شرق آسيا تمثل دورة واحدة سنويًّا (تبدأ في الشتاء وتعاود أدراجها في الصيف)، ومثال آخر، كانت الرحلة التجارية من الصين في اتجاه المحيط الهندي تحتاج إلى التوقف في ميناء ملقا في انتظار تحول اتجاه الرياح، وكانت تحتاج إضافة دورة سنوية أخرى لاستكمال إبحارها في أقاليم المحيط الهندي، وحين توجه الرحالة جنغ خه قديمًا إلى الخليج الفارسي وغيره من المناطق في الغرب، كان يبحر خلال الدورة التجارية على الأقل مرة واحدة كل عامين، وفي النهاية، أدى تأثير الرياح الموسمية وتيارات المحيط إلى جعل طريق الحرير البحري يمتلك سمة واضحة وهي تجارة الترانزيت في الموانئ، وهي ما أُطلق عليها في وثائق الملاحة الصينية اسم "الإبحار التدريجي نحو آلاف البلدان"، فهي مثل السلم تمامًا،

حيث تحقق نقل البضائع عبر محطة تلو الأخرى، وفي الوقت نفسه، أدى تأثير الرياح كذلك إلى جعل التجارة البحرية تصل إلى نطاق واسع بشكل غير مسبوق في التاريخ.

الفصل الثالث

اللوائح القارية والتقاليد البشرية.. العنصر الإنساني في طريق الحرير البحري

يُعد طريق الحرير البحري الممر المائي الذي كان يعبره القدماء لإجراء التبادل بين مختلف الحضارات، وبسبب اختلاف الموارد الطبيعية والتقاليد البشرية، استندت كل لوحة قارية من العالم القديم إلى وحداتها الجغرافية الخاصة بها، وتشكلت بها لوائح حضارية مختلفة النظم، وبهذا، تمتعت كل لوحة من تلك اللوائح القارية باستقلالية مواردها، ومنتجاتها، وتقنياتها، وأديانها، وأيديولوجياتها، مما جعل المعاملات والتبادلات بين الأمم المختلفة ممكنة.

وباعتبار الصين نواة اللوحة القارية لشرق آسيا، فقد كان من أهم ما شاركت به من منتجات منقولة عبر طريق الحرير البحري: الحرير، والخزف، وأوراق الشاي، والمشغولات الحديدية، والنحاسية. أما اللوحة القارية لجنوب شرق آسيا فقد اشتهرت بموادها الخشبية، وعطورها القيمة، وغيرها من المنتجات، واشتهرت اللوحة القارية من الهند وحتى سيريلانكا بأحجارها الكريمة، والأقطان، وغيرها، واشتهرت كذلك اللوحة القارية من بلاد الفرس وحتى بلاد العرب بالعطور، والأحجار الكريمة، والمشغولات الزجاجية، والفخار على الطراز الإسلامي، وغيرها من البضائع. بينما اشتهرت اللوحة القارية الخاصة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط بالمشغولات الذهبية والفضية، والزجاج، وغيرها. أما اللوحة القارية الخاصة بشرق إفريقيا فقد اشتهرت بالعاج، وقرون وحيد القرن، وغيرها من المواد (لدرجة أن كان "العبيد السود" من المنتجات التجارية –أيضًا- في زمن التجارة الاستعمارية)، وبعد الدخول في عصر الاستكشاف، أصبحت سبائك الفضة الأمريكية، ومنتجات الصوف الأوربية من البضائع التجارية المهمة أيضًا.

وبتتبع الأدلة الأثرية، يتبين لنا أن طريق الحرير البحري قد أدى إلى جعل العالم القديم يبلور شبكة تجارية دولية، حيث يمكننا أخذ نوع منتج خاص بمدينة لونغتشيوان الصينية كنموذج، وهو علب لونغتشيوان الخزفية ذات الغطاء على شكل زهرة اللوتس، لنستقرئ ما أطلق عليه الباحث الياباني ميكامي تسوجيو "طريق الخزف". فقد تم اكتشاف أجزاء متبقية من أغطية خزفية على شكل زهور اللوتس في فتحات أفران لونغتشيوان الخزفية، مما يؤكد أن المكان الأساسي لصنع مثل هذا النوع من المنتجات كان في أفران مدينة لونغتشيوان الخزفية في مقاطعة جه جيانغ الصينية، كما تم اكتشاف أغطية خزفية مماثلة في كل من رصيف سفن "شيافانتان" في ميناء نينغبوه، وحطام السفينة الغارقة في ميناء تشيوانجوو، وبدمج هذه الاكتشافات مع السجلات الوثائقية، يثبت لنا أن ميناءي نينغبوه وتشيوانجوو كانا ميناءي توزيع



علبة خزفية بغطاء على شكل زهرة لوتس مستخرجة من سفينة غارقة بمدينة سينان بكوريا الجنوبية

وشحن وتفريغ لمثل هذا النوع من الخزف، وترجع السفينة الغارقة في مدينة سينان الكورية إلى أول سفينة تجارية خرجت من ميناء نينغبوه، وذلك في العام الثالث من تقويم جه جه التابع لعهد أسرة يوان الملكية (1323م)، ويمكننا اعتبار العلب الخزفية المستخرجة منها دليلاً أثريًّا على شحن هذا النوع من الخزف إلى الخارج عبر البحر، وبإلقاء نظرة خاطفة على المواد والسجلات الأثرية الخاصة بالمواقع الأثرية للموانئ الموجودة على طول خط طريق الحرير البحري، يمكننا رؤية ما تم اكتشافه من العلب الخزفية ذات الغطاء على شكل زهرة اللوتس في كل من جنوب شرق آسيا، واليابان، وريوكو، وإندونيسيا، والخليج الفارسي، وشرق إفريقيا، وتركيا، وغيرها من الأماكن

الأخـرى، "فبالنظـر إلـى بعـض الأمـور الصغيـرة يمكننـا معرفـة الصـورة الكاملـة"، وبهـذا، يمكننا تتبـع الشـبكة التجاريـة لبيـع الخـزف الصينـي مـن أفـران التصنيـع إلـى الموانـئ، ومـن ثـم إلـى محطتـه الأخيـرة فـي الأسـواق الأجنبية.

مثـال آخـر، الأحجـار الكريمـة التـي دخلـت الصيـن فـي العصـور القديمـة، ويرجـع مصدرها إلى الهنـد، وسـيريلانكا وغيرهـا مـن الأماكـن الأخـرى، حيـث تـم اكتشـاف كـم كبيـر منهـا فـي المقابـر التابعـة لعهـد أسـرة مينـغ الصينيـة، خاصـة مقابـر مينـغ دينـغ لينـغ المنقـب عنهـا فـي بكيـن (وهـي مقابـر دفـن مشـتركة للإمبراطـور جـو إي جيـون، والملكتيـن شـياو دوان، وشـياو جينـغ، ودفنـوا فـي عـام 1620م)، ومقابـر القائـد جـو جـان جـي التابـع لأسـرة مينـغ الملكيـة والمنقـب عنهـا فـي مدينـة جونغشـيانغ بمقاطعـة خوبيـي (وهـي مقابـر دفـن مشـتركة لهـذا القائـد وزوجتـه مـن أسـرة ويـي، ودفنـوا عـام 1451م)، ومـن أهـم أنـواع الأحجـار الكريمـة المكتشـفة فـي المقابـر التابعـة لأسـرة مينـغ الملكيـة: الأحجار الكريمـة الحمـراء، والزرقاء، وأحجـار الأوبـال، والزمـرد، وغيرهـا مـن الأنـواع الأخـرى (كان الألمـاس هـو الوحيـد مـن بيـن أنـواع الأحجـار الكريمـة الخمسـة الأشـهر فـي العالـم الذي لـم يكـن قـد اكتُشـف بعـد، إلا أن السـجلات المدونـة قـد أشـارت إلـى شـرائه مـن خـارج الصيـن آنـذاك)، وقـد دوَّنـت السـجلات الخاصـة بالرحالـة جنـغ جـه وصفًـا دقيقًـا للحقائـق التاريخيـة الخاصـة بشـراء أسـطول جنـغ جـه للأحجـار الكريمـة مـن خـارج الصيـن، مثـل كتـاب قونـغ جيـن "سـيرة الـدول الأجنبيـة فـي الغـرب" الـذي دوَّن قائـلاً: "كانـت المناطـق الواقعـة فـي مضيـق هرمـز تحتـوي علـى كنـوز كثيـرة، مثـل أحجـار الصقـر (أحجـار كريمـة حمـراء اللـون)، والأحجـار البـارزة (أحجـار كريمـة ورديـة اللـون)، وأحجـار زوبـاب (أحجـار كريمـة خضـراء اللـون)، وأحجـار



"السبيكة الذهبية" المستخرجة من مقبرة القائد جو جان جي التابع لأسرة مينغ الملكية

الزمـرد (أحجـار كريمـة خضـراء اللـون)، وأحجـار الأوبـال، والألمـاس، واللآلـئ الكبيـرة.."، وكانـت أسـماء الأحجـار الكريمـة مدونـة فـي هـذا الكتـاب وفقًـا لطريقـة نطقهـا وتدوينهـا فـي اللغـة الفارسـية، وقـد تـم -أيضًـا- اسـتخراج "سـبيكة ذهـب" أحضرهـا الرحالـة جنـغ خـه مـن بـلاد الغـرب، وهـي مشـابهة تمامًـا لتلـك التـي تـم اسـتخراجها مـن مقبـرة القائـد جـو جـان جـي، ممـا يؤكـد بوضـوح أنـه لا بـدَّ لهـذه الأحجـار الكريمـة أن يرجـع مصدرهـا إلـى مناطـق الإنتـاج فـي الهنـد، وسـيريلانكا، أو الأسـواق التجاريـة فـي مدينـة ملقـا، أو مناطـق مضيـق هرمـز.

الفصل الرابع

التراث الثقافي والقيم التاريخية لطريق الحرير البحري

يُظهر لنا التراث الثمين الذي خلفه لنا طريق الحرير البحري التبادل الثقافي بين مختلف الحضارات القديمة، مما يمكننا من استكشاف الحقائق التاريخية حول التبادل اللغوي، والديني بين القبائل عبر طريق الحرير قديمًا، وذلك من خلال إجراء استقراء حول المواقع والبقايا الأثرية المختلفة كالموانئ، والسفن الغارقة، والمنتجات التجارية، وغيرها.

ولإجراء ذلك الاستقراء، نحتاج في البداية إلى حل قضية التبادل اللغوي؛ حيث تُظهر النقوش والكتابات المكتشفة في مدينة تشيوانجوو -والمكتوبة بالعديد من اللغات- تنوع القبائل واللغات في مدن الموانئ الدولية. فعلى سبيل المثال، نجد الكتابات المكتشفة على بلاط ضريح "أجاما (Agama)" في مدينة تشيوانجوو، والذي يعود إلى العام الثاني من تقويم جه جه التابع لأسرة يوان الملكية (1322م)، وقد استُخدمت اللغتان الصينية والفارسية في كتابتها (أجاما نفسه شخص هجين من العرق الفارسي والصيني معًا)، مما يوضح وجود مجموعات من الفرس عاشت في مدينة تشيوانجوو في ذلك الوقت، وكانت اللغة الفارسية اللغة الدولية المستخدمة في التجارة البحرية آنذاك، ولهذا، أتى الرحالة جنغ خه إلى مدينة تشيوانجوو خصيصًا قبل توجهه إلى رحلاته في بلاد الغرب، وذلك لتعيين مترجم خاص له منها، وكان يُطلق عليه في التاريخ اسم "المفسر اللغوي"، وكان كل من فيي شين صاحب كتاب "مشاهدة ممتعة للنجوم الطواقة"، وما خوان صاحب كتاب "مشاهدة ممتعة للبلدان خارج الحدود" هما "المفسران اللغويان" اللذَان عينهما جنغ خه، وقد أصبحت مؤلفاتهما مواد تاريخية ثمينة لدراسة ما يتعلق بالبحار جنغ خه.

وخلال مزاولة نشاط التجارة البحرية، يحتاج الأمر إلى امتلاك عملات متداولة

وأدوات للقياس والوزن، وذلك لتسهيل تقييم البضائع عند المقايضة، وكانت العملات الصينية النحاسية العملة المتداولة في الأنشطة التجارية البحرية في شمال شرق آسيا، وجنوب شرقها، ويرجع ذلك إلى خفة وزنها، واستقرار قيمتها، وسهولة حملها خلال الإبحار، لدرجة أنها أصبحت العملة المتداولة في البلدان المحيطة كذلك، وبسبب التدفق المفرط للعملات الصينية إلى الخارج، اضطرت حكومات أسر سونغ، ويوان، ومينغ، وتشينغ إلى إصدار مرسوم يقيد تصدير العملات النحاسية إلى الخارج، وذلك للتحكم في نقص العملات الناتج عن تدفق العملات الصينية النحاسية إلى الخارج، وقد تم استخراج 28 طنًّا من العملات النحاسية الصينية التي ترجع لعهد أسرتي سونغ ويوان الملكيتين من السفينة الغارقة في مدينة سينان الكورية، وبلغ إجمالي عددها إلى أكثر من 8 مليون عملة، ومن هنا يمكننا ملاحظة مدى خطورة تدفق العملات النحاسية إلى الخارج، كما أنه يثبت المكانة المهمة للعملات النحاسية الصينية في إجراء النشاط التجاري في جنوب شرق آسيا في ذلك الوقت، وعلى النقيض، كانت العملات الذهبية والفضية هي العملات المتداولة في النشاط التجاري البحري في منطقة بحر العرب، وأقاليم المحيط الهندي، وقد دُوِّنت هذه الظاهرة في الوثائق الصينية القديمة، فقد دوَّن كتاب "تاريخ أسرة هان الملكية (الجزء الثاني).. السيرة الذاتية للمناطق الغربية"، قائلاً: "اتخذت الإمبراطورية الرومانية ومناطق الشرق الأدنى من العملات الذهبية والفضية عملات رسمية لها، وكانت كل 10 قطع من العملات الفضية تعادل قطعة واحدة من العملات الذهبية، وكانت دولتا أنشي وتيانجو تزاولان التجارة البحرية في ما بينهما، بمكاسب تصل إلى 10 أضعاف"، وكمثل العملات، حفزت التجارة البحرية مختلف المناطق على الشروع في التبادل التجاري باستخدام آليات القياس والموازين، وهناك الإثباتات الوثائقية والأدلة الأثرية التي تؤكد هذا الأمر، فعلى سبيل المثال، كان بين الأوساط العلمية جدل منذ وقت طويل حول الميزان القباني الهندي، والميزان الصيني، ومن المثير للاهتمام اكتشاف أثقال موازين في السفينة الغارقة بمدينة سينان الكورية، والتي كان قد أحضرها تاجر من مدينة نينغبوه الصينية (مكتوب على الأثقال "تصنيع مدينة تشينغيوانلو" وهو اسم

مدينة نينغبوه قديمًا)، وهو إثبات حي على استخدام أدوات القياس والوزن في التجارة البحرية آنذاك.

وباعتبار السفن الشراعية أداة لشحن البضائع عبر طريق الحرير البحري، فقد كان هناك -أيضًا- تبادل لتقنيات تصنيع تلك السفن، وكان من أشهر أنواع السفن الشراعية في التاريخ السفن الصينية (والتي تتمثل في سفن فو[1])، والسفن العربية، والسفن الإسبانية، ولو أخذنا نموذج السفن في عهد أسرة سونغ، سنجد "السفينة الغارقة في خليج مدينة تشيوانجوو الصينية"، و"السفينة رقم 1 في البحر الجنوبي"، و"السفينة رقم 1 في جزيرة خواجوانغ الصينية"، وغيرها من السفن التي يمثل شكلها الطراز الصيني، وفي إقليم إندونيسيا تم اكتشاف بعض السفن الغارقة كسفينة "ين دان"، وسفينة "سيريبون"، وسفينة "بيليتونغ"، وغيرها، وعلى الرغم من أن الجزء الأكبر من بضائع السفن كان من الخزف الصيني، إلا أن شكل السفن كان من الطراز العربي، وفي إقليم الفلبين تم اكتشاف سفينة "سانديبجو" الغارقة التي يرجع شكلها إلى الطراز الإسباني، أما سفينة أوراق الشاي التجارية "Cutty Sark " المحفوظة في المتحف الإنجليزي الوطني البحري، فيمكن أن نرى أنها ترجع إلى الطراز الكلاسيكي للسفن الشراعية السريعة في أواخر عصر التجارة الاستعمارية، ومما يستحق الذكر في هذا الصدد، أنه بسبب التبادل عبر طريق الحرير البحري، تجلت -أيضًا- ظاهرة تبادل تقنيات تصنيع السفن بين الشرق والغرب، ويمكننا أخذ سفينة "شياو باي جياو 1" المكتشفة في مدينة نينغبوه كمثال نموذجي على هذا؛ حيث تعود تلك السفينة إلى أعوام تقويم داوجوانغ التابع لعهد أسرة تشينغ الملكية (1821م- 1850م) (واكتُشف فيها عملات خاصة بدولتي فيتنام واليابان)، وقد استُخدم في تصنيعها التقنية الصينية التقليدية الخاصة كبناء مقصورات مضادة لتسريب المياه، وسد الفجوات الموجودة على ألواح السفينة باستخدام الزيوت والجير وبعض المواد الأخرى، وكذلك استخدام بعض تقنيات تصنيع السفن الأجنبية كالضلوع الكثيفة، والطبقات المنيعة، وغيرها، ووفقًا لدراسات الباحثين، فقد كان الكثير من السفن

1- هي السفن التي كانت تصنع في المناطق المطلة على البحر بمقاطعتي فوجيان، وجيجيانغ الصينيتين. (المترجِمة)

الشراعية الإسبانية الكبيرة التي كانت تزاول أنشطة التجارة في المحيط الهادي من صنع نجاري وحرفيي مقاطعة فوجيان الصينية، والذين عملوا على صناعتها في ميناء مانيلا في الفلبين.

ولم يكن تبادل تقنيات تصنيع السفن بين الصين وخارجها هو التبادل التقني الوحيد، فهناك حقائق تاريخية حول تبادل تقنيات الملاحة كذلك، ويُرى عامة أن أهل منطقة مضيق ملقا كانوا يستخدمون في أقاليم البحر الجنوبي شرقًا تقنيات البوصلة والملاحة الصينية القديمة، ليشكلوا مسارات بحرية كانت تُسمى بـ"طرق الاسترشاد بالبوصلة"، أما في أقاليم المحيط الهندي غربًا فقد كان يستخدم العرب تقنيات الملاحة الفلكية، والتي كانت تُسمى في الوثائق بـ"تتبع النجوم لعبور المحيط"، والمدهش في الأمر كان كتاب "الخرائط البحرية للرحالة جنغ خه" الذي يعكس مسار إبحاره، والذي يرسم بدقة مسار "طرق الاسترشاد بالبوصلة" في أقاليم البحر الجنوبي، وفي الوقت نفسه رُسمت صورة للنجم القطبي الشمالي (نجم الشمال) في طرف الخريطة البحرية (أي بالقرب من الخليج الفارسي)، وهو الأثر الذي يثبت تقنية "تتبع العرب للنجوم لعبور المحيط"، كما أظهرت -أيضًا- الخرائط البحرية المستخدمة في الملاحة في أواخر عصر طريق الحرير البحري المزيج بين التقنيات الصينية والغربية في رسم الخرائط، فعلى سبيل المثال يمكننا من خلال تصفح "خرائط المحيط في الشرق والغرب" (الخرائط الأولى في القرن 17) الموجودة في مكتبة بودلي التابعة لجامعة أكسفورد، أن نرى خرائط الصين التقليدية، كما يمكننا أن نرى طريقة الغرب في إسقاط رسوم الخرائط البحرية.

ويعكس طريق الحرير البحري التبادل بين مختلف القوميات، واللغات، والأديان، ويجسد بشكل واضح القيم التراثية للتبادل والحوار الحضاريين، فها هي مختلف أماكن العبادة في منطقة ميناء مدينة تشيوانجوو الصينية مثل معبد كاي يوان (الديانة البوذية)، ومعبد جين أو (الديانة الطاوية)، ومعبد تيان خوو (الخاص بالإلهة مازو)، ومسجد تشيوانجوو، ومعبد الديانة المانوية، وكذلك المواقع الأثرية التابعة للديانة الهندوسية، والنسطورية، والتي تُثبت بوضوح التنوع الثقافي

للديانـات فـي مناطـق الموانـئ الدوليـة، وهـا هـو "النُصْـب التـذكاري لتصـدق الرحالـة جنـغ خـه فـي دولـة شيلانشـان"[1] المسـتخرج مـن منطقـة مينـاء جالـي فـي سـيريلانكا، والـذي أُقيـم فـي العـام السـابع مـن تقويـم يونـغ لـه (1409م) للرحالـة جنـغ خـه، وقـد كُتـب علـى النُصْـب التـذكاري بلغـات ثـلاث: الصينيـة، والفارسـية، والتاميليـة، ويـدون نصَّـه بالترتيـب الخطـاب الموجـه مـن إمبراطـور الصيـن لمتعبـدي الديانـات البوذيـة، والإسـلامية، والهندوسـية، ممـا يعكـس لنـا الأعمـال الممثلـة عـن التبـادل بيـن مختلـف القوميـات، واللغـات، والأديـان عبـر طريـق الحريـر البحـري.



الموقع الأثري لمسجد مدينة تشيوانجوو (بُني عام 1009م، تصوير جيانغ بوه)

1- يشير إلى تقديم الرحالة جنغ خه الصدقات والقرابين في المعبد البوذي في دولة شيلانشان (سيريلانكا حاليًا) عند الوصول إليها. (المترجِمة)

الباب الخامس

حركة العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ الملكية.. ميزاتها ودورها التاريخي

(وانغ كاي شي)

فـي عـام 2014م، طرحـت اللجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي الصينـي قضيـة تأسـيس مبـادرة "الحـزام والطريـق"، وهـي اسـتراتيجية متطـورة مهمـة للغايـة بالنسـبة لدولـة الصيـن. فقـد بـدأ "الحـزام والطريـق" مـن الصيـن، وربـط كل مـن مناطـق آسـيا الوسـطى، وجنـوب آسـيا، وغربهـا، وامتـد بعيـدًا ليصـل إلـى كافـة دول أوربـا، بمـا يتضمـن دائـرة آسـيا والمحيـط الهـادئ الاقتصاديـة، ودائـرة أوربـا الاقتصاديـة، ويشـمل 4.4 مليـار نسـمة علـى طـول طريقـه، ويمكـن لمبـادرة "الحـزام والطريـق" تعزيـز التنميـة الاقتصاديـة لكافـة البلـدان علـى طـول طريقـه، وتعزيـز الازدهـار المشـترك بيـن شـعوب تلـك البلـدان كذلـك، ويمكـن اختصـار المفهـوم الأساسـي لمبـادرة "الحـزام والطريـق" فـي أنهـا "خمـس روابـط لثـلاث مجموعـات مشـتركة". فالمقصـود بـ"الروابـط الخمـس": التواصـل السياسـي، وارتبـاط المرافـق، وسلاسـة التجـارة، وتـداول الأمـوال، والتواصـل الشـعبي، والمقصـود بـ"المجموعـات الثـلاث المشـتركة": المصالـح المشـتركة، والمسـؤوليات المشـتركة، والمصيـر المشـترك.

وقـد عقـدت المكتبـة الوطنيـة مجموعـة مـن النـدوات الخاصـة بمبـادرة "الحـزام والطريـق" مـن المنظـور العالمـي، وشـرح المحاضـرون الأوائـل المفاهيـم المتعلقـة بهـا مـن منظـور التـراث التاريخـي، أو زاويـة علـم الآثـار. ففـي الأصـل، انبثـق تصـور مبـادرة "الحـزام والطريـق" مـن قاعـدة ووَحـي طُـرق الحريـر القديمـة فـي الصيـن، فبفضـل جـودة طـرق الحريـر القديمـة البريـة كانـت أو البحريـة، وُجِـدت مبـادرة "الحـزام والطريـق" فـي عصرنـا الحالـي، وفـي واقـع الأمـر، تنـاول المحاضـرون جميعًـا هـذا العنـوان مـن خـلال شـرح العلاقـات التبادليـة بيـن الصيـن والـدول الأجنبيـة فـي العصـور القديمـة، أمـا فـي هـذا البـاب فسأشـرح (وانغ كاي شـي) -بشـكل موضوعـي- الأحـوال التاريخيـة للعلاقـات التبادليـة بيـن الصيـن وبـلاد الغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، مـع شـرح ميزاتهـا ودورهـا، وذلـك مـن منظـور علـم التاريـخ، آمـلاً أن يتمكـن الجميـع مـن إدراك القضايـا المتعلقـة بمبـاردة "الحـزام والطريـق" بشـكل ذاتـي، وذلـك مـن خـلال فهـم تاريـخ حركـة العبـور والتواصـل بيـن الصيـن وخارجهـا.

وفــي الحقيقــة، ســواء كان الحديــث عــن حركــة العبــور بيــن الصيــن والغــرب فــي

الماضـي، أو مبـادرة "الحـزام والطريـق" فـي الحاضـر، فهـو ليـس طريقًـا سـهلًا أو ميسـرًا، بـل يتخلله العـرق والـدم والنـار، وقـد يفترشـه الشـوك أيضًـا، ولهـذا يمتلـك النـاس فهمًـا مشـوبًا بالهـم والقلـق حيـال هـذا الأمـر، ولذلـك، لا بـدَّ مـن وجـود اسـتعداد ذهنـي مسـبق قبـل الشـرح.

وقـد يكـون لـدى الجميـع تسـاؤل مشـترك، وهـو: طالمـا أن الحديـث حـول العلاقـات التبادليـة بيـن الصيـن ودول الغـرب، فلمـاذا كان عنـوان هـذا البـاب "حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب"، وليـس "التواصـل بيـن الصيـن والغـرب"، أو "العلاقـات بيـن الصيـن والغـرب"؟، وهـذا هـو أول سـؤال سـأجيب عليـه فـي مـا يلـي، وهـو شـرح لمصطلـح "حركـة العبـور".

الفصل الأول

شرح مصطلح "حركة العبور" بين الصين والغرب.. وبيان أهميتها

قبل تحليل "حركة العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ الملكية"، لا بدَّ في البداية أن أشرح بوضوح سبب استخدامي لمصطلح "حركة العبور"، وليس "التواصل"، أو "العلاقات" بين الصين والغرب، أو غيرها من الكلمات المشابهة، فعند ذكر كلمة "حركة العبور"، سيحضر إلى ذهن القارئ أن المقصود هو ما يتعلق بوسائل المواصلات، ووسائل النقل والشحن التي يستخدمها البشر، وهو أمر طبيعي، وصحيح أيضًا، إلا أنه بالحديث عما قبل عام 1089م، فالأمر ليس كذلك.

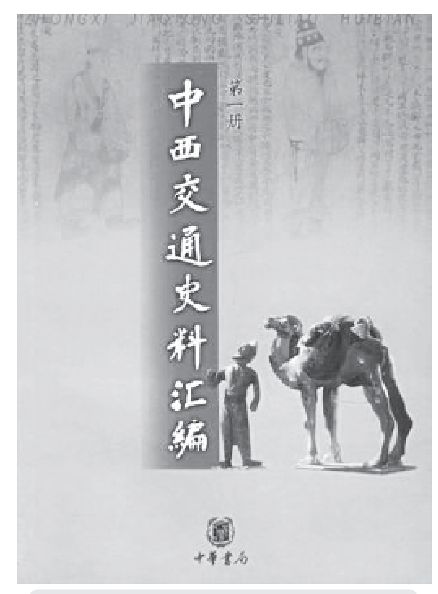
فقبل عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، أطلق الباحثون اليابانيون على تاريخ العلاقات التبادلية بين اليابان ودول الغرب اسم "تاريخ حركة العبور بين الشرق والغرب"، ومن المحتمل أن يكون قد تلقى بعض الباحثين الصينيين تأثيرًا من هذا المسمى (فمنذ دخول العصر الحديث، والعديد من الأسماء الصينية قد تم استعارتها من اللغة اليابانية، مثل كلمات "فرع"، و"سكرتير"، و"تحسين"، وغيرها)، فقد أطلقوا -واحدًا تلو الآخر- اسم "حركة العبور بين الصين والغرب" على العلاقات بين الصين ومختلف دول الغرب، كما أن العديد من الكتب التاريخية التي تطرح موضوع التبادلات بين الصين وخارجها تعتمد مسمى "تاريخ حركة العبور" بين الصين وخارجها، وليس "تاريخ التواصل" أو "تاريخ العلاقات". من بينها نجد الكتب الأشهر: "تجميع المواد التاريخية الخاصة بحركة العبور بين الصين والغرب" من تحرير السيد جانغ شينغ لانغ، ونُشر عام 1930م، و"حركة العبور بين الصين والغرب" للمؤرخ الحديث شيانغ دا، والذي نُشر عام 1934م، وهناك -أيضًا- كتاب "حركة العبور بين الصين والغرب" (المجموعتان الأولى، والثانية) من ترجمة خو روه شه، وكتاب "لمحة تاريخية موجزة حول حركة العبور بين الصين والغرب"، وغيرها من الكتب.



كتاب "تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب"، شيانغ دا، دار يويه ليو للنشر، 2012م



كتاب "تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب"، شيانغ دا، هيئة شنغهاي الصينية للكتاب، 1934م



كتاب "تجميع المواد التاريخية الخاصة بحركة العبور بين الصين والغرب"، تحرير جانغ شينغ لانغ، الهيئة الصينية للكتاب، 2003م



كتاب "تجميع المواد التاريخية الخاصة بحركة العبور بين الصين والغرب"، تحرير جانغ شينغ لانغ، الهيئة الصينية للكتاب، 1977م

ويبقى السؤال.. لماذا اختار هؤلاء الباحثون قبل النصف الثاني من القرن العشرين مسمى "تاريخ حركة العبور" كعنوان لكتبهم؟ فلم يكتب السيد جانغ شينغ لانغ أي توضيح أو شرح حول هذا المسمى في كتابه "تجميع المواد التاريخية الخاصة بتاريخ حركة العبور بين الصين والغرب". فمن وجهة نظره في ذلك الوقت، إن هذا سؤال عادي تقريبًا، ولا يحتاج إلى أي شرح أو تفسير له. أما السيد فانغ خاو فقد طرح فهمه وتحليله الخاص بالمزايا والعيوب التاريخية المتعلقة بمسمى "تاريخ حركة العبور"، ففي مقدمة كتابه "تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب" قدم التفسير التالي: "تُترجم كلمة "حركة العبور" المكونة من شقين (رمزين في اللغة الصينية) إلى كلمة واحدة في اللغة الإنجليزية هي Relation أو Intercourse، أما استخدام كلمة "العلاقات" المكونة من شقين (رمزين في اللغة الصينية) فيبدو فعالًا بشكل أكبر، ومع ذلك، لا تزال "المفردات التقليدية الشائعة" هي العنصر الأهم في عملية اختيار المفردات، فعلى سبيل المثال نجد أنه يمكننا تحديد معنى المفردة من الناحية التطبيقية، أما من ناحية المفردة نفسها فقد نجد عدم وجود تناسق نسبي في استخدامها، أو حتى تأثير كبير لها، ولهذا سنظل نستخدم في هذا الكتاب المسميات القديمة التقليدية"[1]، ويمكن القول كذلك إنه على الرغم من أن السيد فانغ خاو يرى في كتابه أن استخدام مصطلح "تاريخ العلاقات" أدق من مصطلح "تاريخ حركة العبور"، إلا أنه بالاستناد إلى ظاهرة التمسك بالمفردات التقليدية الشائعة المتواجدة بشكل دائم في الأوساط العلمية، ظل فانغ خاو يستخدم مصطلح "حركة العبور" في كتاباته.

ولذلك لجأ العديد من الباحثين في ذلك الوقت إلى إطلاق مسمى "تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب" بديلًا عن "تاريخ التواصل" أو "تاريخ العلاقات"، وباستثناء التأثر بأفكار الباحثين اليابانيين، فأنا أرى شخصيًا أن أهم عنصر على الإطلاق هو مصطلح "حركة العبور" الذي يناسب الدلالات اللفظية الداخلية للغة الصينية، والثقافة الصينية. ففي بحر المفردات الصينية، يوجد العديد من الكلمات المركبة التي تحتوي على شقين (رمزين) لهما محتوى متقارب، ومن بين الكلمات

1- فانغ خاو: "تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب"، المجلد الأول، دار يويه ليو للنشر، 1987م، صفحة 2.

المركبة، نجد الكلمات المركبة ذات الشقين المترادفين، مثل "جليل مهيب"، "ضخم كبير"، "آداب سلوكية"، و"ودود ظريف"، وغيرها من المصطلحات الأخرى في اللغة الصينية، وينتمي مصطلح "حركة العبور" إلى هذا النوع من الكلمات المركبة ذات الشقين المترادفين، ومن ناحية أخرى، نجد الكلمات المركبة المكونة من كلمة أصلية وكلمة مضافة إليها، مثل "الأم الحنون"، و"المعلم النصوح"، والكلمات المركبة المكونة من شق الحركة أو السلوك، وشق المعنى الأصلي للكلمة، مثل "حالة الطوارئ"، و"تصويب الخطأ"، و"تفسير القول"، والكلمات المركبة المكونة من مبتدأ وخبر، مثل "الحياة المعيشية"، و"شاهد عيان"، و"كسوف شمسي"، وأخيرًا الكلمات المركبة التي تتكون من شقين، يُكمل الثاني معنى الأول، مثل "طلاقة ومرونة"، و"صديق حميم"، و"زيارة المعالم"، وغيرها.

وكلمة "حركة العبور" عبارة عن كلمة مركبة تتكون من شقين (رمزين) لكل منهما معنى خاص، هما "حركة"، و"عبور"، حيث يعبر الشق "حركة" عن معانٍ متعددة، من بينها ما يعبر عنه من تواصل متبادل، مثل كلمات "التبادل"، و"المعاملة/الصفقة"، و"التفاوض"، وغيرها من الكلمات، ومعنى آخر لها هو التودد مع الناس، مثل "تكوين صداقات"، و"يتودد"، وغيرها من الكلمات، وهذان المعنيان متوافقان تمامًا في الأساس مع تفسيرنا للتواصل بين الصين والغرب. أما شق "العبور" فله معانٍ متعددة أيضًا، إلا أن معناه الأساسي هو "عدم وجود عوائق في الحركة"، مثل "تهوية/عبور الهواء"، و"العبور"، و"سلاسة العبور من جميع الاتجاهات"، وغيرها من الكلمات والعبارات.

وبالطبع، فإنه لا خطأ على الإطلاق في إطلاق مسمى "تاريخ العلاقات بين الصين والغرب"، أو "تاريخ التواصل بين الصين وخارجها"، أو "تاريخ العلاقات بين الصين وخارجها" بدلًا عن "تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب". فقد أصبح مسمى "تاريخ العلاقات بين الصين وخارجها" والذي أطلقه الباحثون في عصرنا الحالي هو الأكثر دقة وانتشارًا، ويرجع السبب في ذلك إلى أن عبارة "الصين وخارجها (الدول الأجنبية)" أكبر في محتواها من عبارة "الصين والغرب"،

وبالتالـي فـإن "تاريـخ العلاقـات بيـن الصيـن والـدول الأجنبيـة" تعنـي العلاقـة بيـن الصيـن وكافـة الـدول الأخـرى، وبذلـك فهـي أكبـر فـي محتواهـا التعريفـي، لتغطـي محتـوى كافـة أنـواع العلاقـات بيـن الصيـن وخارجهـا، فعلـى سـبيل المثـال، تقـع اليابـان مـن الناحيـة الجغرافيـة فـي النصـف الشـرقي مـن الكـرة الأرضيـة، ومـن هنـا، لا بـدَّ أن تنتمـي العلاقـات بيـن الصيـن واليابـان فـي العصـر الحديـث إلـى العلاقـات بيـن دول الشـرق، وإذا كان الحديـث مقتصـرًا علـى العلاقـات بيـن الشـرق والغـرب، فبالتأكيـد هنـاك مواضـع خطـأ، ولكـن، إذا كان الحديـث حـول أنظمـة السياسـة، ومسـتوى التطـور الاقتصـادي فحسـب، فبهـذا تنتمـي اليابـان إلـى دول الغـرب، فظهورهـا كأحـد أعضـاء دول الغـرب الثمانيـة دليـل علـى هـذا، وبالتالـي، عنـد الحديـث عـن العلاقـات بيـن الشـرق والغـرب، لـن يكـون هنـاك أي مواضـع للخطـأ.

ولهـذا، سـنلجأ إلـى اسـتخدام مصطلـح "حركـة العبـور"، ليـس مـن بـاب تفضيـل الصيغـة التقليديـة عـن المعاصـرة، بـل مـن بـاب كونهـا قديمـة وليسـت حديثـة، فباسـتثناء اسـتخدام باحثـي الجيـل السـابق لهـذا المصطلـح، وحصولهـم علـى نتائـج مفرحـة إزاء هـذا الاسـتخدام، فالأهـم مـن ذلـك أنـه فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، خاصـة قبـل أواسـط عهدهـا، كان معنى مصطلـح "حركـة العبـور" مختلفًـا عـن "التواصـل"، فكلمـة "التواصـل" تشـير فـي الأسـاس إلـى التبـادل بيـن طرفيـن أو أكثـر خـلال فتـرة زمنيـة معينـة، وتشـمل هـذه العلاقـات التواصليـة كافـة المجـالات كالسياسـة، والاقتصـاد، والأيديولوجيـا، والثقافـة، وغيرهـا، وتتركـز أهـم نقطـة فيهـا فـي كلمـة "التواصـل"، ويكمـن ذلـك فـي عمليـة التواصـل الجوهـري بيـن الصيـن والغـرب، ومحتـوى ذلـك التواصـل، وزمـن وقوعـه، أمـا مصطلـح "حركـة العبـور" المكـون مـن شـقين، فبالطبـع يشـمل كذلـك معنـى "التواصـل"، الـذي يشـير إلـى علاقـات التواصـل المتبادلـة، إلا أنـه يشـير فـي الأسـاس أكثـر إلـى "العبـور"، والـذي ينتمـي فـي أساسـه إلـى التواصـل فـي زمـن المسـتقبل، فلـو اقتصرنـا فـي الحديـث علـى العلاقـة المتبادلـة بيـن "حركـة"، و"عبـور"، سـنجد أنـه علـى الرغـم مـن أن كلمـة "عبـور" تمثـل فقـط شـكلًا ونمطًـا واحـدًا مـن أشـكال حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب، إلا أنهـا تمثـل شـرطًا مسـبقًا لا غنـى عنـه فـي عمليـة التواصـل بيـن الصيـن والغـرب، فمصطلـح "حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب" يجسـد

بشـكل أكبـر الخصائـص العصريـة للمرحلـة الأوليـة مـن التواصـل بيـن الصيـن والغـرب فـي العصـر الحديـث، بمـا يشـمل -بوضـوح نسـبي- حـالات التواصـل التـي لـم تتـم فـي ذلـك الوقت بعـد، أو تلـك التـي سـتتم فـي المسـتقبل.

ففـي ذلـك الوقـت، كان هنـاك تناقـض بيـن الصيـن وخارجهـا فـي مـا يتعلـق بالسياسـة، أو الاقتصـاد، أو الأيديولوجيـا، أو الثقافـة، أو غيرهـا مـن المجـالات الأخـرى، وكان هنـاك العديـد مـن الحواجـز والعقبـات الداخليـة الكبـرى التـي تقـف أمـام التواصـل أو التبـادل الحقيقـي، إلا أنـه مـن ناحيـة أخـرى كانـت هنـاك مشـكلة خارجيـة تتمثـل فـي عـدم تمكـن العلاقـات بيـن الصيـن والـدول الأخـرى مـن فتـح منفـذ حقيقـي لهـا، واحتـاج الأمـر إلـى شـق ممـرات بريـة، أو مسـارات بحريـة لإقامـة التواصـل بيـن الصيـن والغـرب مـن خلالهـا، ويمكـن القـول كذلـك إن الشـرط المسـبق لإقامـة التواصـل بيـن الصيـن والغـرب يكمـن فـي كيفيـة شـق ممـرات للتواصـل المتبـادل بيـن الطرفيـن، وبمعنـى آخـر يمكـن القـول إنـه لـو لـم يكـن هنـاك "عبـور"، فلـم يمكـن بـأي حـال أن توجـد "الحركـة".

ويفسـر شـيو شـين التابـع لأسـرة دونـغ الشـرقية فـي كتابـه "تفسـير أصـول الرمـوز الصينيـة" كلمـة "عبـور"، فيقـول: "تعنـي كلمـة "عبـور" الحركـة بغـرض الوصـول"، وفـي كتـاب "مجموعـة المتغيـرات.. مجلـد الروابـط" ذكـر الكاتـب قائـلاً: "تعنـي كلمـة "عبـور" التواصـل بـلا توقـف"، كمـا ذكـر كتـاب "تاريـخ دولـة جيـن قـوه القديمـة" عبـارة "طريـق طويـل صعـب العبـور مـن خلالـه"، والتـي فسـر فيهـا كلمـة "عبـور" بأنهـا تعنـي "الوصـول، أو النهايـة، أو الحـد".

ويعـرف الجميـع جيـدًا السـيرة الذاتيـة للجنـرال جانـغ تشـيان الـذي أرسـله إمبراطـور أسـرة هـان الغربيـة قبـل موتـه فـي مهمـة للمناطـق الغربيـة، ليعمـل علـى دمـج قواتـه مـع قـوات قبائـل أسـرة دا يويـه، وغيرهـا مـن القبائـل التـي كانـت تسـكن المناطـق الغربيـة، وذلـك مـن أجـل "القضـاء علـى ميمنـة قبائـل الهـون"، وبالفعـل اندمجـت القـوات مـع كافـة الـدول فـي المناطـق الغربيـة آنـذاك، واشـتركوا فـي مواجهـة دبلوماسـية قبائـل الهـون التـي كانـت تسـيطر علـى تلـك المناطـق بشـكل كثيـف. إلا أن الكتـب الحاليـة، بمـا يشـمل الكتـب الدراسـية للمرحلـة المتوسـطة، وحتـى المرحلـة الجامعيـة، تسـتخدم فـي

عناوينها عبارة "عبور الجنرال جانغ تشيان نحو المناطق الغربية"، لتؤكد بشكل خاص في الأساس على شق الجنرال جانغ تشيان لممر تواصل بين منطقة السهول الوسطى، والمناطق الغربية، وبهذا تخلو من العوائق التي كانت موجودة مسبقًا بين الصين والغرب، كما أنها تؤكد بشكل أكبر على دور ذلك "العبور" وإسهاماته، بهدف تسليط الضوء على إنجازات الجنرال جانغ تشيان في "شق الطريق" نحو المناطق الغربية[1]، وتتشارك كلمة "العبور" المستخدمة في عبارة "عبور الجنرال جانغ تشيان نحو المناطق الغربية"، مع كلمة "العبور" التي نؤكد عليها في هذا الجزء، إذ إنها تتلون بصبغة الاستكشاف والمغامرة في ذلك الوقت، كما أنها تعبر عن تحمل مصاعب ومشاق كثيرة لإنجاز عمل رائد، ألا وهو إيجاد وشق طريق لإقامة التواصل المتبادل عبره.

وفي خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وخاصة بعد فترة الثمانينيات، وعلى الرغم من قلة وجود باحثين مستخدمين لمسمى "تاريخ حركة العبور"، واستخدامهم لمسمى "تاريخ العلاقات بين الصين وخارجها" كعنوان لكتبهم، إلا أنه لم تتخلَّ الأوساط العلمية بالكامل عن استخدام مسمى "تاريخ حركة العبور"، ولا تنكر كذلك إنجازات الدراسات حول "تاريخ حركة العبور". فعلى سبيل المثال، نشر عالم التاريخ جانغ ويي خوا مقالة في مجلة "الأدب والتاريخ والفلسفة" عام 1983م، بعنوان "دراسة حول تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب"، وفي عام 2002م، نشر الباحث التاريخي وانغ دونغ بينغ مقالة في مجلة "الدراسات التاريخية"، بعنوان "الإسهامات العلمية لدراسة السيد جانغ شينغ لانغ حول تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب"، وغيرها من الكتابات الأخرى، وقد سبق لقسم التاريخ بجامعة فورين في تايوان أن عقد ندوة أكاديمية عام 2000م، بعنوان "استعراض ومراجعة الدراسات القائمة منذ 70 عامًا حول تاريخ حركة العبور بين

1- في اللغة الصينية القديمة كان يساوي رمز "فراغ空 " في المعنى رمز "ثقب孔 "، وبالتالي يُقصد بكلمة "يشق凿空 " أي حفر ممرات للعبور، وقد كتب المؤرخ الشهير بيي يين -التابع لمملكة ليو سونغ في عهد الأسرة الجنوبية الملكية- في كتابه "الشروح المجمعة" مقتبسًا من المؤرخ السابق سولين، قائلًا: ""شق" أو "فتح"، أي "فراغ" أو "ممر" مثل شق الجنرال جانغ تشيان الطريق نحو المناطق الغربية"، وقد ذكر عالم التاريخ سه ما جين التابع لأسرة تانغ الملكية في ملاحظاته، قائلًا: "كان العبور للمناطق الغربية خطيرًا، وطريقها طويلًا، حتى شُقَّ اليوم الممر المؤدي إلى هناك".

الصيـن والغـرب.. جامعـة فوريـن مركـزًا للدراسـات" (وقـد سـبق للسـيد جانـغ شـينغ لانـغ أن كان رئيسًـا لقسـم التاريـخ فـي جامعـة فوريـن)، كمـا أن هنـاك بعـض المطبوعـات الأكاديميـة مثـل مجلـة "دراسـات حـول تاريـخ العبـور البحـري"، والتـي نُشـر فـي عددهـا الأول عـام 1985م -علـى سـبيل المثـال- مقالـة للباحـث جـو جيـه تشـين، بعنـوان "رأيـي المتواضـع في الدراسـات حـول تاريـخ حركـة العبـور بيـن الصيـن وخارجهـا".

وللعديـد مـن الأسـباب، اختـار الكاتـب هنـا مسـمى "حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب"، آمـلاً ألا يظـن القـارئ أن هنـاك عـدم توافـق بيـن العنـوان والمحتـوى، بـل الأفضـل أن يتدبـر القـارئ المحتـوى بشـكل حـر.

الفصل الثاني

أشكال ومسارات العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ الملكية

كان هنـاك شـكلان أساسـيان لحركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة:

الأول: حركـة العبـور الشـعبية؛ حيـث كانـت تتركـز أهـم الأماكـن التـي كان يبـادر الصينيـون فـي التـردد منهـا وإليهـا خـلال عمليـة العبـور والتواصـل الشـعبي فـي عهـد أسـرة تشـينغ فـي حـزام منطقـة جنـوب شـرق آسـيا، مثـل فيتنـام (دولتـي آننـان، وتشـامبا فـي عهـد أسـرة تشـينغ)، وماليزيـا (مانلاجيـا فـي عهـد أسـرة تشـينغ، وتُترجـم حاليًـا إلـى "ملقـا")، والفلبيـن (دولـة سـولو فـي ذلـك الوقـت)، وإندونيسـيا (دولتـي سـومطرة، وجـاوة فـي ذلـك الوقـت)، وبرونـاي فـي جزيـرة كاليمانتـان (دولـة بونـي فـي ذلـك الوقـت، ويـرى بعـض الباحثيـن أنهـا نفسـها إندونيسـيا، وهـذا خطـأ)، إلا أنـه كان القليـل ممـن يسـافرون عبـر المحيـط لمسـافة بعيـدة مثـل مناطـق غـرب آسـيا، أو حتـى أبعـد مـن ذلـك مثـل قـارة أوربـا، وباسـتثناء الأسـباب المتعلقـة بمحدوديـة تقنيـات تصنيـع السـفن والملاحـة، وبُعـد المسـافات، إلا أن السـبب الأهم يكمـن فـي تطبيـق أسـرة تشـينغ الملكيـة لسياسـة البـاب المغلـق مـع الـدول الأجنبيـة، ومنـع عامـة الشـعب فـي المناطـق المطلـة علـى البحـر فـي الصيـن مـن تصنيـع السـفن الكبـرى، وإقامـة أنشـطة صيـد الأسـماك والتجـارة فـي البحـار البعيـدة.

وفـي بدايـة عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، ومـن أجـل قمـع حـركات مناهضـة حكـم أسـرة تشـينغ بقيـادة جنـغ تشـنغ قونـغ وغيـره، سـبق وأن طبَّـق حـكام أسـرة تشـينغ الملكيـة سياسـة بحريـة صارمـة، عُرفـت بـ"تحريـم دخـول وخـروج السـفن مـن الحـدود الصينيـة"، وبعدمـا اسـتعادت أسـرة تشـينغ الملكيـة تايـوان، صـرح المتحـدث باسـم حكومـة أسـرة تشـينغ الملكيـة خـلال الاجتمـاع الـوزاري فـي شـهر مايـو 1684م

(الشهر الرابع من العام الثالث والعشرين من تقويم كانغشي)، قائلًا: "لقد توحدت بلادنا، وعم السلام أرجاء العالم، وتوحد كل من نبلاء قومية المان، وشعب قومية الهان، وأصبحا جسدًا واحدًا"، ومن بعدها، سمحت الحكومة الصينية بـ"خروج أفراد الشعب الصيني للتجارة البحرية، تحت حكم وإدارة الأغنياء"، ولكي يسمح الإمبراطور شيويه يي بـ"فتح البحار لأنشطة التجارة"[1]، ألغى الحظر على البحار في فترة ما، إلا أنه في الوقت نفسه، أوضحت حكومة تشينغ القوانين المتعلقة بالسفن التجارية، ومنها أن تُستخدم السفن ذات الصاري الواحد في الإبحار، وألا تتجاوز حمولتها ما يعادل 500 حجر، ومن كان يصنع سفنًا بصاريين، أو تزيد حمولتها عما يعادل 500 حجر، كان يُنفى إلى الحدود لتأدية العقوبات الخدمية.

وفي عام 1703م، وعلى الرغم من فك حكومة تشينغ لقيود إبحار سفن الصواري، وسماحها بـ"خروج السفن التجارية ذات الصاريين للإبحار"، إلا أن القوانين ما زالت تؤكد بوضوح على "عدم تخطي السفن التجارية مسافة 18 قدمًا داخل البحر"، أما سفن صيد الأسماك "فلا تتخطى مسافة 10 أقدام داخل المياه"[2]، مما أدى إلى وجود قيود على أحجام وحمولات السفن المصنعة، وبالتالي تقييد إمكانية إبحار الصينيين في البحار البعيدة في دول غرب آسيا، وحتى دول قارة أوربا كذلك.

وفي ظل كافة أنواع القيود التي فرضتها حكومة أسرة تشينغ الملكية، وعلى الرغم من عدم انقطاع حركة العبور بشكل كامل بين الصين وأوربا، إلا أن المبادرين في هذا التواصل لم يكن الصينيين أنفسهم، بل كان المغامرين والتجار القادمين من دول الغرب الاستعمارية، لتظهر حركة العبور على هيئة أحادية الجانب، وليست حركة عبور متبادلة بين الطرفين، وفي بدايات عهد أسرة تشينغ الملكية، أتى العديد من التجار القادمين من البرتغال، وإسبانيا، وهولندا، وغيرها من الدول إلى الصين

1- "السجلات التاريخية لأسرة تشينغ الملكية"، مجموعة "السجلات التاريخية للإمبرطور شويه يي"، المجلد 120، الكتاب الخامس، الهيئة الصينية للكتاب، 1985م، صفحة 263.

2- كون قانغ وآخرون: "الحقائق التاريخية لأسرة تشينغ الملكية.. حقائق معسكرات الجنود.. حظر الإبحار"، المجلد 629، "المجموعة الكاملة لاستمرار سوكو"، الكتاب 807، صفحة 753.

لمزاولـة أنشـطة التجـارة، وكان مـن بينهـم مبشـرون بالديانـات المختلفـة كذلـك، ومـن ثـم أتـى إلـى الصيـن التجـار مـن مختلـف البلـدان كإنجلتـرا، وفرنسـا، وغيرهمـا، وكان مـن بينهـم العديـد مـن المبشـرين كذلـك، ومـن الأمثلـة علـى المبشـرين الـذي قدمـوا إلـى الصيـن فـي بدايـات عهـد أسـرة تشـينغ نجـد فرديناند فيربيسـت، وبينويسـت ميشـيل، ويوهـان آدم شـال فـون بيـل، وجوزيبـي كاسـتيجليون، وغيرهـم، وفـي أواسـط وأواخـر عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة نجـد روبـرت موريسـون، ووليـام ألكسـندر بارسـونز مارتـن، ويونـج جـون أليـن، وتيموثـي ريتشـارد، وغيرهـم.

أمـا الشـكل الثانـي لحركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة فـكان حركـة العبـور الرسـمية، فبالحديـث عـن وضـع أسـرة تشـينغ الملكيـة تجـاه الخـارج، يتجـادل الكثيـرون بشـأن تطبيـق أسـرة تشـينغ الملكيـة منـذ زمـن طويـل سياسـة البـاب المغلـق تجـاه الخـارج، أمـا بالحديـث بوجـه عـام عـن وضـع حكومـة أسـرة تشـينغ الملكيـة تجـاه الخـارج، فنجـد أن هـذا القـول صحيـح، إلا أننـا لا يمكننـا فهـم الأمـر بشـكل أعمـى دون معرفـة محتـواه الحقيقـي وأسـبابه، فبالنسـبة للأنشـطة التجاريـة بيـن الصيـن والخـارج، سـبق لأسـرة تشـينغ الملكيـة فـي بدايـات عهدهـا أن أسسـت 4 إدارات جمركيـة علـى الترتيـب في كل مـن مـكاو التابعـة لمقاطعـة قوانغدونـغ (تحديـدًا فـي مدينـة خوانغبـو)، ومدينـة جانغجـوو بمقاطعـة فوجيـان، ومدينـة نينغبـوه بمقاطعـة جـه جيانـغ، ومنطقـة جبـال يونتـاي بمقاطعـة جيانغنـان، وذلـك لتسـهيل مزاولـة الأنشـطة التجاريـة بيـن الصيـن وخارجهـا، وفـي مـا بعـد، وعلـى الرغـم مـن إعـلان حكومـة أسـرة تشـينغ الملكيـة إغـلاق 3 إدرات جمركيـة (فوجيـان، جـه جيانـغ، وجيانغنـان)، إلا أنهـا واصلـت العمـل فـي إدارة مـكاو الجمركيـة، لتيسـير أنشـطة التجـارة الخارجيـة.

أمـا لـو كان الحديـث عـن العلاقـات الرسـمية بيـن الصيـن والخـارج فقـط، فنجـد أنـه باسـتثناء قـدوم المبعوثيـن والسـفراء الأجانـب إلـى الصيـن، فقـد سـبق لحكومـة أسـرة تشـينغ -أيضًـا- أن أرسـلت بعثاتهـا الدبلوماسـية وسـفراءها إلـى دول الغـرب، وفتحـت المجـال لبعـض الأنشـطة الدبلوماسـية، فقـد صـرح الباحثـون فـي مـا مضـى بأنـه فـي فبرايـر مـن عـام 1868م، تولـى السـفير الأمريكـي السـابق لـدى الصيـن أنسـون بورلنجـام

قيـادة فريـق دبلوماسـي صينـي لزيـارة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وإنجلتـرا، وفرنسـا، وروسـيا، وغيرهـا مـن الـدول الأجنبيـة فـي الغـرب، أو فـي مطلـع ديسـمبر مـن عـام 1876م، حينمـا أُرسـل الدبلوماسـي الصينـي قـوه سـونغ داو علـى رأس وفـد حكومـي إلـى إنجلتـرا، وقـد كان أول وفـد رسـمي ترسـله الصيـن إلـى دول الغـرب، وهـو أمـر قابـل للتناقـش حولـه بشـكل كبيـر. ففـي واقـع الأمـر، فـي سـنوات تقويـم يونـغ جنـغ (التابـع لعهـد إمبراطـور أسـرة تشـينغ الملكيـة ييـن جيـن)، سـبق لحكومـة أسـرة تشـينغ وأن أرسـلت وفديـن دبلوماسـيين لزيـارة روسـيا، وقابـلا الملكـة هنـاك.

وفـي الفتـرة السـابقة لحكـم أسـرة تشـينغ الملكيـة، سـبق لعـدة دول أجنبيـة كهولنـدا، والبرتغـال، وإسـبانيا، وغيرهـا مـن الـدول، أن أرسـلت وفودهـا الرسـمية لزيـارة الصيـن، فعلـى سـبيل المثـال، فـي عـام 1726م (العـام الرابـع مـن تقويـم يونـغ جنـغ)، أرسـل ملـك البرتغـال وفـدًا رسـميًّا برئاسـة ألكسـندر ميتيلـو، وفـي عـام 1752م (العـام السـابع عشـر مـن تقويـم تشـيان لونـغ)، وصـل وفـد رسـمي -أرسـله ملـك البرتغـال أيضًـا- برئاسـة باجيـج إلـى الصيـن، وغيرهـا مـن الوفـود الأخـرى المبتعثـة لزيـارة الصيـن، ولكـن، كان هنـاك -أيضًـا- بعـض الوفـود المرسـلة مـن قِبـل السـلطات الاسـتعمارية فـي مناطـق شـرق آسـيا، وجنـوب شـرقها.

وقـد سـبق للملكـة إليزابيـث -ملكـة إنجلتـرا- أن أرسـلت فـي عـام 1583م (خـلال سـنوات تقويـم شـينزونغ التابـع لأسـرة مينـغ الملكيـة) التاجـر الإنجليـزي جـون نيوبـري لإحضار رسـائلها إلـى إمبراطـور أسـرة مينـغ الملكيـة شـرق آسـيا، إلا أنـه اكتُشـف مـن قِبـل البرتغالييـن وهـو فـي طريقـه، ولـم تُحصـد أي نتائـج مرجـوة، وفـي عـام 1596م (خـلال سـنوات تقويـم شـينزونغ التابـع لأسـرة مينـغ الملكيـة أيضًـا)، عيَّنـت الملكـة إليزابيـث مـرة أخـرى التاجـر الإنجليـزي بنجاميـن وود كمبعـوث لإرسـال رسـائلها إلـى إمبراطـور أسـرة مينـغ الملكيـة، وللأسـف تـم ضبطـه مـرة أخـرى مـن قِبـل الأسـطول البرتغالـي، وكانـت النتيجـة سـقوط كافـة أعضـاء الوفـد المبعـوث، وبالتالـي، لـم يتمكـن كلا الجانبيـن الصينـي والإنجليـزي مـن إقامـة العلاقـات فـي مـا بينهمـا.[1]

1- انظر شياو جه جه، ويانغ ويي دونغ: "رياح الغرب تلامس غروب الشمس: العلاقات بين الصين والغرب قبل حرب الأفيون"، دار نشر الشعب بمقاطعة خوبيي، 2005م، صفحة 48، و70.

وبعد ذلك، استمرت إنجلترا في إرسال الوفود الرسمية إلى الصين، مثل وفد جورج ماكارتني عام 1793م، ووفد وليام بيت أمهيرست عام 1816م المعروفَين بشكل نسبي من الجميع، ومن ناحية أخرى، كان هناك وفد كاثكارت الذي سبق تلك الوفود سالفة الذكر، حيث بدأ هذا الوفد إبحاره من إنجلترا في ديسمبر عام 1787م (العام الخامس والعشرون من تقويم تشيانلونغ) نحو الصين، إلا أنه اضطُر للرجوع إلى بلاده بسبب مرض كاثكارت وموته في الطريق.



المبعوث الإنجليزي وليام بيت أمهيرست



المبعوث الإنجليزي جورج ماكارتني

وقد تكررت زيارات الوفود الرسمية المتبادلة بين روسيا وحكومة أسرة تشينغ الملكية بشكل أكبر من إنجلترا. ففي فبراير من عام 1654م، أرسل القيصر الروسي أول وفد رسمي -برئاسة بايكوف- لزيارة الصين، وتوالت الوفود الدبلوماسية حتى وفد سافوا عام 1725م، ليصبح إجمالي عدد الوفود المبعوثة إلى الصين 7 وفود دبلوماسية (على الترتيب: وفد بايكوف، وفد أبولين، وفد سيما ميلوفانوف، وفد نيقولاي، وفد إيجيس، وفد إيزمايلوف، وأخيرًا وفد سافوا)، وقد التقت كلها بإمبراطور أسرة تشينغ الملكية، ومن ناحية أخرى، كان هناك -أيضًا- وفد جولفوكين الذي زار الصين في سبتمبر من عام 1805م، إلا أنه عاد أدراجه

إلى روسيا بعد وصوله إلى منطقة منغوليا، وذك بسبب نشوب النزاعات الخاصة بالأعراف الدبلوماسية في الصين، وبالتالي لم يتمكن الوفد من القدوم إلى بكين.

وبالحديث عن مسارات العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ الملكية، نجد مسارين أساسيين، بري وبحري:

المسار الأول (المسار البري): يرى المعاصرون في عصرنا الحالي أن مسار الطريق المؤدي من مدينة بكين -عاصمة الصين في عهد أسرة تشينغ الملكية- إلى أوربا، لا بدَّ وأن يكون قد بدأ من مدينة بكين في اتجاه الغرب، عبر ممر خه شي، ومنطقة شينجيانغ، وهضبة بامير، ومن ثم داخل الحدود الروسية، في اتجاه الغرب وصولًا إلى موسكو العاصمة، وبعدها إلى دول أخرى في قارة أوربا، وفي الصين القديمة كان مسار الطريق المأخوذ من السهول الوسطى في اتجاه كافة دويلات المناطق الغربية، مثل الطريق الذي سلكه القائد جانغ تشيان نحو المناطق الغربية، أو طرق الحرير قديمًا مثل هذا المسار تقريبًا[1]، حيث كان الاختلاف في نقطة البداية فقط.

وفي الحقيقة، لم يكن مسار حركة العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ الملكية مثل هذا المسار تمامًا، ففي ذلك الوقت كان مسار الطريق من الصين وحتى روسيا، أو كافة دول أوربا عامة يبدأ من مدينة بكين في الصين، نحو الشمال الشرقي، مرورًا بمنطقة جيهول (حيث قصر كارا الملكي)، ومدينة تشيتشيهار، وقرية إرغون، ومن ثم مدينة نيرتشينسك (إحدى مدن الكيان الفيدرالي الروسي سابقًا)، بعدها يتجه غربًا نحو العاصمة موسكو، ومنها إلى كافة دول أوربا غربًا، وبالطبع، كانت الوفود الرسمية الروسية المبعوثة إلى الصين تسلك -أيضًا- المسار نفسه بشكل كبير.

ومن ناحية أخرى، كان هناك مسار لطريق بري آخر لا يعرفه الكثيرون، وهو

1- بالنسبة لمسار طريق الحرير، لا يمكن أبدًا وصفه بشكل حرفي، أو ميكانيكي على أنه طريق تجارة الحرير بين الصبن وخارجها. ففي واقع الأمر، يُعتبر طريق الحرير حلقة وصل بين المناطق النائية في الصين، وطرق التجارة الأوربية، ويمكن وصفه بشكل أكبر على أنه المسار أو الممر الذي يتم عبره التبادل الاقتصادي، والسياسي، والثقافي بين الشرق والغرب.

الطريـق مـن مدينـة بكيـن، أو منطقـة السـهول الوسـطى، مـرورًا بمنطقتـي منغوليـا الداخليـة والخارجيـة، وصـولًا إلـى روسـيا، ومنهـا إلـى كافـة الـدول الأوربيـة.

وكان بعـض المبشـرين اليسـوعيين المنتميـن لـدول الغـرب يتنقلـون جيئـة وذهابًـا بيـن الصيـن وأوربـا، أو يتبادلـون المراسـلات، أو غيرهـا مـن وسـائل التبشـير عبـر هـذا الطريـق البـري فـي أغلـب الأحيـان، وفـي عـام 1719م، أصـدرت وزارة الخارجيـة الروسـية تعليماتهـا الواضحـة للدبلوماسـي إيزمايلـوف ليـرأس وفـدًا رسـميًّا بهـدف زيـارة الصيـن، وبعـد وصولـه إلى مدينـة بكيـن مـن المؤكـد أنـه سـعى جاهـدًا لاقتنـاص فرصـة البقـاء فيهـا، وأن "يُظهـر مسـاعيه الحميـدة لمجموعـة المبشـرين اليسـوعيين" التـي نالـت ثقـة الإمبراطـور شـيوان يـي آنذالـك، و"ذلـك بهـدف الحصـول علـى مسـاعدتهم"، وكان شـرط صفقـة التقايـض بيـن المبشـرين اليسـوعيين وإيزمايلـوف هـو تقديـم المبشـرين للمسـاعدة فـي مقابـل "تعهـد روسـيا بالسـماح للمبشـرين اليسـوعيين بالتراسـل عبـر سـيبيريا"[1]، ويمكـن القـول كذلـك إن مسـاعدة روسـيا للمبشـرين اليسـوعيين عـن طريـق تقديـم موظفـي البريـد، وحـق عبـور الحـدود للمراسـلة، سـهَّل أكثـر حركـة التنقـل بيـن الصيـن وكافـة الـدول الأوربيـة.

المسـار الثانـي (المسـار البحـري): كان طريـق الحريـر البحـري فـي الصيـن قديمًـا بمثابـة ربـط للحضـارات الصينيـة، والهنديـة، والفارسـية، والعربيـة، واليونانيـة، وغيرهـا مـن الحضـارات، ممـا عمـل علـى تقويـة العلاقـات والروابـط الاقتصاديـة والثقافيـة بيـن مختلـف الحضـارات فـي ذلـك الوقـت.

ففـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، كان كل القادميـن مـن دول الغـرب (كالهولندييـن، والبرتغالييـن، والإسـبان) يعبـرون البحـر لزيـارة الصيـن، حيـث كان المسـار الأساسـي يبـدأ مـن جنـوب الـدول الأوربيـة، بمحـاذاة السـاحل الغربـي لقـارة إفريقيـا، عبـر رأس الرجـاء الصالـح، ثـم نحـو الشـمال، ثـم الشـرق، ثـم مـرورًا بمضيـق ملقـا، وصـولًا إلـى مقاطعـة قوانغدونـغ الصينيـة شـمالًا، نحـو مدينـة تيانجيـن شـمالًا بمحـاذاة السـاحل

1- جاستون جارن (فرنسي): "تاريخ العلاقات التبادلية بين روسيا والصين في عهد الإمبراطور بطرس الأكبر"، المطبعة التجارية للنشر، 1980م، صفحة 155-154.

الشرقي، وصولًا في النهاية إلى مدينة بكين.

وفي عام 1869م، وبعد افتتاح قناة السويس المصرية، طرأ تغير هائل على مسار الطريق من دول الغرب إلى الصين، فلم تعد الحاجة إلى المرور عبر رأس الرجاء الصالح، وإنما المرور مباشرة عبر قناة السويس، ثم الاتجاه شرقًا بمحاذاة الساحل جنوب آسيا، وبهذا، تقلصت بشكل كبير رحلة العبور بين الصين والغرب.

وفي بدايات عهد أسرة تشينغ الملكية، تمثل أغلب القادمين من الغرب بحرًا لزيارة الصين في الهولنديين، والبرتغاليين، والإسبان، وفي أواسط عهد أسرة تشينغ الملكية، كان هناك كذلك الإنجليز، والفرنسيون الذين بدأوا خطواتهم نحو الشرق بشكل متتابع، وبشكل أساسي، حيث كان الوضع العام يظهر على هيئة حركة عبور أحادية الجانب من الغرب نحو الشرق، فقد كان القليل من الصينيين من يعبرون البحر لزيارة الدول الأوربية، وبعد حرب الأفيون (خاصة حرب الأفيون الثانية)، بدأت الصين المنغلقة على نفسها في الانفتاح على العالم. ففي عام 1866م، أرسلت حكومة أسرة تشينغ الملكية السيد بين تشون المنتمي لمدينة شيانغلينغ بمقاطعة شنشي لرئاسة وفد من طلاب مدرسة التعلم المشترك (التي أقامتها أسرة تشينغ نفسها)، ليصاحبوا السيد روبرت هارت في رحلة ذهابه إلى كل من إنجلترا، وفرنسا، وذلك بهدف إجراء زيارة للمعالم هناك، وفي عام 1876م، أُرسل قوه سونغ داو -مساعد الوزير- كمبعوث إلى إنجلترا، بهدف تقديم اعتذاره للحكومة الإنجليزية جراء وقوع "حادث قتل مارجري"، وبعدها تأسست سفارة الصين الدائمة في لندن العاصمة، وفي عام 1901م، أرسل الإمبراطور زاي فنغ مبعوثًا إلى ألمانيا لتقديم اعتذاره جراء قتل حركة الملاكمين الصينية للمبعوث الألماني في الصين فريهير فون كيتيلر، وكانت تمر الوفود كلها عبر هذا المسار البحري.

الفصل الثالث

ميزات حركة العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ الملكية

كما ذكرنا سابقًا، كانت هناك العديد من حركات العبور المتبادلة بين الصين والغرب قديمًا، وكان أهمها الطريق البري الذي شقه الجنرال جانغ تشيان نحو المناطق الغربية، والطريق البحري الذي سلكه البحار جنغ خه في رحلاته نحو دول الغرب، والسؤال هنا.. هل هناك فرق بين حركة العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ، وحركة العبور نفسها في الزمن القديم؟ ولو أنه هناك فرق بينهما، فما هو؟ أنا شخصيًّا أرى أنه باستقراء حركات العبور قديمًا بين الصين والغرب، نجد حوالي 5 ميزات نجملها في ما يلي:

الميزة الأولى: التغير الواضح في القوى المحركة لحركة العبور بين الصين والغرب.

فالجميع على علم بأنه قبل عهد أسرة مينغ الملكية، كانت الصين -أولًا وآخرًا- دولة متقدمة على المستوى العالمي بنظام سياستها المتقدم، وتطورها الاقتصادي والاجتماعي، وعمق أيديولوجيتها وثقافتها، وعلى الرغم من أنه كانت هناك بعض الأقاليم والدول الأجنبية المشتهرة بمنتجاتها المحلية، كالعنب، والخوخ، والرمان، وزهور البرسيم، وغيرها من النباتات في المناطق الغربية، وكذلك آلة الأرهو، وغيرها من الأدوات الموسيقية التي دخلت جميعها منطقة السهول الوسطى في الصين قديمًا، وأيضًا دخول أفكار وتعاليم البوذية الهندية إلى الصيبن القديمة، إلا أنه بالنسبة لعملية التطور التاريخي، ومدتها الكاملة في الصين القديمة، فقد كان وجود الصين قائمًا على ما يدخل إليها أو يخرج منها من حضارات متقدمة مادية كانت أو روحية، ليظهر فيها طابع واضح للحضارة الصينية المنفتحة على الدول والمناطق المحيطة بها.

ولكـن، مـع الوصـول إلـى عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، وتماشـيًا مـع نهضـة دول الغـرب الرأسـمالية كـ إنجلتـرا، وفرنسـا، وغيرهـا مـن الـدول، لـم تتمكـن جميعهـا مـن تأسـيس نظـام سياسـي رأسـمالي متقـدم بدرجـة تفـوق النظـام الصينـي وحسـب، بـل حظيـت قـوى الإنتـاج الاجتماعيـة فـي تلـك الـدول كذلـك بتنميـة كبـرى، كمـا أصبـح موقعهـا فـي صـدارة كافـة الـدول علـى مسـتوى العالـم بفضـل فكرهـا وأيديولوجيتهـا أيضًـا، وفـي الوقـت نفسـه، بـدأت الصيـن تتراجـع فـي مسـتواها شـيئًا فشـيئًا، إلا أن الصينييـن لـم يتمكنـوا مـن إدراك هـذا الأمـر بشـكل سـريع، ففـي أواسـط عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، إلـى مـا بعـد انقضـاء عهدهـا، افتتحـت دول الغـرب الرأسـمالية أسـواقًا ضخمـة للسـلع والمنتجـات، بهـدف تحصيـل مـواد خام زهيـدة الثمـن للإنتـاج، وبـدأت تلـك الأسـواق فـي توسـيع نطاقهـا بشـكل هائـل نحـو الشـرق، لتصبـح -بشـكل تدريجـي- القـوى المحركـة لحركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب.

الميزة الثانية: التغير الواضح في المسارات الأساسية لحركة العبور بين الصين والغرب.

ففـي الصيـن قديمًـا، كان الطريـق البـري هـو المسـار الأساسـي لحركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب، مثـل الطريـق الـذي شـقه الجنـرال جانـغ تشـيان نحـو المناطـق الغربيـة، وغيـره مـن الطُـرق، إلا أنـه بعـد ذلـك الوقـت بـدأت حركـة العبـور البحريـة تتطـور شـيئًا فشـيئًا، وذلـك علـى الرغـم مـن أنـه كانـت لا تـزال هنـاك حركـة عبـور خـلال الطـرق البريـة، مثـل عبـور القائـد العسـكري تشـين تشـينغ التابـع لعهـد أسـرة مينـغ الملكيـة الطـرق البريـة 4 مـرات لزيـارة دول المناطـق الغربيـة (فـي العـام الحـادي عشـر، والعـام الرابـع عشـر، والعـام السـادس عشـر، والعـام الثانـي والعشـرين مـن تقويـم يونـغ لـه)، وكذلـك المبعـوث الدبلوماسـي خـوو شـيان الـذي سـبق وأُرسـل إلـى دولـة شـيفان فـي المناطـق الغربيـة.

وفـي الماضـي، عندمـا كان يُذكـر الطريـق البحـري، كانـت تُذكـر دائمًـا الرحـلات البحريـة السـبع للرحالـة جنـغ خـه التابـع لعهـد أسـرة مينـغ الملكيـة، لزيـارة دول الغـرب، إلا أنـه مؤخـرًا، اكتشـف العاملـون فـي مجـال حمايـة الأثريـات بمقاطعـة شانشـي،

والعاملون المحليون خلال دراستهم حول نُصْب شين داو بمدينة جينغيانغ، أنه في عهد الإمبراطور ديه زونغ (إمبراطور أسرة تانغ/ 780م- 804م)، أُرسل المبعوث الدبلوماسي يانغ ليانغ ياو في مهمة عبر البحر لدول الغرب، وكان هذا قبل مجيء الرحالة جنغ خه بـ620 عامًا، ويدوِّن نُصْب شين داو الذي يرجع للبحار يانغ ليانغ داو -التابع لعهد أسرة تانغ الملكية- الحقائق التاريخية حول نشأة أسرة يانغ، وخدمتها للإمبراطور، والكوارث الداخلية، وحماية دول المناطق الغربية، والأهم هو ما دوَّنه النُصْب من تعيين الإمبراطور ديه زونغ لمبعوث دبلوماسي وهو يانغ ليانغ ياو (وكان ذلك في فترة أواسط وأواخر عهد أسرة تانغ الملكية) في مهمة عبر البحر نحو دول الغرب، ووصوله بعيدًا إلى الدولة العباسية في منطقة الشرق الأوسط، والتي تمثل حاليًا الحزام الذي يشمل دولة العراق، وغيرها من الدول والمناطق المحيطة بها.

ومع ذلك، تبقى الرحلات البحرية السبع للرحالة جنغ خه هي الأكثر تأثيرًا، وشهرة، والأكبر مكانة في تاريخ الإبحار في العالم (العام الثالث، والعام الخامس، والعام السابع، والعام الحادي عشر، والعام الخامس عشر، والعام التاسع عشر من تقويم يونغ له، والعام السادس من تقويم شيوان ديه)، ومن ناحية أخرى، سبق لأسرة مينغ الملكية إرسال العديد من البحارة لقيادة الأساطيل البحرية في رحلات نحو دول الغرب، نذكر منهم على سبيل المثال: جانغ تشيان، تان شنغ، يين تشينغ، يانغ شين، وجوو خانغ، وغيرهم.

ووصولًا إلى عهد أسرة تشينغ الملكية، وبالرغم من استمرار حركة العبور خلال الطرق البرية بين الصين والغرب، إلا أنه كان الأساس الحفاظ على حركة العبور والتواصل بين الصين وروسيا، أما حركة العبور بين الصين والغرب فكان الأساس فيها العبور من خلال الطرق البحرية، سواء كان العابرون تجارًا من دول الغرب، أو دبلوماسيين من دول أجنبية، أو جنودًا مستعمرين للصين، فكان أغلبهم يسلكون الطريق البحري، وليس البري.

الميزة الثالثة: التغير الواضح في الإطار الإقليمي لحركة العبور بين الصين

والغرب.

كان ينحصر الإطار الإقليمي لحركة العبور بين الصين والغرب قديمًا في حدود خريطة الصين الحالية، مثل فتح الجنرال جانغ تشيان للمناطق الغربية، أما الرحالة جنغ خه المُبحر في رحلاته البحرية نحو دول الغرب في عهد أسرة مينغ الملكية، فلم يستطع الوصول إلى كافة الدول الأوربية، على الرغم من نجاحه في الوصول إلى شرق قارة إفريقيا.

وبالوصول إلى عهد أسرة تشينغ الملكية، توسع إطار حركة العبور بين الصين والغرب ليصل إلى كافة الدول الأوربية، ولا نقصد هنا التجار والدبلوماسيين الأوربيين القادمين من الغرب إلى الصين شرقًا، بل نشير إلى الدبلوماسيين الصينيين الذين توسعوا بشكل تدريجي كذلك -بعد عام 1876م- ليصلوا إلى كافة دول العالم (الدول الرأسمالية في الأساس)، ومما يستحق الذكر بشكل خاص هو سماح حكومة أسرة تشينغ الملكية عام 1868م بتعيين كل من الأمريكي آنسون بورلينجام سفيرًا للولايات المتحدة الأمريكية في الصين، والمساعدين الإنجليزي جون براون، والفرنسي دي تشامبس، بالإضافة إلى إرسال حكومة أسرة تشينغ لوفد صيني مكون من 5 أفراد (منهم رئيس الجمارك الصينية داو جه قانغ، ووزير وزارة الطقوس في الصين القديمة لانغ جونغ، وغيرهم) لزيارة عدة دول في أوربا وأمريكا.

انطلق هذا الوفد بحرًا في الخامس والعشرين من فبراير عام 1868م، وفي البداية أبحر عبر المحيط الهادئ بعيدًا نحو الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم عبر الأطلسي نحو قارة أوربا، وزار تباعًا 11 دولة في قارتي أمريكا وأوربا، منها إنجلترا، وفرنسا، والسويد، والدنمارك، وهولندا، وبروسيا، وروسيا، وبلجيكا، وإيطاليا، وإسبانيا، وفي الثامن عشر من أكتوبر عام 1970م، عاود الوفد أدراجه، ووصل إلى مدينة شنغهاي بالصين، لتستمر الرحلة عامين و8 أشهر، وهو أول وفد دبلوماسي ترسله حكومة أسرة تشينغ الملكية إلى قارتي أوربا وأمريكا، ولم يكن مسار تلك الرحلة تعبيرًا عن التواصل بين الشرق والغرب من الناحية الجغرافية أو

الموقع الجغرافي وحسب، بل يعبر كذلك عن التواصل العالمي بينهما، ومن هنا، يُطلق البعض على زيارة هذا الوفد مسمى "البعثة العالمية".

الميزة الرابعة: التغير الواضح في الطابع الرسمي، أو الطابع المدمج بين الرسمي والتجاري لحركة العبور بين الصين والغرب.

فالجميع على علم بأنه في عهد أسرة هان الغربية، تلقى الجنرال جانغ تشيان الأمر من الإمبراطور بالذهاب في مهمة نحو المناطق الغربية، وكان الهدف الأساسي لهذه المهمة هو دمج قواته مع قوات قبائل أسرة دا يويه، وغيرها من القبائل التي كانت تسكن المناطق الغربية، وذلك من أجل القضاء على هيمنة قبائل الهون وتطفلها، وبعد انطلاق جانغ تشيان نحو المناطق الغربية، وعلى الرغم من نجاحه بشكل عام في تحفيز التبادل الثقافي بين منطقة السهول الوسطى، ودول المناطق الغربية، إلا أنه لم يمتلك في الأساس طابع التاجر، أو ممارسة التجارة، بل كان يطغى عليه بشكل أكبر الطابع العسكري الرسمي، والدبلوماسي، وبالنسبة للهدف الأساسي الذي أبحر من أجله جنغ خه في رحلاته البحرية في بدايات عهد أسرة مينغ الملكية، فلا يزال هناك مفاهيم وروايات مختلفة في أوساط علوم التاريخ في ما يتعلق بهذا الصدد حتى الآن.

حيث يرى بعض الباحثين أن الهدف وراء قيادة الرحالة جنغ خه لمثل هذا الأسطول الضخم في رحلاته البحرية، كان لتوسيع نطاق جذب المبعوثين بالهدايا والجزيات من خارج الصين، وإعلان هيمنة أسرة مينغ الملكية على العالم أجمع، فبعد اعتلاء الإمبراطور مينغ تشينغ زو (ويُسمى أيضًا بالإمبراطور جو دي) العرش بفترة قصيرة، أصدر بيانًا يوضح فيه سياسته تجاه الخارج، جاء فيه: "لقد أصبحت بلدان العالم أجمع كالبلد الواحد ذي المساحة الشاسعة، وعليه، فإن الصين ترحب بكافة المبعوثين المخلصين القادمين من مختلف البلدان للقدوم إليها وتقديم الهدايا للإمبراطور"[1]، "آملاً بأن تهرع جميع الدول إلى إرسال

1- "السجلات التاريخية لأسرة مينغ.. السجلات التاريخية للإمبراطور تاي زونغ"، المجلد الثاني عشر، الجزء الأول، صفحة 7، الكتاب السادس، النسخة المطبوعة من قِبل "مركز الدراسات الصيني" بتايوان، صفحة 205.

مبعوثيهـا إلـى الصيـن، لتقديـم الاحتـرام لأسـرة مينـغ الحاكمـة، وقـد أتـى مبعوثـو العديـد مـن الأمـم والبلـدان المختلفـة إلـى قصـر الإمبراطـور، وقدمـوا احترامهـم وتبجيلهـم إليـه، واصطـف كبـار القـادة والمسؤولين علـى أعتـاب القصـر الإمبراطـوري، مكونيـن جوقـة غنائيـة منسجمة"[1]، ومـن هنـا، كان هـذا هـو العصـر الذهبـي لقـدوم آلاف المبعوثيـن مـن مختلـف البلـدان إلـى الصيـن.

ويـرى البعـض الآخـر، أن الهـدف وراء قيـادة الرحالـة جنـغ خـه لمثـل هـذا الأسـطول الضخـم فـي رحلاتـه البحريـة، كان للبحـث عـن مـكان تواجـد الإمبراطـور جيـان ويـن، والقضـاء علـى مـا تبقـى لـه مـن قـوى، فبعـد نجـاح الإمبراطـور جـو دي (الإمبراطـور الثالـث لأسـرة مينـغ، وبعـد توليـه الحكـم أُطلـق علـى الأسـرة الملكيـة "أسـرة يـان") فـي حملـة "جينـغ نـان العسـكرية" ضـد الإمبراطـور جيـان ويـن، وعلـى الرغـم مـن اسـتيلائه علـى مدينـة نانجينـغ، و"اعتلائـه العـرش كخليفـة مسـتحق"، إلا أنـه لـم يكـن مؤكـدًا مـكان تواجـد الإمبراطـور جيـان ويـن، ومـا إذا كان حيًّـا أم ميتًـا، "واعتـرى الإمبراطـور جـو دي الشـك عمـا إذا كان قـد فـرَّ خـارج البـلاد"[2]، فقـد كان قلقًـا بشـأن معـاودة الإمبراطـور جيـان ويـن الاتصـال مـع الـدول الأجنبيـة عنـد الجبال الشـرقية للصيـن، لـذا، أرسـل البحـار جنـغ خـه إلـى خـارج البـلاد "ليقتفـي أثـر الإمبراطـور جيـان ويـن"[3].

وهنـاك البعـض الآخـر ممـن يـرون أن الهـدف وراء قيـادة الرحالـة جنـغ خـه لمثـل هـذا الأسـطول الضخـم فـي رحلاتـه البحريـة، كان لتعزيـز الحكـم الاسـتبدادي المركـزي فـي الصيـن بشـكل أكبـر، وتوسـيع قـوة الإمبراطـور لتمتـد إلـى المجـال الاقتصـادي، ليسـتغل قُـوى الدولـة لاحتـكار التجـارة البحريـة التـي بـدأت فـي التطـور التدريجـي منـذ عهـد أسـرتي سـونغ، ويـوان الملكيتيـن، وبالتالـي يقايـض البضائـع فـي مقابـل السـلع الأجنبيـة الملكيـة الفاخـرة.

1- جانغ تينغ يو، وآخرون: "تاريخ أسرة مينغ الملكية"، الكتاب الخامس، المجلد الثالث والستون، الهيئة الصينية للكتاب، 1974م، صفحة 1569.

2- جانغ تينغ يو، وآخرون: "تاريخ أسرة مينغ الملكية"، المجلد 325، صفحة 7766.

3- جاو إي: "تاريخ قدوم مبعوثي الدول الأجنبية إلى الصين في فترة سنوات تقويم يونغ له"، تدقيق وتصحيح وانغ شو مين: "تدقيقات وملاحظات حول السيرة التاريخية لفترة الـ 22 عامًا"، الهيئة الصينية للكتاب، 1984م، صفحة 772.

وسواء كان الرحالة جنغ خه متمتعًا بطابع ملاحقة المصالح التجارية في رحلاته أم لا، فإن طابع السياسة الرسمي لا يزال واضحًا فيها بشكل كبير.

وبالدخول إلى عهد أسرة تشينغ الملكية، كانت الطُرق البرية -بالنسبة للجانب الصيني- أساس التواصل الرسمي بين حكومة أسرة تشينغ من جهة، وروسيا من جهة أخرى، أما الطرق البحرية فكانت تُستخدم لإرسال المبعوثين عبرها لدراسة أحوال الدول الواقعة في المناطق الغربية، أو للإقامة فيها كمبعوثين دائمين لدولة الصين، ولا يزال هذا الطابع الدبلوماسي والسياسي في الصين غنيًّا عن التعريف. أما بالنسبة للدول الأجنبية، فكان -أولًا وآخرًا- يتمتع بالطابع المدمج بين الرسمي والتجاري، فسواء كان الحديث عن هولندا، أو إسبانيا، أو البرتغال، أو حتى روسيا، أو إنجلترا، فقد كانت كلها تتمتع بهذا الطابع نفسه.

فقد كانت العديد من الوفود التي أرسلتها روسيا إلى الصين تتمتع بهذا الطابع المزدوج الذي يجمع بين الجانب الدبلوماسي، والتجاري في الوقت نفسه. على سبيل المثال، نجد وفد إيزبرانت ياجز الروسي المرسل إلى الصين عام 1692م، حيث كان إيزبرانت ياجز نفسه تاجرًا هولنديًّا غنيًّا، وبسبب علاقته الوطيدة والخاصة بالقيصر الروسي، نفَّذ طلبه بزيارة الصين على رأس وفد روسي، وكان هدف الزيارة الرئيس هو الإلمام بوضوح بموقف حكومة أسرة تشينغ في ما يخص "معاهدة نيرشينسك" المبرمة بين الصين وروسيا، وكذلك موقفها غير المحدد من وضع الحدود الواقعة بين البلدين، بالإضافة إلى مهمة أخرى في غاية الأهمية، وهي "اقتناص كافة الفرص الممكنة في بكين، لدراسة أحوال السوق الصينية، وكافة أنواع الموارد، والمنتجات، والأسعار، والرسوم الجمركية، وكذلك دراسة أنواع البضائع الروسية التي تناسب السوق الصينية، لنقلها إلى مدينة بكين، وكذلك أنواع المنتجات الصينية التي يمكن أن تعود بالربح الأكبر على وزارة المالية الروسية"، ولهذا، يمكن للمبعوثين الروس اتخاذ كافة الطرق والوسائل، بما يشمل وسائل الرشوة المتعددة كـ"إهداء الهدايا، والعطايا""[1]، وفي عام 1719م، عندما قدم الوفد

1- انظر جاستون جارن (فرنسي): "تاريخ العلاقات التبادلية بين روسيا والصين في عهد الإمبراطور بطرس الأكبر"، صفحة 68 / نيقولا بانديش كامينسكي: "تجميع للوثائق الدبلوماسية بين روسيا والصين"، المطبعة التجارية للنشر، 1982م، صفحة 89.

الروسـي برئاسـة إيزمايلـوف إلـى الصيـن، أصـدرت كل مـن وزارة التجـارة، ووزارة الخارجيـة الروسـية نصائحهـا الواضحـة لإيزمايلـوف مسـبقًا قبـل زيارتـه للصيـن.

ولهـذا، دوَّن الباحـث خـه تشـيو تـاو التابـع لعهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة فـي كتابـه "تاريـخ شـمال الصيـن والعلاقـات الصينيـة الروسـية" عـن زيـارة وفـد نيقـولا كادريلوفيـك سـبافاري الروسـي إلـى الصيـن، قائـلاً: "فـي العـام الخامـس عشـر مـن تقويـم كانغشـي، أتـى التاجـر نيقـولا مـع آخريـن للقـاء الإمبراطـور شـيوان ييـه، وأهـدوه كتابًـا مـن القيصـر الروسـي، يحتـوي علـى أمـور متعلقـة بالحـدود بيـن البلديـن، كمـا قـدم العطايـا المقدمـة مـن الجانـب الروسـي، وفـي الوقـت نفسـه أحضـر الوفـد معـه المنتجـات المختلفـة للتجـارة بهـا، فـكان نيقـولا مبعوثًـا، وتاجـرًا فـي الوقـت نفسـه"[1].

وفـي عـام 1793م، أتـى وفـد إنجليـزي برئاسـة جـورج ماكارتنـي لزيـارة الصيـن، وفـي عـام 1816م، أتـى وفـد برئاسـة وليـام بيـت أمهيرسـت إلـى الصيـن، وكانـوا جميعًـا يتمتعـون أيضًـا -بشـكل واضـح- بذلـك الطابـع المـزدوج الـذي يجمـع بيـن طابـع الحكومـة الإنجليزية الرسـمي، وطابـع المصالـح التجاريـة، فلـم يكـن هـذان الوفـدان يمثـلان حكومـة بلدهمـا فـي طـرح مطالبهـا تجـاه سياسـة حكومـة أسـرة تشـينغ الملكيـة، ودبلوماسـيتها وحسـب، بـل كانـا يمثـلان كذلـك شـركة الهنـد الشـرقية[2]، حيـث طـرح الوفـدان علـى حكومـة أسـرة تشـينغ العديـد مـن المطالـب فـي المجاليـن الاقتصـادي والتجـاري. فعلـى سـبيل المثـال، قـام نائـب رئيـس مجلـس إدارة شـركة الهنـد الشـرقية بإعطـاء جـورج ماكارتنـي أول وثيقـة توجيهيـة، يطالـب فيهـا ماكارتنـي بالانتبـاه بشـكل خـاص إلـى "النصائـح الموجهـة سـابقًا من الشـركة نفسـها إلى السـيد كاثـكارات (الـذي قـدم إلـى الصيـن سـابقًا علـى رأس وفـد إنجليـزي)"، والتفكيـر فـي طريقـة تجعـل حكومـة أسـرة تشـينغ الملكيـة توافـق علـى "منـح أماكـن لإقامـة التجـار الإنجليـز فـي الصيـن"، و"منحهـم امتيـاز التجـارة فـي مدينـة قوانغجـوو، وذلـك عبـر كافـة الموانـئ الموجودة

1- خه تشيو تاو: " تاريخ شمال الصين والعلاقات الصينية الروسية "، المجلد 37، إصدار العام العاشر من تقويم شيانفنغ، صفحة 3-2.

2- في عام 1600م، أسس التجار الإنجليز الشركة الهندية الشرقية، وكان مقرها في العاصمة لندن، وبعدها، منحتهم ملكة إنجلترا امتياز احتكار التجارة في مناطق شرق آسيا كلها.

فـي الشـمال"، وأيضًـا "إلغـاء حقـوق بـراءات الاختـراع العامـة"[1]، وغيرهـا مـن المطالـب الأخـرى، فالجميـع علـى علـم بجميـع الوفـود الإنجليزيـة التـي أُرسـلت مـن قِبـل الحكومـة الإنجليزيـة لزيـارة الصيـن سـابقًا، ولكـن، لـو كان يعلـم الجميـع أن مصاريـف التنقـلات كافـة تـم دفعهـا مـن قِبـل الشـركة الهنديـة الشـرقية، لأدركنـا بشـكل كامـل وجـود ذلـك الطابـع المـزدوج الجامـع بيـن السياسـة والتجـارة.

الميزة الخامسة: التقلص الكبير في زمن حركة العبور بين الصين والغرب.

ففـي الفتـرة السـابقة لعهـد أسـرة تشـينغ، كان أسـاس حركـة العبـور والتواصـل بيـن الصيـن ودول الغـرب يبـدأ مـن شـمال شـرق الصيـن، مـرورًا بسـيبيريا، نحـو الغـرب حتـى غـرب روسـيا، ويحتـاج هـذا المسـار البـري إلـى عـام كامـل، أو أكثـر لقطعـه. فعلـى سـبيل المثـال، بـدأ وفـد نيقـولا كادريلوفيـك سـبافاري الروسـي رحلتـه مـن موسـكو العاصمـة فـي مـارس 1675م، ووصل إلـى مدينـة نينجيانـغ فـي الصيـن فـي يناير 1676م، وبسـبب بعـض المشـاكل المتعلقـة بالآداب الدبلوماسـية، تأخـر الوفـد فـي وصولـه إلـى مدينـة بكيـن لمـدة شـهرين، ليصـل إليهـا فـي شـهر مايـو، وبهـذا، اسـتغرق الوفـد أكثـر مـن عـام ليصـل إلـى وجهتـه، وانطـق وفـد إيزمايلـوف مـن سـانت بطرسـبرغ فـي السـادس عشـر مـن يوليـو 1719م، ووصـل إلـى بكيـن فـي الثامـن عشـر مـن نوفمبـر 1720م، وبهـذا، اسـتغرق -أيضًـا- أكثـر مـن عـام ليصـل إلـى الصيـن، وفـي الثانـي عشـر مـن أكتوبـر 1725م، انطلـق وفـد سـافوا مـن سـانت بطرسـبرغ، ووصـل إلـى بكيـن فـي الحـادي والعشـرين مـن أكتوبـر 1726م، ليسـتغرق عامًـا كامـلاً هـو الآخـر.

ولكـن، فـي مـا بعـد، افتتـح الجانبـان الصينـي والغربـي مسـارًا جديـدًا لحركـة العبـور خـلال البحـر، وخاصـة بعـد افتتـاح قنـاة السـويس، حيـث تقلصـت المسـافة مـن أوربـا حتـى الهنـد أو الصيـن بمقـدار 5-6 آلاف كيلومتـر، وبهـذا تقلـص -أيضًـا- الوقـت المسـتغرق فـي الرحلـة. فعلـى سـبيل المثـال، عندمـا أُرسـل قـوه سـونغ داو علـى رأس وفـد صينـي إلـى دول الغـرب، انطلـق مـن مدينـة بكيـن فـي العاشـر مـن نوفمبـر 1876م، وعـاود إبحـاره مـن مدينـة شـنغهاي فـي الصيـن فـي الثانـي مـن ديسـمبر مـن العـام

1- ترجمة جو جيه تشين: "ترجمات حول تاريخ العلاقات التبادلية بين الصين وخارجها"، دار المحيط للنشر، 1984م، صفحة 198.

نفسـه، ليصـل مـرة أخـرى إلـى العاصمـة الإنجليزيـة لنـدن فـي الحـادي والعشـرين مـن ينايـر 1877م، وبهـذا، اسـتغرق فـي رحلتـه مـدة أكثـر مـن شـهرين بقليـل، ولـو حسـبنا فقـط الوقـت الـذي اسـتغرقه ليعـاود أدراجـه مـن مدينـة شـنغهاي عبـر البحـر، لوجدنـا أنـه لـم يسـتغرق سـوى 15 يومًـا أو أقـل، وبالطبـع، فـي وقتنـا الحاضـر لا يسـتغرق الأمـر سـوى عشـر سـاعات أو أكثـر لقطـع هـذه المسـافة جـوًّا.

الفصل الرابع

الدور والأثر التاريخيين لحركة العبور بين الصين والغرب في عهد أسرة تشينغ الملكية

لـم يؤثـر دور حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة فـي الصيـن وحسـب، بـل أثـر فـي العالـم كلـه، ويمكـن القـول -أيضًـا- إنـه سـواء مـن منظـور تاريـخ الصيـن الحديـث، أو تاريـخ العالـم الحديـث، فقـد لعبـت حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة دورًا تاريخيًّـا مهمًّـا، ونتـج عنهـا تأثيـر واسـع المـدى. فأنـا أرى أنـه يمكننـا اسـتقراء الـدور والتأثيـر التاريخـي لحركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ مـن خـلال 4 نقـاط، نجملهـا فـي مـا يلـي:

أولًا: لـم تعـد هنـاك عوائـق كبيـرة بيـن الصيـن والغـرب كمـا كان الأمـر فـي الماضـي، بـل بـدأ كل مـن الطرفيـن فـي تكويـن ربـاط وثيـق لعمليـة تكامـل العولمـة.

فبسـبب الانخفـاض الحـاد فـي مسـتوى قـوى الإنتـاج الاجتماعـي عنـد البشـرية فـي العصـور القديمـة، عملـت الجبـال الشـاهقة، والأنهـار، والمحيطـات علـى تقسـيم كافـة الأماكـن علـى مسـتوى العالـم إلـى مناطـق مختلفـة للحضـارات الإنسـانية القديمـة، وفـي الوقـت نفسـه، وبسـبب التأخـر الحـاد فـي وسـائل النقـل والمواصـلات، تقيـد بشـكل كبيـر التواصـل بيـن كافـة المناطـق علـى مسـتوى العالـم، وحتـى بيـن أفـراد الشـعب داخـل حـدود الدولـة الواحـدة، وبالتالـي، أصبـح الجميـع إمـا معزوليـن طـوال حياتهـم، أو غيـر قادريـن علـى التواصـل مـع الآخـر، وبعدهـا، وتماشـيًا مـع التنميـة المسـتمرة فـي قـوى الإنتـاج الاجتماعـي، خاصـة مـع ظهـور السـفن البخاريـة، أصبحـت هنـاك إمكانيـة التنقـل عبـر كافـة دول العالـم، وكافـة الأمكنـة، وبهـذا تقلصـت المسـافة المكانيـة للتواصـل بيـن البشـر، ولـم تعـد هنـاك عوائـق كبيـرة فـي التواصـل المتبـادل بيـن كافـة مناطـق العالـم، كمـا لـم يعـد "الوصـول إلـى السـماء"، أو "تقليـص المسـافات بيـن سـكان العالـم ليصبحـوا كالجيـران" مجـرد خيـالات وتطلعـات بشـرية وحسـب، بـل أصبـح العالـم بالفعـل

كـ"القريـة الصغيـرة"، وأصبحـت -أيضًـا- ظاهـرة اجتماعيـة متنامية باسـتمرار، وقد كسـرت حركة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة الحواجـز الجغرافيـة والمكانيـة للتواصـل بيـن الصيـن والغـرب، وسـرَّعت مـن وتيـرة العلاقـات بيـن الصيـن ودول الغـرب علـى كافـة المسـتويات: السياسـية، والاقتصاديـة، والأيديولوجيـة، والثقافيـة، وغيرهـا.

ثانيًـا: لعـب كل مـن حركـة العبـور، والتواصـل التاريخييـن بيـن الصيـن وخارجهـا دورًا تاريخيًّا كحلقـة وصـل بيـن الماضي والمسـتقبل.

ففـي مجتمـع الصيـن القديمـة، سـبق لحـكام منطقـة السـهول الوسـطى أن أقامـوا بعـض العلاقـات مـع الـدول أو القبائـل المحيطـة بهـم، ففـي فتـرات الحكـم المزدهـرة لـكل مـن أسـرة هـان الغربيـة، وأسـرة تانـغ، وأسـرة مينـغ، كان الحـكام الصينيـون يتمتعـون بثقـة عاليـة فـي سياسـاتهم، وكانـوا يرسـلون المبعوثيـن فـي مهـام لـدول المناطـق الغربيـة عـدة مـرات، كمـا أرسـلت أباطـرة أسـرة مينـغ الملكيـة -فـي العديـد مـن المـرات- مبعوثيـن لكافـة الـدول الواقعـة فـي غـرب آسـيا، وشـرق إفريقيـا، وفـي عصرنـا الحالـي، تتمتـع الصيـن بعلاقـات مختلفـة، وبدرجـة أقـوى بكثيـر مـع كافـة دول العالـم، وفـي العصـر الحديـث، يـرى الشـعب الصينـي أن أسـرة تشـينغ الملكيـة طبقـت سياسـات صارمـة تقضـي بغلـق أبـواب الصيـن تجـاه دول الغـرب، ممـا أدى إلـى قطـع العلاقـات والتبـادلات مـع الخـارج، وهـذا الـرأي ليـس صحيحًـا تمامًـا، ففـي واقـع الأمـر، كانـت حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ تمثـل -بـلا شـك- حلقـة وصـل مهمـة فـي السلسـلة المتكاملـة للتواصـل بيـن الصيـن وخارجهـا، كمـا كانـت تلعـب دورًا فـي غايـة الأهميـة فـي ربـط الماضـي بالمسـتقبل.

ثالثًـا: تغييـر سياسـة الصيـن التقليديـة (البـاب المغلـق تجـاه الخـارج)، وتسـريع عمليـة تفـكك المجتمـع الإقطاعـي فـي الصيـن، فعلـى الرغـم مـن عـدم تمكـن الصيـن مـن مسـايرة خطـوات التنميـة العالميـة المتسـارعة، إلا أنهـا حافظـت علـى المسـار نفسـه الخـاص بالتنميـة فـي كافـة دول العالـم.

فقبـل عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، وبسـبب الانقطـاع المتبـادل طويـل المـدى فـي

العلاقات بين كافة دول العالم، وغير ذلك من الأسباب والقيود الأخرى، لم تكن الصين ودول الغرب على المستوى المطلوب من فهم بعضهم بعضًا، ومن هنا، لن نناقش -بشكل مؤقت- كيف لم تفهم الصين دول الغرب، وبالمثل كيف لم تفهم دول الغرب الصين. فعلى سبيل المثال، كان يرى الإغريق القدماء أن "بلاد إنتاج الحرير (وهي الصين) يتميز شعبها بطول القامة التي قد تصل إلى 13 ذراعًا تقريبًا، وطول العمر، حيث تصل أعمارهم إلى حوالي 200 عام"[1]، وفي القرن الثالث عشر، سافر التاجران القادمان من مدينة البندقية ماركو بولو (الأب وابنه) سويًّا إلى الصين، وبعد عودتهما ألَّفا كتاب "مذكرات أسفار ماركو بولو" الشهير، إلا أن هذا الكتاب لم يقدم بشكل حقيقي وموضوعي الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والأيديولوجية، والثقافية في الصين آنذاك، بل قدمها من خلال نظرة التاجر الذي يقدس المال، باستخدام وسائل مبالغ فيها تشبه الكذب، حيث وصف الصين بأنها كالعالم الذهبي اللون، فأرضها في كل مكان مفترشة بقراميد الإمبراطور الذهبية، وأسقف البيوت مغطاة بها كذلك، لينقل إلى الغرب بهذا الكثير من المعلومات التاريخية المغلوطة.

وخلال الفترة منذ نهاية عهد أسرة مينغ، وحتى بدايات عهد أسرة تشينغ، بدأت العديد من المجالات العلمية في دول الغرب، كحساب التقويم الفلكي، والحساب الفيزيائي، والجغرافيا الحيوية، وفن العمارة، بما يشتمله من مجال صناعة الأسلحة، وغيرها من العلوم، بدأت في الدخول إلى الصين بالتماشي مع نقل المبشرين القادمين من الغرب للأفكار الدينية والفلسفية إلى الصين أيضًا، وقد دخلت إلى الصين كذلك العديد من المعارف والعلوم الطبيعية الأخرى القادمة من الغرب، والتي لن نذكرها الآن، وذلك لصعوبة شرح تفاصيلها، وسنكتفي بإعطاء لمحة سريعة حول دخول بعض الأدوات الفلكية، والعسكرية إلى الصين.

ففي البداية، كان هناك المبشر اليسوعي البلجيكي فرديناند فيربيست الذي ساعد حكومة أسرة تشينغ الملكية على صنع مئات المدافع العسكرية العملاقة

1- مقتبس من كتاب جونغ شو خه: "الانطلاق نحو العالم.. دراسة المفكرين المعاصرين حول تاريخ الغرب"، الهيئة الصينية للكتاب، 1985م، صفحة 4.

علـى غـرار مدافـع الغـرب، ليـس هـذا وحسـب، بـل وترجـم -أيضًـا- العديـد مـن الكتـب المتعلقـة بالصناعـات العسـكرية مثـل "الكتـاب المصور حـول الأسـلحة" الـذي يقـدم شـرحًا لمبـادئ وفـن صناعـة المدافـع والبنـادق، ومـن ناحيـة أخـرى، وخـلال الفتـرة منـذ عـام 1674م (العـام الثالـث عشـر مـن تقويـم كانغشـي)، وحتـى عـام 1752م (العـام السـابع عشـر مـن تقويـم تشـيانلونغ)، عمـل العديـد مـن المبشـرين الأجانـب، ومنهم المبشـر فرديناند فيربيسـت علـى صنـع عشـرات الآلات والأدوات الفلكيـة، كجهـاز ذات الحلـق (أو المحلقـة/ جهـاز قيـاس الزوايـا الاسـتوائية)، والكـرة المدفعيـة المداريـة، ودائـرة الأفـق الهندسـية، والتليسـكوب الأفقـي، كمـا أرفقـوا مـع كل آلـة علـى حـدة كتيبًـا مصـورًا لتوضيـح اسـتخدامها، مـن أشـهرها كتـاب "صناعـات جديـدة للمراصـد الفلكيـة" وغيـره مـن الكتـب التي ألَّفهـا باحثون فـي علـم الفلك.[1]

وبالحديـث عـن حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب منـذ عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، وخاصـة منـذ بدايـة العصـر الحديـث، بـدأت القُـوى الأجنبيـة السياسـية والعسـكرية تغـزو الصيـن بشـكل تدريجـي، وبالتزامـن مـع ذلـك الغـزو، دخـل إلـى الصيـن أيضًـا -وعلـى نطـاق واسـع- بعـض الآليـات السياسـية المتقدمـة، وأفـكار للإنتـاج الاجتماعـي، وأيديولوجيـات ثقافيـة قادمـة مـن الغـرب، وبعـد وصـول أعضـاء الوفـود أو الباحثيـن المرسـلين مـن الصيـن إلـى الـدول الرأسـمالية القويـة فـي الغـرب، ذُهلـوا جميعًـا ممـا رأوه هنـاك مـن قـوى مزدهـرة، وعلـوم متقدمـة.

وبعـد فتـرة سـبعينيات القـرن التاسـع عشـر، أرسـلت حكومـة أسـرة تشـينغ الملكيـة دبلوماسـيين صينييـن إلـى كافـة دول الغـرب، لتغطيـة مهامهـم الدبلوماسـية الواجـب عليهـم تنفيذهـا بأنفسـهم، وأيضًـا لتنفيـذ مهمـة أخـرى هامـة، وهـي "ضـرورة تدويـن كل مـا تقـع عليـه أعينهـم مـن مناظـر طبيعيـة، وعـادات قوميـة، ليعـودوا بهـا إلـى الصيـن، كإثبـات يقدمـوه للحكومـة الصينيـة"[2]، وبسـبب وجـود هـذا الشـرط، دوَّن الأعضـاء المبعوثـون مـن قِبـل حكومـة أسـرة تشـينغ إلـى دول الغـرب كافـة عشـرات الأعمـال التـي

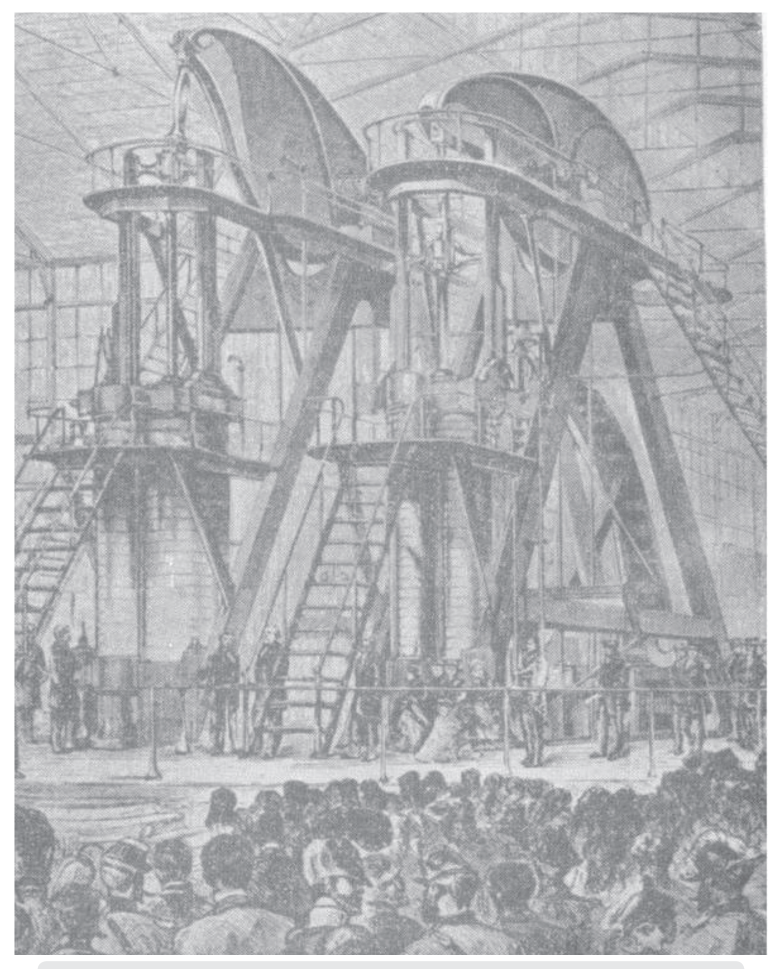
1- انظر فانغ خاو: "تاريخ حركة العبور بين الصين والغرب"، المجلد الثاني، صفحة 709.

2- باو يون، وآخرون: "بدايات ونهايات التخطيط في العلاقات بين الصين وخارجها.. في عهد الإمبراطور زاي تشون"، المجلد 39، صفحة 2.

تصف مذكرات أسفارهم، وبالتالي، تمكننا نحن من الاطلاع في يومنا هذا على سلسلة كتب جونغ شو خه التي كتبها تحت عنوان "الانطلاق نحو العالم".

حيث كان هؤلاء المبعوثون يشعرون عند خروجهم من الصين كأنهم ذهبوا إلى عالم آخر، فيستشعرون بأنفسهم الآليات والأفكار السياسية في دول الغرب، ويتلمسون حضارتها المادية، حيث كان من السهل لمس عمق أفكار دول الغرب. فقد سبق لكل من وفد توه شه، ووفد ديه شين المرسلين من قِبل حكومة أسرة تشينغ إلى روسيا في عامي 1731م، و1732م على الترتيب، سبق لهما أن زارا المصانع والمتاحف، وغيرها من الأماكن الموجودة في روسيا آنذاك، وفي عام 1866م، أرسلت حكومة أسرة تشينغ الملكية السيد بين تشون على رأس وفد صيني، لمشاهدة المعالم السياحية بصحبة السيد روبرت هارت في رحلة ذهابه إلى دول أوربا، وقد عبر بين تشون في كتابته حول ملكة إنجلترا، قائلاً: "رأيت بنفسي روعة تصنيع المعدات والأدوات المنزلية في مدينة لندن، فقد فاقت في روعتها المعدات الصينية، وفي ما يتعلق بالشؤون السياسية، تحتوي في داخلها على العديد من الفوائد أيضًا"[1]، وبعد فترة سبعينيات القرن التاسع عشر، أرسلت الصين السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين إلى مختلف الدول كـ إنجلترا، وألمانيا، والولايات المتحدة، وغيرها من الدول في الغرب، ولامسوا جميعًا لفترة أطول السياسات والحضارات المادية المتقدمة في الغرب، وأصبحوا ملمِّين -بشكل كامل- بكافة مجالات الحياة الاجتماعية كالسياسة، والاقتصاد، والأيديولوجيا، والثقافة، والمجتمع، والأعراف.

1- بين تشون: "مدونات حول جولات السفر"، جونغ شو خه: سلسلة "الانطلاق نحو العالم"، دار يويه ليو للنشر، 1985م، صفحة 117.



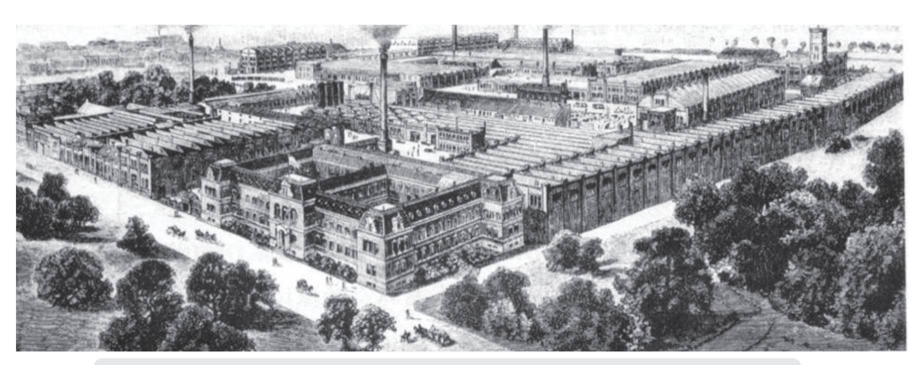
لوحة لمحرك "جياليس" البخاري الكبير، والتي عُرضت في مايو من عام 1876م في معرض فيلاديلفيا العالمي بالولايات المتحدة، والمذكورة في كتاب "السجلات الجديدة للعولمة" للكاتب لي جوي

عملت كل هذه البعثات على الدفع -بشكل أكبر- من الحراك الدبلوماسي لحكومة أسرة تشينغ تجاه الخارج، وكذلك الدفع من تحسين تطوير الأنظمة الاقتصادية المختلفة كالتجارة، ومكافأة مؤسسات الأعمال، وغيرها، مما عمل على كسر جمود النظام الإقطاعي السياسي، والبدء في الإصلاح والتحول الشاملين في جميع أنظمة

السياسـة، والاقتصـاد، وغيرهـا مـن الأنظمـة الأخـرى فـي الصيـن، وبالتالـي تقديـم كل أنـواع الاسـتعدادات الفكريـة والفـرص للتقـدم الاجتماعـي فـي الصيـن.



منظر شوارع العاصمة الإنجليزية لندن الذي رآه مبعوثو الصين لدى وصولهم إليها



مصنع مايدبيرج الألماني للنحاس الذي زاره مبعوثو الصين لدى وصولهم إلى ألمانيا

رابعًا: لو أرادت دولة ما أو شعب ما عدم الفناء، فلا بدَّ من الإصلاح والانفتاح.

مـن منظـور معيـن يمكننـا أن نـرى أن حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب فـي عهـد أسـرة تشـينغ الملكيـة، وخاصـة منـذ بدايـة العصـر الحديـث، تُظهـر بشـكل كامـل وحشـية دول الغرب الرأسـمالية وجشـعها فـي غـزو الـدول الأخـرى ونهـب ثرواتهـا، كمـا تُظهـر -أيضًـا- القسـوة التـي عانـت منهـا الشـعوب بيـن العـرق والـدم والنـار، إلا أنهـا مـن ناحيـة أخـرى، تعكـس للجميـع كذلـك تقـدم الأنظمـة السياسـية، والحضـارة الماديـة، وكذلـك تقـدم الحضـارة التقنيـة، لتمثـل اتجـاه تطـور التاريـخ البشـري، والأهـم مـن ذلـك، هـو مـا يخبرنـا بـه تاريـخ حركـة العبـور بيـن الصيـن والغـرب منـذ عهـد أسـرة تشـينغ، ومنـذ العصـر الحديـث بشـكل خـاص، بأنـه خـلال الفتـرة التـي اتبعـت فيهـا الصيـن سياسـة البـاب المغلـق تجـاه الخـارج، وتماشـيًا مـع تنميـة قـوى الإنتـاج الاجتماعـي، فقـد ذهبـت هـذه الفتـرة دون رجعـة. فمـن قبـل، كان بإمـكان دولـة مـا، أو شـعب مـا -فـي ظـل ظـروف تاريخيـة معينـة- أن يغلـق علـى نفسـه بإحـكام، أو يغلـق بابـه للحفـاظ علـى نفسـه، وبهـذا يقضـي حياتـه دون التواصـل مـع الخـارج، ولكـن، هـذا غيـر ممكـن فـي العصـر الحديـث، فـلا يمكـن بـأي حـال غلـق الأبـواب، كمـا لا يمكـن الدفـاع بهـذا الشـكل عـن النفـس، فبمواجهـة النزعـة التطوريـة لتكامـل العولمـة، لا بـدَّ لأي دولـة أو شـعب يرغـب فـي البقـاء وعـدم الفنـاء، أن يسـعى لمواكبـة العصـر، وأن يعمـل علـى الإصـلاح المتكامـل والعميـق فـي العديـد مـن المجـالات كالسياسـة، والاقتصـاد، والمجتمـع، وغيرهـا، ولا بـدَّ لـه -أيضًـا- أن ينخـرط فـي عمليـة التنميـة العالميـة، ليتمكـن مـن احتـلال مكانتـه المرجـوة علـى طريـق تنميـة الشـعوب علـى مسـتوى العالـم أجمـع.



الباب السادس

قراءة زمانية ومكانية لمبادرة "الحزام والطريق" من منظور التراث العالمي

(تشيويه ويي مين)

يرجع أصل نشأة مسمى "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير وطريق الحرير البحري للقرن 21" ("الحزام والطريق") إلى مصطلح "طريق الحرير" نفسه، وفي ما يتعلق بنتائج الدراسات حول "الحزام والطريق" (بما يشمل "الحزام والطريق"+"طريق الحرير")، فقد نُشر أهمها في عامي 2014م، و2015م، تحت عناوين علمية متخصصة تتضمن "الاقتصاد"، و"التجارة"، و"المالية"، أما النتائج المتعلقة بـ"طريق الحرير"، فقد نُشر أهمها من قبل عام 2013م، تحت عناوين علمية متخصصة تتضمن "التاريخ"، و"الثقافة"، و"الآثار" (انظر جدول 1).

جدول (1) نتائج البحوث حول "الحزام والطريق" و"طريق الحرير"

مادة البحث	مجال البحث	إجمالي النتائج	أكثر الموضوعات تداولًا (إجمالي المقالات حول الموضوعات المشار إليها)
الحزام والطريق	الدوريات وعناوين المقالات- 2015م	2092	إصلاح النظم الاقتصادية (1256)، الاقتصاد الصناعي (258)، السياسة الصينية والسياسة الدولية (158)، المالية (140)، التجارة والاقتصاد (108)، المواصلات والنقل والاقتصاد (98)، إدارة الاقتصاد الكلي والتنمية المستدامة (79)، النقل عبر الطرق البرية والطرق المائية (60)، اقتصاد المؤسسات (56)
الحزام والطريق	الدوريات والكلمات المفتاحية- 2015م	433	إصلاح النظم الاقتصادية (221)، الاقتصاد الصناعي (41)، السياسة الصينية والسياسة الدولية (40)، المالية (29)، التجارة والاقتصاد (26)، إدارة الاقتصاد الكلي والتنمية المستدامة (24)، مشاريع التعدين (16)، المواصلات والنقل والاقتصاد (12)، الاقتصاد الزراعي (11)
الحزام والطريق طريق الحرير	الدوريات وعناوين المقالات - 2015م	17	إصلاح النظم الاقتصادية (9)، اقتصاد الصناعات، الأديان، التجارة والاقتصاد، الأخبار ووسائل الإعلام، الثقافة، اقتصاد المعلومات واقتصاد البريد، الصناعات الكيماوية غير العضوية، علم البحار والمحيطات، الاقتصاد الزراعي

الحزام والطريق طريق الحرير	الدوريات والكلمات المفتاحية - 2015م	12	إصلاح النظم الاقتصادية (9)، السياسة الصينية والسياسة الدولية (2)، التجارة والاقتصاد، الأدب الصيني، اقتصاد المؤسسات.
الحزام والطريق طريق الحرير	الدوريات والموضوعات - 2015م	1388	إصلاح النظم الاقتصادية (834)، الاقتصاد الصناعي (121)، المواصلات والنقل والاقتصاد (114)، السياسة الصينية والسياسة الدولية (80)، المالية (74)، النقل عبر الطرق البرية والطرق المائية (70)، التجارة والاقتصاد (61)، إدارة الاقتصاد الكلي والتنمية المستدامة (46)، الثقافة (28)
طريق الحرير	الدوريات وعناوين المقالات - 2015م	4106	إصلاح النظم الاقتصادية (1261)، السياحة (338)، الآثار (278)، التجارة والاقتصاد (247)، الثقافة (237)، الاقتصاد الصناعي (224)، المواصلات والنقل والاقتصاد (205)، إدارة الاقتصاد الكلي والتنمية المستدامة (144)، المالية (138)، السياسة الصينية والسياسة الدولية (129)، التاريخ العام للصين (126)، تاريخ الصين القديم (116)
طريق الحرير	الدوريات وعناوين المقالات - 2015م	1644	السياحة (212)، الآثار (211)، إصلاح النظم الاقتصادية (109)، التاريخ العام للصين (103)، الاقتصاد الصناعي (96)، الثقافة (89)، تاريخ الصين القديم (82)

مصدر البيانات: شبكة المعرفة الصينية (http://www.cnki.net/)، البحث بتاريخ 2015/10/6م

وقبل إطلاق رؤية الصين "الحزام والطريق" بفترة قصيرة، كانت الأوساط العلمية الدولية تعمل على دراسات علمية خاصة بمراجعة فترتي ازدهار "طريق الحرير" (استمرت فترة الازدهار الأولى لأكثر من 50 عامًا منذ نهايات القرن التاسع عشر، وحتى ثلاثينيات القرن العشرين، وكانت الدراسات تخص بالأساس الاستكشافات العلمية لبعض الأوربيين واليابانيين، والأمريكيين في المناطق

الواقعـة فـي شـمال غـرب الصيـن حاليًـا، والتنقيـب فـي المواقـع الأثريـة الخاصة بطريـق الحرير القديـم، ونهـب القطـع الأثريـة فيهـا. أمـا فتـرة الازدهـار الثانيـة فبـدأت فـي ثمانينيـات القـرن العشـرين، حيـث تحققـت فرصـة ازدهـاره فـي ظهـور مجموعـة مـن السياسـات الجغرافيـة، والثقافـات، التقنيـات، وأيضًـا ظهـور تاريـخ عالمـي جديـد تـم اتخـاذه كإطـار لعلـوم التاريـخ، ومجـالات التدريـس)، وعلـى أسـاس هـذه الدراسـات يُـرى أن "طريـق الحريـر والدراسـات المتعلقـة بـه والممتـدة عبـر النطـاق العالمـي -بسـبب تقنيتـه الرقميـة- تؤكـد لنـا بوضـوح أن معرفتنـا فـي مجـال طريـق الحريـر قـد دخلـت فـي عهـد متقـدم طويـل المـدى".

وفــي عــام 2014م، اتحــدت كل مــن الصيــن، وكازخســتان، وقيزغيزســتان فــي المطالبــة بـإداراج "طريـق الحريـر: شـبكة الممـرات والطـرق مـن مدينـة تشـانغ آن وحتـى سلسـلة جبـال تيانشـان" كمشـروع تـراث عالمـي، وبالفعـل تـم إدراجهـا فـي قائمـة التـراث العالمـي التابعـة لمنظمـة اليونسـكو. أمـا وثيقـة "دفـع الرؤيـة والعمـل الخاصيـن بالبنـاء المشـترك للحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر وطريـق الحريـر البحـري للقـرن 21" (نلخصهـا فـي مـا يلـي باسـم وثيقـة "الرؤيـة والعمـل") فقـد أشـارت إلـى أن طريـق الحريـر هـو "الإرث الثقافـي التاريخـي المشـترك لكافـة دول العالـم"، وأن الـدول الواقعـة علـى خـط طريـق الحريـر يمكـن أن "تتحـد للمطالبـة بإدراجـه كتـراث عالمـي، وأن تشـترك فـي أعمـال الحمايـة المشـتركة لهـذا التـراث"، وتقـوم آليـة هـذا التعـاون علـى "دعـم التـراث الثقافـي التاريخـي الخـاص بـ"الحـزام والطرايـق"، وأعمـال التنقيـب المحليـة والشـعبية فـي الـدول الواقعـة علـى خـط طريـق الحريـر"، ويمكننـا أن نـرى أنـه باسـتثناء المنظـور السياسـي، والاقتصـادي، والدبلوماسـي، والثقافـي، يمكننـا -أيضًـا- البحـث فـي مجـال "الحـزام والطريـق" مـن المنظـور العالمـي، إلا أنـه حتـى وقتنـا الراهـن، سـيكون هـذا الكتـاب محاولـة منـا للتعمـق فـي البحـث مـن المنظـور العالمـي باسـتخدام المقـالات والوثائـق الصينيـة فقـط.

الفصل الأول

المصدر الدقيق لظهور مسمى "طريق الحرير" لأول مرة

ظهر مصطلح "طريق الحرير" القديم -السالف لظهور مصطلح "الحزام والطريق"- قبل ما يُعرف بـ"عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى" أو "عصر الإبحار العظيم"، حيث تتمتع الطرق الدولية الكبرى التي كان يتم عبرها التبادل الاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي بين الشعوب بقيم تاريخية وثقافية كثيرة، والتي كانت تتجسد في الدين، والتجارة، والثقافة الصينية، واندماج الأمة الصينية، والتبادل الحضاري بين الشرق والغرب، وغيرها من المجالات الأخرى. أما مبادرة "الحزام والطريق" فلا بدَّ أنها ستصبح -على الأساس التاريخي لـ"طريق الحرير"- الحاملة المادية التي ستُظهر للعالم المستقبلي الإنجازات الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والعلمية، والتقنية في الشرق والغرب في بدايات القرن 21، وذلك من خلال التقدير والثقة المتبادلين، والتعاون المربح لكل الأطراف، والاستفادة المتبادلة من الحضارات المختلفة، والجهود المشتركة لتحقيق التبادل واسع المدى.

وكان عالم الجغرافيا الألماني فيرديناند فون ريشتهوفين (1833م- 1905م,Richthofen, Ferdinand von) أول من أطلق مصطلح "طريق الحرير"، إلا أن هناك نتائج لبعض الدراسات التي تؤكد عدم وضوح مصدر هذا المسمى اللغوي.

فقد سبق لريتشهوفن أن زار الصين في الفترة بين سبتمبر من عام 1868م، وحتى مايو من عام 1872م، وأجرى دراسات جغرافية طبيعية وبشرية على طول مسارات الطرق السبعة فيها، وعلى أساس هذه الدراسات، ألَّف كتابه الشهير "الصين: رحلتي الشخصية ونتائج الدراسات" (يُسمى اختصارًا بـ"تقارير حول رحلتي إلى الصين") والمكون من 5 مجلدات، وألبوم مصور، وقد تم طبعه خلال الفترة 1877م- 1912م، كما أنه جمع يومياته كافة هناك في كتاب "يومياتي في الصين"، وتم نشره عام 1907م، وفي المجلد الأول من كتاب "تقارير حول

رحلتي إلى الصين" تناول فيه ريتشهوفين على الترتيب موضوع "الحرير Seide" (صفحات 443، 474، 476)، و"ثقافة الحرير Seidencultur" (صفحات 356، 443، 529، 550)، و"تجارة الحرير Seidenhandel" (صفحات 114، 442-444، 471، 475، 528، 556)، وفي الصفحة رقم 506 كانت المرة الأولى التي يستخدم فيها لفظة "طريق الحرير (Seidentrassen)": ".. ذكرنا سابقًا العبور من خلال طريق الحرير في منطقة باختر (وهي نفسها دولة دا شيا القديمة)، وهو الطريق التجاري المار عبر منطقة التبت، والمحيط، ليصل إلى مدينة أسام (بالهند)، ومنطقة جنوب غرب الصين، وقد أشار كتاب "دليل الملاحة (Periplus)" بوضوح إلى أن هذا الطريق التجاري كان موجودًا من قبل في عهد الجنرال جانغ تشيان"، ومن هنا، نرى أن "طريق الحرير المذكور في الكتاب يشمل طريق الحرير المار عبر منطقة شينجيانغ، وطريق الحرير الجنوبي، وعلى الرغم من أنه لم يُطلق عليه مسمى "طريق الحرير البحري"، ولكنه أشار بوضوح إلى "طريق الحرير"، و"الطريق عبر المحيط".

ومن خلال استخدام الباحثين في شتى المجالات -والقادمين من مختلف الدول والأزمنة- لمصطلح "طريق الحرير"، نجد انبثاق العديد من المسميات بأنواعها المختلفة، نعرض أهمها في ما يلي:

(1) المسميات المأخوذة على أساس علم الجيومورفولوجيا (علم شكل الأرض)، مثل: طريق الغابات العشبي، طريق الواحات الصحراوي، طريق الجزر البحري، وغيرها من المسميات.

(2) المسميات المأخوذة على أساس الموضع الجغرافي، مثل: طريق الحرير الشمالي، طريق الحرير الجنوبي، طريق حرير ممرات سلسلة جبال تيانشان، طريق جبال تيانشان الجنوبي، وغيرها.

(3) المسميات المأخوذة على أساس وسائل المواصلات المستخدمة، مثل: طريق الخيول، طريق الجمال، طريق خيول الشاي، الطريق الملاحي، طريق الحديد والصلب، وغيرها.

(4) المسـميات المأخـوذة علـى أسـاس أسـماء البضائـع التجاريـة، مثـل: طريـق الحريـر، طريـق أوراق الشـاي، طريـق الخـزف، طريـق أحجـار اليشـم، طريـق النفـط، وغيرهـا.

(5) المسـميات المأخـوذة علـى أسـاس المفاهيـم الثقافيـة، مثـل: طريـق الأديان، طريق السـلام، طريـق النـور، طريـق الاتصـال بيـن حضارات الشـرق والغـرب، وغيرهـا من المسـميات.

الفصل الثاني

"الحزام والطريق".. تحسن مستمر في الرؤية والعمل

استغرقت مبادرة "الحزام والطريق" مدة عامين ونصف منذ أن طُرِحَت لأول مرة في السابع من سبتمبر عام 2013م، وأُطلقت رسميًّا في الثامن والعشرين من مارس عام 2015م، كما أنها مرت بعملية تحسين من حيث الفهم والتخطيط.

فخلال الفترة منذ الثالث من سبتمبر، وحتى الثالث عشر من الشهر نفسه لعام 2013م، زار الرئيس الصيني شي جين بينغ لأول مرة 4 دول في منطقة آسيا الوسطى (وهي تركمانستان، وكازخستان، وأوزبكستان، وقيرغيزستان)، وحضر لأول مرة قمة الـ G20، كما كانت أول مرة يحضر فيها قمة منظمة شنغهاي للتعاون، وفي السابع من سبتمبر عام 2013م، ألقى خطابًا مهمًّا بجامعة نزارباييف بكازخستان بعنوان "توسيع الصداقات بين الشعوب.. التشارك في تكوين مستقبل مشرق"، وطرح فيه لأول مرة مصطلح "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير"، واكتفى آنذاك بالتركيز على طريق الحرير البري الرابط بين الصين ومنطقة آسيا الوسطى.

وفي الثالث من أكتوبر عام 2013م، ألقى الرئيس الصيني شي جين بينغ خطابًا في البرلمان الإندونيسي بعنوان "يدًا بيد لبناء الصين.. رابطة دول جنوب شرق آسيا (الآسيان): جسد واحد.. مصير مشترك"، وطرح لأول مرة مصطلح ""طريق الحرير البحري" للقرن 21"، ولكنه اكتفى في ذلك الوقت بالتركيز على طريق الحرير البحري الرابط بين الصين ودول الآسيان، كما أن "القرن 21"، و"طريق الحرير البحري" ليسا مصطلحًا واحدًا، بل مصطلحين متصلين.

وفي الثاني عشر من نوفمبر عام 2013م، أُصدِر "قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في ما يتعلق بتعميق الإصلاحات على نحو شامل في العديد من القضايا الكبرى"، وأشار البند السادس والعشرون فيه إلى: "الدفع بالحزام

الاقتصادي لطريق الحرير، وتأسيس طريق الحرير البحري، لتكوين نمط جديد للانفتاح على الخارج من جميع الجهات"، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُذكر فيها مصطلحا "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير"، و"طريق الحرير البحري"، ولكن لم يسبقهما معرَّف "القرن 21" لوصفهما.

وخلال الفترة 10- 13 من ديسمبر عام 2013م، عُقد مؤتمر الأعمال الاقتصادية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني، وطُرحت فيه البنود الستة لأهم الأعمال الاقتصادية لعام 2014م، بهدف "الاستمرار في رفع مستوى الانفتاح على الخارج"، جاء فيها: "الدفع بتأسيس الحزام الاقتصادي لطريق الحرير، والإسراع من وضع الخطط الاستراتيجية، ودفع التعاون المشترك في تأسيس البُنى التحتية، وتأسيس طريق الحرير البحري للقرن 21، وتعزيز رابطة المصالح المشتركة"، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُدمَج فيها مصطلحا "القرن 21"، و"طريق الحرير البحري".

وفي السادس من فبراير عام 2014م، لبَّى الرئيس الصيني شي جين بينغ الدعوة لإجراء زيارة خاصة لروسيا، لحضور حفل افتتاح دورة ألعاب سوتشي الشتوية والأنشطة المتعلقة بها، والتقى حينها مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، وألقى شي جين بينغ خطابًا، جاء فيه: "ترحب الصين بمشاركة الجانب الروسي في تأسيس الحزام الاقتصادي لطريق الحرير، وطريق الحرير البحري، لتصبح منصة جديدة لتطوير الشراكة الاستراتيجية الشاملة بين البلدين"، وصرَّح بوتين قائلًا: "استجابت روسيا بشكل إيجابي لمبادرة الجانب الصيني بتأسيس الحزام الاقتصادي لطريق الحرير، وطريق الحرير البحري، آملةً في ربط سكك حديد أوراسيا الروسية مع مخطط "الحزام والطريق"، لخلق مصالح أكبر للبلدين"، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُختصر فيها إعلاميًّا مُسمى المبادرة إلى "الحزام والطريق"، وكانت نقطة التركيز فيها منصبة على العلاقات الدبلوماسية بين الصين وروسيا.

وفي الخامس من مارس عام 2014م، أصدر رئيس مجلس الدولة الصيني لي

كـه تشـيانغ "تقريـر الأعمـال الحكوميـة"، لمراجعـة كافـة الأعمـال خـلال عـام 2013م، وشـمل التقريـر "طـرح فكـرة تأسـيس الحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر، وطريـق الحريـر البحـري للقـرن 21"، وخـلال توزيـع الأعمـال المهمـة لعـام 2014م، أشـار البنـد الثانـي "خلـق نمـط جديـد للانفتـاح علـى الخـارج بمسـتوى عـالٍ" إلـى: "الإسـراع فـي وضـع مخطـط لتأسـيس الحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر، وطريـق الحريـر البحـري للقـرن 21، والدفـع بإنشـاء الممـرات الاقتصاديـة بيـن كل مـن بنجلاديـش، والصيـن، والهنـد، وميانمـار، وأيضًـا الممـرات الاقتصاديـة بيـن الصيـن وباكسـتان، والدفـع بمجموعـة مـن المشـاريع الداعمـة، وتسـريع التعـاون المشـترك لتأسـيس البُنـى التحتيـة، وتوسـيع المسـاحة الجديـدة للتعـاون الاقتصـادي والتكنولوجـي الدولـي"، وهـي المـرة الأولـى التـي تذكـر فيهـا الوثائـق الرسـمية مصطلـح "الحزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر، وطريـق الحريـر البحـري للقـرن 21"، إلا أن التركيـز الخطابـي كان علـى منطقـة آسـيا فقـط، بذكـر بنجلاديـش، والصيـن، والهنـد، وميانمـار، وباكسـتان .

وفـي التاسـع عشـر مـن مايـو عـام 2014م، تواصـل الرئيـس الصينـي شـي جيـن بينـغ مـع الرئيـس الكازخسـتاني نـزار بابيـف عبـر مكالمـة فيديـو فـي مدينـة شـنغهاي الصينيـة، ودشَّـنا سـويًّا العمـل علـى المرحلـة الأولـى مـن مشـروع تعاونـي لوجسـتي بيـن الصيـن وكازخسـتان (مـن ميناء ليـان يـون البحـري)، ليمثـل هـذا المشـروع أول منصـة حقيقيـة لتأسـيس "الحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر"، وقـد صبَّـت هـذه الخطـوة فـي صالـح إطـلاق قُـوى النقـل التجميعـي عبـر الجسـر الأوراسـي الجديـد، وإنشـاء قنـوات تدفـق ومنصـات مفتوحـة للعناصـر الدوليـة فـي المناطـق البريـة، وتحفيـز تطويـر الروابـط بيـن المناطـق الشـرقية ومناطـق الوسـط والمناطـق الغربيـة فـي الصيـن، ودفـع التطـور الشـامل لنظريـة "تأثيـر الجـزء علـى الـكل" فـي مبـادرة الحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر الجديـد، وهـي المـرة الأولـى التـي تذكـر فيهـا وسـائل الإعـلام لأول مـرة مصطلـح "الحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر الجديـد".

وفـي الرابـع مـن نوفمبـر عـام 2014م، اجتمـع كل مـن الأميـن العـام للجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي الصينـي، والرئيـس الصينـي، ورئيـس اللجنـة العسـكرية التابـع للجنـة

المركزيـة للحـزب، وقائـد فريـق القيـادة الماليـة للجنـة المركزيـة للحـزب شـي جيـن بينـغ فـي مـا يُعـرف بالاجتمـاع الثامـن لفريـق القيـادة الماليـة التابـع للجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي الصينـي، بهـدف دراسـة مخطـط الحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر، وطريـق الحريـر البحـري للقـرن 21، وتأسـيس البنـك الآسـيوي للاسـتثمار فـي البُنـى التحتيـة، وكذلـك تأسـيس صنـدوق طريـق الحريـر، وهـو الاجتمـاع الأول مـن نوعـه للتخطيـط لمبـادرة "الحـزام والطريـق" مـن قِبـل كبـار الدولـة فـي الصيـن.

وفـي الثامـن مـن نوفمبـر عـام 2014م، اسـتضاف الرئيـس الصينـي شـي جيـن بينـغ مؤتمـر "تعزيـز علاقـات الشـراكة المتبادلـة" فـي الصيـن، وألقـى خلالـه خطابًـا بعنـوان "التواصـل يقـود التنميـة.. والشـراكة تركـز علـى التعـاون"، حيـث أشـار فيـه إلـى أنـه "منـذ القـدم، والتواصـل المتبـادل هـو مـا تسـعى إليـه البشـرية جمعـاء"، وأن "طريـق الحريـر عبـارة عـن نمـوذج، ورواد التواصـل المتبـادل مـن خلالـه هـم شـعوب جميـع الـدول فـي قـارة آسـيا"، "ولـو شـبهنا مبـادرة "الحـزام والطريـق" بجناحيـن يرفرفـان فـوق قـارة آسـيا، فـإن التواصـل المتبـادل يمثلـه شـرايين الـدم فـي هذيـن الجناحيـن"، كمـا طـرح الرئيـس الصينـي 5 اقتراحـات لتعميـق التعـاون مـن خـلال مبـادرة "الحـزام والطريـق"، وهـي: أولًا: تولـي الـدول الآسـيوية زمـام الأمـور لتحقيـق التواصـل المتبـادل. ثانيًـا: الاعتمـاد علـى الممـرات الاقتصاديـة لإنشـاء إطـار أساسـي للتواصـل المتبـادل بيـن الـدول الآسـيوية. ثالثًـا: الاعتمـاد علـى طفـرة التقـدم فـي المواصـلات والبُنـى التحتيـة، لتحقيـق إنجـازات مبكـرة للتواصـل المتبـادل يـن الـدول الآسـيوية. رابعًـا: تأسـيس منصـة للتمويـل، كنقطـة انطـلاق لكسـر عنـق الزجاجـة الـذي يعـوق التواصـل المتبـادل بيـن الـدول الآسـيوية. خامسًـا: اتخـاذ التبـادل الإنسـاني والثقافـي كحلقـة وصـل، لتوطيـد الأسـاس الاجتماعـي للتواصـل المتبـادل بيـن الـدول الآسـيوية، وهـذا يـدل علـى البدايـة الرسـمية للتعـاون العملـي لتنفيـذ مخطـط "الحـزام والطريـق"، إلا أنهـا مـا زالـت تركـز علـى دول قـارة آسـيا وحسـب.

وخـلال الفتـرة 9-11 مـن ديسـمبر عـام 2014م، عُقِـد مؤتمـر الأعمـال الاقتصاديـة للجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي الصينـي فـي العاصمـة بكيـن، وخـلال توزيـع الأعمـال

المهمـة لعـام 2015م، أشـار تقريـر الأعمـال بوضـوح إلـى أنـه: "يجـب العمـل علـى ثـلاث استراتيجيات كبـرى، وهـي تنفيـذ مبـادرة "الحـزام والطريـق"، وتطويـر التعـاون المتناسـق بيـن مدينتـي بكيـن وتيانجيـن، وكذلـك منطقـة الحـزام الاقتصـادي لنهـر اليانجسـتي، وبـذل الجهـد مـن أجـل تحصيـل بدايـة جديـدة فـي العـام المقبـل"، وهـي المـرة الأولـى التـي يخطـط فيهـا كبـار الدولـة لمبـادرة "الحـزام والطريـق" مـن منظـور تحسـين الدولـة للنمـط المكانـي للتنميـة الاقتصاديـة.

وفـي الثامـن والعشـرين مـن مـارس عـام 2015م، أعلـن الرئيـس الصينـي شـي جيـن بينـغ خـلال كلمتـه الرئيسـة فـي منتـدى بـو أو الآسـيوي، قائـلًا: "لقـد وُضعـت بالفعـل رؤيـة تأسـيس مبـادرة "الحـزام والطريـق"، وكذلـك وثائـق العمـل المتعلقـة بهـا"، وفـي مسـاء اليـوم نفسـه، أعلنـت الحكومـة الصينيـة وثيقـة "دفـع الرؤيـة والعمـل الخاصيـن بالبنـاء المشـترك للحـزام الاقتصـادي لطريـق الحريـر وطريـق الحريـر البحـري للقـرن 21" (تُلخـص باسـم وثيقـة "الرؤيـة والعمـل")، لتشـرح فيهـا بالتفصيـل رؤيتهـا لمخطـط "الحـزام والطريـق" مـن خـلال 8 مجـالات مختلفـة.

ومـن هنـا، تـم وضـع حجـر الأسـاس لمخطـط "الحـزام والطريـق"، الـذي يعكـس فـي جوهـره بدايـة تصميـم نمـط جديـد لاسـتراتيجية الانفتـاح علـى الـدول المحيطـة، عـن طريـق التعـاون مـع كل مـن دول رابطـة الآسـيان، ودول منطقـة آسـيا الوسـطى، وروسـيا، وكذلـك التواصـل المتبـادل مـع الـدول الآسـيوية، وأيضًـا التبـادل التجـاري، والإنسـاني بيـن مختلـف الحضـارات الكبـرى فـي قـارات آسـيا، وأوربـا، وإفريقيـا، كمـا يعكـس بدايـة للتبـادل التجـاري، وصـولًا إلـى تأسـيس البنـك الآسـيوي للاسـتثمار فـي البُنـى التحتيـة، وكذلـك تأسـيس صنـدوق طريـق الحريـر، والتبـادل الثقافـي بيـن الـدول، وقـد توسـع إطـار المخطـط، وتزايـد محتـواه -أيضًـا- بشـكل تدريجـي، إلا أنـه لا يـزال فـي مرحلـة التحسـين.

الفصل الثالث

المسمى التقليدي لمبادرة "الحزام والطريق"

يُعد مسمى "الحزام والطريق" اختصارًا لـ"الحزام الاقتصادي لطريق الحرير، وطريق الحرير البحري للقرن 21"، وهو مسمى لمبادرة سلمية أطلقتها الحكومة الصينية من خلال تمثيل الرئيس الصيني شي جين بينغ لها في المحافل الدولية، وقد تُرجم هذا المسمى كاملًا إلى اللغة الإنجليزية ليصبح "the Silk Road Economic Belt and the 21st-Century Maritime Silk Road"، ويُختصر إلى the Belt and Road، أو B&R.

وقد مرت 3 أعوام منذ إطلاق مبادرة "الحزام والطريق" وحتى يومنا هذا (عام 2017م)، إلا أن هذا المسمى ليس دقيقًا تمامًا، فلا يزال هناك قابلية للتناقش حوله في الأوساط العلمية المختلفة: (1) فلِمَ نستخدم كلمة "الحزام"، وليس "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير الجديد للقرن 21"، أو "طريق حرير القرن 21"؟ (2) لِمَ نستخدم "الطريق"، وليس "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير البحري للقرن 21"، أو "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير البحري"؟ (3) لِمَ نستخدم "الحزام الاقتصادي"، وليس "الشبكة الاقتصادية"، أو "حزام الشبكة الاقتصادية"، أو "شبكة الحزام الاقتصادي"؟

ولكن، في الوقت نفسه الذي تتناقش فيه الأوساط العلمية حول هذا المسمى، يجب علينا -أيضًا- احترام مسمى "الحزام والطريق" باعتباره حقق استخدامًا واسعًا، وأصبح مسمى تقليديًّا داخل الصين.

الفصل الرابع

ضرورة الاستمرار في توسيع الإطار المكاني لمبادرة "الحزام والطريق"

بالاستناد إلى الإطار التشغيلي الذي وضعه برنامج التراث العالمي التابع لمنظمة اليونسكو لمخطط الحماية، بتأسيس المناطق الأساسية، والمناطق العازلة، يمكننا تقسيم الإطار المكاني لـ"الحزام والطريق" إلى إطار أساسي، وإطار جوهري، وإطار عازل، وإطار افتراضي.

يتشكل الإطار الأساسي لمخطط "الحزام والطريق" من النقاط الأساسية على طول طريق الحرير الجديد، والأحزمة الأساسية على طول طريق الحرير الجديد، والشبكات الأساسية الموجودة على كافة مسارات الطرق المتفرعة من طريق الحرير الجديد، وتشتمل النقاط الأساسية على أهم المدن الاقتصادية، ومدن الموانئ، ومدن الإدارات الجمركية، والجزر الموجودة في كافة المناطق والدول على طول خط "الحزام والطريق"، وتشتمل أهم الأحزمة على المسارات الرئيسة على طول "الحزام والطريق"، أو كافة الأحزمة التي تربط أو تغطي النقاط المهمة على طول الطريق، بينما تشتمل أهم الشبكات على أحزمة الشبكات المهمة المنسوجة على طول كافة المسارات الرئيسة لـ"الحزام والطريق"، وكذلك الأقاليم المهمة الموجودة على طول طريق الحرير الجديد.

ويتشكل الإطار الجوهري لمخطط "الحزام والطريق" من مجموع الدول الاقتصادية النائية التي يمكن الوصول إليها، والواقعة في أهم النقاط، والأحزمة، والشبكات على طول خط طريق الحرير الجديد.

أما الإطار العازل لمخطط "الحزام والطريق" فيشتمل على مجال الحدود الإقليمية البرية، والبحرية، والجوية لكافة الدول على طول خط طريق الحرير الجديد.

ويُقصد بالإطار الافتراضي لمخطط "الحزام والطريق" كل الأقاليم التي تغطيها

شبكات التواصل الحديثة.

وقد كان يقتصر الإطار المكاني لطريق الحرير القديم على القارات الثلاث آسيا، وإفريقيا، وأوربا. أما اليوم، وتماشيًا مع تقدم تكنولوجيا الاتصالات، واتساع المنظور البشري، وتحديث وسائل المواصلات، فلا يقتصر الإطار المكاني لمخطط "الحزام والطريق" -في واقع الأمر- على ثلاث قارات وحسب، بل يركز على الوعي العالمي ككل، كما أن الوثيقة تشير بوضوح -أيضًا- إلى أنه: "لا تقتصر الدول المشاركة في مبادرة "الحزام والطريق" على تلك التي تستند إلى إطار طريق الحرير القديم، بل يمكن لكافة دول العالم، والمنظمات الدولية والإقليمية أن تشارك فيه أيضًا"، وتماشيًا مع التنفيذ المستمر لتأسيس مبادرة "الحزام والطريق"، لا بدَّ لإطارها المكاني أن يستمر هو الآخر في التوسع.

نص مبادرة "الحزام والطريق" على إنشاء البُنى التحتية في الأماكن الرئيسة كمناطق الترانزيت ومناطق التوزيع

لتحقيـق رؤيـة "الحـزام والطريـق" والعمـل عليهـا، لا بـدَّ مـن وجـود بُنـى تحتيـة مرورية فـي مسـارات العبـور، وكذلـك نقـاط العبـور.

وتشـمل مسـارات العبـور المسـارات البريـة (كالطـرق البريـة، والطـرق المائيـة عبـر اليابسـة)، والمسـارات البحريـة (كالمحيطـات، والجـزر، والصخـور المرجانيـة)، والمسـارات الجويـة، وشـبكات الطـرق.

وتشـمل نقـاط العبـور فـي مخطـط "الحـزام والطريـق" نقـاط الانطـلاق (أماكـن المغـادرة)، ونقـاط النهايـة (أماكـن الوصـول النهائيـة)، ونقـاط الترانزيـت (أماكـن الترانزيـت فـي أحزمـة شـبكة طريـق الحريـر)، ونقـاط التوزيـع (أماكـن التجميـع البريـة، والبحريـة، والجويـة)، ومـن الناحيـة النظريـة، يمكـن القـول إن مـا تنـص عليـه وثيقـة "الرؤيـة والعمـل" مـن "حالـة الانفتاح التـي تعيشـها كافـة الأماكـن علـى مسـتوى الصيـن"، والتـي تمثلهـا كل مـن "مناطـق الشـمال الغربـي، ومناطـق الشـمال الشـرقي"، و"مناطـق الجنـوب الغربـي"، و"المناطـق المطلـة علـى البحـر، ومناطـق هونـغ كونـغ، ومـكاو، وتايـوان"، و"المناطـق البريـة الداخليـة"، والمقاطعـات والمـدن التـي تنتمـي إليهـا تلـك المناطـق، كلهـا تمثـل نقـاط انطـلاق أو أماكـن مغـادرة فـي مخطـط "الحـزام والطريـق"، حتـى أن الأماكـن والقـرى التـي لـم تُذكـر فـي المخطـط تمثـل أي مـكان داخـل الإطـار المكانـي الـذي نـصَّ عليـه مخطـط "الحـزام والطريـق". ففـي الواقـع، لا يحتـاج الأمـر سـوى الانفتـاح علـى الخـارج اقتصاديًّـا وتجاريًّـا، لتصبـح المنطقـة المعنيـة نقطـة انطـلاق، أو نقطـة نهايـة فـي مخطـط "الحـزام والطريـق"، أمـا أن تصبـح المنطقـة المعنيـة مـن نقـاط الترانزيـت أو نقـاط التوزيـع فهـذا يحتـاج إلـى تمتعهـا بالشـروط المناسـبة لذلـك.

فـإذا أخذنـا مدينـة إيـوو الواقعـة فـي مقاطعـة جـه جيانـغ الصينيـة كمثـال، نجـد أنهـا ليسـت بالمدينـة الكبيـرة، ولا تحتـوي علـى موانـئ أيضًـا، ولا تقـع حتـى علـى مسـار طريـق الحريـر القديـم، إلا أنهـا تمتلـك سـوقًا كبيـرة للسـلع الصغيـرة، والتـي ترسـل يوميًّـا كمًّـا هائـلًا مـن البضائـع والسـلع إلـى دول العالـم كافـة (بمـا يشـمل جميـع الـدول الواقعـة علـى مسـار "الحـزام والطريـق")، فـلا أحـد يمكنـه إنـكار أن مدينـة إيـوو تمثـل اليـوم نقطـة انطـلاق (مـكان مغـادرة) ضمـن مخطـط "الحـزام والطريـق"، إلا أنهـا لا تمثـل نقطـة ترانزيـت، أو نقطـة توزيـع فـي مخطـط "الحـزام والطريـق"، ويرجـع السـبب فـي ذلـك إلـى أن الكـم الأكبـر مـن البضائـع التـي تخـرج مـن المدينـة، يتجمـع فـي الأسـاس فـي مينـاء جـوه شـان بمدينـة نينغبـوه، ومـن ثـم يتـم شـحنه إلـى خـارج البـلاد، وبالمقارنـة مـع مدينـة إيـوو، لا تمتلـك مدينـة نينغبـوه طبيعـة مدينـة إيـوو ذاتهـا باعتبارهـا نقطـة انطـلاق وحسـب، بـل إنهـا تُعتبـر -أيضًـا- نقطـة ترانزيـت، ونقطـة توزيـع، وهـو مـا لا تمتلكـه مدينـة إيـوو.

ولهـذا، تنـص مبـادرة "الحـزام والطريـق" علـى إنشـاء البُنـى التحتيـة فـي الأماكـن الرئيسـة، ويُقصـد بهـا مناطـق الترانزيـت، ومناطـق التوزيـع.

التنوع المعقد لأنواع حركة العبور في مبادرة "الحزام والطريق"

لا يحتاج تحقيق مخطط "الحزام والطريق" إلى وجود بُنى تحتية في مسارات العبور، ونقاط العبور وحسب، بل يحتاج الأمر -أيضًا- إلى اختيار وسيلة المواصلات، ومسار العبور، ونوع حركة العبور.

حيث تشمل وسائل المواصلات في مخطط "الحزام والطريق" وسائل المواصلات البرية (كالسيارات، والقطارات، والماشية، والمركبات المحركة بقوة الإنسان "مثل الريكشا"، وغيرها)، ووسائل المواصلات المائية (كالبواخر، والزوارق، والسفن الشراعية، والطوافات العائمة، وغيرها)، ووسائل المواصلات الجوية (كالطائرات، والمناطيد، وغيرها)، ووسائل النقل عبر شبكات الطرق (السلكية، واللاسلكية منها)، ووسائل الشحن عبر الأنابيب (كخطوط أنابيب البترول، وخطوط أنابيب الغاز الطبيعي، وخطوط الكهرباء ذات الضغط العالي، وغيرها).

وتشتمل مسارات العبور في مخطط "الحزام والطريق" (استنادًا إلى حركة العبور الفردية برًّا، وبحرًا، وجوًّا) على المسارات ذات المحطة الواحدة (تحتوي على نقطة انطلاق، ونقطة نهاية فقط)، والمسارات متعددة المحطات (تحتوي على نقطة انطلاق، ونقاط ترانزيت، ونقطة نهاية)، والمسارات المتقطعة (تمثل حاليًا حركة العبور التجميعية برًّا، وبحرًا، وجوًّا)، ومسارات التوزيع (تمثل حاليًا مناطق الترانزيت، أو مناطق التجميع).

وتشتمل أنواع حركة العبور في مخطط "الحزام والطريق" على حركات المرور العامة (عبر الطرق السريعة، وسكك الحديد، والأنهار، والبحار، والجو)، وحركات العبور الخاصة (كخطوط الأنابيب تحت الأرض، وشبكات الاتصال)، وكل الأنواع الشاملة الذاتية أو التفاعلية لحركات العبور العامة والخاصة.

وهناك آلاف الاختلافات في أحوال كل الدول والمناطق على طول خط "الحزام

والطريـق"، حيـث يقتصـر نـوع حركـة العبـور الشـاملة بيـن أي نقطتيـن علـى طـول خـط "الحـزام والطريـق" علـى حركـة العبـور العامـة فقـط، والتـي تتمثـل فـي 5 طـرق (عبـر الطـرق السـريعة، وسـكك الحديـد، والأنهـار، والبحـار، والجـو)، بأكثـر مـن عشـرات، بـل مئـات الأنـواع المختلفـة لحـركات العبـور.

(1) النوع التركيبي (التوافقي) لحركة العبور:

المعادلة الحسابية: $C_n^m = \frac{A_n^m}{m!} = \frac{n!}{m!(n-m)!} = C_n^{n-m}$

العدد التركيبي (C-Combination) C

إجمالي عدد العناصر N = 5 (الطرق السريعة، وسكك الحديد، والأنهار، والبحار، والجو)

عدد العناصر المشاركة في الاختيار M

المضروب (العاملي) !

$$C = 5!/1!(5-1)! + 5!/2!(5-2)! + 5!/3!(5-3)! + 5!/4!(5-4)! + 5!/5!(5-5)!$$
$$= 120/1(24) + 120/2(6) + 120/6(2) + 120/24(1) + 120/120(1)$$
$$= 120/24 + 120/12 + 120/12 + 120/24 + 120/120$$
$$= 5 + 10 + 10 + 5 + 1$$
$$= 31$$

نتيجـة المعادلـة: وجـود 31 نوعًـا تركيبيًّـا مـن حـركات العبـور العامـة بيـن أي نقطتيـن علـى طـول طريـق "الحـزام والطريـق".

(2) النوع التبديلي لحركة العبور:

المعادلة الحسابية: $A_n^m = n(n-1)\cdots(n-m+1) = \dfrac{n!}{(n-m)!}$

العدد التبديلي (A (A-Arrangement

إجمالي عدد العناصر N = 5 (الطرق السريعة، وسكك الحديد، والأنهار، والبحار، والجو)

عدد العناصر المشاركة في الاختيار M

المضروب (العاملي) !

$$
\begin{aligned}
A &= 5!/(5-1)! + 5!/(5-2)! + 5!/(5-3)! + 5!/(5-4)! + 5!/(5-5)! \\
&= 5!/4! + 5!/3! + 5!/2! + 5!/1! + 5!/0! \\
&= 120/24 + 120/6 + 120/2 + 120/1 + 120/1 \\
&= 5 + 20 + 60 + 120 + 120 \\
&= 325
\end{aligned}
$$

نتيجـة المعادلـة: وجـود 325 نوعًـا تبديليًّـا مـن حـركات العبـور العامـة بيـن أي نقطتيـن علـى طـول طريـق "الحـزام والطريـق".

وفـي ظـل الأحـوال العاديـة، لا يمكـن أن يظهـر كـم الأنـواع -سـالفة الذكـر- الناتجـة عـن الحسـاب النظـري لحـركات العبـور العامـة بيـن أي نقطتيـن علـى طـول طريـق "الحـزام والطريـق"، إلا أنـه فـي بعـض الأماكـن الخاصـة، والفتـرات الخاصـة (مثـل وقـت انـدلاع الحروب، والاظطرابـات، والكـوارث الطبيعيـة)، يمكـن لأحـوال حركـة المـرور أن تتغيـر بشـكل صـارخ، ومـن هنـا، يحتـاج تنفيـذ رؤيـة "الحـزام والطريـق" إلـى أخـذ التدابيـر اللازمـة، والاحتيـاط عـن طريـق الاسـتعداد بكافـة الأنـواع المختلفـة لحركـة العبـور قبـل أي حـدث.

الفصل السابع

ضرورة وجود حماية عسكرية لتأسيس مبادرة "الحزام والطريق" وحمايتها

فـي مـا يخـص تأسـيس مبـادرة "الحـزام والطريـق" وحمايتهـا، فقـد نصَّـت وثيقـة "الرؤيـة والعمـل" علـى مبـادئ التأسـيس المشـتركة، وآليـات التعـاون، وآليـات الحمايـة كذلـك، ولكنهـا -علـى العكـس- لـم تذكـر بنـد الحمايـة العسـكرية، والـذي قـد يكـون بسـبب التفكيـر فـي العديـد مـن المجـالات، إلا أن عـدم ذكـر هـذا البنـد لا يسـاوي عـدم التفكيـر فيـه.

ففـي الحقيقـة، تعـد مشـاركة الجيـش الصينـي الأمـم المتحـدة فـي عمليـات حفـظ السـلام فـي العديـد مـن دول العالـم (بمـا يشـمل الـدول الواقعـة علـى طـول خـط "الحـزام والطريق")، وكذلـك مشـاركة السـفن الحربيـة الصينيـة فـي حراسـة السـفن التجاريـة الصينيـة فـي ميـاه البحـار والمحيطـات، تُعـد كلهـا تنفيـذًا للإجـراءات والتدابيـر المحـددة للحمايـة العسـكرية المنصـوص عليهـا فـي مخطـط "الحـزام والطريـق".

ويُعـد بحـر الصيـن الجنوبـي ممـرًّا بحريًّـا ذا مسـار إجبـاري، تابعًـا لطريـق الحريـر البحـري، ومـن هنـا، يُعـد -أيضًـا- إنشـاء وحمايـة الجـزر المرجانيـة فـي بحـر الصيـن الجنوبـي مهمـة عاجلـة لحمايـة ومراقبـة طريـق الحريـر البحـري للقـرن 21، وهـو الأمـر الـذي لا ينفـك يرتبـط ارتباطًـا وثيقًـا بالحمايـة العسـكرية.

الفصل الثامن

ضرورة تمثيل مبادرة "الحزام والطريق" للتيار الرئيس للحضارات العالمية في أوائل القرن 21

على صعيد مخطط تأسيس مبادرة "الحزام والطريق"، وضعت الحكومة الصينية نفسها في وضع العمل والتطبيق الإيجابي، خاصة في ما يتجسد في الدعم التقني للبُنى التحتية في بعض الدول على طول خط "الحزام والطريق" (كإنشاء الموانئ، والطرق السريعة، والسكك الحديدية للقطارات السريعة، والمطارات، وخطوط الأنابيب، وغيرها)، والتبرعات المالية، والمساعدات الهندسية، بما يشمل إعداد وإنشاء البنك الآسيوي للاستثمار في البُنى التحتية، وإنشاء المنارات في الجزر المرجانية الواقعة في بحر الصين الجنوبي، وغيرها من المشروعات التي بُذل فيها الجهد الملموس لتحقيق مخطط "الحزام والطريق" دون أي عوائق، ولو أتى العالم أجمع بعد مرور 50 أو 100 عام لتقييم مبادرة "الحزام والطريق" القائمة الآن، باستخدام معايير تقييم برنامج التراث العالمي التابع لمنظمة اليونسكو ("وجود دليل فريد من نوعه أو على الأقل دليل خاص يعكس التقاليد الثقافية أو الحضارات سواء القائمة حتى يومنا هذا، أو المختفية عبر الزمن")، فلربما يتوصل إلى التقييم التالي:

في ظل تخبط الوضع العالمي في أوائل القرن الحادي والعشرين، وعدم استقراره (بما يشمل الحروب والصراعات في الشرق الأوسط، والأحداث الإرهابية المتكررة في جميع الدول، والمواجهات العسكرية بين الاتحاد الأوربي وروسيا، وعودة الولايات المتحدة الأمريكية إلى منطقة آسيا والمحيط الهادئ، واستمرار النزاع على الجزر المرجانية في بحر الصين الجنوبي)، فقد مثلت رؤية "الحزام والطريق" التي بادرت الحكومة الصينية بطرحها آنذاك التيار الرئيس للمستوى التكنولوجي والتطور الحضاري في العالم في أوائل القرن الحادي والعشرين، وتمثل البُنى التحتية الموجودة في جميع الدول الواقعة على طول خط "الحزام والطريق" (كالموانئ، والطرق السريعة، والسكك الحديدية للقطارات السريعة، والمطارات، وخطوط الأنابيب،

وغيرها)، والتي ساهمت الحكومة الصينية في بنائها من خلال دعمها التقني، وتبرعاتها المالية، ومساعداتها الهندسية، تمثل الحاملات المادية الغنية للبرنامج التراثي في مخطط "الحزام والطريق"، بما يشهد بوجود التكنولوجيا، والسلام، والحضارة في العالم في أوائل القرن الحادي والعشرين.

خاتمة

يمثل "طريق الحرير" التراث البشري الحضاري للتبادل الاقتصادي والثقافي بين شرق العالم وغربه، حيث إنه يمثل الرابط بين التواصل الديني، والثقافي، والاقتصادي، والتجاري بين كافة الدول والمناطق الواقعة على طول خطه، مما يُثبت عملية التقدم الإنساني، والاجتماعي، والحضاري قبل الدخول في عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى، أو عصر الإبحار العظيم.

وتمثل مبادرة "الحزام والطريق" الدور التاريخي الموروث عن "طريق الحرير" والمطور عنه، كما تمثل تحقيق الحلم الصيني عن طريق تحركات الدول الكبرى، وعلى الرغم من احتياج المسمى إلى تحسين لمدى دقته، إلا أنه بدأ يزاول سلطته الممنوحة له لتحقيق مهمته التاريخية المستقبلية.

وتمثل مبادرة "الحزام والطريق" شبكة التبادل الاقتصادي، والتجاري، والثقافي بين كل من آسيا، وأوربا، وإفريقيا، بل وتمتد لتشمل جميع المناطق والدول على مستوى العالم، فأي مكان على الكرة الأرضية (مدينة، أو منطقة) يمكن أن تُعتبر نقطة انطلاق أو نقطة نهاية في مخطط "الحزام والطريق"، لتتقاطع مع نقاط الترانزيت ونقاط التوزيع في مختلف الأماكن، ومن هنا، لا بدَّ في البداية من البحث عن مناطق الترانزيت، ومناطق التوزيع (البحرية، والبرية، والجوية)، وإنشاء وتحسين البُنى التحتية فيها.

وتمثـل وسـائل المواصـلات والنقـل الحديثـة (الممثلـة فـي شـاحنات النقـل عبـر الطـرق السـريعة، والقطـارات السـريعة، والسـفن البحريـة، والطائـرات النفاثـة كأسـاس لهـا) شـريان الحيـاة الاقتصـادي والثقافـي لمخطـط "الحـزام والطريـق"، كمـا تمثـل تقنيـات الاتصـال الحديثـة الممثلـة فـي الكـم الهائـل مـن بيانـات شـبكات التواصـل الاجتماعـي الدعـم التشـغيلي للمخطـط، ومـن هنـا، تمثـل كل مـن تكنولوجيـا العلـوم التطبيقيـة، والصناعـات التحويليـة القاعـدة الأساسـية لحمايـة شـريان الحيـاة لمخطـط "الحـزام والطريـق".

وفـي الوقـت نفسـه الـذي يوجـد فيـه التبـادل السياسـي، والاقتصـادي، والثقافـي، والعسـكري بيـن كافـة الـدول علـى طـول خـط "الحـزام والطريـق"، يوجـد معـه -أيضًا- الفـرص اللامحـدودة، والمشـاكل المتكـررة، والتـي تحتـاج إلـى وجـود موهوبيـن متخصصيـن للبحـث عنهـا، وحلهـا، ولهـذا، لا يمكـن التهـاون فـي تدريـب الموهوبيـن والأكفـاء فـي كل المجـالات المتخصصـة.

وفـي مـا يخـص الصحـة البدنيـة فـي مخطـط "الحـزام والطريـق"، فـلا بـدَّ مـن تعزيـز الآليـات العسـكرية، بالإضافـة إلـى آليـات الحـوار، والآليـات الاقتصاديـة فـي كل دول العالـم، فبالنظـر إلـى الوضـع الدولـي الراهـن، لا نجـد حمايـة عسـكرية، ممـا يُصعِّـب تحقيـق رؤيـة "الحـزام والطريـق".

وفـي اليـوم الـذي سـتحلق فيـه مبـادرة "الحـزام والطريـق" بجناحيهـا عاليًـا، سـيكون نفسـه اليـوم الـذي تحقـق فيـه الأمـة الصينيـة "حلمهـا الصينـي" ونهضتهـا الكبـرى.

الباب السابع:

التبادل بين الشرق والغرب قبل شق طريق الحرير وتبلور طريق الحرير

(لي شوي تشينغ)

لم تُبنَ مدينة روما في يوم واحد!

(مَثل غربي)

الفصل الأول

الخلفيات المتعلقة بالدراسة

1. مصدر مسمى "طريق الحرير":

وفقًا لما دوَّنه سه ما تشيان في كتابه "السجلات المؤرخة"، فإنه لكي يقضي الإمبراطور ليو تشه (إمبراطور أسرة هان الملكية) على قبائل الهون، أرسل الجنرال جانغ تشيان في مهمة للمناطق الغربية، آملاً في توحيد قواته مع قوات قبائل أسرة دا يويه التي هرعت لتسكن في المناطق الغربية بعد تهديد قبائل الهون لها، كما أمِل أن يتم الهجوم على قبائل الهون من الجانبين الشرقي والغربي، وذلك لتجنب تهديداتهم في المستقبل، وتُعد هذه قصة تاريخية حقيقية، فحتى يومنا هذا نجد الكتابات المدونة على اللوحات الجدارية المحفوظة في مدينة دونخوانغ والتي تؤكد هذا الأمر. فبالتأكيد قدَّم الجنرال جانغ تشيان إسهامات كبيرة في شق الطريق نحو المناطق الغربية، إلا أن مصطلح "طريق الحرير" لم يُدوَّن بأي شكل في كتب التاريخ الصيني.

وبالوصول إلى القرن التاسع عشر، جاء عالم الجغرافيا الألماني الشهير فيرديناند ريتشهوفن (Ferdinand Freiherr von Richthofen) إلى الصين، وأجرى دراسات علمية حول جغرافيا كافة الأماكن على مستوى الصين، ومناطق الموارد المعدنية فيها، وألَّف بعدها كتابه الشهير "الصين" (TagebÜcher Aus China)، وكانت المرة الأولى التي يُذكر فيها مصطلح "طريق الحرير" (في هذا الكتاب)، ليعبر عن الممر الاقتصادي والثقافي الضخم الرابط بين غرب الصين القديمة من ناحية، وغرب قارة آسيا، وقارتي أوربا وآسيا من ناحية أخرى، وما إن طُرِح هذا المفهوم، حتى أثَّر بشكل كبير للغاية على أوساط علوم التاريخ، والجغرافيا، وسرعان ما تقبله الباحثون في كل دول العالم، وهذا هو مصدر مسمى "طريق الحرير".

2. الأعمال الأثرية الأولى في شمال غرب الصين:

كانـت تمثـل منطقـة شـمال غـرب الصيـن المنطقـة الثانويـة للحضـارة الصينيـة، وتمتـد حدودهـا الجغرافيـة حتـى خـط طـول 106° شـرقًا، ويشـمل التقسـيم الإداري فيهـا العديـد مـن المناطـق فـي المقاطعـات الحاليـة كغـرب مقاطعـة شانشـي، ومقاطعـة نينغشـيا، ومقاطعـة قانسـو، ومقاطعـة تشـينغخاي، وشـمال غـرب مقاطعـة سيتشـوان، ومنطقـة شـينجيانغ، وغيرهـا. وتتميـز منطقـة شـمال غـرب الصيـن بمسـاحتها الشاسـعة، حيـث تحتـل مسـاحتها 3/1 خريطـة الصيـن تقريبًـا، كمـا تتميـز بهيكلهـا الجغرافـي المتنـوع، وبيئتهـا المعقـدة، ومناخهـا الجـاف، ونباتاتهـا المتفرقـة، ومناظرهـا المتنوعـة، حيـث تحتـوي علـى الواحـات، والوديـان، والأراضـي العشـبية، والصحـاري، والمناطـق القاحلـة، والهضـاب، والجبـال الجليديـة، والأنهـار المتجمـدة.. إلـى آخـره، حيـث تختلـف بيئتهـا الطبيعيـة بشـكل كبيـر عـن بيئـة مناطـق السـهول الوسـطى، وعلـى صعيـد الثقافـة الماديـة، تتمتـع هـذه المنطقـة بوفـرة تراثهـا الثقافـي، والقطـع الأثريـة الثقافيـة التـي ترجـع إلـى مختلـف العصـور والأزمنـة.

وقديمًـا فـي القـرن التاسـع عشـر، تحولـت منطقـة شـمال غـرب الصيـن إلـى جنـة للمستكشـفين؛ حيـث جـاء التجـار، والمبشـرون، والمبعوثـون، والرحالـة، والباحثـون، والجنـود تباعًـا مـن دول الغـرب إلـى شـمال غـرب الصيـن (خاصـة منطقـة شـينجيانغ) لإجـراء الاستكشـافات، والدراسـات، وتوصلـوا إلـى بعـض الاكتشـافات الأثريـة المهمـة، إلا أنهـا لـم تخلُ مـن بعـض أعمـال الخـداع، والسـرقة، والنهـب.

ففـي عـام 1895م، وأيضًـا خـلال الفتـرة 1900م- 1901م، زار المستكشـف السـويدي سـفين هيديـن (Sven Hedin) للعديـد مـن المـرات كلًّا مـن صحـراء تاكلامـكان، ومنطقـة حـوض تاريـم، ومدينـة لـوب نـور فـي منطقـة شـينجيانغ الصينيـة بهـدف الاستكشـاف، وفـي عـام 1900م، اكتشـف مدينـة لـوولان القديمـة، وجمـع عـددًا كبيـرًا مـن القطـع الأثريـة هنـاك.



المستكشف السويدي سفين هيدين والفريق الهندي المرافق له أثناء أعمال استكشافهم في منطقة شينجيانغ خلال الفترة بين أواخر القرن الـ19 وأوائل القرن الـ20

وخلال الفترة 1900م- 1914م، أجرى المستكشف الإنجليزي أوريل ستين (Aurel Stein) دراساته في العديد من المناطق في منطقة شينجيانغ، مثل منطقة أطلال نييا، ومدينة لوولان، ومدينة دونخوانغ، ونجح في سرقة كم كبير من المخطوطات اليدوية، واللفائف الورقية من مدينة دونخوانغ، وعلى بعد 4 كيلومترات شمال شرق مدينة LE القديمة الواقعة داخل مدينة لوب نور نقَّب في 8 مقابر قديمة، وتتشابه القطع الأثرية المستخرجة من هذه المقابر، وكذلك الطقوس الجنائزية المكتشفة فيها مع ثقافة نهر شياوخه بمدينة لوب نور المكتشفة لاحقًا.

وخلال الفترة 1902م- 1914م، أجرى المستكشف الألماني فانليكوك، وآخرون أبحاثهم في أماكن مختلفة في منطقة شينجيانغ مثل مدينة قاوتشانغ القديمة، وقرية كيزيل القديمة، ونجحوا في سرقة 28 لوحة جدارية بديعة الجمال من معبد بيزيكليك المنحوت في حجارة الكهف، وقد تم تدمير هذه المجموعة من القطع الأثرية الثمينة بالكامل في تفجير برلين الذي اندلع قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية.

وخـلال الفتـرة 1902م -1911م، أتـى المستكشـفان اليابانيـان أوتانـي كـوزوي، وتاتشـيبانا وزيتشـو، وآخـرون علـى التوالـي إلـى العديـد مـن الأماكـن فـي الصيـن، منهـا صحـراء تاكلامكان، ومدينـة لـوولان القديمـة فـي منطقـة شـينجيانغ، ومدينـة دونخوانـغ فـي مقاطعـة قانسـو، ونهبـوا منهـا كمًّـا كبيـرًا مـن القطـع الأثريـة.

وخـلال الفتـرة 1906م- 1908م، نهـب المستشـكف الفرنسـي بـول بيليـوت (Paul Pelliot) عـددًا كبيـرًا مـن القطـع الأثريـة الثمينـة المكتشـفة فـي كهـف زانـغ جينـغ دونـغ (للكاهـن وانـغ التابـع للديانـة الطاويـة) المنحـوت بحجـارة الكهـف فـي مدينـة دونخوانـغ بمقاطعـة قانسـو.

وخـلال الفتـرة 1905م- 1915م، قـام الباحثـون الـروس بريسهوسـكي، وكوزلـوف، وأولدنبـورغ (S.F.Oldenburg)، وآخـرون -علـى التوالـي- بمزاولـة أنشـطة الاستكشـاف فـي عـدة مناطـق فـي الصيـن، منهـا منطقـة شـينجيانغ، ومدينـة دونخوانـغ فـي مقاطعـة قانسـو، ونهبـوا عـددًا كبيـرًا مـن القطـع الأثريـة فيهـا.

وفـي عـام 1906م، قـام الباحثـان الأمريكيـان إيلسـورث هونتينجتـون (Ellsworth Huntington)، وروبـرت لـو مويـن باريـت (Robert Le Moyne Barrett) بأعمال الاستكشـاف والتنقيـب فـي مدينـة لـوب نـور بمنطقـة شـينجيانغ، وفي عـام 1923م، نهـب الباحـث لانجدون وارنـر، وآخـرون -بدنـاءة- عـددًا مـن اللوحـات الجداريـة والتماثيـل بديعـة الجمـال مـن المعابد المنحوتـة فـي الكهـوف بمدينـة دونخوانـغ.[1]

ولـم تظهـر مشـاركة الباحثيـن الصينييـن فـي أعمـال التنقيـب والاستكشـافات الأثريـة إلا فـي فتـرة مـا بعـد عشـرينيات وثلاثينيـات القـرن العشـرين، وخـلال الفتـرة 1927م- 1933م، أسسـت كل مـن الصيـن والسـويد معًـا مـا يُعـرف بـ"فريـق البحـث العلمـي فـي منطقـة شـمال غـرب الصيـن"، ويشـمل الأعضـاء: شيوشـيو شـنغ (قائـد الفريـق

1 - للاطلاع على الأعمال المذكورة التي قام بها الباحثون الأجانب في منطقة شينجيانغ، انظر:
مكتب الأرشيفات لمنطقة شينجيانغ الويغورية ذاتية الحكم، مؤسسة البحث الأكاديمي لأطلال نييا التابعة لجامعة بوكيو (الجامعة البوذية) في اليابان: "المحفوظات التاريخية لأعمال المستكشفين الأجانب الأثرية بمنطقة شينجيانغ في العصر الحديث"، دار نشر الفنون الجميلة والتصوير الفوتوجرافي بمنطقة شينجيانغ، 2001م / بيتر هوبكيرك (إنجليزي): "الشياطين الأجنبية على طريق الحرير"، ترجمة يانغ خان جانغ، وتدقيق سونغ زه مينغ، دار نشر الشعب بمقاطعة قانسو، 1982م.

الصينـي)، وسـفين هيديـن (قائـد الفريـق الأجنبـي)، وتشـين زونـغ تشـي، وخوانـغ ويـن بـي، وبيرجمـان (F.Bergman)، وآخريـن، وانطلـق فريـق البحـث مـن مدينـة بكيـن، مـرورًا بمقاطعـات خـه بيـي، ومنغوليـا الداخليـة، وقانسـو، ونينغشـيا، وتشـينغخاي، وشـينجيانغ، وغيرهـا مـن المقاطعـات الأخـرى، حيـث أجـرى الفريـق العديـد مـن الأبحـاث العلميـة علـى طـول الطريـق، وجمـع أعضـاء الفريـق عـددًا كبيـرًا مـن المشـغولات الحجريـة، والقطـع الأثريـة مـن غـرب مقاطعـة منغوليـا الداخليـة، وشـرق منطقـة شـينجيانغ، وفـي عـام 1934م، قـام الباحثـان بيرجمـان، وتشـين زونـغ تشـي لأول مـرة بأعمـال التنقيـب الأثريـة فـي منطقـة شـياوخه، واكتشـفا المقبـرة رقـم 5 هنـاك.[1]



شيوشيو شنغ (قائد الفريق الصيني)، وسفين هيدين (قائد الفريق الأجنبي)
(فريق البحث العلمي في منطقة شمال غرب الصين المؤسس خلال الفترة 1927م- 1933م
بالتعاون بين الصين والسويد)

وفـي عـام 1933م، توجـه الدكتـور يانـغ جونـغ جيـان برفقـة فريـق البحـث الصينـي

1 - Bergman, Folke (1939), Archaeological Researches in Sinkiang Especially the Lop Nor Region, Reports from the Scientific Expedition to the North Western Province of China under the Leadership of Dr. Sven Hedin (The Sino -Swedish Expedition), Publication 7, Stockholm.

الفرنسـي إلـى مدينـة هامـي، ومدينـة توربـان، ومدينـة أقسـو، وغيرهـا مـن المناطـق فـي منطقـة شـينجيانغ لإجـراء البحـوث والاستكشـافات، واكتشـف الفريـق علـى طـول الطريـق منطقـة سـانداولينغ للتعديـن، و7 آبـار للميـاه، وغيرهـا مـن المواقـع الأثريـة بمدينـة هامـي.[1]

وفـي الفتـرة اللاحقـة لحـرب المقاومـة ضـد اليابـان، تحولـت أعمـال التنقيـب الأثريـة إلـى منطقـة شـمال غـرب الصيـن الهادئـة نسـبيًّا، وفـي عـام 1942م، شـكَّل معهـد البحـوث المركـزي "فريـق البحـث العلمـي فـي منطقـة شـمال غـرب الصيـن"، ليباشـر أعمـال التنقيـب فـي مقاطعتـي قانسـو، ونينغشـيا[2]، وفـي عـام 1944م، اتحـد هـذا المعهـد مـع جامعـة بكيـن ليكوِّنـا مـرة أخـرى "فريقًـا للبحـث العلمـي فـي منطقـة شـمال غـرب الصيـن"، وانطلـق عالـم الآثـار شـيا نـاي، وآخـرون نحـو مدينـة لانجـوو، ووادي نهـر تاوخـه بمقاطعـة قانسـو، لمباشـرة أعمـال البحـث والتنقيـب هنـاك، وتوصـل الفريـق إلـى اكتشـافات مهمـة[3]، وفـي عـام 1947م، أرسـل مركـز المسـح الجيولوجـي المركـزي عالـم الحفريـات بيـي ويـن جونـغ لإجـراء بحـوث أثريـة، وجيولوجيـة فـي منطقـة شـمال غـرب الصيـن، وكذلـك محاولـة إجـراء بعـض أعمـال التنقيـب فـي بعـض المواقـع الأثريـة التـي تعـود إلـى عصـر مـا قبـل التاريـخ[4]، وفـي العـام التالـي، اسـتمر بصحبـة العالميَـن جيـا لان بـوه، وليـو دونـغ شـنغ، وآخـرون فـي إجـراء البحـوث فـي منطقـة ممـر خـه شـي بمقاطعـة قانسـو، ونهـر خوانغشـوي، وأيضًـا علـى ضفـاف بحيـرة تشـينغخاي.[5]

1- Teilhad de Chardin, P. (1940), On the Preduhable Exisistance World -Wide sub -Arctic Sheet of Human Culture at the Dawn of the Neolithic, Bull. Geol-Soceity China, Vol. XIX, pp.333—339.

2- جدول التسلسل الزمني للآثار بمركز البحوث التاريخي واللغوي التابع لمعهد البحوث المركزي (يانغ ميي: "العدد الخاص لمجلة مركز البحوث التاريخي واللغوي التابع لمعهد البحوث المركزي 35 "، 1952م)/ شه جانغ رو: "تقرير حول أعمال التنقيب الأثرية في الصين"، المجلة 27 من "الأعداد التجميعية لمركز البحوث التاريخي واللغوي"، صفحة 323-205، 1956م.

3- شيا ناي: "اكتشاف مقابر تشي جيا وإعادة تصنيف العصر الذي ترجع إليه"، "المجلة الصينية العلمية للآثار"، العدد الثالث، صفحة 117-101، 1948م / شيا ناي: "مدونات حول النقيب في جبال سه وا في مدينة لينتاو"، "المجلة الصينية العلمية للآثار"، العدد الرابع، صفحة 137-71، 1949م.

4- بيي وين جونغ: "تقرير حول الأعمال الأثرية في المواقع التي ترجع لعصر ما قبل التاريخ بمقاطعة قانسو"، "مختارات من كتابات بيي وين جونغ حول الأعمال الأثرية في المواقع التي ترجع لعصر ما قبل التاريخ"، صفحة 255-208، دار الأثريات للنشر، 1987م.

5- بيي وين جونغ: "البحوث الأثرية في ممر قانسو ومقاطعة تشينغخاي شمال غرب الصين"، "مختارات من كتابات بيي وين جونغ حول الأعمال الأثرية في المواقع التي ترجع لعصر ما قبل التاريخ"، صفحة 273-256، دار الأثريات للنشر، 1987م.

3. التنقيب في الموقع الأثري لقرية يانغ شاو، وما يعتقده البعض في "منبع الحضارة الصينية من الغرب":



عالم الجيولوجيا السويدي
جون جونار أنديرسون
(.Andersson, J.G)

في عام 1921م، سمحت الحكومة الصينية لكل من عالم الجيولوجيا السويدي جون جونار أنديرسون، وعالم الجيولوجيا الصيني يوان فو لي، وآخرين بالتنقيب في قرية ثقافة يانغ شاو بمدينة ميان تشه في مقاطعة خه نان، واستخرجوا منها كمًّا وفيرًا من القطع الأثرية التي ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ، واعتُبر هذا الأمر علامة على مولد علم الآثار الميداني الحديث في الصين، وفي البداية، اعتبر أنديرسون ثقافة يانغ شاو سلفًا للحضارة الصينية، وأطلق على كتابه المختص الأول المنشور في الصين اسم "الثقافة الصينية في العصور القديمة".[1]

"قبل التنقيب في قرية يانغ شاو، كان العديد من الباحثين والمبشرين الأجانب يعلنون على الدوام أن الثقافة الصينية منبعها قادم من الغرب، حيث يرون أن الصين لا تمتلك أي ثقافة خاصة بها في عصر ما قبل التاريخ، ولا في العصر الحجري كذلك، أما الثقافة التي امتلكتها بعد ذلك فما هي إلا ثقافة غربية انتشرت عبر الأرض ووصلت إليها، وبفضل أعمال التنقيب في الموقع الأثري لقرية يانغ شاو، ظهرت الأدلة الدامغة على وجود بقايا وقطع أثرية ترجع إلى العصر الحجري

1- تأليف جون جونار أنديرسون، ترجمة يوان فو لي: "الثقافة الصينية في العصور القديمة"، مجلة "التقرير الجيولوجي"، العدد 5، المجموعة 1، هيئة جينغ خوا للكتب المطبوعة في بكين، 1923م.

في الصين، بل وكانت على مستوى من التطور كذلك".[1]

وأدى اكتشاف ثقافة يانغ شاو إلى القضاء على ما كان يُقال من عدم تمتع الصين بأي ثقافة في العصر الحجري، كما أثار اهتمام الأوساط الأكاديمية الدولية بمصدر الثقافة الصينية في عصر ما قبل التاريخ.[2] ومن أجل البحث عن مصدر الثقافة الصينية، قام أنديرسون خلال الفترة 1923م- 1924م بتحويل وجهته إلى مقاطعتي قانسو، وتشينغخاي لإجراء البحوث الأثرية هناك، وقد اكتشف مجموعة من المواقع القديمة المهمة، وأجرى بها عمليات تنقيب كذلك.[3] واتخذ طريقة عالم الآثار السويدي جوستاف مونتيليوس (Montelius, G.O.A.) في التقسيم الزمني للعصر الحجري لمنطقة إسكندنافيا، وأيضًا طريقة عالم الآثار الإنجليزي سير أرثر إيفانز (Evans, Sir Arthur) في التقسيم الزمني للفترة بين العصر الحجري، وحتى العصر البرونزي لجزيرة كريت، وقسَّم الثقافات القديمة المكتشفة في الصين والتي ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ إلى 6 فترات زمنية، بفترة إجمالية بلغت 300 عام، وفي ما يلي ترتيب تطور هذه الثقافات القديمة: فترة ثقافة تشي جيا (3500ق.م- 3200ق.م)/ فترة ثقافة يانغ شاو (وتشمل ثقافتي ما جيا ياو، وبان شان، 3200ق.م- 2900ق.م)/ فترة ثقافة ما تشانغ (2900ق.م- 2600ق.م)/ فترة ثقافة شين جيان (2600ق.م- 2300ق.م)/ فترة ثقافة سه وا (2300ق.م- 2000ق.م)/ وفترة ثقافة شان جينغ (2000 ق.م- 1700ق.م)، ونسب أنديرسون الفترات الثلاث الأولى إلى المرحلة الانتقالية من العصر الحجري إلى العصر البرونزي، أما الفترات الثلاث الأخرى فنسبها إلى العصر البرونزي المبكر، وفي ظل تأثير الباحثين في الغرب، قبِل أنديرسون في النهاية بمقولة "منبع الثقافة الصينية من الغرب".[4]

1- يان وين مينغ: "الذكرى الخامسة والستين لاكتشاف قرية يانغ شاو"، "دراسة حول ثقافة يانغ شاو"، صفحة 330، دار الأثريات للنشر، 1989م.

2- تأليف جون جونار أنديرسون، ترجمة يوان فو لي: "الثقافة الصينية في العصور القديمة".

3- Andersson， J.G. (1943), Researches into the Prehistory of the Chinese ， BMFEA.No.15， Stockholm.

4- تأليف جون جونار أنديرسون، ترجمة له سين شيون : "مدونات حول الأعمال الأثرية في مقاطعة قانسو"، "مجلة الجيولوجيا المتخصصة"، العدد الخامس، 1925م.

ويمكــن القــول إن هــذه المقولــة تمثــل منتجًــا ثانويًّــا منبثقًــا عــن نظريــة "المركزيــة الأوربيــة". ففــي البدايــة، ســبق لهــذه النظريــة أن حظيــت بموافقــة العديــد مــن الباحثيــن الأجانــب، وحتــى بعــض الباحثيــن الصينييــن، إلا أنــه لــم يــزل هنــاك العديــد مــن الباحثيــن الصينييــن الذيــن تمســكوا بشــكِّهم فــي هــذه النظريــة، ولكــن، بمواجهــة القصــور الرهيــب فــي حجــم البيانــات الأثريــة، لــم يعــد هنــاك مــن يســتطيع تفســير مصــدر الحضــارة الصينيــة بوضــوح، ولهــذا، أصبــح البحــث عــن مصــدر الحضــارة الصينيــة -تدريجيًّــا- أول مهمــة رئيســة تواجــه علمــاء الآثــار الصينييــن، ومنــذ خمســينيات القــرن العشــرين، وتماشــيًا مــع التراكــم المســتمر للبيانــات الأثريــة الجديــدة، وفــي الوقــت نفســه الــذي اســتمر فيــه علــو الأصــوات الرافضــة لنظريــة "منبــع ثقافــة يانــغ شــاو مــن الغــرب"، وُضِــع حجــر الأســاس لمقولــة "منبــع الحضــارة الصينيــة مــن الأراضــي الصينيــة".

الفصل الثاني

الهيكل الجغرافي للصين وأثره على التطور الثقافي

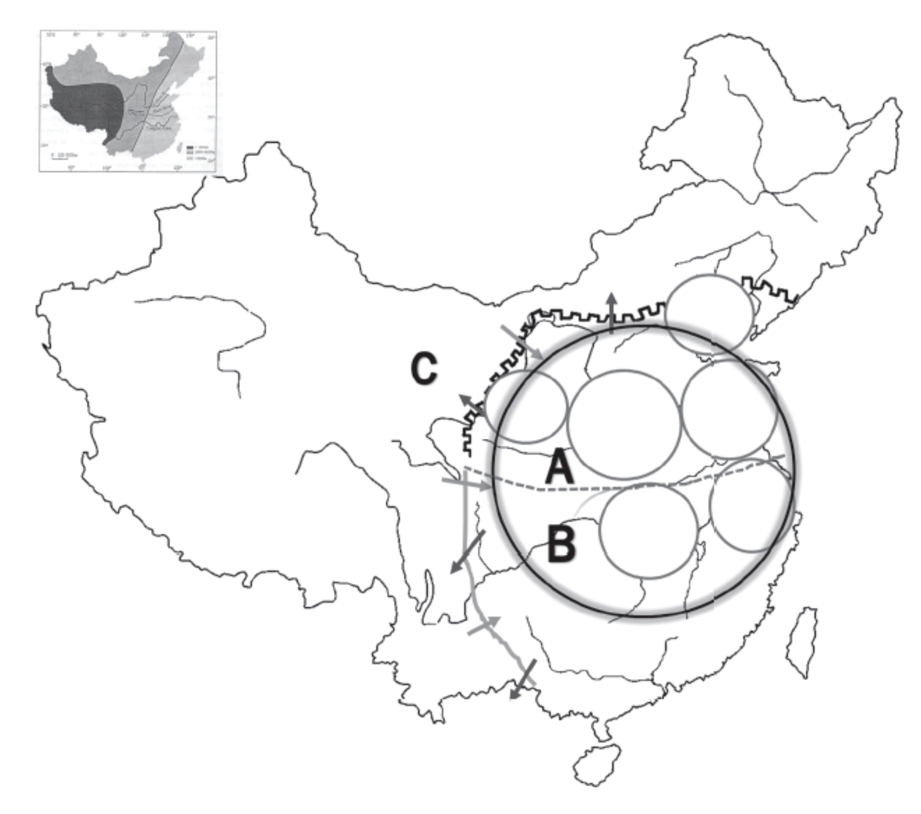
تقـع الصيـن فـي شـرق قـارة أوراسـيا، وتتميـز بمسـاحتها الشاسـعة، والفـروق الكبيـرة فـي البيئـة الطبيعيـة بيـن شـمالها وجنوبهـا، وشـرقها وغربهـا، ومـن المنظور العـام، تظهـر التضاريس فـي الصيـن علـى هيئـة ارتفاعـات شـاهقة فـي الشـمال الغربـي، ومنخفضـات مسـتوية فـي الجنـوب الشـرقي، لتشـكل ثلاثـة "تدرجـات" متباينـة مـن الغـرب إلـى الشـرق. تشـمل الدرجـة الأولـى مـن هـذه التدرجـات سلسـلة جبـال الهيمالايـا، وهضبـة التبـت، وهضبـة باميـر، وجبـال ألتـاي، وغيرهـا مـن المرتفعـات التـي يبلـغ متوسـط ارتفاعهـا 3000- 4000 متـر فـوق مسـتوى سـطح البحـر. أمـا الدرجـة الثانيـة فتشـمل جبـال خينجنـان الكبـرى، وهضبـة منغوليـا، وهضبـة اللـوس، وهضبـة يـون قـوي (يوننـان- قويجـوو)، ويبلـغ متوسـط ارتفاعهـا 1000-2000 متـر فـوق مسـتوى سـطح البحـر، وتشـمل الدرجـة الثالثـة السـهول الشـمالية الشـرقية، وسـهول خـوا بيـي (شـمال الصيـن)، وسـهول الروافـد الوسـطى والسـفلى لنهـر اليانجسـتي، ودلتـا نهـر اللؤلـؤ، ويبلـغ متوسـط ارتفاعهـا 200-500 متـر فـوق مسـتوى سـطح البحـر، ويقـع المحيـط الهـادئ ذو المسـاحة الشاسـعة فـي شـرق وجنـوب الدرجـة الثالثـة[1]، وقـد سـبق لعالـم الآثـار الصينـي الشـهير يـان ويـن ميـن أن أشـار فـي هـذا الصـدد، قائـلاً: "تقـع دولـة الصيـن -تلـك الوحـدة الجغرافيـة الضخمـة- فـي وضـع المنعـزل نسـبيًّا أو شـبه المنعـزل عـن بقيـة المناطـق فـي العالـم الخارجـي، وهـو مـا قـرر الطبيعيـة الأصليـة للثقافـة الصينيـة فـي عصـر مـا قبـل التاريـخ، وقـرر كذلـك المسـيرة المسـتقلة لتطـور الصيـن بشـكل أساسـي علـى مـدار زمـن طويـل. أمـا التواصـل الثقافـي بيـن الصيـن وجيرانهـا فـي عصـر مـا قبـل التاريـخ فلـم يحقـق سـوى مسـتوى متـدنٍ نسـبيًّا"[2]، وباسـتعراض الأمـر

1- Winker M.G., & Pao K.W. (1993), The late-Quaternary vegetation and climate in China. In: Wright H.E., Winker M.G., Kutzbach J.E., III Webb T, Ruddiman W.d., Street-Perott F.A., & Bartlein P.J. (Eds), Global Climates Since the Last Glacial Maximum . Minneapolis: University of Minnesota Press, pp.221—261

2- يان وين مينغ: "الوحدة والتنوع في الثقافة الصينية في عصر ما قبل التاريخ"، مجلة "الأثريات"، 1987م، العدد الثالث.

مـن منظـور علـم الجغرافيـا الثقافيـة، نـرى التأثيـر العميـق لهيـكل الصيـن الجغرافـي فـي إنتـاج وتشـكيل وتطـور الحضـارة القديمـة فـي الصيـن، ممـا أدى إلـى الانفتـاح النسـبي علـى الخـارج للثقافـة الصينيـة القديمـة المواجهـة للمحيـط، وانغلاقهـا النسـبي فـي الجهـة غيـر المقابلـة للمحيـط، وبالتالـي نجـد البـروز الواضـح للطابـع المحلـي لتلـك الثقافـة، وتمسـكها بالمسـيرة المسـتقلة فـي تطورهـا لزمـن طويـل.

فباسـتعراض الأمـر مـن منظـور آخـر، يمكننـا -أيضًـا- تقسـيم البـر الصينـي -علـى حـدود سـور الصيـن العظيـم- إلـى جزأيـن كبيريـن: جـزء مواجـه للمحيـط، وآخـر مواجـه لمراعـي قـارة أوراسـيا، ويشـمل الجـزء الأول أغلـب مناطـق وادي النهـر الأصفـر، ونهـر اليانجسـتي، كمـا أنـه يمثـل المهـد الأصلـي للحضـارة الصينيـة، ومنطقتهـا الأساسـية، ومنـذ بدايـة عصـر مـا قبـل التاريـخ، وهـذا الجـزء (الإقليـم) يشـكل منظومـة مسـتقلة نسـبيًّا للتطـور الثقافـي، ويمكـن تقسـيم المنطقـة الأساسـية مـن الداخـل إلـى 6 مناطـق صغيـرة: منطقـة ثقافـة السـهول الوسـطى، منطقـة ثقافـة الروافـد السـفلى للنهـر الأصفـر، منطقـة ثقافـة الروافـد الوسـطى لنهـر اليانجسـتي، منطقـة ثقافـة الروافـد السـفلى لنهـر اليانجسـتي، منطقـة ثقافـة الروافـد العليـا للنهـر الأصفـر، وأخيـرًا منطقـة ثقافـة يـان ليـاو الشـمالية، ويتميـز هـذا الإقليـم بالتفاعـل الثقافـي الواسـع فـي داخلـه، إلا أنـه منغلـق نسـبيًّا بالمقارنـة مـع العالـم الخارجـي، أمـا الجـزء الثانـي فيشـير إلـى المنطقـة الواسـعة الواقعـة علـى طـول خـط سـور الصيـن العظيـم شـمالًا وغربًـا، ونجـد فيـه الاختـلاف الكبيـر عـن الجـزء الأول علـى مسـتوى الهيـكل الجغرافـي، والبيئـي، والمناخـي، والحيـوي، إلا أنـه -علـى المسـتوى الثقافـي- تمكَّـن مـن الحفـاظ علـى علاقتـه الوطيـدة مـع الجـزء الأول، ويمكـن تسـميته بالمهـد الثانـي للحضـارة الصينيـة، ويقـع هـذا الجـزء (الإقليـم) الواسـع بيـن حضـارة النهـر الأصفـر، وحضـارة آسـيا الوسـطى بالضبـط، حيـث كان يعمـل علـى امتـداد ونقـل الحضـارة الصينيـة، وفـي الوقـت نفسـه تلقـى -أيضًـا- -بشـكل لا يمكـن تجنبـه- بعـض التأثيـرات مـن الحضـارة الغربيـة، ونقـل هـذه التأثيـرات إلـى داخـل منطقـة السـهول الوسـطى، ممـا حافـظ -أولًا وآخـرًا- علـى الانفتـاح فـي علاقـة التواصـل بيـن الشـرق والغـرب، وعكـس لنـا كذلـك التوافـق الثقافـي الكبيـر نسـبيًّا.



العلاقة المتبادلة بين الهيكل الجغرافي، والتضاريس، والبيئة في الصين من جهة، والثقافة في عصر ما قبل التاريخ من جهة أخرى

ولكـي يتكيـف البشـر مـع هـذه البيئـة المعقـدة، أنشـؤوا منـذ القـدم ثقافـات مختلفـة ومتنوعـة، وتقـع منطقـة شـمال غـرب الصيـن بيـن الحضـارة الصينيـة، وحضـارة آسـيا الوسـطى بالضبـط، وسـرعان مـا تحولـت إلـى منطقـة حساسـة للتواصـل المتبـادل بيـن مختلـف الثقافات، ومـن هنـا، تُعـد كذلـك المنطقـة الأساسـية لبحـوث علمـاء الآثـار حـول التبـادل الثقافـي بيـن الشـرق والغـرب.

الفصل الثالث

التوجه التدريجي لثقافة الزراعة في السهول الوسطى نحو الغرب
في عصر ما قبل التاريخ

منذ 10 آلاف عام، دخل العالم في حقبة الهولوسين، وانتقل البشر من العصر الحجري القديم، إلى العصر الحجري الحديث، وبدأت البشرية في الاستقرار المعيشي، واستوعبوا -بشكل تدريجي- كلًّا من الزراعة، وتربية الماشية، وقبل 8 آلاف عام من الآن، ظهرت ثقافة بيي لي قانغ (أو ثقافة تسه شان)، وثقافة لاو قوان تاي، وذلك في منطقة الروافد الوسطى للنهر الأصفر بالمناطق النائية في السهول الوسطى، وخلال هذه الفترة، وعلى الرغم من القلة النسبية في الكثافة السكانية، إلا أنه تبلور مجتمع زراعي أولي ذو عقيدة دينية واحدة.

وقبل 7 آلاف عام من الآن، تطورت ثقافة الروافد الوسطى للنهر الأصفر في عصر ما قبل التاريخ إلى مرحلة ثقافة يانغ شاو، واستمرت هذه الثقافة لأكثر من 2000 عام، وانتشر تأثيرها ليشمل وادي النهر الأصفر، والضفاف الشمالية والجنوبية لنهر اليانجستي، وفي السهول والوديان الشاسعة بمنطقة السهول الوسطى ظهرت مجموعة كبيرة من القرى الزراعية بمستويات هرمية معينة، وزرع بها البشر على شكل واسع محاصيل الحبوب من مجموعة الدخن، وربُّوا الكلاب، والقطط، وصنعوا مشغولات دقيقة من الفخار الأحمر، وانتشرت وقتها الديكورات الفخارية الملونة، وقبل 5500- 6000 عام من الآن، بدأت بعض القبائل التابعة لثقافة يانغ شاو الواقعة شرق جبال لونغشان بالترحال نحو الشمال الغربي، وسرعان ما عبرت نهر تاوخه، ونهر داشيا، ووصلت إلى وادي النهر الأصفر وضفاف نهر خوانغشوي شرق مقاطعة تشينغهاي.[1] وعبر بعضهم نهر تاوخه، سائرين في الاتجاه المعاكس لتيار المياه، إلى أن وصلوا إلى وادي نهر مينجيانغ شمال غرب مقاطعة

1- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة تشينغخاي: "تقرير حول البحوث الأثرية بمدينتي خوالونغ وشيونخوا في مقاطعة تشينغخاي"، مجلة "الآثار"، 1991م، العدد الرابع، صفحة 331-313 / فريق البحث الأثري بمقاطعة تشينغخاي: "تقرير حول محاولات التنقيب في موقع يانغ وا بوه الأثري بمدينة مين خه في مقاطعة تشينغخاي"، مجلة "الآثار"، 1984م، العدد الأول، صفحة 20-15.

سيتشوان الصينية.[1]

وقبل 5000 عام من الآن، تحولت ثقافة يانغ شاو التي انتقلت إلى غرب جبال لونغشان إلى ثقافة ما جيا ياو ذات الطابع الإقليمي الغني، وتوزعت هذه الثقافة بشكل واسع في منطقة وادي نهر خه تاو، ونهر خوانغشوي، وامتدت وتعمقت بعيدًا نحو الغرب لتصل إلى غرب ممر خه شي[2]، وحوض قونغ خه في الروافد العليا للنهر الأصفر بمقاطعة تشينغهاي، وللتكيف مع الظروف البيئية والمناخية الخاصة في منطقة شمال غرب الصين، حافظت ثقافة ما جيا ياو على ثقافة الزراعة الجافة، وفي الوقت نفسه أيضًا عدلت -بشكل تدريجي- نمطها الاقتصادي، وعملت باعتدال على زيادة نسبة الثروة الحيوانية والصيد، وكان التقدم الأهم في هذه الفترة هو الاستيعاب الأولي لتقنية صهر المعادن، فقد تم استخراج سكينة برونزية، وبعض الشظايا المصهورة التي تعود إلى ثقافة ما جيا ياو من موقع لين جيا الأثري بمدينة دونغ شيانغ في مقاطعة قانسو، مما يمثل -أيضًا- أول المنتجات البرونزية المسبوكة التي عرفها البشر داخل الصين.[3]

وبعد انقضاء فترة ثقافة ما جيا ياو، ومنذ حوالي 4000 عام من الآن، توزعت ثقافة ما تشانغ في منطقة ممر خه شي، ومن ثم بدؤوا في التحرك تدريجيًّا نحو الغرب وصولًا إلى منطقة هامي في منطقة شينجيانغ، وقد بدأت -أيضًا- ملامح هذه الثقافة في إظهار بعض العناصر الجديدة، مثل استخدام الطوب اللبن لبناء المقابر في الكهوف، وانتشار طريقة دفن الموتى بعد وضع الجسد في وضعية الاستلقاء على جانبه مع ثني جميع أطرافه، وغيرها من العناصر الأخرى، وقد حظي مجال صهر النحاس بالمزيد من التطور في ذلك الوقت، فهناك دلالات أثرية تشير إلى تشكيل مركز لصهر النحاس في بدايات هذه الفترة، وذلك في مدينة

1- مركز البحوث الأثرية بمدينة تشينغدو: "تقرير حول محاولات التنقيب في موقع يينغ بان شان بمدينة ماوشيان في مقاطعة سيتشوان"، كتاب "الاكتشافات الأثرية بمدينة تشينغدو (2000م)"، صفحة 77-1، دار العلوم للنشر، 2002م.

2- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة قانسو، ومعهد وين بوه الأثري التابع لجامعة بكين: "تقرير حول البحوث الأثرية حول ثقافة عصر ما قبل التاريخ بممر خه شي"، دار الأثريات للنشر، 2011م.

3- فريق الأعمال الأثرية بمقاطعة قانسو، وآخرون: "تقرير حول محاولات التنقيب في موقع لين جيا الأثري بمدينة دونغ شيانغ في مقاطعة قانسو"، "كتابات مجمعة في علم الآثار (4)"، صفحة 161-111، دار نشر الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، 1984م.

جانـغ يـي غـرب ممـر خـه شـي، وقـد لعـب هـذا المركـز دورًا مهمًّـا فـي العمليـة التاريخيـة للتبـادل بيـن الشـرق والغـرب.[1]

وفــي النصــف الثانــي مــن الألفيــة الثالثــة قبــل الميــلاد، بــدأت بعــض الجماعــات التابعــة لثقافــة كــه شــنغ جوانــغ القاطنــة فــي مدينــة قوانجونــغ بمقاطعــة شانشــي فــي جولــة جديــدة مــن الترحــال نحــو الغــرب، وأثنــاء عمليــة ترحالهــا تحولــت -بشــكل تدريجــي- إلــى ثقافــة تشــي جيــا، وبعــد احتــلال هــذه الثقافــة -بشــكل كامــل- منطقــة وادي نهــر خــه تــاو، ونهــر خوانغشــوي، استــمرت فــي التوســع غربًــا، وقلصــت مــكان تواجــد ثقافــة مــا تشــانغ إلــى منطقــة ممــر خــه شــي النائيــة، وفــي ظــل هــذا التطــور الكبيــر، وفــي أوائــل الألفيــة الثانيــة قبــل الميلاد، تحولــت ثقافــة مــا تشــانغ الموجــودة فــي منطقــة خــه شــي إلــى ثقافــة ســه بــا التــي تمتعــت بإطــار توزيعــي واســع، حيــث امتــدت غربًــا لتصــل إلــى مدينــة هامــي بمنطقــة شــينجيانغ، وشــمالاً لتصــل إلــى منطقــة إيجيناتشــي شــمال غــرب مقاطعــة منغوليــا الداخليــة.

ومنــذ بدايــة فتــرة ثقافــة تشــي جيــا، دخلــت ثقافــة عصــر مــا قبــل التاريــخ فــي شــمال غــرب الصيــن إلــى العصــر البرونــزي المبكــر، وكانــت تقــع مناطــق ثقافــة تشــي جيــا، وثقافــة ســه بــا فــي موضــع حيــوي يربــط بيــن المنطقــة الداخليــة للســهول الوســطى، وحضــارة آســيا الوســطى، وكان لهــذه السيــطرة علــى المواضــع الجغرافيــة المهمــة أثــر كبيــر علــى تطــور هاتيــن الثقافتيــن، ونتيجــة لذلــك، لعبــت هاتــان الثقافتــان دورًا وسيطًا مهمًّــا فــي التبــادل الثقافــي بيــن الشــرق والغــرب.

وفـــي النصـــف الأول مـــن القـــرن العشـــرين، تـــم اكتشـــاف مشـــغولات فخاريـــة بديعـــة فـــي منطقـــة شـــينجيانغ التـــي تقـــع فـــي أقصـــى غـــرب الصيـــن، وقـــد ســـبق للمستكشـــف جـــون أنديرســـون أن صـــرَّح قائـــلاً: "لا يمكـــن الجـــزم مـــن خـــلال الدراســـات التفصيليـــة حـــول منطقـــة شـــينجيانغ بأنهـــا هـــي مهـــد هـــذه الثقافـــة (ثقافـــة يانـــغ شـــاو)"، ومـــن هنـــا، يمكننـــا أن نـــرى أن منطقـــة شـــينجيانغ هـــي المفتـــاح لحـــل لغـــز مصـــدر مشـــغولات

1- لي شوي تشينغ: "البقايا الأثرية "ذات النوع الانتقالي" وثقافة شي تشينغ إي"، "مختارات من الندوة الأكاديمية الدولية حول بدايات طريق الحرير وبدايات ثقافة تشين"، تحرير مركز البحوث الأثرية بمقاطعة قانسو، دار الأثريات للنشر، 2014م، صفحة 21-9.

الفخار الصيني الملونة. ففي أربعينيات القرن العشرين، سبق وأشار عالم الآثار الصيني الشهير بيي وين جونغ إلى ما يلي: "(1) تُعد ثقافة الفخار الملون بمنطقة شينجيانغ الفرع الغربي لثقافة الفخار الملون في منطقة السهول الوسطى، حيث امتدت هذه الثقافة وانتشرت من منطقة السهول الوسطى نحو الغرب. (2) في الوقت نفسه الذي اكشتفت فيه ثقافة الفخار الملون في شمال وجنوب سلسلة جبال تيانشان، كانت قد انقسمت هذه الثقافة الموجودة في مدينة هامي إلى فرعين شمالي وجنوبي، ليمثلا مسار انتشارها وانتقالها إلى الخارج، ومن المنظور الجغرافي، نجد أن هذه الثقافة جاءت أولًا من مقاطعة قانسو، إلى مدينة هامي، ثم أُعيق انتشارها لدى وصولها إلى سلسلة جبال تيانشان، فانقسمت عبر فرعين: شمالي وجنوبي"[1]، وبشكل عام، نجد أن العلاقة بين البقايا الأثرية لعنصر الفخار الملون المكتشف شرق منطقة شينجيانغ من جهة، وثقافة عصر ما قبل التاريخ في مقاطعتي قانسو وتشينغخاي (ثقافة العصر البرونزي) من جهة كانت وطيدة ومتماسكة بشكل كبير.

وفي نهايات ثمانينيات القرن العشرين، تم اكتشاف مقابر في الطرق الشمالية لجبال تيانشان بمدينة هامي في منطقة شينجيانغ الصينية.[2] ويؤكد العدد الكبير من القطع الأثرية المستخرجة منها أنه لا بدَّ وأن ثقافة الفخار الملون بمنطقة شينجيانغ تنبع أساسًا من منطقة ممر خه شي بمقاطعة قوانسو، فمن خلال تحليل المواد الحدودة المكشوفة، تبيَّن انقسام مشغولات الفخار المستخرجة من هذه المقبرة إلى 3 مجموعات مختلفة من العوامل: المجموعة الأولى: ترجع إلى أواخر فترة ثقافة ما تشانغ (ثقافة شي تشينغ إي)، وهي الأقدم في عمرها بين كافة المجموعات، حيث ترجع إلى 4000 عام مضت، والمجموعة الثانية: ترجع إلى فترة ثقافة سه با اللاحقة لفترة ثقافة ما تشانغ. أما المجموعة الثالثة: فتعبر عن

1- بيي وين جونغ: "الأعمال الأثرية في المواقع التي ترجع لعصر ما قبل التاريخ بمنطقة شينجيانغ"، مجلة "آسيا الوسطى" (العدد الأول)، 1942م، صفحة 39-34.

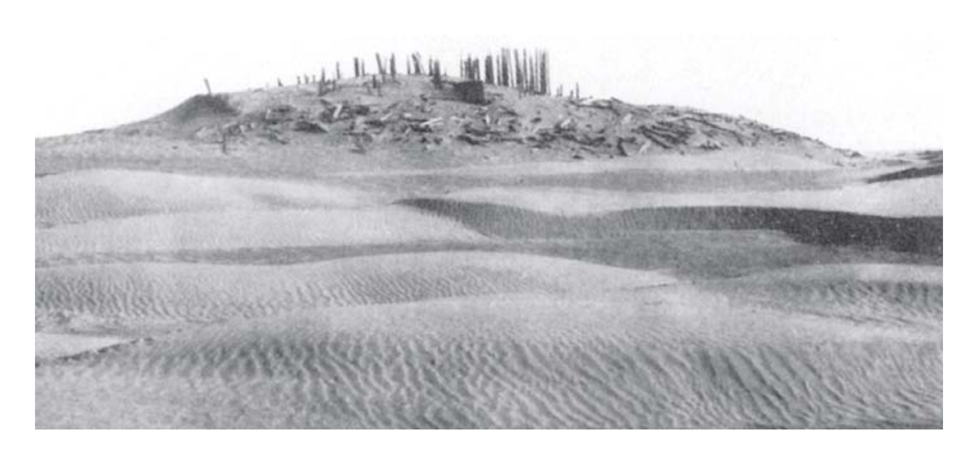
2- تشانغ شيآن: "المقابر القديمة المكتشفة في منجم يامانسو ومكتب لينتشانغ بمدينة هامي"، "الكتاب السنوي لعلم الآثار في الصين (1989م)"، دار الأثريات للنشر، 1990م، صفحة 275-274 / فريق التحرير حول الأثريات في مدينة هامي: "الأثريات بمدينة هامي"، دار نشر الشعب بمنطقة شينجيانغ، 1993م.

محتوى جديد لم يُرَ مثله سابقًا، ويمثلها جرَّات فخارية بمقبضين ذات طراز فريد من نوعه، مرسوم عليها خطوط هندسية تجزيعية، وتموجات مائية باللون الأسود، ولا بدَّ ألا تتجاوز فترتها الزمنية المجموعتين الأولى والثانية، والمثير للاهتمام هو التشابه الكبير بين هذا الطراز من الجرَّات، وطراز سلات القش المستخرجة من مقابر منطقة شياوخه، إلا أن طراز نسج السلات متقارب مع طراز نقوش الفخار التابع لثقافة أنديرونوفو (Anderonovo) جنوب شرق منطقة سيبيريا بروسيا، مما يُلمِّح باحتمال وجود علاقة ما تربط هذه الأنواع الثلاثة من القطع الأثرية.[1]

وفي الوقت الحالي، تعتبر الثقافة الأولى لعصر ما قبل التاريخ والمكتشفة في وسط منطقة شينجيانغ هي نفسها ثقافة شياوخه، وتشمل هذه الثقافة المقابر القديمة، ومقابر شياوخه المكتشفة بقرى مدينة لوب نور، وتمتاز بملامحها الفريدة، والتي تشمل عادات الدفن، والعقائد الدينية الغريبة من نوعها، حيث كانوا يضعون أغراضًا كثيرة مع الميت في قبره، وتشمل أعدادًا كبيرة من المشغولات اليدوية، ومشغولات القش، والجلود، ومنسوجات السجاد، وأعدادًا قليلة من المشغولات النحاسية، والذهبية، وغيرها من الأشياء (دون الفخار)، كما كانوا يضعون -أيضًا- أعدادًا كبيرة من رؤوس البقر، وقرون الغنم، واكتُشف -أيضًا- زراعتهم للقمح، والشعير، والدخن، وغيرها من محاصيل الحبوب، مما يُظهر عنصر الدمج بين تربية الماشية، والصيد.[2]

1- لي بينغ تشينغ: "التحليل الأول للبقايا الأثرية المستخرجة من مقابر الطرق الشمالية لجبال تيانشان"، "مختارات تذكارية للسيد يو ويي تشاو"، دار الأثريات للنشر، 2009م، صفحة 202-193.

2- وانغ بينغ خوا: "التنقيب في مقابر نهر الطاووس القديمة والدراسات التمهيدية حولها"، مجلة "العلوم الاجتماعية بمنطقة شينجيانغ"، 1983م، العدد الأول، صفحة 128-117 / مركز البحوث الأثرية بمنطقة شينجيانغ: "تقرير حول البحث الأثري والتنقيب في مقابر شياوخه لعام 2002م"، مجلة "الأثريات بمنطقة شينجيانغ"، 2003م، العدد الثاني، صفحة 64-8.



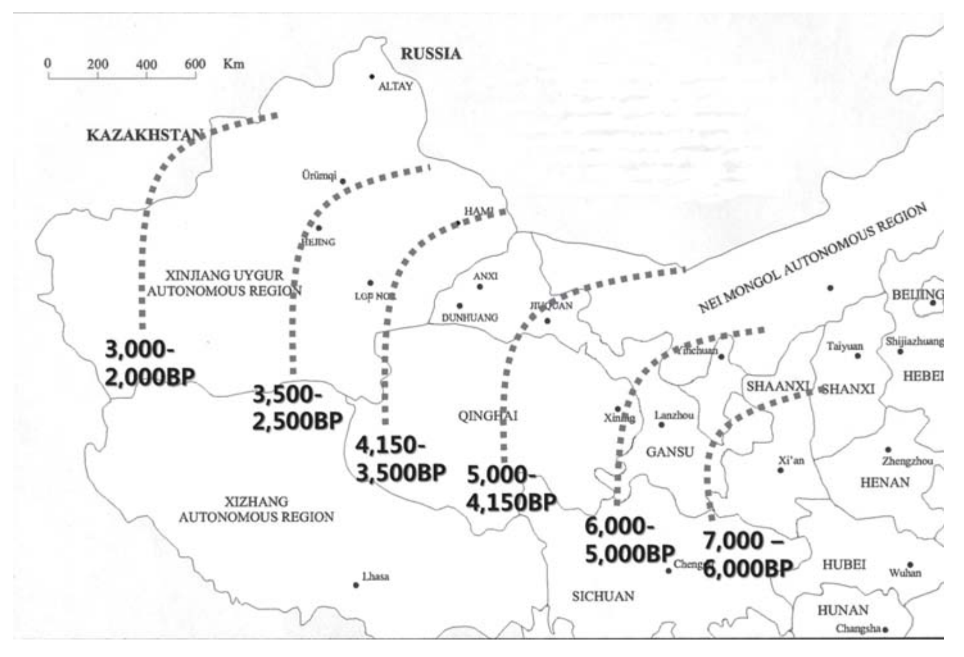
منظر طبيعي لمقابر شياوخه

ويُظهر علم الإنثروبولوجيا الجسدية، والدراسات الجينية أن شعب ثقافة شياوخه أتى أساسًا من منطقة سيبيريا جنوب غرب روسيا، وأن أوائل شعب ثقافة شياو خه يمثلون مزيجًا مهجنًا من الشرق والغرب، بحيث احتلت سلالة أوراسيا الشرقية دور الهيمنة عليهم، ولربما كان التقاء هاتين السلالتين في منطقة سيبيريا الجنوبية، فقد كانت ظاهرة التهجين الجيني موجودة قبل انتقال هذه المجموعة إلى منطقة حوض تاريم، أما شعب فترة ثقافة شياوخه في أواخر عهدها، فباستثناء احتفاظهم بعنصر أوراسيا الشرقية، فقد ازداد فيهم كذلك عنصر جنوب وشرق آسيا، وانخفض تدريجيًا عنصر سلالة أوراسيا الشرقية الذي كان متأصلاً فيهم، ويؤكد هذا أن السبب يعود إلى كثرة ترحال هذه المجموعات وتنقلها، مما أدى إلى دخول أعراق أجنبية إلى داخلها، وتغير الهيكل الوراثي الأصلي لهم، ويمكننا أن نرى، أنه بعد الهجرة الذاتية لشعب ثقافة شياوخه إلى منطقة حوض تاريم، استمر التبادل الجيني مع المجموعات المحيطة بهم من خلال الزواج منهم.

وتقدم الاكتشافات الأثرية في شمال منطقة شينجيانغ الدعم لهذه النظريات سالفة الذكر، فقبل 4000 عام من الآن، هاجرت بعض المجموعات من منطقة سيبيريا وجبال ألتاي على طول الممر الواصل بين نهر إيرتيش وجبال ألتاي، لتصل إلى منطقة ألتاي شمال منطقة شينجيانغ، ومن ثم توجهت -تدريجيًا- نحو الجنوب، لتصل إلى منطقة وسط وغرب منطقة شينجيانغ، وفي ظل هذه الخلفية التاريخية، تطورت ثقافة شياوخه في منطقة وادي نهر تاريم.

خاتمـــــة

خــلال الفتــرة منــذ 5500- 6000 عــام مــن الآن، ومــع دخــول العالــم حقبــة الهولوســين الدافئـة، ارتحلـت بعـض المجموعـات التابعـة لثقافـة يانـغ شـاو فـي أواخـر عهدهـا والقاطنـة فـي شـرق جبـال لونغشـان، وتوسـعت هنـاك، وخـلال عمليـة الترحـال نحـو الغـرب تطـورت إلى ثقافـة مـا جيـا يـاو، وثقافـة بـان شـان (ثقافـة ماتشـانغ)، وثقافـة سـه بـا، وتماشـيًا مـع الانتقـال الزمنـي، اسـتمرت أماكـن توزيـع هـذه الثقافـات فـي التحـرك نحـو الغـرب، لتصـل فـي النهايـة إلـى شـرق منطقـة شـينجيانغ، ممـا أثَّـر بشـكل عميـق علـى ثقافـة عصـر مـا قبـل التاريـخ فـي المناطـق الغربيـة، وعندمـا تبلـورت ثقافـة ماتشـانغ، بـدأت بعـض الجماعـات التابعـة لثقافـة كـه شـنغ جوانـغ القاطنـة فـي مدينـة قوانجونـغ بمقاطعـة شانشـي فـي الترحـال نحـو الغـرب، وأثنـاء عمليـة ترحالهـا تحولـت -بشـكل تدريجـي- إلـى ثقافـة تشـي جيـا، وبعـد احتـلال هـذه الثقافـة منطقـة وادي نهـر خـه تـاو، ونهـر خوانغشـوي، اسـتمرت فـي التوسـع غربًـا، وقلصـت مـكان تواجـد ثقافـة مـا تشـانغ إلـى المناطـق النائيـة غـرب ممـر خـه شـي، كمـا أثـرت علـى تبلـور ثقافـة سـه بـا اللاحقـة لهـا.



(مسار انتقال ثقافة الزراعة الصينية (والممثلة في الفخار الملون) نحو الغرب وإشاراته الزمنية)

وقد أثَّرت موجة ترحال هاتين الثقافتين -بشكل عميق للغاية- على تطور ثقافة عصر ما قبل التاريخ في غرب الصين، كما أُدخلت ثقافة الزراعة الجافة في السهول الوسطى (والممثلة في الفخار الملون) إلى شمال غرب الصين، وبعد دخول ثقافة عصر ما قبل التاريخ ذات الطابع الصيني القوي إلى مدينة هامي بمنطقة شينجيانغ، تطورت -بشكل تدريجي- إلى ثقافة يانبولاك، وثقافة يانوان، ومن ثم استمرت في التوسع غربًا عبر الممرين الشمالي الجنوبي لجبال تيانشان، وتطورت مع الوقت إلى ثقافة سوبيشي، وثقافة أولوهوجو، وثقافة سودونبولاك بوادي إيلي، وخلال عملية التطور هذه، وباستثناء حفاظ شعب هذه الثقافات على نسبة معينة من الاقتصاد الزراعي، ومواصلة تصنيع واستخدام الفخار الملون، فقد زوَّدوا -بشكل تدريجي- نسبة اقتصاد الماشية، وذلك لكي يتكيفوا مع البيئة الجغرافية للمناطق الغربية، وبهذا، برز بشكل أكبر الطابع المحلي لثقافة علم الآثار في هذه المناطق.

وقبل 4000 عام من الآن، عندما دخلت ثقافة ماتشانغ إلى مدينة هامي، هاجرت

بعض المجموعات من منطقة سيبيريا وجبال ألتاي على طول الممر الواصل بين نهر إيرتيش وجبال ألتاي، لتصل إلى منطقة ألتاي شمال منطقة شينجيانغ، ومن ثم توجهت -تدريجيًّا- نحو الجنوب، لتصل إلى منطقة وسط وغرب منطقة شينجيانغ، وتطورت في وادي نهر تاريم إلى ثقافة شياوخه، وقد احتوت ثقافة ومعيشة هذه الجماعات على طابع قوي في تربية الماشية.

ومع دخول الجماعات المختلفة من شتى القبائل في الشرق والغرب إلى منطقة شينجيانغ، بدأ التواصل بين قبائل الهندوأوربيين البدائية المتوجهة جنوبًا، والمنغوليين المتقدمين غربًا، وعمل الطرفان على تعزيز تنمية الثقافة المتبادلة بينهما، مما أدى إلى الدمج بين الأعراق وتهجينها، وفي ظل هذا، استمرت عناصر الخصائص الثقافية المختلفة القادمة من الغرب (كالماعز الجبلي، والأغنام، والأبقار، والخيول، والشعير، والقمح، وتقنية صهر النحاس، وأدوات الزينة الذهبية، وعربات الخيول الحربية، وغيرها) في انتشارها نحو الشرق، وفي الوقت نفسه، انتشرت كذلك بعض عناصر الثقافة القادمة من الشرق (كالمحاصيل الجافة مثل مجموعات حبوب الدخن، والمشغولات المطلية، والحرير، وفن صناعة اليشم، وغيرها) نحو الغرب.

وتُثبت الاكتشافات والدراسات الأثرية أن أول تواصل بين حضارة السهول الوسطى والغرب ربما كان قبل 5000 عام من الآن (في المرحلة بين أواخر فترة ثقافة يانغ شاو وحتى فترة ثقافة ما جيا ياو)، إلا أن حجم هذا التواصل كان محدودًا أيضًا، وذلك بسبب تباطؤ وتيرة التطور خلال الألفية الأولى، واستمر التباطؤ حتى قبل 4000 عام من الآن، حيث تسارعت وتيرة التواصل بين ثقافة الشرق والغرب، واتسع نطاقه، وأكبر دليل واضح على هذا الكلام كان دخول مجموعة من عناصر الخصائص الثقافية (مثل تقنية صهر المعادن، ومحاصيل القمح، والحيوانات المجترَّة[1]، وغيرها) إلى الصين.

1- هي الحيوانات التي تأكل طعامها عن طريق عملية الاجترار (الحيوانات ذات الحوافر التي تمزق الطعام ثم تبلعه عدة مرات)، ومن أشهر هذه الحيوانات البقر، الماعز، والخراف، وغيرها. (المترجِمة)

ومـن هنـا، يمكننـا أن نـرى أنـه قبـل شـق الجنـرال جانـغ تشـيان الطريـق نحـو المناطـق الغربيـة بنحـو 2000 عـام، تشـكل ممـر تجـاري وثقافـي يربـط بيـن شـعوب الشـرق والغـرب، ليضـع حجـر الأسـاس لمولـد "طريـق الحريـر" لاحقًـا.

الباب الثامن

هدايا طريق الحرير.. تلاقي المشغولات الفنية القادمة من الخارج مع الثقافة الصينية

(تشي دونغ فانغ)

من الصعب رؤية ذواتنا بوضوح، في حالة عدم الاستناد إلى ثقافة أجنبية عنا، حيث إن معرفة نقاط الاختلاف والتشابه بين مختلف الثقافات يحفز التعلم المتبادل والاندماج بينها، فالقدماء قد قدموا لنا مختلف الخبرات، والعظات، والتوجهات لإرشادنا، وتتمتع الثقافات المختلفة -سواء في العصر القديم أو الحديث- بسمات بشرية جمالية عديدة مشتركة في ما بينها، وتكمن قيمة التبادل في الأيديولوجيات والسلوكيات المؤثرة على البشر، فبالنسبة لأُمَّة ما، أو دولة ما، لا تلعب الثقافة الأجنبية دورًا تكميليًّا وحسب، بل تحفز كذلك القوى الحيوية للإنشاء والتنمية.

ففي عهد أسرتي هان وتانغ الملكيتين، كانت هناك العديد من القطع الأثرية القادمة من الخارج، كما كانت بعض المشغولات المصنوعة محليًّا تحمل في طرازها، وشكلها طابع الثقافة الأجنبية في الأصل، لتندمج في النهاية في حياة البشر، وبتمييز التغيرات في مصادر هذه الثقافات، يمكننا أن نكتشف أن التبادل من شأنه جعل الثقافة المادية للمجتمع في حالة ابتكار وإبداع مستمر، والموارد الروحية في حالة ثراء وتطور مستمر هي الأخرى، وبالتالي، فإن من شأن التبادل جلب تأثير كبير على التقدم البشري والاجتماعي.

الفصل الأول

بداية من المفهوم القائل "لا توجد أرض تحت السماء لا تتبع العائلة الملكية" وحتى تبلور "طريق الحرير"

كيف تتحول المفاهيم الأيديولوجية؟ وما هي الآثار التي تحمل رموزًا ودلالات معينة؟ وكيف تعكس الآثار هذه الروح الرائدة لزمنها؟

كان بيت الشعر الصيني القائل "تحت السماء لا توجد أرض لا تتبع الملك وعائلته.. وفي أرجاء العالم لا يوجد مكان لا يسكنه حاشية الملك ووزراؤه"[1] يجسد المفاهيم السياسية في الصين قديمًا، فالصين يحدها شرقًا المحيط الهادئ الشاسع بلا حدود، وشمالًا منطقة سيبيريا القاحلة وغير المأهولة بالسكان، ويحدها من الشمال الغربي صحراء تاكلامكان الواسعة والمحفوفة بالمخاطر، ومن الجنوب الغربي جبال الهيمالايا الشاهقة الملامسة للسحاب، ومع عدم تمكن البشر من تخطي هذه العوائق في ذلك الوقت، كاننت النتيجة تقييد فهم الشعب الصيني للعالم الخارجي، وأيضًا الانعكاس السلبي على المفاهيم الشائعة آنذاك، والتي كانت ترى بأنه "تحت السماء لا توجد أرض لا تتبع الملك وعائلته"، ومع ترسخ مثل هذه المفاهيم السياسية والجغرافية، أتبعها كونفوشيوس بوجهة نظر موحدة تفيد بأنه "بما أن السماء لا تحوي شمسين، فالأرض لا يمكن أن يحكمها ملكين، فكما هي الحال في البيت الذي لا يمكن أن يمتلكه اثنان، لا يمكن للدولة أن يحكمها فردان، وإلا لن تتقدم لتصل إلى عنان السماء".

1- "ديوان الشعر الكلاسيكي"، مقطوعة "شياويا.. الجيل الشمالي" الشعرية.

وفـي القـرن الثانـي قبـل الميـلاد، كان حـدث "شـق الجنـرال جانـغ تشـيان الطريـق نحـو المناطـق الغربيـة"[1]، ممـا عمـل علـى زعزعـة هـذا النـوع مـن المفاهيـم التقليديـة، وكان يكمـن السـبب الرئيـس لانطـلاق الجنـرال جانـغ تشـيان فـي مهمتـه الشـاقة نحـو الغـرب فـي رغبتـه للاتحـاد مـع قبائـل أسـرة دايويـه، والقضـاء علـى قـوة الهـون، ومـع ذلـك، كان المكسـب غيـر المتوقـع هـو كسـر القيـود للنظـر إلـى العالـم الخارجـي، ومـن هنـا، بـدأت الصيـن فـي رسـم الخطـط للتواصـل مـع قارتـي آسـيا وأوربـا، واسـتمرت فـي إرسـال الوفـود الكبيـرة المحملة دائمًـا بمختلـف الهدايـا كالبقـر والأغنـام، والذهـب، والقطـن، وغيرهـا، ولـم يعـد هـدف إرسـال الوفـود مقتصـرًا علـى الأهـداف السياسـية، والعسـكرية وحسـب، ممـا غيَّـر المفاهيـم القديمـة للـدول التـي اعتبـرت الحضـارات الغربيـة عـدوًّا لهـا، واسـتخدامها بعـض الطـرق المتطرفـة للتعامـل معهـا، كمـا بـدأت العديـد مـن الـدول فـي إرسـال وفودهـا هـي الأخـرى إلـى الصيـن.

وقـد أدى "شـق الجنـرال جانـغ تشـيان الطريـق نحـو المناطـق الغربيـة"، وخلقـه للتواصـل مـع حكومـات جميـع الـدول فيهـا إلـى إضافـة محـاولات الفهـم والتـوق إلـى المعرفـة -بشـكل تدريجـي- إلـى النفسـية الوقائيـة ضـد الارتيـاب الكبيـر تجـاه الحضـارات الغربيـة، فقـد انطلـق المبعوثـون الحاملـون للمسـؤوليات الكبيـرة علـى عاتقهـم عبـر صحـراء غوبـي، والممـرات الصحراويـة الشـاقة للغايـة، وذلـك بهـدف البحـث عـن طـرق الوسـاطة بيـن مختلـف الحضارات فـي الشـرق والغـرب.

1- في العام الثالث من تقويم جيانيوان (138ق.م) "أرسلت أسرة هان الملكية القائد جانغ تشيان إلى قبائل أسرة دايويه". إلا أنه حوصر في طريقه من قِبل قبائل الهون لمدة أكثر من 10 سنوات، وبعد نجاحه في الهرب، توجه نحو الغرب، إلى كل من دولة داوان (تقع حاليًا داخل حدود أوزبكستان)، ودولة كانغجيو (تقع حاليًا جنوب شرق كازخستان)، ودولة داشيا (في وادي نهر أموداريا)، إلى أن وجد قبائل دايويه، وفي ذلك الوقت، استسلم إلى قبائل دايويه التابعة لقبائل داشيا، ولم ُيبد نيته في العودة وهزيمة قبائل الهون، ومكث هناك أكثر من عام، ثم عاد إلى بلاده، وفي طريق عودته، احتجزته قبائل الهون لأكثر من عام، وفي عام 126ق.م، انتهز فرصة الاضطراب داخل قبائل الهون، وعاود أدراجه إلى مدينة تشانغ آن في الصين، ويُذكر أنه عندما أُرسل جانغ تشيان في مهمته كان معه أكثر من 100 جندي، واستغرق 13 عامًا ليرجع إلى الصين، ولم يرجع سوى هو ومرشده تانغ إي فو، وبعد عودته، قدم تقريرًا إلى الإمبراطور يصف فيه الأحوال الجغرافية في المناطق الغربية، ومنتجاتها، وعاداتها وتقاليدها، وأجرى اتصالات باسم أسرة هان الملكية مع مناطق آسيا الوسطى التي قدمت له معلومات قيمة، وفي العام الرابع من تقويم يوانشوو (119ق.م)، أُرسل الجنرال جانغ تشيان للمرة الثانية في مهمة للمناطق الغربية، على رأس وفد مكون من 300 فرد، وكان كل فرد يقود حصانين، محملين بعشرة آلاف رأس من البقر والغنم، ومنتجات ذهبية وقطنية تبلغ قيمتها "عشرات الآلاف"، ووصلوا إلى مدينة أوسون، ليطلبوا منه العودة شرقًا، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك. فأرسل مبعوثيه إلى عدة دول منها داوان، وكانغجيو، ودايويه، وداشيا، وغيرها، وفي العام الثاني من تقويم يواندينغ (115ق.م)، عاد الجنرال جانغ تشيان إلى مدينة تشانغ آن الصينية، بصحبة أكثر من 10 مبعوثين من دولة أوسون، وبعد ذلك، استمرت دولة آنشي الواقعة في المناطق الغربية في إرسال وفودها إلى الصين بهدف الزيارة والتجارة، ومن هنا، أُقيمت جسور التواصل والعبور بين أسرة هان الملكية والمناطق الغربية.

وكانـت الزيـارات المتبادلـة للوفـود بيـن الطرفيـن فـي الشـرق والغـرب، دائمًـا مـا تحمـل فـي جعبتهـا مختلـف أنـواع الهدايـا، فبعـض الزائريـن قـد أتـوا لأهـداف تجاريـة بحتـة باسـم الوفـد المبعـوث، وقـد أدت مقايضـة البضائـع -تدريجيًّـا- إلـى زيـادة فهـم الآخـر، وبالتالـي، بـدأ الاهتمـام بالتبـادل الثقافـي بيـن الشـعوب.

وتختلـف السـجلات الوثائقيـة عـن الاكتشـافات الأثريـة، فالسـجلات المكتوبـة تُشِـيد فـي معظمهـا بالحـروب المسـلحة، وتمـدح الجنـود فـي سـاحة القتـال، أمـا الاكتشـافات الأثريـة فتكشـف عـن الأعـداد الكبيـرة للأعمـال الفنيـة الأجنبيـة البديعـة، أو تسـتدعي -بشـكل خافـت- تجـار سـوجديان، وفريـق جِمالهـم العابريـن لطريـق الحريـر، والسـجلات المكتوبـة دائمًـا مـا تعبـر عـن بعـض الأحـداث والسـجلات الخاصـة، أمـا الاكتشـافات الأثريـة فتعكـس بشـكل أكبـر المشـغولات المسـتخدمة فـي الحيـاة اليوميـة، لتحمـل فـي طياتهـا المعنـى العـام لحيـاة القدمـاء، وتعكـس المشـهد الاجتماعـي فـي ذلـك الوقـت.

فبعـد انقضـاء عهـد أسـرة هـان الملكيـة، ازداد مـع الأيـام عـدد الزيـارات بيـن دول المناطـق الغربيـة وشـعوبها مـن جهـة، وأسـرة قبائـل السـهول الوسـطى مـن جهـة أخـرى[1]، وكانـوا يسـتخدمون فـي الأسـاس الجِمـال والخيـول فـي طريقهـم لنقـل المـواد المختلفـة، ومـن هنـا، أصبحـت هيئـة تجـار البربـر المطوقيـن للجِمـال المحملـة بالبضائـع الأثـر المعبـر عـن الطابـع الخـاص بذلـك الوقـت، حيـث تعكـس المـادة لنـا أحـوال التواصـل بيـن الشـرق والغـرب.

وخـلال هـذا التطـور، يتوجـب علينـا ذكـر إسـهام الإمبراطـور يانـغ قوانـغ (إمبراطـور أسـرة سـوي الملكيـة)، حيـث كان أكثـر إمبراطـور فـي تاريـخ الصيـن يحـب الخـروج بنفسـه فـي جـولات خاصـة نحـو المناطـق الغربيـة، ففـي مـرة خـرج علـى رأس وفـد، ولاقـى المشـاق والصعوبـات التـي اسـتمرت لمـدة 6 أشـهر، إلـى أن وصـل إلـى دولـة جانـغ

1- يو تاي شان: "دراسات حول العلاقات بين المناطق الغربية وكل من أسرتي هان الشرقية والغربية وأسرة وي وأسرة جين والأسرتين الشمالية والجنوبية"، دار نشر الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، 1995م / خوانغ ليه: ""العلاقات بين المناطق الغربية والداخل الصيني في عهد أسر وي وجين والأسرتين الجنوبية والشمالية"، "مختارات من تاريخ أسر وي وجين وسوي وتانغ"، السلسلة الأولى، دار نشر الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، 1981م.

يـي[1]، والتقـى هنـاك بملـوك وسـفراء 27 دولـة مـن دول المناطـق الغربيـة، فـي مشـهد كبيـر ومهيـب[2]. بعدهـا، اجتمـع الـولاة والرؤسـاء فـي دولـة لـوه يانـغ لإبـرام الصفقـات التجاريـة، "وأتـى المبعوثـون مـن أكثـر مـن 13 دولـة ليقدمـوا العطايـا والهدايـا"، وأمـر الإمبراطـور يانـغ قوانـغ ببنـاء محـل، والانتهـاء مـن ديكوراتـه، وفرشـه، وعـرض البضائـع القيمـة فيـه، وإقامـة العـروض الترفيهيـة، لاسـتقبال ضيوفـه القادميـن مـن المناطـق الغربيـة، واسـتمر التجمـع طـوال الليـل كل يـوم، مـع إشـعال المصابيـح، حتـى نهايـة الشـهر[3]، وكان هـذا أول عمـل ريـادي لا مثيـل لـه فـي التاريـخ الصينـي، ويمكـن وصفـه بـ"المعـرض العالمـي"، حيـث مثَّـل دفعـة قويـة للتبـادل بيـن الصيـن وخارجهـا.

وتُعـد أسـرة تانـغ الملكيـة الأسـرة الأنجـح فـي تاريـخ السياسـة الصينيـة، فقـد مثَّـل النصـف الأول مـن فترتهـا الأولـى اسـتقرار الصيـن كإمبراطوريـة مسـتبدة، حيـث كانـت تسـتخدم القـوة للسـيطرة علـى النزاعـات الداخليـة، بينمـا كانـت تبـادر بإيجابيـة فـي مـد جسـور التواصـل الدبلوماسـي مـع الخـارج، وبالمقارنـة مـع "توجـه الجنـرال جانـغ تشـيان نحـو المناطـق الغربيـة"، يمكـن القـول إنـه كان هنـاك تقـدم أكبـر فـي تحـول المفاهيـم لـدى الحـكام. ففـي بدايـات حكـم أسـرة تانـغ الملكيـة، وأثنـاء احتفـال مـا، أمـر الإمبراطـور لـي يـوان قبائـل التركمـان (التـرك)، وقبائـل نـان مـان بتأديـة رقصـة جماعيـة، وقـال بسـعادة غامـرة: "هـا هـم الجيـران القاطنـون بعيـدًا عـن بعضهـم يجتمعـون فـي قاعـة واحـدة لأول مـرة منـذ القـدم"[4]؛ حيـث كان الإمبراطـور سـعيدًا بتجمـع مختلـف القبائـل فـي قاعـة واحـدة، لتكـون البلـدان كلهـا دولـة واحـدة، وشـعبًا واحـدًا، وبعـد هزيمـة

1- "تاريخ أسرة سوي الملكية"، المجلد الثالث، "السيرة الذاتية للإمبراطور يانغ قوانغ"، "بعد انقضاء عهد الإمبراطور مو تشين، وتولي الإمبراطور ليو تشه مقاليد الحكم، عمل برغبته على شق الطريق نحو المناطق الغربية"، "وبالمرور بين المضايق الجبلية بمقاطعة قانسو، وبعد التعرض لمخاطر الطرق الجبلية فيها، نجح الجنود في الخروج سالمين من هذا الطريق. إلا أنه بمواجهة أخطار الرياح والصقيع والطرق المظلمة، ضاع أكثر من نصف الجنود عن قائدهم وماتوا متجمدين"، الهيئة الصينية للكتاب، 1973م، صفحة 73.

2- "تاريخ أسرة سوي الملكية"، المجلد 67، "السيرة الذاتية للقائد بيي جيو"، "أُمِر الجميع بارتداء حُلي الزينة الذهبية، والملابس الحريرية، وإشعال البخور، وعزف الموسيقى، الغناء بصوت عالٍ. كما أُمرت الجنديات التابعات لدولتي أويي، وجانغيي بإلقاء نظرة عامة على ديكورات المكان، ومن ثم ركوب الخيول في شكل مهيب يمتد على شكل سلاسل متصلة لمسافة عشرات الكيلومترات، وذلك بهدف إظهار مدى ازدهار دولة الصين وهيبتها"، الهيئة الصينية للكتاب، 1973م، صفحة 1580.

3- "تاريخ أسرة سوي الملكية"، المجلد 83، "السيرة الذاتية للمناطق الغربية"، صفحة 1841.

4- "مرآة الإدارة السياسية في الصين"، المجلد 190، الإمبراطور لي شه مين، العام السابع من تقويم جينقوان: "أمر الإمبراطور كلًّا من الخاقان إيليج زعيم قبائل التركمان بتأدية رقصة، كما أمر فنغ جه داي زعيم قبائل نان مان بإلقاء الشعر، ثم ابتسم قائلًا: "ها هم الجيران القاطنون بعيدًا عن بعضهم يجتمعون في قاعة واحدة لأول مرة منذ القدم"".

الأتـراك الغربييـن (التركمـان)، أصـدر الإمبراطـور لـي شـه ميـن بيانًـا مخاطبًـا شـعب دولـة آنقوه التابعـة لمنطقـة آسـيا الوسـطى، قائـلاً فيـه: "لقـد سـقطت قبائـل الأتـراك الغربييـن، ويمكـن للتجـار مزاولـة أنشـطتهم مـن جديـد!"، "دعونـا نـرى قبائـل البربـر وجِمالهـم علـى الطريـق مـرة أخـرى"، ومـن هنـا، يمكننـا أن نـرى أن الهـدف النهائـي مـن الحـروب القاسـية والشرسـة، هـو إحـلال السـلام لمزاولـة الأنشـطة التجاريـة، ولعـودة العلاقـات الوديـة بيـن الـدول، حيـث أصبـح كل مـن التعـاون مـن أجـل السـلام، والاحتـواء الشـامل همـا روح طريـق الحريـر.

وفـي ذلـك الوقـت، كانـت البيئـة الجغرافيـة فـي منطقـة السـهول الوسـطى الرابطـة بيـن الشـرق والغـرب متدهـورة للغايـة، ومناخهـا متقلبًـا وغيـر متوقـع، وكانـت الجِمـال فقـط التـي تسـتطيع اختـراق صحـراء غوبـي المرعبـة، ومـن الأعمـال الفنيـة المجسـدة لهـذا الأمـر القطـع الأثريـة التابعـة لعهـد أسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن مـن تماثيـل ولوحـات للجِمـال، وغيرهـا، ممـا يعكـس إعجـاب النـاس وتقديرهـم لهـؤلاء التجـار، فهـي تُمثـل مدحًـا وتكريمًـا لـلأرواح الرائـدة والشـجاعة التـي شـقت طريـق الحريـر قديمًـا، كمـا أن الجِمـال وتجـار البربـر تمثـل دائمًـا مجموعـة ثابتـة لا تتغيـر، ممـا يُظهـر الصـورة المفصلـة لـ"تجـار البربـر والجِمـال" فـي شـعر شـاعر الواقعيـة الشـهير دو فـو.

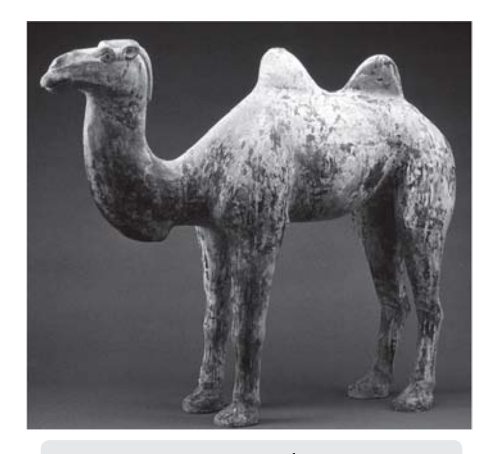
ويتميـز تجـار البربـر بمحاجـر عيونهـم الغائـرة، وأنوفهـم الطويلـة، ولحاهم الكثيفـة المغطية للوجـه، ورؤوسـهم الصلعـاء، أو ذات الشـعر المجعـد، ويرتـدون الجلابيـب الطويلـة ذات الياقات المطويـة، كمـا يرتـدون أحذيـة طويلـة، وقبعـات البربـر ذات الأنـواع المختلفـة، ويوضـح هـذا الفهـم العميـق للفنانيـن المهـرة فـي ذلـك الوقـت للزائريـن القادميـن مـن مختلـف الـدول الأجنبيـة، ممـا يمكنّهـم مـن تصويـر مختلـف أنـواع الملامـح الحيويـة للأشـخاص، واعتُبـر تجـار البربـر هـؤلاء ذوو المعرفـة الواسـعة ناشـرين للثقافـة بيـن الصيـن والغـرب كذلـك.

وتجسـد بـؤرة تغيـر أشـكال الجِمـال فـي عهـد أسـرتي هـان، وتانـغ الملكيتيـن التعميـق المسـتمر لعلاقـات التواصـل بيـن الصيـن وخارجهـا. ففـي عهـد أسـرة هـان الملكيـة، كانـت الجِمـال قليلـة نسـبيًا، كمـا كانـت تبـدو غيـر ناضجـة، حيـث كانـت حوافرهـا لا

تختلف عن حوافر الخيول، وكانت هناك فروق بين تصويرها في الأعمال الفنية وأشكالها على الحقيقة، مما يوضح عدم وجود فهم واضح للجِمال في تلك الفترة، وفي عهد الأسرة الشمالية، كانت الجِمال كثيرة، وتتمتع بسمة تحميل البضائع[1]، مما يؤكد استخدام الجِمال في الشحن في ذلك الوقت، أما في عهد أسرة تانغ الملكية، فكانت هيئة تجار البربر المطوقة للجِمال اختيارًا لتصميم صحيح تمامًا، حيث كانت تشير إلى الربط الوطيد بينها وبين علاقات التواصل، وحركة العبور، والتجارة مع الخارج.

وباستثناء التغيرات الزمنية، كانت هناك -أيضًا- ظاهرة مثيرة، وهي عدم دقة وبراعة تصوير مجسمات الجِمال في مناطق إنتاج الجِمال شمال غرب الصين، فعلى العكس، كلما كان الاعتماد على المناطق الشرقية التي لا تحتوي على جِمال، كان تصويرها في الأعمال الفنية حيويًّا بشكل أكبر، أي أنه كلما كانت المنطقة لا تعرف الجِمال بشكل كبير، كان تصويرها رائعًا، مما يوضح الإبداع الذي يظهر بعد التوق إلى شيء ما، والبحث عن كل جديد، حيث أصبحت الجِمال رمزًا لازدهار "طريق الحرير" في ذلك الوقت، وكانت بعض التماثيل تلتقط لحظة رائعة لعادات الجِمال، مما يجعلها تضج بالحركة، والحيوية الكاملة، حيث تجسد بشكل متعمد المقاومة الطبيعية للجِمال مع الطبيعة، وملامحها الكادحة والعنيدة، مما يرسم صور رائعة لبيت الشعر القائل "اجتُرَّت أجراس الجِمال في بحر الصحراء.. تحمل الحرير الأبيض لتصل إلى مدينة شيآن".

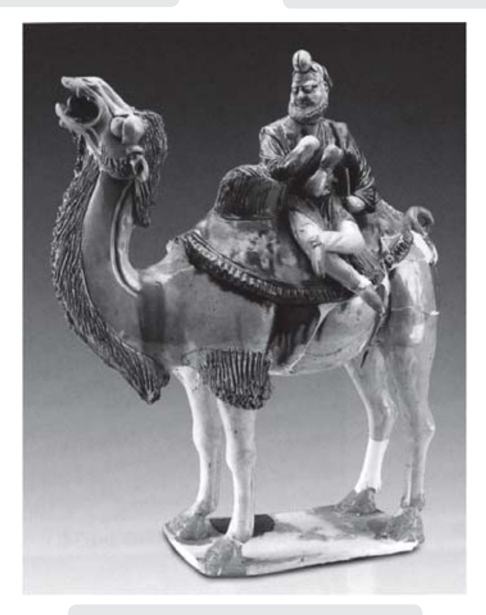
1- متحف مدينة لوه يانغ: "مقابر يوان شاو التابعة لعهد أسرة ويي الشمالية لمدينة لوه يانغ"، مجلة "الآثار"، 1973م، العدد الرابع.



تمثال جمل يرجع لأسرة هان الغربية ومستخرج من
قرية شابوه بمقاطعة شانشي



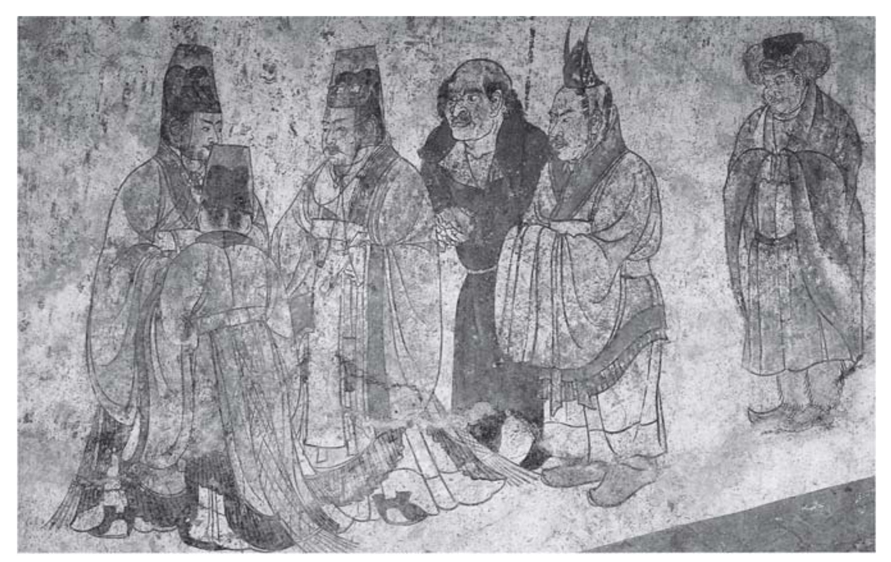
تمثال جمل مستخرج من مقابر لي شيان
التابع لعهد أسرة جوو الشمالية بمقاطعة نينغشيا



تمثال جمل تابع لعهد أسرة تانغ الملكية

وقد عمل طريق الحرير الذي افتتحته أسرة هان الملكية على توسيع آفاق البشر، فقد كانت أسرة تانغ الملكية التي اتخذت سياسة التسامح والانفتاح تبحث عن طريقها الخاص للتقدم، وذلك في خضم دوامة التناقض الواقعة بين التقاليد القديمة والثقافة الأجنبية، فبظهور العدد الكبير من الأعمال الفنية الأثرية لتجار

البربـر وجِمالهـم، أكـد لنـا أن الاهتمـام بطريـق الحريـر لـم يكـن مهمـة خاصـة بالحكومـة والطبقـة الحاكمـة وحسـب، بـل حظيـت روح التجـارة عبـر طريـق الحريـر والانفتـاح علـى الخـارج على إجمـاع اجتماعـي، وبالوصـول إلـى عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، تجلـت ظاهـرة "فتـح أبـواب القصـر لمـدة 9 أيـام لاسـتقبال مبعوثـي جميـع الـدول للقـاء إمبراطـور الصيـن"، حيـث أصبحـت العاصمـة تشـانغ آن كسـوق تجاريـة عالميـة ضخمـة، تُقـام فيهـا المعـارض الدوليـة التـي لا تنتهـي أبـدًا، فتنميـة السـلام لا تدفـع بالنمـو الاقتصـادي وحسـب، بـل تغيـر العلاقـات بيـن البشـر، وكذلـك العلاقـات بيـن مختلـف الثقافـات.



لوحة "الزائرين والمبعوثين" الجدارية في مقبرة تابعة لعهد أسرة تانغ الملكية، وتصف استقبال المسؤولين الدبلوماسيين في عهد أسرة تانغ للمبعوثين القادمين من كافة الدول الأجنبية، والذين أحضروا معهم مشغولات مختلفة من بلادهم إلى الصين

الفصل الثاني

جمال البضائع والتقاء الشرق مع الغرب

ما هي المواد التي أدخلتها الدول الأجنبية إلى الصين؟ وفي أي موقع أثري تم اكتشافها؟ ومن أي دولة (منطقة) كان مصدرها؟

كان الاندهـاش مـن المنتجـات القادمـة مـن الـدول والأقاليـم الأجنبيـة، والحاجـة إليهـا، همـا أول إغـراء قدمـه التواصـل التجـاري المتبـادل بيـن الطرفيـن، فبالنسـبة للصيـن التـي كانـت تعمـل علـى تقييـد التجـارة، والاكتفـاء الذاتـي مـن الزراعـة، كان الازدهـار التجـاري بمثابـة هجـوم علـى التقاليـد القديمـة، فقـد أدت العمليـة التجاريـة إلـى وجـود وعـي معتـدل حـول هـذا الصـدد، ممـا أثـر علـى مجـالات الحيـاة الأخـرى لـدى البشـر.

وقـد سـبق وتـم اكتشـاف عـدد كبيـر مـن السـبائك الذهبيـة، وعـدد 947 عملـة فضيـة تابعـة للدولـة الساسـانية، وذلـك بيـن ثغـرات الصخـور فـي جبـال شينشـان الواقعـة فـي مدينـة أوتشـيا (أولوغـات) بمنطقـة شـينجيانغ[1]، وفـي منطقـة الجسـر المـؤدي إلـى جبـال خييشـان لمدينـة لـوولان، سـبق -أيضًـا- وتـم اكتشـاف عـدد 970 عملـة "كاي يـوان" النحاسـية التابعـة لعهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، وعلـى عكـس الاكتشـافات الأثريـة الأخـرى، يوضـح اكتشـاف الكـم الكبيـر مـن العمـلات فـي هـذه الأماكـن القاحلـة أنـه لا بـدَّ ودفنهـا التجـار العابـرون بسـبب حـدوث أمـر طـارئ لهـم، كمـا يثبـت الحجـم الهائـل لكـمٍّ المشـتريات المتبادلـة بيـن الشـرق والغـرب فـي ذلـك الوقـت، فقـد أدى ازدهـار التجـارة عبـر طريـق الحريـر إلـى جعـل العملـة الفضيـة للدولـة الساسـانية، والعملـة الذهبيـة للدولـة الرومانيـة الشـرقية، وعملـة "كاي يـوان" النحاسـية التابعـة لأسـرة تانـغ الملكيـة، العمـلات الإقليميـة المتداولـة، كمـا تُظهـر العمـلات الذهبيـة الأجنبيـة والعمـلات النحاسـية الصينيـة وجـود علاقـة تحويـل عمـلات بينهمـا.

1- لي يو تشون: "اكتشاف سبائك ذهبية وكم كبير من عملات بلاد الفرس الفضية في مدينة أوتشيا بمنطقة شينجيانغ"، مجلة "الآثار"، 1959م، العدد 9، صفحة 483-482.

وكانـت تحمـل البضائـع فـي طياتهـا محتـوى ثقافيًـا أيضًـا، ففـي الوقـت الـذي تمتـع فيـه النـاس بالمكاسـب الماديـة الخارجيـة، نشـأت رغبتهـم فـي فهـم الثقافـة مـن النـوع الآخـر، مثـل فهـم دول الغـرب للصيـن مـن خـلال الحريـر الصينـي البديـع، وأيضًـا مثـل فهـم الصيـن التدريجـي للعالـم الخارجـي مـن خـلال البضائـع الأجنبيـة، وبالتواصـل مـن خـلال البضائـع، ووصـولًا إلـى عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، لـم يعـد النـاس يسـتخدمون الأسـلوب الأعمـى فـي وصـف الـدول الأجنبيـة مـن الأبـراج العاجيـة، واندثـر بشـكل كبيـر بعـض اللغـات التـي كانـت مدمـرة تقريبًـا، وأصبحـت الطـرق التجاريـة بمثابـة طريـق حـواري بيـن حضـارات الشـرق والغـرب، وتحـول النجـاح المتكـرر للأنشـطة التجاريـة إلـى مزيـج ثقافـي.

وتُظهـر المنسـوجات، والحرائـر المحملـة علـى ظهـور الجِمـال تدفـق الحريـر نحـو الغـرب، كمـا تثبـت القواريـر ذات العنـق الطويـل، والأباريـق، والغلايـات المسـطحة، وغيرهـا مـن البضائـع المحملـة علـى ظهـور الجِمـال دخـول المـواد الأجنبيـة إلـى الصيـن؛ حيـث قـام بإحضـار هـذه البضائـع مختلـف الفـرق التجاريـة الكبيـرة والصغيـرة، التـي تجـاوزت صحـراء غوبـي القاحلـة، والصحـاري الشاسـعة، لمزاولـة الأنشـطة التجاريـة، ممـا تـرك ذكـرى دائمـة عـن الأنشـطة الاقتصاديـة والتجاريـة بيـن الصيـن وخارجهـا؛ حيـث تُظهـر الغلايـات المسـطحة والأباريـق المرسـومة بالتفصيـل علـى ظهـور الجِمـال التصويـر الواضـح للمـواد والبضائـع الأجنبيـة فـي ذلـك الوقـت، وهـو مـا توصلـت إليـه الاكتشـافات الأثريـة، حيـث اسـتُخرجت قطـع أثريـة تؤكـد الأمـر نفسـه.

ومـن بيـن أوائـل البضائـع المُدخلـة إلـى الصيـن والتـي توصلـت إليهـا الاكتشـافات الأثريـة فـي الوقـت الحاضـر، نجـد نوعًـا مهمًّـا مـن الخـرز الزجاجـي الـذي يرجـع إلـى الفتـرة بيـن عصـر الـدول المتحاربـة، وحتـى فتـرة حكـم أسـرة هـان الشـرقية، والـذي سُـمِّي بـ"عيـن اليعسـوب"، وذلـك بسـبب احتوائـه علـى العديـد مـن الحلقـات الملونـة، ويُعتبـر جيـر الصـودا هـو المكـون الكيميائـي الأساسـي لذلـك الخـرز الزجاجـي، والـذي ظهـر فـي مصـر فـي القـرن الثانـي عشـر أو الثالـث عشـر قبـل الميـلاد، وانتشـر سـريعًا فـي مناطـق آسـيا الوسـطى، وغـرب آسـيا، وقـد اكتُشـف فـي العديـد مـن المقاطعـات والمـدن

الصينيـة، حيـث اسـتُخرج فـي وقـت سـابق مـن مقابـر النبـلاء، واسـتُخرج كذلـك فـي وقـت لاحـق مـن مختلـف المقابـر المتوسـطة والصغيـرة، وعنـد اكتشـافه كان موضعـه علـى جسـد الميـت بيـن الرقبـة والصـدر، وقـد وصـل عـدد القطـع المكتشـفة منـه إلـى أكثـر مـن ألـف قطعـة.

أمـا الأوانـي الزجاجيـة القادمـة مـن الخـارج إلـى الصيـن، فقـد كانـت تُصنـع عـن طريـق الضغـط، والنفـخ باللمـس أو بغيـر اللمـس، وكان جيـر الصـودا هـو المكـون الكيميائـي الأساسـي فـي صنعهـا، وكانـت الدولـة الرومانيـة هـي المنتجـة لهـا، وتـم اكتشـافها فـي كل مـن المـدن الصينيـة قوانغجـوو، لـوه يانـغ، لياونينـغ، ونانجينـغ، وكان كل مـن ملمـس هـذه المشـغولات الزجاجيـة، وشـكلها، وطـرق تزيينهـا كلصـق القطـع الزجاجيـة المكدسـة، أو نقـش الزهـور عليها، أو غيرهـا مـن طـرق التزييـن، تجسـد كلهـا المميـزات المشـتركة للزجـاج الرومانـي، أمـا الأوعيـة الزجاجيـة القادمـة مـن الدولـة الساسـانية (بـلاد الفـرس)، فقـد اسـتُخرجت بشـكل كبيـر مـن العديـد مـن المـدن والمقاطعـات والمناطـق الصينيـة، منهـا شـينجيانغ، ونينغشـيا، وشانشـي، وبكيـن، وخـه نـان، وخوبيـي، وغيرهـا، وقـد اشـتُهر الزجـاج الساسـاني بوجـود نتـوءات، أو دوائـر محدبـة ومقعـرة علـى الجـزء الخارجـي منـه، والتـي صُنعـت مـن خـلال طـرق الأوتـار والصقـل، أمـا الزجـاج الإسـلامي، فقـد اشـتُهر بطـرازه ذي الخطـوط والنقـوش الهندسـية، وفـي القصـر الملكـي التابـع لعهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، والواقـع بمعبـد فاميـن فـي مدينـة فوفنـغ بمقاطعـة شانشـي، اسـتُخرجت مجموعـة مـن الأطبـاق، والأوعيـة المحفوظـة بشـكل جيـد، والتـي تُعتبـر كنـوزًا نـادرة مـن الزجـاج الإسـلامي بديـع الصنـع.


الزجاج الروماني


الزجاج الساساني


الزجاج الإسلامي

ومن بين البضائع المُدخلة إلى الصين كانت هناك -أيضًا- المشغولات الذهبية والفضية، مثل العلب الفضية التي استُخرجت من مدينة قوانجوو، من مقبرة ملك

دولـة نانيويـه التابعـة لأسـرة هـان الغربيـة، والتـي صُنعـت بطريقـة الـدق لتشـكيل أنمـاط بـارزة، مثـل طريقـة النحـت البـارز، لتعطـي نتائـج ثلاثيـة الأبعـاد، وفـي المقبـرة رقـم 2 التابعـة لأسـرة هـان الشـرقية، والمكتشـفة فـي شـارع قانتشـيوان بمنطقـة خانجيانـغ فـي مقاطعـة جيانغسـو، تـم اسـتخراج مجموعـة مـن حُلـي الزينـة، كالحُلـي المزينـة بالتثقيـب، والخـرزات الذهبيـة الملحومـة، وأحجـار الفيـروز المطعمـة، والكريسـتال، وكلهـا مشـغولات أجنبيـة أتـت مـن خـارج الصيـن، وبعـد انقضـاء عهـد أسـرة هـان الملكيـة، دخلـت -أيضًـا- كل مـن الأطبـاق الفضيـة القادمـة مـن الدولـة الرومانيـة، والدولـة الساسـانية، والأوعيـة والغلايـات الفضيـة القادمـة مـن مناطـق آسـيا الوسـطى إلـى الصيـن بشـكل متتابـع.

وتتميـز العديـد مـن القطـع الأثريـة الأجنبيـة المكتشـفة داخـل الصيـن بأنهـا لا مثيـل لهـا فـي العالـم أجمـع، كمـا أنهـا تحتـوي -علـى الأقـل- علـى 5 مميـزات، وهـي: منطقـة الاسـتخراج المحـددة، والحصـول عليهـا مـن خـلال التنقيـب العلمـي، ووضـوح الحـد الأدنـى للفتـرة الزمنيـة التـي صُنعـت فيهـا (منقـوش علـى ضريـح القبـر)، ووجـود علاقـة دمج بيـن مختلف المشـغولات الأثريـة، وحفظهـا بشـكل جيـد، كمـا أن هـذه القطـع الأثريـة نـادرة الوجـود فـي أماكـن إنتاجهـا الأصليـة مثـل منطقـة البحـر الأبيـض المتوسـط، وغـرب آسـيا، ومنطقـة آسـيا الوسـطى، وغيرهـا، وتوضـح هـذه المشـغولات الثمينـة مـدى قـوة التواصـل بيـن الصيـن ومختلـف دول الغـرب قديمًا.


الأوعية الفضية القادمة من منطقة آسيا الوسطى


الأطباق الفضية الرومانية



الأطباق الفضية الساسانية

وكانت المنتجات والتقنيات الأجنبية التي كان يحضرها التجار والمبعوثون من كافة الدول إلى الصين جديدة كليًّا بالنسبة للصينيين، حيث أثرت في البداية على الصين من الناحية التقنية، فقد كانت المشغولات الزجاجية، والذهبية والفضية في الصين القديمة تعتمد أكثر على تقنية السبك في البداية، ولم يظهر وقتها تفوق استخدام المواد الخام كالزجاج، والذهب، والفضة في صنع المشغولات، أما بعد دخول المشغولات الأجنبية إلى الصين، بدأ تدريجيًّا استخدام طريقة النفخ في صنع المشغولات الزجاجية، وطريقة الدق في صنع المشغولات الذهبية والفضية، وسرعان ما استوعبت الصين كذلك تقنية التثقيب، واللحم في صنعها، حيث استخدم الصينيون هذه الطرق -أيضًا- في صنع أفران الذهب، ومشغولات التنين الذهبية.

وباستثناء الجزء العملي في استخدام المشغولات القديمة، فقد كانت تحتوي كذلك على ثقافة روحية بداخلها، فبعد دخول البضائع والسلع إلى الصين، عملت -بشكل خفي- على تغيير تفكير الناس آنذاك. ففي الموقع الأثري التابع لعهد أسرة تانغ الملكية، والمكتشف في قرية خه جيا في الضاحية الجنوبية من مدينة شيآن، تم اكتشاف كوب من العقيق على شكل وحش غريب للغاية، والذي قد ظهر قديمًا في الدولة الأشورية غرب آسيا، والدولة الأخمينية في بلاد الفرس، ويُسمى عند الغرب باسم "كوب الريتون" (rhyton)، ويأخذ غالبًا شكل

الكـوب الـزاوي، بفتحـة فـي أسـفله، ليخـرج السـائل منهـا، وليـس لاسـتخدامه علاقـة مـع عـادات حيـاة شـعوب السـهول الوسـطى، والغريـب فـي الأمـر، أنـه بعـد دخـول هـذا النـوع مـن المشـغولات الصيـن، بـدأت تظهـر المشـغولات الفخاريـة المقلـدة لهـا، كمـا ظهـرت فـي مشـاهد اللوحـات الجداريـة التـي تجسـد حيـاة النبـلاء فـي عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة[1]، وقـد احتفظـت المنتجـات المقلـدة بمظهرهـا الـزاوي، ويوجـد فـي أسـفله تجسـيد لوحـش مـا، وبسـبب اختـلاف عـادات الحيـاة، واختـلاف ثقافـة الغـرب عـن ثقافـة الصيـن، لـم تحتـوِ الأكـواب المقلـدة علـى فتحـة فـي أسـفلها لخـروج السـائل منهـا، ممـا أفقـده الجانـب العملـي الأصلـي فيـه، فالسـعي وراء كل مـا هـو غريـب يعنـي بالضـرورة الاهتمـام بالثقافـة الغريبـة (الأجنبيـة)، حتـى لـو اقتضـى الأمـر إسـاءة اسـتخدام عناصـر تلـك الثقافـة الأجنبيـة، فهـو يمثـل -علـى العكـس- مـا يُطلـق عليـه "التحـرر الفكـري".



مشغولات التنين الذهبية التابعة لعهد أسرة هان الملكية

ودائمًـا مـا كانـت تنتهـج الصيــن قديمًـا نهـج الاسـتيعاب وليـس الإحـلال، تجـاه الأشـياء الأجنبيــة المدخلــة إليهــا. فعلــى ســبيل المثــال، تــم اســتخراج أطبــاق فضيــة مــن بيــن المــواد المدفونــة فــي مقبــرة ملــك دولــة تشــيويي القديمــة، والتــي تشــبه "أوانــي الطعــام الصينيــة"، إلا أنــه كانــت هنــاك -أيضًــا- قواعــد ســفلى، ومقابــض علويــة مصنوعــة مــن البرونـز، لتُركـب فـي مـا بعـد علـى هـذه الأطبـاق، وعلـى الرغـم مـن عـدم تناسـق المـواد المكونــة لهــذه الأطبــاق، إلا أنــه بعــد تغييــر شــكلها الأصلــي، أصبحــت مناســبة للــذوق

1- متحف مقاطعة شانشي، ولجنة الإدارة الثقافية: "تقرير حول التنقيب في مقبرة القائد لي شين تونغ التابع لأسرة تانغ الملكية"، "مجلة "الأثريات"، 1974م، العدد 9.

والاستخدام الصيني، وقد ظهرت هذه الطريقة نفسها في أوربا، حيث أضافوا مقابض لمنتجات الخزف الصينية.

وقد عملت المنتجات الأجنبية وثقافتها الخاصة على إحداث تغيير على الفن التقليدي الصيني كذلك، فمع وجود حركة العبور السلسة عبر طريق الحرير، اصطدم نمط الفن الغربي لزخارف النباتات بظاهرة زخارف التنين الصينية الفريدة، ليتقبل الصينيون على الفور أنماط زخارف النباتات الحيوية المختلفة كالياسمين، والعنب، وغيرها، وسرعان ما انتشرت هذه الزخارف، لتعبر عن التغير الكبير في تاريخ الفن الصيني.

وكان يعتقد الأباطرة ومحررو السجلات التاريخية المكتوبة في الصين القديمة أن الصين تمثل مركز العالم، وكانوا يعتبرون سكان الدول المجاورة "أقليةً أجنبية"، ووصفوا الأنشطة التجارية بأنها "جزيات"، وفي الحقيقة، كان مصطلح "الجزيات" مدخلاً لتسميتها بـ"المكافآت"، فهي ما زالت تجسد العلاقات التجارية، والتبادل بين الأمم، لتبلور مفهوم المصالح المشتركة، فجمال البضائع وما تحويه من ثقافة، أدى في النهاية إلى تحول النشاط التجاري إلى امتزاج للثقافات المختلفة.

الفصل الثالث

التقليد.. التعلم.. الدمج.، والابتكار

أي عناصر من الثقافة الأجنبية تقبلها الصينيون؟ ولماذا أقدموا على هذه الاختيارات؟ وكيف تم إعادة التنسيق والتركيب بين عناصر الثقافة الأجنبية والثقافة الصينية؟

علـى مسـتوى العلاقـات العرقيـة فـي تاريـخ الصيـن، نجـد علـى سـبيل المثـال قضـاء الصيـن علـى "انتفاضـة قبائـل البربـر الخمـس"[1]، وشـعور الصينييـن علـى الـدوام بـأن العالـم كلـه يمثـل "دولـة واحـدة، وشـعبًا واحـدًا"، إلا أنـه كيفمـا كان الوضـع القائـم، فـإن التقـاء الثقافـات مـن شـأنه جعـل الأجيـال اللاحقـة تتمتـع بنعـم كثيـرة.

فقـد أثـارت الأشـكال والأنمـاط الجديـدة للمشـغولات الأجنبيـة روح الابتـكار عنـد الشـعوب المحليـة، وبالتالـي، ظهـرت بعـض المجموعـات مـن المشـغولات الفنيـة البديعـة، والمتنوعـة، والمبتكـرة بشـكل حـر وغيـر مقولـب، ففـي بـلاد سـوجديان بمنطقـة آسـيا الوسـطى انتشـر نوع مـن الأكـواب ذات المقابـض الدائريـة، والتـي قلدهـا الصينيـون فـي عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، ففـي البدايـة زينوهـا بنقـوش مـن اللآلـئ المتصلـة، وأضافـوا للمقابـض أجـزاء علويـة وسـفلية للإمسـاك منهـا، وقلـدوا رسـوم البربـر المليئـة بالتفاصيـل الممتعـة تقليـدًا مباشـرًا، وفي مـا بعد، دمجـوا عناصـر ابتـكار جديـدة، وهـي تغييـر الأشـكال البـارزة ذات الزوايـا الثمانيـة، إلـى أشـكال مقعـرة مكونـة ثمانيـة فصـوص، وتغييـر اللآلـئ المتصلة المنقوشـة علـى الحدود إلى ورق شـجر الصفصـاف، وتغييـر المقابـض إلـى مثلثـات ملتويـة الشـكل، وكذلـك تغييـر النقـوش الأساسـية الموجـودة علـى بطـون الأكـواب إلـى رسـوم على الطـراز المتـداول في عهد أسـرة تانـغ الملكية، مثـل رسـوم الصيـد، أو رسـوم النسـاء بالـزي الصينـي التقليـدي، وفـي البدايـة كان اسـتخدام

1- هي عبارة عن حركة تمرد قامت بها 5 قبائل من البربر التي استوطنت أجزاء من منطقة آسيا الوسطى بشكل تدريجي، وكان الهدف منها استغلال فترة ضعف حكم أسرة جين الملكية، للاستيلاء على الحكم. (المترجِمة)

هــذه الأكــواب عمليًّــا، أكثــر منهــا اســتعراضية، ولكــن، مــع تغييــر نمــط مقابضهــا، أصبــح اسـتخدامها أيسـر، وفـي النهايـة، انتشـر صنـع هـذه المقابـض ليصـل إلـى صناعـة المشـغولات الفخاريــة والخزفيــة أيضًــا[1]، ومــن ثــم انتشــرت المشــغولات ذات المقابــض بيــن الأجيــال اللاحقــة.

وبعــد دخــول المشــغولات ذات الفصــوص المتعــددة مــن منطقــة آســيا الوســطى إلــى الصيــن[2]، ســرعان -أيضًــا- مــا تغيــر نمطهــا ليمتــزج مــع نمــط أســرة تانــغ البديــع، حيــث تغيــرت الفصــوص البــارزة، وقطــرات المــاء الدقيقــة إلــى تزييــن علــى شــكل خــوخ، وبتــلات زهــور اللوتــس؛ حيــث إن شــكل المشــغولات لــه علاقــة بعــادات الحيــاة اليوميــة، وبالتالــي، لــم يكــن متــداولًا التقليــد المباشــر للمشــغولات الأجنبيــة، فقــد كان لا بــدَّ مــن إعــادة التنســيق والتعديــل، لكــي يتقبلهــا النــاس، وتصبــح متداولــة بشــكل دائــم.

وفــي الوقــت الــذي اعتمــد فيــه الصينيــون فــي عهــد أســرة تانــغ الملكيــة علــى ثقافتهــم الفنيــة فــي تقديــر الفــن الغربــي، عملــوا علــى إجــراء تعديــلات كثيــرة علــى المنتجــات الغربيــة لتصبــح منتجــات مبتكــرة مناســبة لاســتخدام الصينييــن، حيــث ظهــرت تصميمــات شــبيهة بالــورود، تعكــس اختيارهــم للثقافــة الأجنبيــة وتعديلهــم عليهــا، لتندمــج بشــكل طبيعــي فــي الــذوق الجمالــي للشــرق، وقــد انتشــرت بنجــاح كبيــر الأنمــاط الجديــدة بعــد التعديــل، وأصبحــت الأكــواب والأوعيــة ذات النقــوش علــى شــكل بتــلات الأزهــار، والأكــواب الطويلــة التــي علــى شــكل أزهــار التيــار الرئيــس للأوانــي المســتخدمة فــي فتــرة منتصــف وأواخــر عهــد أســرة تانــغ، وحتــى عهــد أســرة ســونغ، وبدخــول المشــغولات مــن الغــرب، أحدثــت كذلــك تغيــرًا بدرجــة معينــة فــي نمــط حيــاة الشــعب الصينــي، فهــا هــي اللوحــة الجداريــة بمقبــرة الأميــرة فانــغ لينــغ بمقاطعــة شانشــي، والتــي تُظهــر النســاء بــزي تقليــدي يحملــن فــي أيديهــن مشــغولات تتميــز معظمهــا بالنمــط الأجنبــي، والتــي لا

1- مركز البحوث الأثرية التابع للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية: "المقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية في حديقة شينغ يوان بمدينة يان شه"، دار العلوم للنشر، 2001م.

2- انظر تشي دونغ فانغ: "الأوعية الفضية المصنعة في دولة سوجديان والمكتشفة في الصين"، "دراسة حول المشغولات الذهبية والفضية في عهد أسرة تانغ الملكية"، الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، 1999م.

بدَّ وأن تكون انعكاسًا حقيقيًّا لحياة النبلاء في ذلك الوقت.[1]

أما "الأباريق" التي ظهرت وانتشرت في عهد أسرة تانغ الملكية، فتمثل القبول المباشر للمشغولات الأجنبية، فهي عبارة عن مشغولات بيضاوية الشكل، ذات عنق طويل ودقيق، وفتحة في الأعلى لتدفق المياه تشبه في شكلها فم الطائر، ومعها غطاء، وتحتوي على مقبض معوج مركب على الجزء الواصل بين الفتحة وحتى منتصف الإبريق، وتدوِّن الوثائق التاريخية أن مصدرها يأتي من الدولة الرومانية الشرقية، وغيرها من الأماكن، ولها شكل غريب[2]، وقد أهدت كل من دولتي توفان القديمة، وأنلوشان القديمة، وغيرها من الدول هذه "الأباريق" إلى الأسرة الصينية الحاكمة، ويحتفظ مخزن شوسو-إن في معبد تودايجي بمدينة نارا اليابانية بإبريق فضي ذي طلاء مجرد، وأُطلق عليه في كتاب "مخطوطات معبد تودايجي" المدون في العام الثامن من تقويم تينبيوشوشو (Tenpyō-shōhō) الياباني (756م) اسم "الإبريق المطلي ذي الفتحة العلوية"[3]، وعلى الرغم من أن هذا الإبريق لم يكن اختراعًا صينيًّا في الأصل، إلا أنه وبسبب سهولة استخدامه، سرعان ما أصبح أداة حديثة تشكل جزءًا من حياة الصينيين في عهد أسرة تانغ الملكية، واستُخدم الفخار والخزف كذلك لسد احتياجات المجتمع الواسعة، ليصبح أداة دائمة الاستخدام في بيوت عامة الشعب.

والأهم من التغير على مستوى المشغولات والأدوات كان التغير على مستوى الأثاث المنزلي، ففي الأصل كان الصينيون يفترشون الأرض مباشرة عند الجلوس، وكان الأثاث المناسب للمنزل والمتناسق مع هذه الجلسة هو الطاولات القصيرة، وصواني تقديم الطعام قصيرة الأرجل، وغيرها من الأشياء المشابهة، وفي ما بعد،

1- أن جنغ دي: "تقرير حول التنقيب في مقبرة الأميرة فانغ لينغ التابعة لأسرة تانغ الملكية"، مجلة "وين بوه" للعلوم الأثرية، 1990م، العدد الأول.

2- "قراءات في عهد الإمبراطور جاو قوانغ إي (الإمبراطور الثاني في عهد أسرة سوي الشمالية)"، اقتباس من المجلد 758 "سجلات دولة تشيانليانغ التابعة للمناطق الغربية"، وأيضًا انظر "السجلات التاريخية حول الدويلات الست عشرة بالمناطق الغربية"، المجلد 72. "في عهد الملك جانغ قوي (ملك دولة تشيانليانغ)، أهداه بعض التجار الأجانب القادمين من الغرب إبريقًا ذهبيًّا، مصنوعًا في الدولة البيزنطية، ذا شكل غريب، وكان طويلًا، وله مقبضان"، وتُشير "الدولة البيزنطية" إلى الدولة الرومانية الشرقية، ويُقصد بالتجار الأجانب أي القادمين من منطقة وسط وغرب آسيا.

3- متحف نارا الوطني: "المعروضات بمخزن سوشو-إن في معبد تودايجي"، قاعة المعروضات، 1990م.

دخل إلى الصين نوع من المقاعد المريحة سهلة الحمل والقادمة من المناطق الغربية، وسُميت بـ"الأسرة (الكراسي) الأجنبية"[1]، وهي نفسها نوع الكراسي القابلة للطي التي ما زالت تُستخدم حتى يومنا هذا، وهي كذلك المعروفة باسم "ماجار (كراسي قابلة للطي)"، وتغير اسمها بعد الدخول إلى عهد أسرة سوي الملكية لتصبح "جياوتشوانغ (كراسي قابلة للطي ذات مسند خلفي)"، وكان الجالس عليها يعلق ساقيه لأسفل، لتلامس قدماه الأرض (كجلسة التربع)، وقد تأثر هذا النوع من الكراسي بجلسة المتربع البوذية، وفي النهاية ظهر نوع الكراسي ذات الأرجل الطويلة، وكانت تُسمى الكراسي ذات مسند الظهر العالي في عهد أسرة تانغ الملكية باسم الأسرة ذات الحبال، أو الأسرة (الكراسي) ذات المسند، وفي عهد أسرة سوي الملكية قُدِّم تفسير واضح لها، حيث وُصفت بأنها كراسي لها مسند خلفي، ويمكن أن تُستخدم لجلسة التربع أيضًا[2]، وفي نهاية عهد أسرة تانغ الملكية، ظهر رسميًّا الجذر الصيني المعبر عن الخشب في رمز "كرسي椅"، وبعد الدخول في فترة عهد أسرة سونغ الملكية، غيَّر الصينيون عادتهم في الجلوس على ركابهم إلى الجلوس على الكراسي.

وقد أدى التغير في نمط الأثاث المستخدم إلى إحداث مجموعة من التغيرات في العادات اليومية كذلك، فالأثاث ذو الأرجل العالية لا يتناسب أبدًا مع جلسة الأرض التي اعتاد عليها الصينيون، وقد أدت الكراسي المصنوعة مع الطاولات إلى حرية الحركة والتنقل داخل المنزل، وأيضًا توسيع آفاق الصينيين، كما حدثت تغيرات

1- "تاريخ الممالك الثلاث.. كتاب تاريخ أسرة ويي الملكية.. مجلد السيرة الذاتية للمعلم سو زيه"، يدون: "كان الإمبراطور تساو بي عندما يذهب للصيد، يبدأ في تجهيز أدوات الصيد، وعندما يفقد أثر الغزلان يغضب بشدة، ويجلس على كرسيه القابل للطي، حاملًا السكين، وفي انتظار الإشارة من المراقبين، ليبدأ هجومه"/ إي شوي: "حديث حر حول الكراسي القابلة للطي.. 3 تغيرات في الأثاث المنزلي في الصين القديمة"، مجلة "الأثريات"، 1982م، العدد 10: "كان مصدر الكراسي قديمًا من مصر ومنطقة غرب آسيا، وقد تم استخراج كرسي خشبي ذي أرجل عالية، ومسند خلفي، تابع لعهد أسرة هان الملكية، من مدينة نيا القديمة الواقعة في مدينة خه تيان بمنطقة شينجيانغ، ولربما أثر شكل هذا النوع من الكراسي على الأعمال الفنية لدى الهنود القدماء، مما جعل رسوم تصوير الديانة البوذية عندهم مشابهة للتماثيل التي على طراز غاندارا (مملكة الهند القديمة)، التي تُظهر البوذيين بوضعية الجلسة المتربعة، وفي ما بعد، ظهرت بشكل أكبر المجسمات البوذية ذات الهيئة الجالسة على كرسي عالٍ بمسند خلفي"/ خوانغ جنغ جيان: "الكراسي والأسرة ذات الحبال في عهد أسرة تانغ الملكية"، مجلة "الأثريات"، 1990م، العدد 7.

2- "مرآة الإدارة السياسية في الصين"، اقتباس من "تاريخ التغيرات في 3 فترات زمنية (حتى عهد أسرة سونغ الملكية)" لكاتبه تشينغ دا تشانغ: "جياو تشوانغ، أو الأسرة ذات الحبال، يمتلك الجميع واحدًا منها أو كليهما في عصرنا الحالي.، ويتكون السرير ذو الحبال من لوح يجلس الشخص عليه، ومساحته كبيرة حيث يمكن أن يسع الركبة أيضًا، وله مسند خلفي، ومسندان جانبيان لاتكاء الذراعين عليهما، وله 4 أرجل سفلية عمودية على الأرض".

فـي أشـكال أوانـي الطعـام اليوميـة وزينتهـا، ففـي أواخـر عهـد أسـرة تانـغ وبالدخـول إلـى عهـد أسـرة سـونغ كان تصميمهـا اسـتعراضيًّا مليئًـا بنقـوش الأزهـار، وتحـول تزيينهـا المقتصـر علـى الجـزء الخارجـي فقـط إلـى تزييـن الجـزء الداخلـي منهـا كذلـك، وبسـبب التغيـر فـي وضعيـة الانحنـاء علـى الطـاولات لإبـداع الأعمـال الفنيـة، تغيـر معهـا -أيضًـا- السـعي الفنـي فـي مجالـي حياكـة الثيـاب، وكتابـة الخطـوط، وقـد أدى التغيـر فـي نمـط الأثـاث المسـتخدم كذلـك إلـى ظهـور متطلبـات جديـدة لآداب التواصـل مـع الآخريـن، حيـث كان يـرى معلمـو الآداب الكونفوشيوسـية أن "القدمـاء كانـوا يجلسـون علـى الكراسـي وأقدامهـم ممـدودة إلـى الأمـام مـع فتـح سـيقانهم، أمـا الآن فنجلـس علـى الأرائـك بوضعيـة التربـع، وهـذه هـي الآداب الصحيحـة، بعكـس الوضعيـة الأولـى"، وأنـه "عنـد اسـتقبال الضيـوف، مـن الأنسـب الجلـوس معهـم بوضعيـة التربـع"[1]، ومـن هنـا نـدرك أن تغيـر الأثـاث لـم يكـن ثـورة سياسـية قويـة، بـل كان تغيـرًا بالكامـل فـي حيـاة النـاس وأفكارهـم.

وكان هنــاك -أيضًــا- تجســيد واضــح لمــزج الموســيقى، والرقــص، والثيــاب، وغيرهــا مــن المجـالات مـع الثقافـة الأجنبيـة. ففـي بدايـة عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، "مـزج عالـم الموسـيقى زو شـياوي سـون -بأمـر مـن الإمبراطـور- بيـن الموسـيقى القديمـة لـكل مـن دولتـي تشـينقوه وليانغقـوه، ودولتـي أوقـوه وتشـوقوه الواقعـة فـي المناطـق الغربيـة، وكانـت تتضمـن الموسـيقى القديمـة لدولتـي جووقـوه وتشـيقوه بشـكل أكبـر المغنيـات والراقصـات القادمـات مـن المناطـق الغربيـة، وبالتالـي، قـرر -بعـد تفكيـر طويـل- اسـتخدام الموسـيقى القديمـة فـي الشـمال والجنـوب لاسـتحداث موسـيقى أسـرة تانـغ"[2]، وبعدهـا بفتـرة قصيـرة، أتـم 10 مقطوعات موسـيقية، قسَّـمها إلى موسـيقى يان، موسـيقى تشـينغ، موسـيقى شـيليانغ، موسـيقى تيانجـو، موسـيقى قاولـي، موسـيقى كويتسـي، موسـيقى أنقـوه، موسـيقى شـوليي، موسـيقى كانغقـوه، وموسـيقى قاوتشـانغ (وكلهـا أسـماء لـدول فـي المناطـق الغربيـة)، واسـتوعبت هـذه

1- "مجموعة من محادثات المعلم جو (تلميذ كونفوشيوس)"، المجلد 91، "التقاليد والآداب في فترة حكم أسرتي تانغ وسونغ"، الجزء الثاني.

2- "تاريخ أسرة تانغ القديم"، المجلد 79، "السيرة الذاتية لعالم الموسيقى زو شياو سون"، الهيئة الصينية للكتاب، 1975م، صفحة رقم 2710.

الموسـيقى -علـى نطـاق واسـع- خلاصـة الموسـيقى والأدوات الموسـيقية لكافـة القوميـات والبلـدان الأجنبيـة، لتكسـر بذلـك رتابـة الثقافـة التقليديـة، وقـد تـم الحفـاظ علـى ثقافـة الرقـص الأجنبـي مـن خـلال اللوحـات، والتصاميـم؛ حيـث ظهـر رقـص خوشـيوان الشـعبي ذو الخطـوات السـريعة والحماسـية والتابـع لمنطقـة آسـيا الوسـطى فـي تصاميـم تزييـن بعـض المشـغولات فـي الصيـن، وفـي عهـد أسـرة ويـي الشـمالية، كانـت قبائـل الرعـاة تحمـل علـى ظهـور خيولهـا الأباريـق التـي كانـوا يفضلونهـا، وكان مرسـومًا عليهـا تجـار البربـر ذوي الأنـوف الطويلـة، وفـرق رقـص خوشـيوان، وقـد أشـار الصينيـون التابعـون لعهـد أسـرة تانـغ بـكل وضوح إلـى منبـع هـذا النـوع مـن الرقـص مـن دولـة سـوجديان بمنطقـة آسـيا الوسـطى[1]، ففـي البدايـة انتشـر هـذا النـوع مـن الرقـص بيـن البربـر الأجانـب[2]، وبعدهـا انتشـر فـي كافـة أرجـاء الصيـن تقريبًـا. ففـي الكهـف رقـم 220 مـن بيـن سلسـلة كهـوف مـوه قـاو المنحوتـة فـي حجـارة الكهـف والتابعـة لبدايـات عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، نجـد بهـا التصويـر البديـع والمثالـي لأوضـاع هـذا النـوع مـن الرقـص ذي المهـارة الكبيـرة صعبـة التصويـر، حتـى أنـه اكتُشـفت نقوشـها علـى الأبـواب الحجريـة لمقابـر أسـرة تانـغ الملكيـة فـي مدينـة يانتشـه بمقاطعـة نينغشـيا[3]، وقـد اسـتُخدمت هـذه المجسـمات كذلـك فـي تزييـن المشـغولات الخزفيـة، والتـي اكتُشـفت فـي معابـد مدينـة تشانغشـا بمقاطعـة خونـان، وتمثـل الـروح القويـة للموسـيقى والرقـص فـي عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة ملمحًـا روحيًّـا مختلفًـا عمـا كان

1- ليو يان شه "مقطوعات شعرية حول حفلات رقص خوشيوان المسائية": كان عدد الراقصين من دولة شه قوه قليلًا.. وكانوا يرقصون قبل تناول النبيذ مثل سرب من الطيور/ يرتدون قبعات عالية مجوفة من الداخل.. وسترات ناعمة لها كم قصير/ وتتدلي من أيديهم مصابيح على شكل عناقيد عنب.. لتضيء لهم الطريق نحو أوطانهم البعيدة في الغرب/ ويقفزون ويدورون في دوائر تشبه عجلات العربات.. مرتدين أحذية عالية بنقوش بديعة للأزهار/ في ظل صمت من الحضور وتحديق في رقصهم.. وأصوات الناي والعود تعم الأرجاء/ يدورون كالثلج المتساقط الممتزج مع السجاد.. كما لو كان زهورًا تسقط بخفة على شمع لونه أحمر/ ويتميز رقص خوشيوان بأوضاعه الجريئة والمهيبة، حيث يدورون ويقفزون ويتبخترون على السجاد المفترش على الأرض، وقد وصف الشاعر باي جيو إي هذا النوع من الرقص قائلًا: "يدورون يمينًا ويسارًا دون كلل.. كل يوم دون توقف أو ملل". كما وصفه الشاعر تسين تسان -أيضًا- قائلًا: "يدورون للأمام والخلف مثل الثلج المتطاير.. ويدورون يمينًا ويسارًا مثل دوامة الهواء".

2- ذكر كتاب "تاريخ أسرة تانغ القديم.. مجلد تاريخ الموسيقى" هذا النوع من الرقص، قائلًا: "كان الراقصون يدورون بسرعة كبيرة مثل الرياح في رقصة سُميت برقصة خوشيوان الشعبية، وكانت تتكون الأدوات الموسيقية المستخدمة في موسيقاها من نايَيْن، وطبلة، وطبلة عادية، وصنج"، وذكر كتاب "تاريخ أسرة تانغ الجديد" شعب دولة أنلوشان الواقعة في المناطق الغربية، حيث وصفهم بأنهم بدناء للغاية، "كانوا ذوي بطون وركاب كبيرة وسمينة"، إلا أنهم كانوا يجيدون رقص خشيوان الشعبي، "ولكنهم ما زالوا يجيدون الرقص بسرعة كالرياح".

3- متحف مقاطعة نينغشيا ذاتية الحكم: "تقرير حول التنقيب في مقابر أسرة تانغ في مدينة يانتشه بمقاطعة نينغشيا"، مجلة "الأثريات"، 1988م، العدد 9.

موجـودًا مـن قبـل، ويرجـع الفضـل فـي ذلـك إلـى اسـتناد الصينييـن إلـى الفنـون الأجنبيـة كمرجـع لهـم، فقـد اعتمـدوا علـى الموسـيقى والرقـص الأجنبـي كمرجـع لإتمـام وتعديـل فنهـم الخـاص، وإرضـاء رغبـة النـاس فـي العصـر الحديـث السـاعين إلـى الاسـتمتاع الروحـي، كمـا أن فـن الموسـيقى والرقـص فـي الصيـن القديمـة كان يتمتـع فـي الغالـب بطبيعـة "البحـث عنـه بعـد تحقيـق إنجـازات الإمبراطـور أولًا"، حيـث كان مرتبطًـا بآليـة الطقـوس، وكان يُعبِّـر عـن اسـتيعاب مسـتوى الطقـوس الصينيـة للثقافـة الأجنبيـة.



لوحة جدارية لرقص خوشيوان في المعبد رقم 220 بين سلسلة
معابد موه قاو التابعة لبدايات عهد أسرة تانغ



لوحة جدارية لرقص خوشيوان في المعبد رقم 220 بين سلسلة
معابد موه قاو التابعة لبدايات عهد أسرة تانغ

وكان تجسيد جمال الطبيعة هو ما يسعى إليه الفن في كل من دولة اليونان القديمة (تحت الحكم الروماني)، وقد انتهز بعض الرسامين التابعين للمناطق الغربية سلاسة العبور خلال طريق الحرير، ونقلوا مجموعة من اللوحات نحو الشرق. فمن بين الأقمشة المستخرجة من المقابر القديمة التابعة لعهد أسرتي هان وجين الملكيتين، والمكتشفة في مدينة يولي بمنطقة شينجيانغ، يمكننا أن نرى تصويرًا لأنماط أناس تابعين لدول أجنبية على تلك الأقمشة، وفي عهد أسرة تشي الشمالية، هاجر الرسام تساو جونغ دا من منطقة آسيا الوسطى إلى الصين، وكانت الشخصيات التي يجسدها في أعماله "ذات أجساد متداخلة بكثافة، وثياب ضيقة"، كما لو كانت الثياب مبتلة وملتصقة على أجسادهم، ولهذا، اشتهرت في ما بعد مقولة "ها هي ثياب تساو المبتلة" (لوصف الثياب المبتلة كناية عن الرسام تساو جونغ دا)، وقد تقبل الناس على نطاق واسع هذا النمط الفني في عهد أسرتي سوي وتانغ الملكيتين، ومع التغير في نمط التماثيل الفخارية، ظهرت التماثيل

الجميلة والأنيقة في بداية عهد أسرة تانغ، والتماثيل الرومانسية في فترة ازدهار حكم أسرة تانغ، وانتشرت هذه الأنماط وأخذت طريقها في التوسع في فترة لاحقة من عهد أسرة تانغ، وبالنسبة للثياب، فقد انتشرت الجلابيب الصينية التقليدية الواسعة في عهد أسرتي هان وويي الملكيتين، حتى تلقت صدمة من الملابس الأجنبية الغريبة والجريئة، وكان الأكثر إثارة في تغير الملابس النسائية استخدام القبعة ذات الستار، والقبعة ذات الوشاح، وقبعة البربر، ويمثل النوع الأول من هذه القبعات تلك التي ينسدل منها قطعة قماش قطنية تغطي كامل الجسد، والنوع الثاني من القبعات ينسدل منها قطعة قماش قطنية تغطي حتى الرقبة فقط، أما النوع الثالث فلا ينسدل منها أي أقمشة. ففي البداية، تحولت الملابس من النوع الذي يغطي كامل الجسد ويمنع الرؤية من خلاله، إلى نوع آخر يسمح بإظهار الوجه المضاف إليه مستحضرات التجميل، مما أدى إلى استنكار شديد من قبل الإمبراطور لي جه (إمبراطور أسرة تانغ)، حيث كان يرى أن "الأهواء الخاطئة تؤدي بالضرورة إلى فقدان عميق للآداب العامة"، واعتبر ذلك فعلاً مشينًا وتافهًا، إلا أن هذا الاتجاه الجديد لهذا النوع من الثياب لم يتغير بسبب معارضة الإمبراطور، بل صدر مرسوم يعتمده بعد 60 عامًا في عهد الإمبراطور لي لونغ جي (إمبراطور أسرة تانغ)، كما طالب النساء بـ"نزع القبعات لكشف وجوههن، وأنه لا ضرورة لإخفائها"، مما شجع النساء على كشف وجوههن وإضافة مستحضرات التجميل.

ومن خلال طريق الحرير، عبرت أعداد كبيرة من كافة دول وقبائل الغرب إلى داخل الصين، وأحضر كل من رجال البربر ونسائهم الأجانب ذوي الثياب الغريبة نزعة جمالية غريبة في تصميم الثياب، ومن هنا، تحولت ثياب النساء الصينيات في عهد أسرة تانغ من الساترة لكامل الجسد، إلى الثياب الضيقة الملتصقة بالجسد، ومن ثم تحولت إلى ثياب كاشفة للصدر، مما أدى إلى تغيرات في فنون التصميم في الصين القديمة التي افتقرت إلى السعي نحو الجمال الجسدي، وقد كان الأهم من ذلك هو المغزى الاجتماعي لهذه الظاهرة غير التقليدية المتأثرة بالثقافة الغربية، والذي لا بدَّ وأن يعبر عن تغير عميق في المفاهيم الاجتماعية.

تُظهـر لنـا الأثريـات القديمـة عالمًـا مليئًـا بالتغيـرات البديعـة علـى مـر الأزمنـة، فـكل تفصيلـة مليئـة بالإثـارة فـي صنـع المشـغولات القديمـة وتطورهـا تجسـد لنـا حكمـة القدمـاء ومشـاعرهم، كمـا تُظهـر المـزج بيـن الثقافـة الصينيـة والثقافـات الأجنبيـة؛ حيـث تجـاوزت دائمًـا الهدايـا الثقافيـة المتبادلـة والناتجـة عـن كل مـن الهجـرة، والغـزوات، والتواصـل والتجـارة بيـن الأمـم فـي عهـد أسـرتي هـان وتانـغ الملكيتيـن، تجـاوزت التصـورات الأوليـة لهـا، فخـلال هـذه المرحلـة، تقبـل الصينيـون فكـرة دور الثقافـات الأجنبيـة فـي إحـداث تغيـرات مسـتمرة، لكسـر قيـود الـدول، والقبائـل، والأقاليـم، وتخلـوا عـن المفهـوم الفاسـد القائـل بـ"ضـرورة اختـلاف العاطفـة عنـد الأجانـب مـا دامـت دماؤهـم مختلفـة عنـا"، وبـادروا -بـروح التسـامح والانفتـاح وبنيـة حسـنة- بالتواصـل مـع كافـة الأمـم، وحفـزوا بشـكل كبيـر ظهـور التكامـل الجديـد للثقافـة الصينيـة وروعتهـا، كمـا سـرَّعوا مـن التنميـة المشـتركة للحضـارات فـي الشـرق والغـرب.

الباب التاسع

الحضارات الأجنبية في عهد أسرة هان الملكية وتحويلها إلى الطراز الصيني

تقنية تشكيل الطراز المقوس بالقراميد الصغيرة والمنحوتات الحجرية للوحوش الأسطورية نموذجًا

(ويي جنغ)

تُعد فترة حكم أسرة هان الملكية الفترة المزدهرة الأولى التي تستوعب فيها الصين بقوة الحضارات الأجنبية، فبعد شق الجنرال جانغ تشيان طريقه نحو المناطق الغربية، أصبح طريق الحرير المار عبر منطقة شينجيانغ حاليًا ممرًّا أساسيًّا للتبادل بين الصين وخارجها، وبالمقارنة مع فترة ما قبل حكم أسرة تشين الملكية، نجد انخفاض أهمية طريق المراعي المنغولية الذي اعتُبر ممرًّا أساسيًّا للتبادل بين الصين وخارجها في ذلك الوقت، أما طريق الحرير البحري فقد شُقَّ تقريبًا في أواسط عهد أسرة هان الغربية، مما أدى إلى فتح كامل لثلاثة ممرات كبرى للتبادل بين الصين وخارجها، وقبل ذلك، نجد وضوح طابع ثقافة البراري (ثقافة القوميات القاطنة في المناطق العشبية في الصين) على عناصر الثقافة المدخلة إلى الصين عبر طريق المراعي المنغولية، مثل الأسلحة البرونزية، والأدوات ذات نقوش الحيوانات، وغيرها، وبعد اعتماد طريق الحرير المار عبر منطقة شينجيانغ كممر رئيس، استمرت عناصر ثقافة البراري في الدخول إلى الصين، إلا أن العناصر الثقافية المستندة إلى الحضارة الزراعية والبحرية، والقادمة من مناطق وسط وغرب آسيا، والهند، وحتى اليونان القديمة (تحت الحكم الروماني)، أصبحت كلها تيارات رئيسة داخل الصين، كما أثرت بشكل عميق على الحضارة الصينية، واقتصارًا منا على حجم المحتوى المقدم، سيقدم هذا النص نقاشًا موجزًا حول تقنية تشكيل الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة، والمنحوتات الحجرية للوحوش الأسطورية المتعلقة بالمقابر القديمة؛ حيث إن النقطة المشتركة بينهما هي كونهما خضعا لتعديلات من قِبل الحضارة الصينية عند دخولهما إلى الصين، وتعكس المقارنة -بشكل نموذجي- عملية التبادل الثقافي والاندماج بين الحضارة الصينية والأجنبية.

الفصل الأول

تقنية تشكيل الطراز المقوس بالقراميد الصغيرة

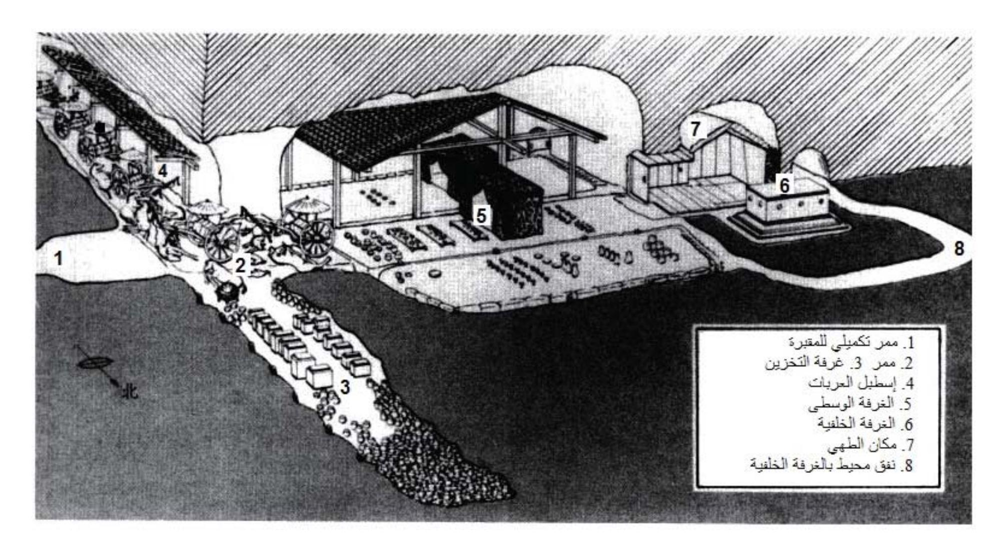
كانت الصين القديمة تعتمد على الزراعة اعتمادًا كبيرًا، وكانت تتقدم طرق عباداتهم بشكل غريب، ومن أحد تجسيداتها تأكيدهم الشديد على طريقة الدفن بعد الموت، وهكذا، ومنذ العصور القديمة وحتى عصرنا الحالي، حافظ الصينيون في مختلف المناطق -على مستوى الصين- على شكل المقابر القديمة، بأعدادها الكبيرة، وحجمها الكبير، وديكوراتها الفاخرة، ومحتواها الغني؛ فمن حيث الشكل نرى أنه يمكن تقسيم هذه المقابر إلى مرحلتين تاريخيتين: الأولى كانت شائعة قديمًا وهي الدفن الرأسي، والثانية انتشرت لاحقًا وهي الدفن الأفقي، ويُقصد بالدفن الرأسي الحفر مباشرة في الأرض، وتختلف أحجام هذه المقابر وأعداد الأشياء التي توضع مع الميت اختلافًا كبيرًا، إلا أن إعادة دفن الحفرة بعد وضع الميت فيها دائمًا ما كان يؤدي إلى الإضرار بالتابوت بسبب الضغط عليه، وبالطبع، كان من الصعب للغاية سرقة هذا النوع من القبور، ويُقصد بالدفن الأفقي هو استخدام الطوب لبناء غرفة، ومن ثم يتم نقل التابوت والأغراض التي ستوضع مع الميت إلى الداخل من خلال "باب الغرفة"، وبهذا يمكن الحفاظ جيدًا على الملامح الأصلية للمكان عند الدفن، إلا أنه من السهل سرقة هذا النوع من المقابر، مما أدى إلى ظاهرة وجود تسع مقابر فارغة من أصل كل عشر مقابر، وبتحول المقابر الرأسية إلى مقابر أفقية، كان التغير الأهم في الطقوس الجنائزية هو: إمكان تقليد المنازل الواقعية وبناء المقبرة على هذا الأساس. فكان للمقبرة قاعة أمامية ترمز إلى الحياة اليومية لصاحب المقبرة، وغرفة خلفية ترمز إلى نومه في أمان وهدوء، أما إسطبل العربات، والمطبخ، والمخزن، والحمام، وغيرها من غرف المنزل الأخرى فكانت تُقلَّد بشكل مختلف بناءً على هوية صاحب المقبرة، وثروته المالية، كما كان هناك -أيضًا- مكان فارغ لعرض اللوحات الجدارية، والتي كانت تجسد هياكل المباني، أو الظواهر الفلكية والخيالية، أو الحياة البشرية، وبالطبع، كانت تُستخدم القراميد

مباشرة لتشكيل هياكل مقوسة، وغيرها من مكونات المقبرة.

ومـن خـلال الشـرح الموجـز السـابق للمقابـر قديمًـا، نجـد أن تحـول الدفـن الرأسـي إلـى الدفـن الأفقـي يُعـد أكبـر حـدث فـي تاريـخ تطـور المقابـر فـي الصيـن قديمًـا، والسـؤال الآن هـو، كيـف حـدث هـذا التحـول؟ ومـا هـي الشـروط التقنيـة التـي دعمتـه؟ وهـذا مـا سـنحاول الإجابـة عنـه فـي السـطور القادمـة.

بعـد تولـي أسـرة هـان الغربيـة زمـام الحكـم، بـدأ بعـض النبـلاء فـي الحفـر فـي بطـون الجبـال لتأسـيس مقابـر فخمـة لهـم، وهنـاك العديـد مـن النمـاذج الموجـودة حتـى الآن لهـذا النـوع مـن المقابـر الضخمـة، مثلمـا فـي مدينـة شـيوجوو بمقاطعـة جيانغسـو، ومدينة تشـيوفو بمقاطعـة شـاندونغ، ومدينـة شانغتشـيو بمقاطعـة خـه نـان، ومدينـة مانتشـينغ بمقاطعـة خـه بيـي، ومدينـة قوانغجـوو بمقاطعـة قوانغدونـغ، ويُعـد حجـم مقبـرة الملكـة ليانـغ لـي فـي مدينـة يونغتشـينغ بمقاطعـة خـه نـان كبيـرًا للغايـة، حيـث يصـل طولهـا إلـى أكثـر مـن 200 متـر، وهـا هـي مقبـرة ملـك دولـة تشـوقوه القديمـة بجبـل دونغشـان الشـمالي لمدينـة شـيوجوو بمقاطعـة جيانغسـو التـي تتكـون مـن هيكليـن علـوي وسـفلي (هيـكل أساسـي وآخـر ملحـق بـه)، والتـي تتميـز ببنائهـا المعقـد مقارنـة بالأبينـة العاديـة، ويرجـع ظهـور هـذا النـوع مـن المقابـر إلـى سـببين رئيسـين: الأول: قيـام الإمبراطـور ليـو خنـغ (إمبراطـور أسـرة هـان الملكيـة) ببنـاء مقبرتـه فـي أعالـي الجبـال، والثانـي: تطـور تقنيـة صهـر وسـبك الحديـد والصلـب منـذ عصـر الـدول المتحاربـة، وبهـذا، تـم خلـق الظـروف المناسـبة لشـق الجبـال، وفـي ظـل الـدور القيـادي للنبـلاء، بـدأ العديـد مـن النـاس -أيضًـا- فـي بنـاء المقابـر الأفقيـة، إلا أنهـم لـم يكونـوا متمتعيـن بهـذا القـدر مـن الثـراء، كمـا أنـه لـم يكـن كل النـاس يجـدون حولهـم جبـلًا بهـذه السـهولة ليحفـروا فيـه مقابرهـم، وبالتالـي، كانـوا أولًا يحفـرون المقابـر الأفقيـة، ومـن ثـم يسـتخدمون الطـوب لبنـاء غـرف داخـل المقبـرة، وكان لقبـاب هـذه الغـرف أشـكال عديـدة، إلا أن كلهـا تسـتخدم فـي جوهرهـا القراميـد الصغيـرة لصنـع الطـراز المقـوس، وقـد ظهـر هـذا النـوع مـن المقابـر لأول مـرة بمنطقـة قوانجونـغ الصينيـة فـي عهـد أسـرة هـان الغربيـة، وبعدهـا بفتـرة قصيـرة، سـرعان مـا انتشـرت علـى مسـتوى الصيـن كلهـا،

واستمر استخدامها حتى العصر الحديث، وأصبحت -أيضًا- سمة أساسية للمقابر في الصين بشكل عام، فهي تُشعر الناس بأنهم حقًّا وُلدوا وترعرعوا وماتوا على تراب هذا الوطن، إلا أنه بإضافة بعض التقصي والبحث، نجد أن هذه المقابر تمثل نتيجة انتشار الثقافة الغربية داخل الصين، ونستند في قولنا هذا إلى الأسباب التالية.[1]



خريطة للمقبرة التابعة لعهد أسرة هان الملكية في مدينة مانتشينغ بمقاطعة خه بيي

انتشرت المقابر على الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة فجأة قبل أواسط عهد أسرة هان الملكية، فالصينيون كانوا قليلاً ما يستخدمون القراميد الصغيرة في البناء، كما كان الطراز المقوس نادر الوجود في الصين، وفي عهد أسرة جوو الغربية ظهرت القراميد، إلا أنها لم تكن شائعة بين الناس، كما أنها كانت مصنوعة من الطوب اللبن، على هيئة مربع، أو شبه مربع، ويبلغ طولها وعرضها بالمقارنة بالقراميد الصغيرة الشائعة في عهد أسرة هان الملكية 2 : 1، لتختلف عنها في الشكل، ولربما تم اكتشاف هذا النوع من القراميد في المواقع

1- للمزيد من المناقشات المتعلقة بهذا الأمر انظر تشانغ تشينغ: "حضارة الغرب وتغيرات المعمار الصيني"، دار التعليم للنشر بمقاطعة خونان، 1992م / شيو يونغ لي: "مناقشات حول مصدر فن بناء القباب المقوسة بالقراميد في عهد أسرة هان الملكية"، جريدة "المعمار"، 2012م، الطبعة السابعة. مصدر البيانات: الأستاذان شيو إي تاو، ووانغ شو لين بمعهد وين بوه الأثري التابع لجامعة بكين.

الأثريـة التـي كانـت مخصصـة لصهـر الحديـد فـي عصـر الـدول المتحاربـة، إلا أنهـا كانـت نـادرة الوجـود فـي هـذه الفتـرة التاريخيـة، وقـد ظهـر الطـراز المقـوس فـي الصيـن فـي زمـن مبكـر، فقـد اكتُشـفت غرفـة ضريـح مقوسـة الشـكل داخـل المقابـر التابعـة لعهـد أسـرة جـوو الغربيـة عنـد مصـب النهـر الكبيـر لمدينـة إي تشـينغ بمقاطعـة شنشـي، كمـا اكتُشـف عـدد كبيـر كذلـك مـن الأضرحـة مقوسـة الشـكل فـي المقابـر التابعـة لعهـد أسـرة تشـين الملكيـة. إلا أن، كل الطـرازات المقوسـة سـالفة الذكـر تكونـت عـن طريـق الحفـر، وهـي مختلفـة عـن تلـك الطـرازات المقوسـة المبنيـة بوعـي، وتُظهـر المـواد الأثريـة الخاصـة بفتـرة أواسـط عهـد أسـرة هـان الغربيـة أنـه لـم تكـن الصيـن فـي الماضـي تمتلـك تقليـد اسـتخدام القراميـد الصغيـرة كمـادة للبنـاء، كمـا لـم تكـن تمتلـك تقنيـة بنـاء الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة، ومـن هنـا، وبسـبب تبلـور المنظومـة الذاتيـة للبنـاء المدنـي فـي الصيـن قديمًا، عمـدت مناطق السـهول الوسـطى، والمناطـق الشـمالية إلـى اسـتخدام التربـة المدكوكـة لبنـاء الجـدران، بينمـا اسـتخدمت المناطـق الجنوبيـة الألـواح والأعمـدة الخشـبية لبنائهـا، كمـا اسـتُخدمت الأخشـاب لبنـاء القبـاب علـى شـكل متقاطـع، واسـتُخدمت الأخشـاب كذلـك فـي بنـاء الأبـواب والنوافـذ علـى شـكل مربـع، وقـد وصلـت منظومـة البنـاء هـذه فـي أواخـر العصـر الحجـري الحديـث -علـى الأكثـر- إلـى مرحلـة النضـج، كمـا هـي الحـال فـي الغـرف الكبيـرة المكتشـفة فـي موقـع داديـوان الأثـري فـي مدينـة تشـين آن بمقاطعـة قانسـو، والأبنيـة ذات الأعمـدة (علـى نمـط الطوالـة الهندسـي) المكتشـفة فـي موقـع خـه مـو دو الأثـري فـي مدينـة يويـاو بمقاطعـة جـه جيانـغ، وبالتالـي، لـم يكـن اسـتخدام تقنيـة تشـكيل الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة ذا نفـع فـي ظـل وجـود منظومـة البنـاء الذاتيـة هـذه.

ولكـن، كانـت أحـوال منظومـة البنـاء الغربـي علـى عكـس ذلـك تمامًـا. فقبـل القـرن الثالـث أو الرابـع قبـل الميـلاد، كانـت مصـر ومنطقـة غـرب آسـيا تسـتخدمان القراميـد الصغيـرة بالفعـل، وكانـت هنـاك علاقـة مباشـرة بيـن اسـتخدام القراميـد الصغيـرة المصنوعـة مـن الطـوب اللبـن وعنصـر المنـاخ. فالمنـاخ فـي مصـر ومنطقـة غـرب آسـيا جـاف طـوال العـام، فكانـوا يسـتخدمون جـذوع النباتـات لخلـط وتقليـب الطيـن، وضغطـه علـى هيئـة مسـتطيلات، ووضعـه فـي الشـمس بعـض الوقـت ليجـف، دون

الحاجـة لحرقـه فـي الأفـران، ومـن ثـم تتشـكل قراميـد الطـوب اللبـن الصلبـة، وكان يُسـتخدم هـذا النـوع مـن القراميـد -علـى نطـاق واسـع- فـي بنـاء الجـدران، وبالطبـع، كان الغـرب كثيـرًا مـا يسـتخدمون القراميـد الصغيـرة المحروقـة، فقـد كانـت دولـة اليونـان القديمـة (تحـت الحكـم الرومانـي) تسـتخدم هـذا النـوع مـن القراميـد الصغيـرة فـي بنـاء العديـد مـن الأبنيـة، وبسـبب صلابـة القراميـد الصغيـرة المحترقـة داخـل الأفـران، نجـد بعـض الأبنيـة الرومانيـة مبنيـة علـى ارتفـاع شـاهق، مثـل الحمامـات، وبالنسـبة للطـراز المقـوس، فقـد ظهـر لأول مـرة فـي منطقـة غـرب آسـيا، حيـث ظهـرت المبانـي علـى الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة قبـل 2000 عـام قبـل الميـلاد تقريبًـا، وكان أشـهرها وأقدمهـا هـي بوابـة عشـتار (Ishtar Gate) التـي ترجـع إلـى عهـد مملكـة بابـل، وهـي إحـدى البوابـات الثمانـي لمدينـة بابـل الداخليـة، وقـد بُنيـت فـي العـام 575 ق.م، وتُعـد تحفـة معماريـة أمـر الملـك نبوخـذ نصـر الثانـي ببنائهـا آنـذاك، وفـي عهـد الإمبراطوريـة الرومانيـة تمـت الاسـتفادة مـن تقنيـة الطـراز المقوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة لأبعـد مـدى، حيـث هنـاك العديـد مـن الأبنيـة الشـهيرة الموجـودة حتـى وقتنـا الحالـي والتـي تشـهد بهـذا، مثـل بوابـة قـوس النصـر بباريـس، ومـدرج الكولوسـيوم، والقصـر الرومانـي، وغيرهـا مـن الأبنيـة الأثريـة، وعلـى الرغـم مـن اسـتخدام الحجـارة فـي بنـاء العديـد مـن هـذه الأبنيـة، إلا أنـه هنـاك -أيضًـا- العديـد مـن الأبنيـة التـي اسـتُخدمت القراميـد فـي بنائهـا، ومـع توسـع الإسـكندر الأكبـر فـي حملاتـه العسـكرية نحـو الشـرق، أنشـأت دولـة اليونـان القديمـة -أيضًـا- مدينـة اسـتعمارية فـي منطقـة آسـيا الوسـطى، وتُعـد الأبنيـة العديـدة علـى الطـراز المقـوس المكتشـفة داخـل حـدود دولـة أفغانسـتان حـاليًا نـاتـج



بوابة عشتار التابعة لعصر مملكة بابل الجديدة

توسع الإسكندر الأكبر في حملاته العسكرية نحو الشرق، ويمكن القول إن تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة قد وصلت إلى مشارف الصين منذ القدم، ولكنها انتظرت الفرصة المناسبة لتدخل إليها، وقد أُتيحت هذه الفرصة عندما بدأ الجنرال جانغ تشيان في شق الطريق نحو المناطق الغربية.

وفي الماضي، كان يُرى غالبًا أن الصينيين هم من اخترعوا بأنفسهم تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة، واعتمد هذا الرأي على المواد الأثرية في إثباته[1]، إلا أن كافة المقابر التي ضُرب بها المثل يرجع زمنها إلى ما بعد شق الجنرال جانغ تشيان الطريق نحو المناطق الغربية، وفي ظل استعداد تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة الموجودة بالغرب -على المستوى الزمني ومسار عبورها- للدخول إلى الصين، لا يمكن لهذا أن يفسر سبب اختراع الصينيين لهذه التقنية بشكل مستقل، وتعميمها في الصين بهذه السرعة، وإذا نظرنا إلى الأمر بشيء من التفصيل، نجد أنه على الرغم من البساطة النسبية في حرق القراميد الصغيرة، إلا أن تنسيق مختلف أشكال وأحجام القراميد الصغيرة لتناسب الاستخدام ليس بالأمر السهل، وأيضًا كما ذكرنا سابقًا، فقد أقصت منظومة البناء المدني التقليدي في الصين البناء بالقراميد الصغيرة. فالبناء بتقنية الطراز المقوس ليس أمرًا سهلًا، فهو يحتاج إلى بناء إطار خشبي، وأيضًا حساب عدد القراميد ومواضعها، ومن المستحيل على العمال غير التقنيين أن يقيموا بناء مثاليًّا على هذا الطراز من خلال التوجيهات المباشرة والعمل الجماعي فقط، ولو نظرنا إلى الأمر من خلال العملية التاريخية للحضارة الإنسانية، نجد أنه من المستحيل أن تُخترع مادة ما وتقنية ما في الوقت نفسه في منطقة معينة، وأن تتشابه نتيجة هذا الاختراع مع اختراع آخر في منطقة أخرى. ناهيك عن استعدادات الشروط الزمانية والمكانية لنشر الثقافة في ذلك الوقت، ومن ناحية أخرى، فقد بلورت الصين منذ القدم منظومة البناء المدني، بما يشمل المقابر ذات التوابيت الخشبية، وفي ظل عدم وجود حاجة ملحة للإبداع في بناء هذه المقابر، لم تكن هناك حاجة -أيضًا- لبناء قبابها على الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة، وبالتالي، فإنه من

1- ليو دون جين: "تاريخ البناء القديم في الصين"، الباب الثالث، الفصل السابع، دار صناعة البناء للنشر، 1984م.

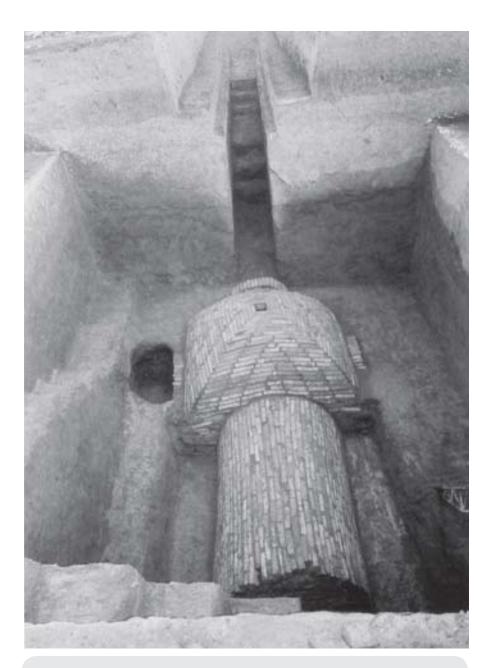
المعقول أنه بعد انتشار المقابر الأفقية بشكل تدريجي، أصبح بناء قباب المقابر بشكل مثالي يمثل قضية توجب الحل، وفي ذلك الوقت، ومع بداية شق الطريق نحو المناطق الغربية، دخلت تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة إلى الصين، وكان ذلك تماشيًا مع دخول العنب، والفصة (البرسيم الحجازي)، والفرس كذلك إلى الصين، وبعد دخول العنب وغيره من المنتجات الغربية إلى قصور الأسرة الحاكمة والطبقة العليا من المجتمع، لم يكن لها تأثير واضح على المجتمع الصيني، أما تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة فقد دخلت في وقتها تمامًا، لتلبي حاجة الصينيين في بناء المقابر، وبالتالي، سرعان ما نتج عن دخولها تأثير كبير للغاية.

وكما هو معروف لدى الجميع، فقد نال الإمبراطور ليو تشه (إمبراطور أسرة هان الملكية) كمًّا كبيرًا من الغنائم والأسرى بعد شن حروبه على المناطق الغربية، وربما كان من بين الأسرى بعض الحرفيين المستوعبين لتقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة، وعلى الرغم من عدم تدوين الوثائق التاريخية لأسر أي حرفيين في ذلك الوقت، إلا أن الحرفيين يشملون كذلك الحرفيين بين صفوف الجيش، والذين كانوا يمثلون أهدافًا متعمدة للجيش الصيني أثناء الحرب، وربما كان الأمر شبيهًا بحرب أسرة تانغ الملكية مع إمبراطورية العرب، حيث تم أسر بعض الحرفيين من الجنود الصينيين، وعرفوا منهم تقنية صناعة الورق، وتم نشرها في دول الغرب، وبالتالي، دخلت تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة إلى الصين بعد أسر جنود أسرة هان الملكية لحرفيين من جنود منطقة آسيا الوسطى، ولم يكن ظهور المقابر ذات الطراز المقوس في البداية في منطقة قوانجونغ الصينية من قبيل الصدفة، ففي الغالب، اقتيد الأسرى من الحرفيين أو الجنود التابعين لمنطقة آسيا الوسطى إلى العاصمة الصينية التي كان مقرها في منطقة قوانجونغ، وكان أول من استخدم هذه التقنية في المقابر هم شخصيات من الطبقة الدنيا من المجتمع، فهم من الذين يسهل تغيير مفاهيمهم الأيديولوجية، كما أنهم كانوا يتمتعون بفرص أكبر للالتقاء مع حرفيي وجنود منطقة آسيا الوسطى المأسورين، وربما كانت تقنية الطراز المقوس تمثل منتج التبادل في ما بينهم.

ويمكننا أن نوجز -بشكل تقريبي- مسار نشأة وانتشار المقابر ذات الطراز المقوس في الصين، وأول خطوة في تحديد ذلك المسار هي بعد توحيد أسرة تشين الملكية الصين، حيث بدأت تنتشر المقابر على شكل حفر على نطاق أكبر بعدما كانت منتشرة فقط داخل المناطق الأصلية التابعة لأسرة تشين، وظهرت حتى غرف الأضرحة المحفورة على شكل قوس، مما وضع استعدادات لقبول تقنية الطراز المقوس الناضجة عند الغرب، والخطوة الثانية، هي بداية استخدام المقابر المحفورة في منحدرات الجبال لدفن الأباطرة الأوائل لأسرة هان الغربية، مما تنبأ بتحويل المقابر ليصبح تقليد المساكن الواقعية في بنائها هو التيار الرئيس في المجتمع. الخطوة الثالثة، هي تقبل مدينة تشانغ آن، ومدينة لوه يانغ، وغيرها من المناطق المركزية لتقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة في البداية، ومن ثم انتشرت في كافة الأرجاء اعتمادًا على القوى الإدارية فيها، فلم يكن وقت اختفاء المقابر ذات التوابيت الخشبية واحدًا في كافة الأماكن في الصين، حيث كان يعتمد الأمر على المسافة المكانية أو السياسية التي كانت تبعد عنها كل منطقة عن العاصمة. الخطوة الرابعة، في وقت وجود المقابر ذات التوابيت الخشبية المستبدلة لاحقًا على مستوى الصين بالمقابر على الطراز المقوس، لم يكن يوجد ما يشير إلى إنتاج تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة في مناطق أخرى في الصين في ذلك الوقت، وهو ما يدل على عدم وجود إنتاج ذاتي لهذه التقنية في الصين على الإطلاق. الخطوة الخامسة، استخدام الطراز المقوس بالقراميد الصغيرة كذلك في بناء بعض مقابر الأمراء (وهي أكثر أنواع المقابر تحفظًا)، وذلك في أواسط عهد أسرة هان الشرقية (مثل المقبرة رقم 1 في قرية جينلينغ بمنطقة لين جه في مقاطعة شاندونغ، والتي ترجع إلى العام الثالث عشر من تقويم يونغ بينغ التابع لأسرة مينغ الملكية (70م)، للإمبراطور ليوشه (إمبراطور أسرة هان الشرقية))، مما يدل على غزو هذه التقنية لكافة الطبقات الاجتماعية.

وعلى الرغم من أن تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة تنبع في الأساس من الغرب، إلا أن الغرب كانوا يتسخدمونها في بناء الأبنية العادية، أما الصينيون فاستخدوموها في بناء مقابرهم، وأضافوا إليها بعض التعديلات،

وسنضرب مثالين في السطور القادمة حول هذا الصدد.



شكل المقبرة M16 التابعة لأسرة هان الشرقية وتقع بمنطقة تشيوجيانغ بمدينة شيآن

المثال الأول: هو المقبرة M16، وتقع بمنطقة تشيوجيانغ بمدينة شيآن، وتُعد مقبرة نموذجية من مقابر أسرة هان الشرقية، حيث تتخذ نمطًا قياسيًّا لقاعة أمامية وغرفة نوم خلفية (ضريح)، وتظهر الغرفة الأمامية على شكل مربع، وصُممت على هيئة الغرفة التي كان يسكن بها أصحاب المقبرة قبل موتهم، أما الغرفة الخلفية فتظهر على شكل مستطيل، ويوضع بها توابيت الأزواج، ولأن الغرفة الخلفية لا تُستخدم إلا لوضع التوابيت بها، لذلك بُنيَت على طراز قوس مبسط، ويقل ارتفاعها قليلًا عن طول الشخص العادي، ولأن الغرفة الأمامية ترمز لمكان المعيشة، فقد وُضِعت فيها كافة الأغراض التي توضع مع الميت تمامًا مثل نمط تصميم قاعات المنازل، وفي مركزها كانت هناك الأغراض التي تعبر عن "مكانة" أصحاب المقبرة، وقبل غلق باب المقبرة، ربما احتاج الأمر القيام بنشاط "عرض الهدايا والمفروشات" كنوع من أنواع التقرب للميت وتقديم القرابين له، ويتطلب في مواصفات بناء الغرفة الأمامية للقيام بمثل هذا النشاط أن تكون ذات قبة عالية وواسعة، ومن أجل تحقيق هذا الهدف تمت معالجة قبة الغرفة الأمامية خصيصًا، بحيث تُطوى جوانبها الأربعة إلى الأعلى، وهو ما لا يتناسب تمامًا مع علم الميكانيكا المعمارية، فلو كانت صلابة غرفة المقبرة اختيارًا تفضيليًّا، لكان الأنسب تمامًا استخدام الطراز المقوس لبنائها. فلماذا تمت معالجة القباب باستخدام تقنية القبة المكثفة من الجوانب الأربعة؟ ربما يرجع الأمر لسبب من اثنين؛ السبب الأول: تقليد الأبنية العادية ذات الأسقف المائلة، كما

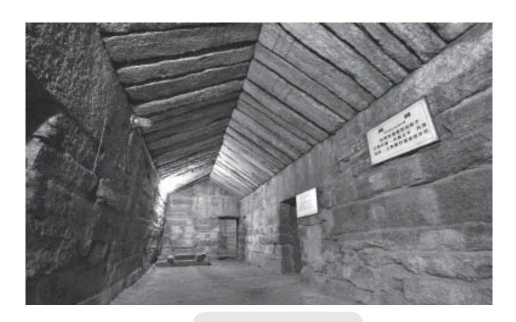
هـي الحـال فـي أسـقف بعـض المقابـر المحفـورة فـي منحـدرات الجبـال والتابعـة لأسـرة هـان الغربيـة فـي مدينـة شـيوجوو، وغيرهـا مـن المناطـق الأخـرى، كمـا يكثـر -أيضًـا- هـذا النـوع مـن الأسـقف (القبـاب) المائلـة فـي نمـاذج غـرف الاحتفـاظ بالأغـراض التـي توضـع مـع الميـت فـي المقابـر التابعـة لعهـد أسـرة هـان الشـرقية، والسـبب الثانـي: تسـهيل التعبيـر عـن مفهـوم الأرض المسـطحة (مفهـوم قديـم يشـبه السـماء بنصـف الدائـرة والأرض بالمربـع). فالمقابـر ذات الأسـقف المكثفـة مـن جوانبهـا الأربعـة تشـبه مـن الداخـل الشـكل الدائـري، لتكـون عالمًـا تناظريًّـا دائريًّـا مـن الأعلـى، ومربعًـا مـن الأسـفل. فلـو أن هنـاك رسـومات جداريـة فـي الداخـل لرُسـمت علـى هيئـة رسـومات فلكيـة فـي أعلـى القبـة، وأسـفلها قليـلًا رسـومات متعلقـة بالاتجاهـات الأربعـة (شـمالًا، جنوبًـا، شـرقًا، غربًـا)، ولكانـت رُسـمت رسـومات مباشـرة للتنانيـن الخضـراء، والنمـور البيضـاء، والعنقـاوات، والسـلاحف المدرعـة، إلا أن مـا تـم رسـمه علـى جـدران المقبـرة الأربعـة كانـت رسـومات لمشـاهد مـن الحيـاة الواقعيـة كعربـات الخيـول، والمطابـخ، والولائـم، وغيرهـا، وبهـذا، تُعـد الغرفـة الأماميـة المبنيـة علـى هـذا النمـط مـن المفاهيـم والسـمات المكانيـة مكانًـا نموذجيًّـا للطقـوس والآداب العامـة، حيـث يناسـب هـذا النـوع مـن الأسـقف المائلـة -بشـكل واضـح- متطلبـات المـكان، ويتمتـع بقـوة تعبيريـة أكبـر مـن تقنيـة الطـراز المقـوس التـي تظهـر علـى شـكل شـبه أسـطواني.

مثـال آخـر، الانتشـار الكبيـر لتقنيـة "الركائـز المقوسـة فـي الجوانـب الأربعـة" فـي المقابـر الكبيـرة والمتوسـطة بمناطـق الروافـد الوسـطى والسـفلى لنهـر اليانجسـتي فـي عهـد أسـرة هـان الشـرقية، ومـرورًا بعهـد الممالـك الثـلاث، ووصـولًا إلـى عهـد أسـرة جيـن الغربيـة، ويتخـذ هـذا النـوع مـن الزوايـا الأربـع لغـرف المقبـرة مركـزًا لـه، لتحويلهـا إلـى 4 زوايـا مقوسـة للأعلـى والداخـل، وهـذا الطـراز لقبـاب المقابـر كان موجـودًا -أيضًـا- منـذ القـدم عنـد الغـرب، إلا أن الحرفييـن الصينييـن بذلـوا جهـدًا كبيـرًا -لا يمكـن إغفالـه- فـي تعديلـه، وقـد توصلنـا إلـى اكتشـاف أنـه مـع التغيـر الزمنـي، يتجـه تدريجيًّـا موضـع التقـوس فـي الجـدران الأربعـة لغـرف المقبـرة إلـى الأسـفل، حتـى أنـه يمكـن أن يقتـرب إلـى أرضيـة الغرفـة، لتندمـج الجـدران مـع القبـاب وتصيـر واحـدًا، وتصبـح درجـة الصلابـة فـي المرتبـة الثانيـة بعـد قبـة المقبـرة الدائريـة التـي تأخـذ شـكل نصـف

كـرة، كمـا أنهـا تلائـم الطبيعـة الرمزيـة لمسـاحة المقبـرة واتجاهها، وقـد انتشـر هـذا الطـراز لقبـاب غـرف المقابـر فـي مناطـق الجنـوب دون الشـمال، ولهـذا علاقـة باختـلاف ظـروف الطبيعـة بيـن الشـمال والجنـوب فـي الصيـن. فالمناطـق الشـمالية تتميـز بتربتهـا الصفـراء الكثيفـة، وأمطارهـا القليلـة نسـبيًّا، وبهـذا، لا تتعـرض قبـاب المقابـر إلـى ضغـط كبيـر، أمـا المناطـق الجنوبيـة فتتميـز بأمطارهـا الغزيـرة، كمـا تختلـف طبيعـة التربـة فيهـا عـن مناطـق الشـمال، حيـث تتشـقق التربـة فيهـا فـي الأيـام الجافـة، وتغـرق عنـد هطـول الأمطـار، ولهـذا، كانـت حاجتهـم لصلابـة المقابـر أعلـى مـن المناطـق الشـمالية، فالأسـقف المائلـة (تقنيـة تكثيـف القبـاب) لا تعطـي شـعور الأمـان تمامًـا، وبالتالـي كان حتميًّـا البحـث عـن سـبل للتعديـل، كمـا اشـتبهنا -أيضًـا- فـي احتماليـة فـرط اسـتخدام تقنيـة الركائـز المقوسـة للجـدران الأربعـة، وهـذا لأنهـا كانـت لا تـزال موجـودة فـي فتـرة أواسـط حكـم أسـرة جيـن الشـرقية، وخاصـة أنهـا مـا زالـت تشـمل الاسـتخدام فـي بنـاء مقابـر الطبقـات العليـا مثـل مقابـر الأباطـرة أنفسـهم، ولكـن، وبسـبب تحـول المقبـرة ذات الغرفـة الواحـدة إلـى قانـون يُلـزَم بـه فـي هـذه الفتـرة، تـم بنـاء المقابـر بتقنيـة القبـاب المقوسـة مـن الجهـات الأربـع، علـى شـكل مسـتطيل يصـل طولـه إلـى 7 أو 8 أمتـار، وقـد يصـل إلـى 10 أمتـار أيضًـا، وفـي ذلـك الوقـت، لـم تكـن الظـروف مواتيـة لهـذا التصميـم، لـذا اكتفـوا ببنـاء غرفـة المقبـرة علـى شـكل مسـتطيل فقـط، ولكـن، لكـي يتـم اسـتيعاب الطبيعـة الرمزيـة لمسـاحة المقبـرة واتجاهها، تـم الاسـتغناء عـن طـراز القـوس الأكثـر صلابـة، واسـتخدام تقنيـة الركائـز المقوسـة للجـدران الأربعـة كمـا المعتاد، وبسـبب التفـاوت الكبيـر فـي مقارنـة طـول وعـرض غـرف المقابـر، عمـل هـذا علـى تصعيـب بنـاء القبـاب بهـذه التقنيـة، ممـا أدى إلـى فقـدان شـعور الأمـان، فالعديـد مـن المقابـر الكبيـرة التـي ترجـع لعهـد أسـرة هـان الشـرقية انهـارت بالفعـل قبـل التنقيـب عنهـا.

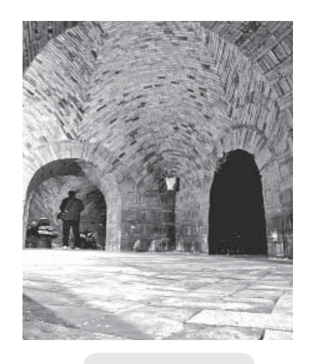
ومــن خــلال عــرض المثاليــن الســابقين يمكننــا أن نــرى أن الظهــور الأول لتقنيــة بنــاء القبــاب (الأســقف) كان لتلبيــة الاحتيــاج الواقعــي لهــا، إلا أن اســتخدام هــذه التقنيــة لا يمكــن ألا يتلقــى تأثيــرًا مــن المفاهيــم الأيديولوجيــة وظــروف الطبيعــة فــي مختلــف الأماكــن، ولهــذا أُذهــل النــاس بالتعديــل المجــرى فيهــا، وعلــى الرغــم مــن وجــود بعــض مواضــع القصــور فــي هــذا التعديــل، إلا أنــه يمثــل الواقــع التاريخــي لعمليــة تحويــل

الثقافة الأجنبية إلى ما يناسب معيشة الصينيين أنفسهم.



المثال الأول

(تقنية تكثيف القباب أو الأسقف المائلة)



المثال الثاني

(تقنية الركائز المقوسة في الجوانب الأربعة للقباب)

الفصل الثاني

المنحوتات الحجرية للوحوش الأسطورية

إن فـرص رؤيـة الأشـخاص العاديـين للمقابـر القديمـة بأعينهـم ليسـت كثيـرة، وإذا لـم يتـم اكتشـاف محتـوى الثقافـة الأجنبيـة الـذي تحويـه المقابـر الصينيـة القديمـة مـن خـلال التنقيـب الأثـري، لمـا علـم بـه الناس فـي العصور اللاحقـة، وبالمقارنـة مع غـرف المقابر الموجـودة تحت الأرض، يمكـن للإنسـان العـادي رؤيـة مـا قبـل طبقـة التـراب المغطـى بهـا المقابـر، والمنحوتات الحجريـة الموجـودة فـوق الأرض (المنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية)، وهنـاك العديـد مـن المقابـر -بتفـاوت أعدادهـا- التابعـة لعهد أسـرتي مينـغ وتشـينغ الملكيتين فـي كل الأماكن تقريبًـا علـى مسـتوى الصيـن، والتـي ربمـا تلاشـى منهـا طبقـة التـراب المغطيـة لهـا، إلا أن المنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية الموضوعـة أمـام المقابـر تشـير إلـى وجـود المقابـر بالفعـل، ومـن أشـهر هـذه المقابـر: مقابـر أباطرة أسـرة مينـغ بمدينتي بكيـن ونانجينـغ، ومقابر أسـرة سـونغ بمدينـة قونغشـيان، ومقابـر أسـرة تانـغ بمدينـة شـيآن، والمنحوتـات الحجريـة لمقابـر الأسـرة الجنوبيـة فـي منطقـة حـزام مدينتـي نانجينـغ، ودانيانـغ، وحتـى يومنـا هـذا، لا توجـد اكتشـافات موثقـة بالكامـل للمنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية الموضوعـة أمـام مقابـر أسـرة هـان الشـرقية، إلا أنـه تـم اكتشـاف العديـد مـن المنحوتـات الحجرية، مثـل أعمدة علـى هيئـة وحـوش أسـطورية، وأنصـاب، وأبـراج، وتماثيـل لوحـوش مـن الحجـر، وذلـك أمـام المقابـر الموجـودة فـي كل مـن مقاطعـة سيتشـوان، ومدينـة تشونغتشـينغ، ومقاطعتـي خـه نـان، وخـه بيـي، ومدينـة بكيـن، وغيرهـا مـن الأماكـن علـى مسـتوى الصيـن، أمـا المنحوتـات الحجريـة الموضوعـة أمـام المقابـر التابعـة لعهـد أسـرة هـان الغربيـة، فـلا يوجـد منهـا إلا أمثلـة قليلـة للتـي تـم نقلهـا مـن مكانهـا، مثـل تمثـال الحصـان الحجـري الموضـوع أمـام مقبـرة القائـد خـوه تشـيو بينـغ، والنُصْـب الحجـري لمقبـرة بـاو شـياو يـو، ولـم يتـم الوصـول إلـى أي اكتشـافات أثريـة بعدهـا. إلا أن، منحوتـات الوحـوش الأسـطورية المجنحـة لـم تظهـر

لأول مرة في عهد أسرة هان الشرقية، وخاصة أنه تم ذكر كلمة "نُصْب تذكاري" في الوثائق الصينية القديمة، وبالتالي، انقمست الآراء حول ما إذا كانت المنحوتات الحجرية الموضوعة أمام المقابر منبعها من الصين، أم أنها نتيجة لتأثر الصينيين بالغرب، وفي واقع الأمر، يمكننا أن نرى من خلال الاكتشافات الأثرية المعنية، ودمجها مع الخلفيات التاريخية، أن هذا الأمر متشابه مع تقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد الصغيرة التي سبق وناقشناها في الفصل السابق، فالمنحوتات الحجرية للوحوش الأسطورية الموضوعة أمام المقابر تمثل في الأساس نتيجة التأثر بالثقافة الأجنبية، ولكنها صُبغت في وقت لاحق بالخصائص القومية الصينية أثناء تطورها المستمر.

إذن.. ما هي الأدلة الرئيسة التي تستند إليها الرؤية الصينية في الجدال حول هذا الأمر؟ تقول الرواية الصينية إن الصينيين في العصور القديمة كانوا ينحتون مشغولات من اليشم، ومشغولات حجرية بديعة الجمال، وكانوا يسبكون مشغولات برونزية ضخمة وجميلة، ويعتبر جيش التيراكوتا (جيش الطين) المنحوت في مقبرة الإمبراطور تشين الأول رمزًا لقدرة الحرفيين الصينيين القدماء على تصوير المجسمات الضخمة، ولم يكن هناك أي شيء مميز في الجانب الفني للنحت في المنحوتات الحجرية للوحوش الأسطورية والتي بدأ يشيع وضعها أمام المقابر في عهد أسرة هان الشرقية، فقد كان الحرفيون الصينيون يملكون المقدرة الكاملة على تصويرها كلها، كما قدمت الرواية الصينية شرحًا توضيحيًّا حول منبع عدة أنواع من المجسمات الحجرية من الصين، وبالنسبة لمنحوتات الوحوش الأسطورية المجنحة، فتقول الرواية الصينية إن كتاب "كلاسيكيات الجبال والبحار"، وغيره من الوثائق القديمة قد دوَّنت منذ القدم كل ما يتعلق بالحيوانات المجنحة، وفي عصر الدول المتحاربة في الربيع والخريف، ظهرت في الصين بعض القطع المادية، وكان من أشهرها على سبيل المثال المجسمات البرونزية للوحوش الأسطورية المجنحة، والمستخرجة من مقبرة ملك دولة جونغشان، والتي استُخدمت في عهد أسرة هان الشرقية بوضعها أمام المقابر وحسب، وبالنسبة للحواف المقعرة على الشكل الخارجي للأعمدة الحجرية والتي تشبه

أعمـدة الخيـزران، فقـد أشـارت الروايـة الصينيـة إلـى مـا دَوَّنـه كتـاب "تاريـخ أسـرة جيـن الملكيـة" فـي مـا يتعلـق بهـذا الأمـر، حيـث ذكـر قائـلاً: "عنـد التحضيـر للجنـازة، كانـت تزيـن بوابـة القاعـة التـي ستُجرى فيهـا الجنـازة بالخيـزران والحبـال البيضـاء (لتُسـمى ببوابـة المـوت البيضـاء)"، حيـث كانـت تُغلـف أعمـدة البوابـة الخشـبية بقطـع الخيـزران مـن الخـارج، وتُربـط معًـا بالحبـال البيضـاء، وهـو مـا يتشـابه مـع شـكل الأعمـدة الحجريـة للوحـوش الأسـطورية. أمـا بالنسـبة للأنصـاب الحجريـة، فقـد أشـارت الروايـة الصينيـة إلـى أن مـا تـم ذكـره فـي الوثائـق الصينيـة القديمـة بخصـوص هـذا الصـدد أكثـر بكثيـر. فمـن خـلال التحليـل الدقيـق، نجـد أن نقطتـي الجـدل الأخيرتيـن للروايـة الصينيـة لا يمكنهمـا الصمـود أمـام التحقيـق الدقيـق فيهمـا، فالنقطـة الأولـى غامضـة أيضًـا، كمـا أنـه لـم يُذكـر فـي الوثائـق التاريخيـة وجـود مـا يُعـرف بـ"بوابـات المـوت البيضـاء" قبـل عهـد أسـرة جيـن الملكيـة، وأن مـا ذكـره الصينيـون التابعـون لعهـد أسـرة جيـن الملكيـة بقولهـم "إن تزييـن البوابـات البيضـاء ليـس مـن الطقـوس المتبعـة"، لـم يكـن يُقصـد بـه سـوى الأشـياء المسـتحدثة فقـط، فقـد ظهـر هـذا النـوع مـن البوابـات فـي وقـت لاحـق لظهـور أعمـدة الخيـزران، بالإضافـة إلـى أن أعمـدة الخيـزران لـم تظهـر إطلاقًـا في المعمـار الصينـي قبـل عهـد أسـرة هـان الشـرقية، ولهـذا، فـإن الأعمـدة المزينـة بقطـع الخيزران والمربوطـة بالحبـال البيضـاء والتـي ظهـرت فـي عهـد أسـرة جيـن الملكيـة، مـن المحتمـل أن تكـون تقليـدًا لأعمـدة الخيـزران الموضوعـة أمـام المقابـر منـذ عهد أسـرة هـان الشـرقية، وليس العكـس، وفـي مـا يتعلـق بالأنصـاب الحجريـة، فقـد ذكـر كتـاب "شـروح الرمـوز الصينيـة" فـي قسـم كلمـة "حجـر" قائـلاً: "النُصْـب، هـو الحجـر المنتصب عموديًّـا"، وطبقًـا لدراسـات الباحثين المتعلقـة، فـإن النُصْـب الحجـري يشـير مـن ناحيـة إلـى الحجـر الموضوع فـي القصـور القديمة والـذي يُسـتخدم فـي قيـاس الظـل، ومـن ناحيـة أخـرى يشـير إلـى الحجـر الـذي كان يوضـع في المعابـد لربـط الماشـية بـه، وفـي الأسـاس يُعتبـر هـذا النوعـان مـن الأنصـاب أعمـدة حجرية لا تمـت بـأي صلـة لأنصـاب المقابـر، وهنـاك نـوع آخـر مـن النُصْـب يشـير إلـى الأعمدة الخشـبية الموضوعـة عموديًّـا عنـد الزوايـا الأربـع للقبـر، والتـي تُسـتخدم لإنـزال التابـوت الخشـبي فيـه، ويذكـر كتـاب "الطقـوس" مجلـد "القـوس الخشـبي" قائـلاً: "كانـت تُسـتخدم الأنصـاب فـي

الزوايا الأربع لقبور الأمراء"، وأضاف المؤلف جنغ شيوان شرحًا ذكر فيه: "النُصْب هو عبارة عن قطعة كبيرة من الخشب تشبه النُصْب الحجري في شكله، وكان يُنصَب في الزوايا الأربع للقبر، ليحيط بالتابوت الموضوع في المنتصف من جميع الجهات"، وقد ذكر كتاب "شروح الأسماء" أيضًا، قائلًا: "النُصْب هو ما يُنصَب في القبر عند بنائه، حيث يُربط التابوت بالحبال ويتم إنزاله بمساعدة هذه الأنصاب الموضوعة"، وفي المقبرة الكبيرة رقم 1 التابعة لعهد أسرة تشين في مدينة فنغ شيانغ بمقاطعة شانشي، تم التنقيب عن أعمدة خشبية موضوعة بشكل عمودي في الزوايا الأربع للقبور، تتوافق في وصفها مع تلك المذكورة في الوثائق التاريخية، وتختلف طبيعة هذا النوع من الأنصاب عن أنصاب المقابر التي ظهرت في عهد أسرة هان الشرقية، فلو افترضنا أن أنصاب المقابر عبارة عن تحوير متطور لهذا النوع من الأعمدة الخشبية التي كانت تُستخدم في إنزال التوابيت، فسنحتاج إلى تقديم إثباتات وأدلة حول روابط هذا التغير، وأسباب حدوثه، ولكن، إذا نظرنا إلى الأمر من خلال الوثائق والمواد الأثرية المتاحة بين أيدينا، سنجد أنه لا يمكن بعد تقديم مثل هذه الإثباتات بشكل كامل، وبالنسبة لمنحوتات الوحوش الأسطورية المجنحة، فعلى الرغم من وجودها بالفعل في الصين في عصر الدول المتحاربة في الربيع والخريف، إلا أنه وفقًا للدراسات، ومن خلال رؤية القطع الأثرية المستخرجة، نجد أنه ربما كانت مجسمات الوحوش الأسطورية المجنحة الموجودة في ذلك الوقت نتيجة للتأثر بالفن الغربي فقط لا غير[1]، ويكمن أكبر اختلاف موجود بين مجسمات الوحوش الأسطورية المجنحة الموضوعة أمام المقابر التابعة لعهد أسرة هان الشرقية، وما كان موضوعًا قبل ذلك هو مجسم الأسد. فكلنا نعرف أن الصين لا تمتلك أسودًا في أراضيها، وأن الأسود قد دخلت إلى الصين بعد فتح الجنرال جانغ تشيان للمناطق الغربية في عهد الإمبراطور ليوتشه (إمبراطور أسرة هان الملكية)، وكل ما نعرفه الآن هو أن أقدم تصوير تفصيلي للأسود كان في المنحوتات الحجرية الموضوعة أمام المقابر التابعة لأسرة هان الشرقية، وكلمة "أسد" في اللغة الصينية أصلها أجنبي، شأنها شأن كلمات "الغزال الأسطوري ذي

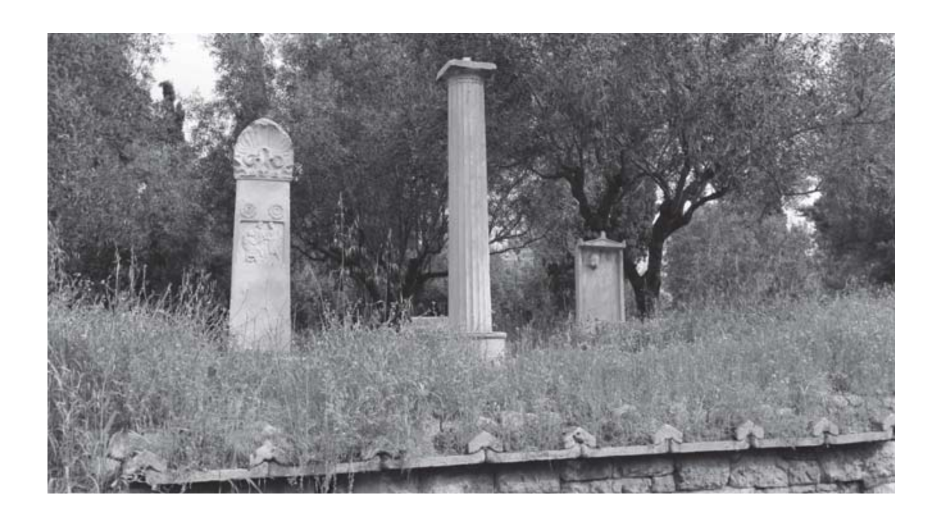
1- لي لينغ: "مباحثات حول الوحوش الأسطورية المجنحة في الصين"/ زاي لي شه: "الدخول إلى الجبال والخروج من الحدود"، دار الأثريات للنشر، 2004م.

القـرن"، "الوعـل السـماوي الأسـطوري"، و"الوحـش الأسـطوري"، التـي تنتمـي كلهـا للنـوع نفسـه، ولا بـدَّ أن يكـون بينهـا اختـلاف مـا، إلا أن النـاس فـي العصـور القديمـة لـم يقدمـوا أي شـرح توضيحـي لهـا، ممـا صعَّـب الأمـر أكثـر علـى الأجيـال اللاحقـة، وهـذا يوضـح غرابـة هـذه الأنـواع مـن الحيوانـات الأسـطورية بالنسـبة للصينييـن، ومـن هنـا، وبالنظـر إلـى إذا مـا كانـت مجسـمات الوحـوش الأسـطورية تمتلـك أجنحـة أم لا، نجـد أن هـذا النـوع مـن المجسـمات الموضوعـة أمـام المقابـر التابعـة لأسـرة هـان الشـرقية يمكـن أن يكـون نابعًـا مـن الصيـن، إلا أنـه لـو تفكرنـا بدقـة فـي مصـدر نشـأة مجسـمات الأسـود الأسـطورية ووقـت دخولهـا الصيـن، ولـو أصررنـا علـى الروايـة الصينيـة، فسـنحتاج إلـى تقديـم تفسـير معقـول حـول سـبب وضـع مجسـمات الأسـود المجنحـة الأسـطورية أمـام المقابـر، ولـو غيرنـا منظـور التفكيـر فـي النظـر إلـى هـذه القضيـة، فسـيمكن معاملتهـا كثقافـة أجنبيـة، ولـن نضطـر إلـى مواجهـة هـذا الكـم الكبيـر مـن العوائـق أثنـاء البحـث.

فهنـاك مصـادر قديمـة عند الغـرب تفيد باسـتخدامهم لتلك المجسـمات للوحوش الأسـطورية الموضوعـة أمـام المقابـر، وأشـهرها علـى الإطـلاق تمثـال أبـي الهـول الموضـوع أمـام الأهرامات فـي مصـر[1]، وبالنسـبة لوضـع الأعمـدة أو الأنصـاب الحجريـة أمـام المقابـر، فقـد اسـتُخدمت بالمثـل كتقليـد قديـم فـي اليونـان أثنـاء الحكـم الرومانـي لهـا، وسـنأخذ هنـا مثـالًا واحـدًا فقط وهـو المقبـرة الموجـودة بجـوار الأطـلال الأثريـة للمشـغولات الخزفيـة غـرب مدينـة أثينـا، فقـد بُنيـت هـذه المقبـرة خـلال الفتـرة بيـن القـرن السـادس وحتـى القـرن الرابـع قبـل الميـلاد، ووُضِـع علـى سـطح المقبـرة العديـد مـن المنحوتـات الحجريـة، بما يشـمل الأعمـدة، والأنصاب، ومجسـمات الحيوانـات، ويتشـابه كثيـرًا شـكل الأعمـدة الحجريـة الموضوعـة هنـاك مـع شـكل الأعمـدة الحجريـة فـي الممـر الواصـل لمقبـرة للملـك تشـين، والتـي بُنيت فـي منطقـة يووجوو القديمـة بمدينـة بكيـن، ويمكـن تقسـيم الشـكل العـام للأنصـاب الحجريـة إلـى نوعيـن؛ الأول: علـى شـكل مثلـث، والثانـي: علـى شـكل دائـرة صدفيـة، ويتشـابه تمامًـا هـذان الشـكلان مـع أشـكال الأنصـاب ذات الجـزء الأعلـى المقعـر للنقـش عليـه، والأنصـاب ذات الجـزء الأعلـى المـدور، أمـا المجسـمات علـى هيئـة حيوانـات فكانـت تشـمل الأسـود، والأبقـار، والـكلاب،

1- تم تقديم هذه المادة من قِبل وانغ تشينغ بمعهد وين بوه الأثري التابع لجامعة بكين.

وغيرهـا، ويوجـد بعضهـا فـي مواضـع غيـر محـددة، ويوضـع البعـض الآخـر فـوق قاعـدة حجرية مربعـة الشـكل، وعلـى الرغـم مـن بعـد المسـافة بينهـا، إلا أن هنـاك تشـابهًا غيـر معقـول بيـن هـذه المنحوتـات الحجريـة بمدينـة أثينـا، وتلـك الموضوعـة أمـام مقابـر أسـرة هـان الشـرقية، ومـن هنـا، نـرى أنـه مـن المعقـول القـول إن أصـل المنحوتـات الحجريـة الموضوعـة أمـام مقابـر أسـرة هـان الشـرقية يأتـي مـن الغـرب، وبالطبـع، لا بـدَّ وأن المنحوتـات الموضوعـة أمـام مقابـر أسـرة هـان الشـرقية لـم تُنقـل إلـى الصيـن مباشـرة مـن بـلاد اليونـان القديمـة، فطبقًـا للاسـتنتاج المتعلـق بالمنحوتـات الحجريـة الموضوعـة أمـام مقبـرة أنطيوخـوس الأول (69 ق.م- 34 ق.م) الواقعـة فـي جبـل نمـرود بتركيـا حاليًـا، يمكننـا القـول إنـه ربمـا جلبـت حمـلات الإسـكندر الأكبـر العسـكرية نحـو الشـرق ثقافـة اليونـان إلـى مناطـق غـرب آسـيا، وآسـيا الوسـطى، ومـن ثـم دخلـت إلـى الصيـن وأثـرت علـى ثقافتهـا.



المقبرة الموجودة بجانب الأطلال الأثرية للمشغولات الخزفية غرب مدينة أثينا القديمة



صورة للمنحوتات الحجرية الموضوعة أمام مقبرة أنطيوخوس الأول (69 ق.م- 34 ق.م)
والواقعة في جبل نمرود بتركيا حاليًا

وبعد مناقشة مصدر المنحوتات الحجرية الموضوعة أمام المقابر التابعة لعهد أسرة هان الشرقية، يجب علينا كذلك تقديم تفسير حول سبب وضع الصينيين لمنحوتات الوحوش الأسطورية أمام مقابرهم كتقليد صيني مهم في ذلك الوقت، أو يمكن القول إنه يتوجب علينا تقديم شرح وتفسير لإثبات أن مصدر منحوتات الوحوش الأسطورية تلك يرجع إلى فترة حكم أسرة هان الشرقية. ففي إطار العالم القديم، تنتمي الصين إلى فئة الدول التي تهتم بالأمور الجنائزية بشكل مكثف. إلا أن، الصين كانت تمتلك قديمًا ميزتها الفريدة في طقوسها الجنائزية المكثفة، ألا وهي تأكيدها منذ زمن طويل على الجزء السفلي من المقبرة والاهتمام به، وتجاهل الجزء العلوي منها، فعلى سبيل المثال، كانت القبور في منطقة آسيا الوسطى قبل فترة الربيع والخريف خالية من كومة التراب أو الأشجار التي كانت توضع أمامها بهدف إغلاقها بإحكام، وكعلامة على موضعها، وبسبب عدم وجود أي علامة لموضع القبور، كان من الصعب على المعلم كونفوشيوس العثور على قبر والديه،

وانتشـرت هـذه القصـة علـى نطـاق واسـع ليعرفهـا الجميـع، وتغيـرت هـذه الأحـوال فـي فتـرة الـدول المتحاربـة، حيـث بـدأ الأمـراء مـن كافـة الـدول ببنـاء تلـة كبيـرة فـوق القبـر لغلقـه بإحـكام، وقـد بنـى الإمبراطـور تشـين الأول لنفسـه أكبـر مقبـرة فـي تاريـخ الصيـن مـن حيـث المسـاحة، وفـي عهـد أسـرة هـان الغربيـة، بـدأت تُبنـى مقابـر الأمـراء والـوزراء أمـام مقابـر الأباطـرة، ولكـن، باسـتثناء بعـض المقابـر الفرديـة الخاصـة مثـل مقبـرة القائـد خـوه تشـيو بينـغ، لـم تكـن توجـد مجسـمات حجريـة أمـام المقابـر التابعـة لعهـد أسـرة هـان الغربيـة، بمـا فيهـا مقابـر الأباطـرة أنفسـهم، ويرجـع السـبب فـي هـذا غالبًـا إلـى انتهـاء فهـم النـاس الفريـد للمقابـر فـي هـذا العصـر، ومـن خـلال الاطـلاع علـى "لوحـات الخرائـط" المسـتخرجة مـن بيـن أطـلال المواقـع الأثريـة، نجـد أنـه تـم بنـاء قاعـة لتقديـم القرابيـن فـي مقبـرة ملـك دولـة جونغشـان التابـع لعصـر الـدول المتحاربـة، أمـا مقبـرة الإمبراطـور تشـين الأول فكمـال تخطيطهـا، واكتمـال وظائفهـا، ووجـود غـرف لعـرض متعلقـات صاحـب المقبـرة فيهـا، وغـرف للراحـة وتنـاول الطعـام، وأماكـن للحـراس، وغيرهـا مـن التجهيـزات يوضـح لنـا مـا ترمـز إليـه المقبـرة مـن قصـر الملـك فـي حياتـه السـابقة، وقـد أدى تخطيـط المقبـرة ورمزيتهـا إلـى تـوارث أسـرة هـان الغربيـة لجـزء مـن التعديـل والتحسـين فـي مقابرهـم أيضًـا، حيـث نجـد الرمزيـة المتشـابهة بدرجـة كبيـرة بيـن مقبـرة الإمبراطـور ليوشـيون (إمبراطـور أسـرة هـان الملكيـة) المنقـب عنهـا منـذ زمـن بعيـد، ومقبـرة الأميـر خـاي خـون خـوو المنقـب عنهـا فـي وقـت قريـب بمدينـة نانتشـانغ الصينيـة، ويمكننـا القـول إنـه باسـتثناء اسـتخدام التربـة لغلـق المقابـر بإحـكام، كانـت التجهيـزات الأخـرى لمقابـر الأباطـرة تُعـد علـى غـرار أماكـن عيشـهم قبـل وفاتهـم، وعلـى الرغـم مـن أن المقبـرة تُعتبـر مـكان دفـن لصاحبهـا، إلا أن الأنشـطة التـي كانـت تُقـام للميـت فيهـا كان مثلهـا مثـل الأنشـطة التـي كانـت تُقـام فـي حياتـه، حيـث كانـت تُعقـد فـي غـرف عـرض متعلقـات صاحـب المقبـرة، وغـرف الراحـة وتنـاول الطعـام، وغيرهـا مـن الغـرف التـي بُنيـت علـى غـرار التـي كان يعيـش فيهـا الميـت قبـل وفاتـه، وكانـت تُقـام الأنشـطة كمحـاكاة لوجـود روح الميـت الـذي يأتـي إلـى هـذه الغـرف لعقدهـا بنفسـه، ولـم تكـن التلـة الترابيـة المبنيـة فـوق القبـر هـي مركـز عقـد تلـك الأنشـطة، بـل علـى العكـس كانـت متجاهَلَـة تمامًـا، ولكـن، منـذ بدايـة عهـد أسـرة هـان الشـرقية، طـرأ تغيـر علـى هـذه

الأحـوال، فمـن خـلال العديـد مـن دراسـات الباحثيـن، يمكننـا أن نعـرف بوضـوح أنـه بعـد تولي أسـرة هـان الشـرقية زمـام السـلطة، كان مـن الصعـب علـى الإمبراطـور ليـو شـيو وورثتـه تقديـم تفسـير شـرعي وواضـح لإثبـات صلـة القرابـة بينهـم، وبالتالـي، بـدأ الإمبراطـور الثانـي لأسـرة هـان الشـرقية (الإمبراطـور ليـو جوانـغ) بوضـع ضريـح (علامـة كبيـرة) فـوق القبـور، حيـث أمـر الوزيـر زونـغ وانـغ ببنـاء تلـة فـوق مقبـرة الإمبراطـور ليـو شـيو، ليسـتمد منهـا السـلطة والشـرعية، ومـن بعـد انقضـاء فتـرة حكـم الإمبراطـور تسـاو روي، توقـف الأباطـرة عـن اتخـاذ هـذه الطريقـة، حتـى وقـت حكـم الإمبراطـور تسـاو ويـي الـذي اسـتمر فـي اتباعهـا، وبهـذا، ازدادت درجـة اهتمـام النـاس بالتـلال الموضوعـة كأضرحـة فـوق القبـور، وازدادت -أيضًـا- درجـة التأكيـد عليهـا، وقـد ظهـر قبـل هـذا عـدد كبيـر مـن قاعـات التعبـد وتقديـم القرابيـن، والتـي لـم يهتـم بهـا النـاس كثيـرًا، علـى الرغـم مـن صنعهـا البديـع والمتماسـك، وقـد ظهـرت المنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية، وتعممـت -بشـكل تدريجـي- فـي ظـل التأثـر بهـذه الأحـوال أيضًـا، ويمكننـا أن نتخيـل أنـه بعـد اهتمـام النـاس بالتربـة الموضوعـة فـوق القبـر لإحكامـه، تلقـت المقابـر حمايـة صارمـة، خاصـة قبيـل بـدء طقـوس جنـازة الأباطـرة، حيـث كان يصطـف الحـرس رافعيـن الرايـات أمـام المقبـرة، وبالطبـع لـم يكـن مسـؤولو الدولـة يصطفـون مثـل هـؤلاء الحـرس، ولكـن كانـوا يغبطونهـم بشـدة، وكانـت المنحوتـات الحجريـة القادمـة مـن الغـرب مناسـبة تمامًـا لتلبيـة هـذه الحاجـة، والجديـر بالذكـر أن المنحوتـات الحجريـة الموضوعـة أمـام المقابـر التابعـة لأسـرة هـان الشـرقية سـواء المدوَّنـة فـي الوثائـق التاريخيـة، أو المحفوظـة حتـى وقتنـا الحاضـر ترجـع كلهـا إلـى مقابـر المسـؤولين فـي الدولـة، ممـا يسـاعد فـي دعـم اسـتنتاجاتنا.

وبالطبـع، لا بـدَّ أن نشـير إلـى أنـه علـى الرغـم مـن أن المنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية مصدرهـا مـن الغـرب، شـأنها شـأن تقنيـة الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة أيضًـا، إلا أنهمـا مختلفـان تمـام الاختـلاف عـن القطـع الثمينـة القادمـة مـن خـارج الصيـن، حيـث إنهمـا لـم ينـالا فرصـة التطويـر إلا مـن خـلال حاجـة المجتمـع الصينـي لذلـك، أو قبولهـم بانتشـارها. بالإضافـة إلـى ذلـك، فـإن الظاهـرة الثقافيـة القادمـة مـن خـارج الصيـن، مـا إن يقبـل بهـا الصينيـون بشـكل حقيقـي، حتـى يبـدؤوا

فـي تغييرهـا وفقًـا لفهمهـم وحاجتهـم لهـا، وفـي مجـال المنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية، يتجسـد أكبـر تغييـر اكتشـفناه فـي أنصـاب القبـور، فقـد كانـت أنصـاب القبـور الشـائعة التـي اسـتخدمها الغـرب عبـارة عـن مجسـمات لشـخصيات مصنوعـة بتقنيـة النحـت البـارز، عليهـا نـص كتابـي يـدون السـيرة الذاتيـة لحيـاة صاحـب القبـر، وزادوا علـى النُصْـب التـذكاري ثقبًـا كمـا هـي الحـال فـي تقاليـد الأنصـاب الصينيـة، إلا أنـه لا يوجـد اسـتخدام واضـح لهـذا الثقـب فـي واقـع الأمـر، كمـا غيـروا الجـزء العلـوي مـن أنصـاب القبـور إلـى هيئـة رأس تنيـن، ونحتـوا -أيضًـا- مجسـمات لتنانيـن ونمـور علـى قاعـدة الأعمـدة الحجريـة، ممـا يؤكـد تأثرهـم بعناصـر الثقافـة الصينيـة كذلـك، ورصَّعـوا الأجـزاء العلويـة للأعمـدة الحجريـة علـى هيئـة وحـوش أسـطورية ببعـض قطـع الحجـارة المسـتطيلة، ونقشـوا عليهـا عبـارة "الممـر الواصـل لمقبـرة للملـك تشـين بمنطقـة يووجـوو القديمـة - بكيـن"، وغيرهـا مـن النصـوص التـي تنتمـي بشـكل أوضـح إلـى المنتجـات التـي تـم تحويلهـا إلـى الطـراز الصينـي.

خــــاتمة

بعـد انقضـاء فتـرة حكـم الأسـر الملكيـة شـيا، وشـانغ، وجـوو، وبالدخـول إلـى فتـرة حكـم أسـرتي تشـين وهـان الملكيتيـن، طـرأ تغيـر كبيـر للغايـة علـى المجتمـع الصينـي، ممـا دفـع بإجـراء تعديـلات موازيـة علـى المقابـر، وبشـق طريـق الحريـر، قـدَّم -فـي الوقـت المناسـب- التقنيـات والمـوارد الجديـدة لتعديـل المقابـر فـي الصيـن، وقـد أقـرت مظومـة البنـاء المدنـي التقليـدي فـي الصيـن تحويـل نظـام الدفـن الرأسـي إلـى الدفـن الأفقـي، وأثنـاء عمليـة التحـول هـذه، لعبـت تقنيـة الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة دورًا رئيسًـا، وبعـد انقضـاء فتـرة حكـم أسـرتي تشـين وهـان الملكيتيـن، أكـدت السـلطة المركزيـة فـي الصيـن أهميـة المغـزى السياسـي مـن وضـع ضريـح فـوق القبـور (مثـل التلـة الترابيـة لغلـق القبـر بإحـكام)، ممـا أدى بالضـرورة إلـى جعـل اسـتيعاب الصينييـن للمنحوتـات الحجريـة الموضوعـة أمـام المقابـر -ومصدرهـا الغـرب- أمـرًا حتميًّـا، وتُعتبـر الجنـازة أكثـر جـزء متحفـظ فـي الثقافـة الصينيـة القديمـة، خاصـة بيـن الطبقـة الحاكمـة التـي تتخـذ مـن الآداب والطقـوس أساسًـا فـي معيشـتها، ومـن هنـا، نـرى أن تقنيـة الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة، والمنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية تـم اسـتيعابها فـي البدايـة فـي الصيـن، ليـس مـن قِبـل الطبقـة الحاكمـة، ولا مـن قِبـل عامـة الشـعب الـذي لا يهتـم بالطقـوس والآداب كثيـرًا، وإنمـا اسـتوعبها أولئـك الذيـن كانـت لديهـم المقـدرة علـى رؤيـة الأشـياء الجديـدة وملامسـتها عـن قـرب، آمليـن أن تُرفـع مكانتهـم الاجتماعيـة مـن خـلال بعـض التغييـرات فـي الطقـوس والآداب المتبعـة، وأن يدخلـوا فـي صفـوف الطبقـة الوسـطى والدنيـا للمسـؤولين فـي الدولـة، ومـع مـرور الوقـت، أصبـح الاتجـاه الزمنـي أمـرًا حتميًّـا تصعـب إعاقتـه، حيـث أثَّـر التغيـر التدريجـي فـي صفـوف طبقتـي المسـؤولين الوسـطى والدنيـا علـى كلا الطرفيـن فـي المجتمـع، فبالنسـبة لتقنيـة الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد الصغيـرة، فبعـد انقضـاء عهـد أسـرة هـان الشـرقية، كان المتمتعـون بقـدر قليـل مـن الثـروة هـم مـن يبنـون غـرف القبـور فـي مقابرهـم، وكان كل مـن يسـتخدم التوابيـت الخشـبية الموضوعـة

فـي الحفـر هـم مـن الفقـراء فـي ذلـك الوقـت، وتحولـت غـرف المقابـر المطليـة بالأصفـر -كعلامـة لهويـة الأمـراء- مـن الهيـكل الخشـبي فـي عهـد أسـرة هـان الغربيـة، إلـى الهيـكل الحجـري. أمـا بالنسـبة للمنحوتـات الحجريـة للوحـوش الأسـطورية، فليـس هنـاك دليـل دامـغ يؤكـد اسـتخدامها بالفعـل أمـام مقابـر أسـرة هـان الشـرقية، بـل هنـاك مـن الأدلـة مـا يؤكـد اسـتخدامها فـي فتـرة حكـم مملكـة سـونغ التابعـة للأسـرة الجنوبيـة، ولكـن، وكمـا هـو معـروف لـدى الجميـع، فقـد بـدأ الإمبراطـور تسـاو ويـي فـي اسـتخدام أنصـاب المقابـر، بمـا يشـمل اسـتخدامها فـي الجنائـز البسـيطة والموفـرة أيضًـا، واتبـع هـذا الأمـر نفسـه كل مـن أسـرة جيـن الغربيـة، وأسـرة جيـن الشـرقية، أمـا فـي فتـرة حكـم مملكـة سـونغ التابعـة للأسـرة الجنوبيـة فقـد تغيـر الأمـر، ومـن هنـا، يمكـن القـول إن المنحوتـات الحجريـة الموضوعـة أمـام مقابـر الأباطـرة تمثـل أيضًـا - بشـكل تقريبـي- الاتجـاه الحتمـي للتطـور التاريخـي علـى مـر العصـور؛ حيـث إن التطـور مـن التوابيـت الخشـبية، إلـى تقنيـة الطـراز المقـوس باسـتخدام القراميـد، والتطـور مـن المقابـر العاديـة الخاليـة مـن أي شـيء موضـوع أمامهـا، إلـى وضـع منحوتـات حجريـة للوحـوش الأسـطورية لتتناسـب معهـا، لهـو تغيـر مذهـل فـي تاريـخ بنـاء المقابـر فـي الصيـن، ويرجـع الفضـل فـي ذلـك إلـى شـق طريـق الحريـر، وقـد أثَّـر دمـج هـذه التغيـرات -بشـكل بـارع- مـع نظـام الجنائـز التقليـدي فـي الصيـن، وتطورهـا لتصبـح طقوسًـا جديـدة لهـا فـي ثقافـة الجنائـز فـي الصيـن فـي العصـور اللاحقـة بشـكل كبيـر، ممـا يسـتدعينا لإجـراء تقييـم شـامل لهـا.

الباب العاشر

اتباع التقاليد الأجنبية.. عقيدة الديانة الزرادشتية وتقاليد الدفن (الجنازة) الخاصتين بأفراد دولة سوجديان الوافدين إلى الصين في عهد الأسرة الشمالية وأسرتي سوي وتانغ نموذجًا

(تشين روي وين)

فـي عهـد كل مـن الأسـرة الشـمالية، وأسـرتي سـوي، وتانـغ الملكيـة، كان يتمثـل أغلـب الفـرس الوافديـن إلـى الصيـن فـي المبعوثيـن ذوي المسـؤوليات الدبلوماسـية، والسياسـية، وليسـوا تجـارًا بالمعنـى الواضـح للتجـارة، وعلـى العكـس، كان شـعب دولـة سـوجديان -الواقعـة بيـن نهـري منطقـة آسـيا الوسـطى- يعملـون على بنـاء شـبكات تجاريـة مكتملـة علـى طـول طريـق الحريـر الواصـل بيـن منطقـة آسـيا الوسـطى، وشـمال الصيـن، وذلـك خـلال الفتـرة بيـن أوائـل القـرن الرابـع، وحتـى النصـف الأول مـن القـرن الثامـن الميـلادي، وبالتالـي، كان مـن الصعـب علـى تجـار الفـرس الساسـانيين المشـاركة فـي بنـاء هـذه الشـبكات التجاريـة، لاقتنـاص المصالـح التجاريـة فـي كل مـن منطقـة آسـيا الوسـطى، والصيـن نفسـها[1]، كمـا يمكننـا -مـن خـلال الاطـلاع علـى الكـم الكبيـر مـن البيانـات والسـجلات التاريخيـة المعلـن عنهـا- أن نـرى تحـول بعـض زعمـاء القوافـل التجاريـة القادمـة مـن سـوجديان، إلـى داخـل الصيـن، إلـى شـغل بعـض المناصـب داخل الصيـن مثـل ولاة لبعـض المـدن، أو قـادة عسـكريين، أو حـراس للقصـر الإمبراطـوري، وكذلـك بعـض المهـن الأخـرى، مثـل الترجمـة، أو الوسـاطة التجاريـة، وغيرهـا، وتُعتبـر الفتـرة بيـن أواخـر حكـم الأسـرة الشـمالية، وحتـى أوائـل حكـم أسـرة تانـغ، هـي الفتـرة الأساسـية التـي دخـل فيهـا الوافـدون مـن سـوجديان إلـى الصيـن، وتحـول بعضهـم مـن تجـار وزعمـاء لقوافلهـم التجاريـة، إلـى ولاة علـى بعـض المـدن الصينيـة، ليضعـوا فـي النهايـة جذورهـم فـي الأراضـي الصينيـة، ويصبحـوا وزراء فـي الحكومـة، أو ذوي مناصـب كبيـرة فيهـا.[2]

وترجـع الجـذور الأساسـية للمؤمنيـن بالديانـة الزرادشـتية فـي الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى إلـى البربـر (الأجانـب) المنتميـن لدولـة سـوجديان، وأحفادهـم[3]؛ حيـث كان مـن الطبيعـي إحضارهـم لمحتـوى ونمـط ديانتهـم مـن وطنهـم الأم إلـى الصيـن، بهـدف تقديـم عـروض سـحرية، وإظهـار روعـة وغمـوض هـذه الديانـة، وتأثيرهـا

1- رونغ شين جيانغ: "عملات طريق الحرير وتجار سوجديان"، من كتاب "طريق الحرير والتبادل الثقافي بين الشرق والغرب" تحرير رونغ شين جيانغ، دار نشر جامعة بكين، 2015م، صفحة 241، وللدراسات المفصلة انظر "الفرس والصين: اندماج الثقافتين في عهد أسرة تانغ الملكية"، من تأليفه أيضًا.

2- رونغ شين جيانغ: "التطور الوظيفي لزعيم من سوجديان عبر طريق الحرير، وصف الرسومات المنقوشة على التابوت الحجري في مقبرة شي جيون"، من كتاب"طريق الحرير"، تحرير الهيئة الوطنية للأثريات، دار الأثريات للنشر، 2014م، صفحة 50-45.

3- كان تساي خونغ شنغ أول من أطلق مصطلح "أحفاد سوجديان"، للتفاصيل انظر تشن تشون شنغ: "النظرية والمنهجية.. تجميع للمواد التدريبية للسيد تساي خونغ شنغ في الذكرى الخمسين لجامعة خونغشان"، دار نشر بوه شي يوان، 2007م، صفحة 10 - 13.

السحري في تحقيق النبوءات، ولا بدَّ لهذا المحتوى أن يكون منتميًا إلى الديانة الزرادشتية بدولة سوجديان[1]، ومنذ عام 1999م، أدى كل من التنقيب المتتالي في مقابر نبلاء أحفاد سوجديان (جدول 1) أمثال يو خونغ، وآن جيا، وشي جيون، وكانغ يي، وغيرهم[2]، وإعادة التعرف على المواد السابقة ذات الصلة[3]، إلى ثراء فهمنا للديانة الزرادشتية في الصين في العصور الوسطى.

1- تساي خونغ شنغ: "ترتيب "ديانة عبادة النار في بلاد الفرس.. والصين القديمة""، من كتابه "البيئة التعليمية"، هونغ كونغ، دار نشر بو شي يوان، 2001م، صفحة 154 - 155 / لين أو شو: "الاتجاه الاجتماعي للديانات الثلاث في عهد أسرتي تانغ وسونغ الملكيتين"، من كتاب "الإيمان والمجتمع في عهد أسرة تانغ الملكية"، دار المعاجم للنشر بشنغهاي، 2003م، صفحة 359 - 384 / "التفاضل بين الديانات الثلاث في العصور الوسطى"، الهيئة الصينية للكتاب، 2005م، صفحة 346 - 374 / لين أو شو: "الزرادشيتة الفارسية والزرادشتية في الصين القديمة"، من جريدة "أوراسيا" تحرير يو تاي شان، الطبعة الأولى، الهيئة الصينية للكتاب، 1999م، صفحة 202 - 222 / "التفاضل بين الديانات الثلاث في العصور الوسطى"، صفحة 316 - 345 / رونغ شين جيانغ: "الوظائف الاجتماعية للإيمان والصلاة في قبائل البربر في عهد الأسرة الشمالية وأسرتي سوي وتانغ"، من كتاب "الإيمان والمجتمع في عهد أسرة تانغ الملكية" تأليف رونغ شين جيانغ، صفحة 401 - 402 / "الصين القديمة وحضارة سوجديان"، المطبعة الثلاثية للنشر، 2014م، صفحة 257 / جانغ شياو قوي: "بحث نصي حول تحويل الديانة الزرادشتية إلى النمط الصيني في العصور الوسطى"، دار الأثريات للنشر، 2010م، صفحة 4 / لي بيي لان: "ما المقصود بالكهنة المتجسدين في شكل طيور؟"، من كتاب "الوافدون من سوجديان إلى الصين: الإثباتات الحديثة للاكتشافات الأثرية والوثائق المستخرجة" من تأليف لوه فنغ، ورونغ شين جيانغ، دار العلوم للنشر، 2016م، صفحة 396 - 413.

2- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شنشي، ومركز البحوث الأثرية بمدينة تاييوان، وهيئة الأثريات والسياحة بمنطقة جينيوان في مدينة تاييوان: "تقرير حول التنقيب في مقبرة يو خونغ التابعة لعهد أسرة سوي الملكية"، مجلة "الأثريات"، 2011م، العدد الأول، صفحة 27 - 52 / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شنشي، ومركز البحوث الأثرية بمدينة تاييوان، وهيئة الأثريات والسياحة بمنطقة جينيوان في مدينة تاييوان: "مقبرة يوخونغ التابعة لعهد أسرة سوي الملكية بمدينة تاييوان"، دار الأثريات للنشر، 2005م / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شانشي: "تقرير حول التنقيب في مقبرة آن جيا التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بالضاحية الشمالية لمدينة شيآن"، مجلة "الآثار والأثريات"، 2000م، العدد السادس، صفحة 28 - 35 / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شانشي: "مقبرة آن جيا المكتشفة في مدينة شيآن الصينية"، مجلة "الأثريات"، 2001م، العدد الأول، صفحة 4 - 26 / "مقابر آن جيا التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، دار الأثريات للنشر، 2003م / مركز حماية الأثريات بمدينة شيآن: "مقبرة شي جيون ذات التابوت الحجري التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، مجلة "الآثار"، 2004م، العدد السابع، صفحة 49-38 / مركز حماية الأثريات بمدينة شيآن: "تقرير حول التنقيب في مقبرة شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، مجلة "الأثريات"، 2005م، العدد الثالث، صفحة 4 - 33 / مركز البحوث الأثرية وحماية الأثريات بمدينة شيآن: "مقبرة شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية"، دار الأثريات للنشر، 2014م / مركز حماية الأثريات بمدينة شيآن: "تقرير حول التنقيب في مقبرة كانغ يي التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، مجلة "الأثريات"، 2008م، العدد السادس، صفحة 14 - 35. كل المعلومات الأثرية والصور والأرقام التسلسلية المذكورة في النص مأخوذة من (أو معدلة من) تقارير التنقيب الأثري في المقابر القديمة، والكتب المتعلقة التي ألَّفها العاملون في الترميم الأثري، وكذلك بقية النصوص في هذا الكتاب، ولن يُشار إلى هذا مرة أخرى.

3- مثل النقاشات التي طرحها البروفيسور جيانغ بوه تشين حول الأسِرَّة الحجرية التابعة لعهد مملكة بيي تشي بمدينة آن يانغ، والأرائك الحجرية ذات السواتر القابلة للطي بنقوش مجسمات الخيول بمدينة تيانشوي، وكذلك تحديد البروفيسور جنغ يان للمجسمات الحجرية الخاصة بمقبرة أسرة فو التابعة لعهد مملكة بيي تشي بمدينة تشينغجوو، وأيضًا نشر البروفيسور قه تشنغ يونغ للبيانات الخاصة بالأرائك الحجرية ذات السواتر القابلة للطي المكتشفة بمقبرة آن بيي التابعة لعهد أسرة سوي الملكية، والمحفوظة بمتحف مدينة شيآن. للتفاصيل انظر جيانغ بوه تشين: "بحث حول الصور المنحوتة على الأسِرَّة الحجرية التابعة لعهد مملكة بيي تشي بمدينة آن يانغ ودخول الفنون الجميلة الخاصة بالديانة الزرادشتية لأهل سوجديان إلى الصين"، من كتاب "دراسة حول تاريخ الفنون"، الطبعة الأولى، دار نشر جامعة جونغشان، 1999م، صفحة 151 - 186 / عنوان آخر "المجسمات الحجرية على الأسِرَّة الحجرية التابعة لعهد مملكة بيي تشي بمدينة آن يانغ ودخول الفنون الجميلة الخاصة بالديانة الزرادشتية لأهل سوجديان إلى الصين.. مناقشة العلاقة بين التغيرات الكبرى في طراز الرسم في عهد مملكة بيي تشي ومدرسة الرسم بدولة سوجديان" / "دراسة حول تاريخ فنون الديانة الزرادشتية في الصين"، المطبعة الثلاثية للنشر، 2004م، صفحة 33 - 62.

جدول (1) أشكال مقابر نبلاء أحفاد سوجديان المنقب عنها داخل الصين خلال الفترة بين عهد الأسرة الشمالية وحتى عهد أسرة سوي الملكية

صاحب المقبرة	مهنته	الفترة الزمنية التي يرجع إليها	شكل المقبرة (الوحدة: متر)								أدوات الدفن	الأغراض المدفونة مع صاحب المقبرة	الرسوم الجدارية	ملاحظات
			الإجمالي	مواد البناء	حجم المقبرة	الفناء	الأروقة	باب المقبرة	باب الإغلاق	ممر المقبرة				
كانغ يي	كاهن أكبر، وبعد موته لُقب بحامي حمى مدينة قانجوو	مات في الخامس من الشهر السادس من العام السادس من تقويم تيانخه التابع لأسرة جوو الملكية (571م)، ودُفن في 29 من الشهر الحادي عشر	لحق الضرر بالمقبرة بشكل كبير	مقبرة ذات غرفة واحدة محفورة في الأرض	3. 4×3. 3 وبقايا يبلغ ارتفاعها 1. 6متر		غير واضح، حيث لم يبق من السقف إلا بعض البقايا	مصنوع من الحجارة	مصنوع من القراميد والحجارة	مائل بانحدار	أريكة حجرية ذات ساتر خلفي قابل للطي		√	يُستنتج أنه كان لها فناء خاص بها
آن جيا	ساباو (كاهن ومسؤول معين من قبل الحكومة المركزية) في مدينة تونغجوو	مات في الشهر الخامس من العام الأول من تقويم الفيل (579م)، ودُفن في الشهر الحادي عشر من العام نفسه	35	مقبرة مصنوعة من القراميد ذات غرفة واحة مربعة الشكل ومصنوعة من الخشب المقوس	3. 68×3. 64 بارتفاع 3. 3 متر(168)	5	قبة المقبرة مصنوعة بتقنية الطراز المقوس باستخدام القراميد	مصنوع من الحجارة	مصنوع من القراميد المزدوجة	مائل بانحدار	أريكة حجرية ذات ساتر خلفي قابل للطي	لا يوجد	√	
شي جيون	ساباو (كاهن ومسؤول معين من قبل الحكومة	مات في العام الأول من تقويم الفيل، ودُفن في الثالث والعشرين	47. 26	مقبرة ذات غرفة واحدة محفورة في	3. 5×3. 7 وبقايا يبلغ	5	قبة مقوسة	مصنوع من	مصنوع من	مائل بانحدار	تابوت حجري	خاتم ذهبي، وقرط، وعملات ذهبية، ومصباح		

(168) مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شانشي: "مقبرة آن جيا التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، دار الأثريات للنشر، 2003م، صفحة 12. هناك اختلاف في وصف المقبرة بين "التقريرين" المقدمين حول التنقيب فيها، ويعتمد هذا الجدول على البيانات المذكورة في تقرير مركز البحوث الأثرية.

	المركزية) في ليانغجوو	من الشهر الأول من العام التالي في مقبرة مشتركة مع زوجته(169)		الأرض	ارتفاعها 0.5متر			الحجارة	القراميد والحجارة		وأريكة حجرية	خزفي		
يو خونغ	مفتش، وساباو (مساعد للكاهن الأكبر منه منزلة)، وجنرال ذو مكانة عالية، وقائد لجيوش الميسرة، وغيرها من المناصب	مات في العام الثاني عشر من تقويم كايخوانغ (592م)، ودُفن في الثامن عشر من الشهر الحادي عشر، وشكلت مقبرته مقبرة مشتركة حيث دُفنت زوجته معه في العام الثامن عشر من التقويم نفسه	13. 65	مقبرة مصنوعة من القراميد ذات غرفة واحة مربعة الشكل ومصنوعة من الخشب المقوس	3. 8×3. 9 وبقايا يبلغ ارتفاعها 1. 73متر		مصنوع من القراميد	غير واضح		مائل بانحدار	تابوت حجري	أكثر من 80 قطعة		سُرقت المقبرة في نهاية عهد أسرة تانغ الملكية
مقبرة "الأسرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول"(170) بمدينة تيانشوي	كان يستخدم هذه الأسرَّة الكهنة والمسؤولون المعينون من قبل الحكومة المركزية، أو الولاة(171)	(172)		مصنوعة من القراميد، بغرفة واحة مربعة ومصنوعة من الخشب المقوس	4. 2×4. 2 بارتفاع 3. 44متر				مصنوع من القراميد	مبني بالقراميد والمونة (الملاط)	تابوت حجري وأريكة حجرية	5 تماثيل حجرية لراقصين بوضعية الجلوس، وإبريق ذو عنق طويل، وشمعدان، ومشبك شعر ذهبي، ومرآة برونزية، ووسادة حجرية		

(169) ذُكرت هذه المعلومة في تقرير التنقيب في مقبرة شي جيون (مركز حماية الأثريات بمدينة شيآن: "مقبرة تابوت شي جيون الحجري التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، مجلة "الآثار"، 2004م، العدد السابع، صفحة 39.

(170) متحف مدينة تيانشوي: "مقبرة التوابيت ذات السواتر الحجرية القابلة للطي التابعة لعهد أسرتي سوي وتانغ والمكتشفة بمدينة تيانشوي"، مجلة الآثار، 1992م، العدد الأول، صفحة 46- 54.

(171) تشن روي وين: "إعادة استقراء لمقبرة آن بو"، مجلة "متحف القصر الإمبراطوري"، 2009م، العدد الرابع، صفحة 34-39.

(172) يعتقد الكثيرون في الأوساط العلمية المختلفة أن هذه الأسرَّة الحجرية تعود إلى الفترة بين أواخر عهد الأسرة الشمالية وحتى عهد أسرة سوي الملكية، ووفقًا لمحتوى النحت البارز على ظهر هذه الأسرَّة يمكن استنتاج أنها تعود إلى فترة تقويم دا يي التابع لعهد أسرة سوي الملكية، وللتفاصيل يمكن الاطلاع على تشن روي وين: "العديد من القضايا المتداولة حول مقبرة الأسرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول بمدينة تيانشوي"، دار العلوم للنشر، 2016م، صفحة 466- 500.

ومـن بيـن النقـاط البـارزة فـي مقبـرة آن جيـا، وغيرهـا مـن مقابـر نبـلاء أحفـاد المنتمين إلى دولـة سـوجديان، نجـد اسـتخدام أدوات الدفـن الحجريـة، وبقيـة الأغـراض الحجريـة المدفونـة مـع الموتـى كذلـك؛ حيـث قسَّـم عالـم الآثـار جانـغ تشـينغ جيـه هـذه المجموعـة مـن المقابـر -وفقًـا لـلأدوات المدفونـة فيهـا- إلـى نوعيـن؛ النـوع الأول: مقابـر التوابيـت الحجريـة، مثلمـا فـي مقبرتـي يـو خونـغ، وشـي جيـون، والنـوع الثانـي: مقابـر الأرائـك الحجريـة ذات السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي، مثلمـا فـي مقبرتـي آن جيـا، وكانـغ يـي، وغيرهمـا، وقسَّـم النـوع الأول إلـى شـكلين: 1) الشـكل الأول: التابـوت الحجـري لمقبـرة شـي جيـون، ويتميـز بدقـة صنعـه، ونحتـه علـى الطـراز المقـوس، وكذلـك نحـت الرمـوز عليـه بالطـراز المقـوس، كمـا يوجـد داخـل التابـوت أريكـة حجريـة. 2) الشـكل الثانـي: التابـوت الحجـري لمقبـرة يـو خونـغ، ويتميـز ببسـاطة صنعـه، ووجـود تجويفيـن خاصيـن علـى جانبـي قاعـدة التابـوت، ليتـم اسـتخدامهما فـي الجلـوس مثـل الأرائـك. أمـا النـوع الثانـي فقسَّـمهما إلـى شـكلين كذلـك: 1) الشـكل الأول: الأرائـك الحجريـة (أو تُسـمى الأسِـرَّة الحجريـة) ذات السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي، مثلمـا فـي مقبـرة آن جيـا، ومقبـرة "الأسِـرَّة الحجريـة ذات نقـوش مجسـمات الخيـول" بمدينـة تيانشـوي، وغيرهـا مـن الأسِـرَّة الحجريـة المسـتخرجة فـي العديـد مـن الأماكـن الأخـرى. 2) الشـكل الثانـي: الأرائـك الحجريـة (أو تُسـمى الأسِـرَّة الحجريـة) ذات السـواتر الخلفيـة مقوسـة الجانبيـن والقابلـة للطـي، مثلمـا فـي مقبـرة آن يانـغ، وMiho[1].

1- جانغ تشينغ جيه: "بين التأقلم مع البلد الجديد وصعوبة نسيان مسقط الرأس.. نظرة عامة حول أدوات الدفن الحجرية في مقابر المنتمين لدولة سوجديان"، مقتبس من كتاب "من مدينة سمرقند إلى مدينة تشانغ آن.. الآثار الثقافية لشعب سوجديان في الصين" تأليف رونغ شين جيانغ، وجانغ جي تشينغ، صفحة 13 - 14، وعنوان آخر "دراسة أولية حول صور أدوات الدفن الحجرية بمقابر الوافدين من سوجديان في الصين"، من كتاب "التقارب الوطني والتفاعل الحضاري.. استكشاف علم الآثار لمجتمع الأسرة الشمالية الملكية"، المطبعة التجارية للنشر، 2010م، صفحة 435.




صورة توضيحية لشكل الأريكة (السرير) والساتر الحجري القابل للطي الذي يُوضع بالخلف

ولا يمكننـا أن ننكـر أن الأرائـك الحجريـة ذات السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي، والتوابيـت الحجريـة الموجـودة فـي مقبـرة آن جيـا وغيرهـا مـن مقابـر أحفـاد نبـلاء سـوجديان قـد تـم اسـتخراج مثلهـا مـن قبـل مـن الأراضـي الصينيـة، وتعـود كذلـك إلـى المقابـر التـي ترجـع إلـى عهـد الأسـرة الشـمالية الملكيـة فـي الفتـرة نفسـها[1]، ومـن خـلال النظـر إلـى مبنـى المقابـر، نجـد أن هنـاك علاقـة بيـن ظهـور الأرائـك الحجريـة ذات السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي، و"المـواد" الأخـرى القابلـة للطـي فـي المقبـرة، واللوحـات الجداريـة القابلـة للطـي فـي المقبـرة كذلـك.

ففـي عهـد الـدول المتحاربـة فـي فتـرة الربيـع والخريـف ومـا بعدهـا، كان يُعـد وضـع كل مـن الأسِـرَّة والأرائـك الحجريـة ذات السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي فـي مقابـر النبـلاء تعبيـرًا عـن الامتثـال لخطـوات آليـة الدفـن المذكـورة فـي كتـاب "آداب أسـرة جـوو الملكيـة"[2]؛ حيـث ذكـر الكتـاب فـي مجلـده "أعضـاء الحـواس الخمـس.. راحـة اليـد" قائـلاً:

خـرج الملـك فـي رحلـة لتقديـم القرابيـن إلـى الآلهـة، وافتُرشـت خيمتـه بسـرير ذي بطانيـة، ووُضـع خلفـه سـاتر قابـل للطـي مزيـن برسـوم العنقـاء.

1- في ما يتعلق بالدراسات المعنية يمكن الاطلاع على لي يونغ بينغ، وجوو يين شيا: "مصدر الأرائك الحجرية ذات السواتر الخلفية القابلة للطي وتقاليد الديانة الزرادشتية في المقابر التابعة لأسرة وبي الشمالية"، مجلة "الآثار والأثريات"، 2005م، العدد الخامس، صفحة 72 - 77 / ياماموتو تادايوشي: "دراسة حول الأسِرَّة الحجرية ذات السواتر الخلفية القابلة للطي"، مجلة "علم الآثار الصيني"، 2006م، عدد 6، صفحة 45 - 67، وآخرون.

2- تشن روي وين: "التاريخ الثقافي للمواد الأثرية في الصين.. 5 فترات زمنية منذ عهد أسرة سوي وحتى عهد أسرة تانغ"، دار كاي مينغ للنشر، 2015م، صفحة 208.

وقـد فسـر جنـغ شـيوان -التابـع لعهـد أسـرة هـان الملكيـة- هـذا السـاتر قائـلاً: "هـو سـاتر مغطـى بريـش كريـش العنقـاء، موضـوع علـى الأرض بشـكل عمـودي، وقابـل للطـي".

أمـا جيـا قونـغ يـان -التابـع لعهـد أسـرة تانـغ الملكيـة- ففسـر السـرير والسـاتر قائـلاً: "هـو سـرير موضـوع عليـه بطانيـة، ويُسـمى بالسـرير المبطـن، أمـا السـاتر فقابـل للطـي، ومزيـن بريـش كريـش العنقـاء، ويُوضـع فـي مـكان جلـوس الملـك"[1].

ويفسـر وصـف كتـاب "آداب أسـرة جـوو الملكيـة" لـ"السـواتر القابلـة للطـي" تأخـر ظهـور الاسـتخدام المركـب للأرائـك (الأسِـرَّة) مـع السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي حتـى بدايـة عهـد أسـرة جـوو الغربيـة، ممـا يؤكـد تأكيـدًا قاطعًـا علـى أن ظهـور هـذا الاسـتخدام المركب للسـواتر القابلـة للطـي، مـع الأرائـك (الأسِـرَّة) الحجريـة فـي المقابـر يرجـع إلـى نظـام "الآداب فـي عهـد أسـرة جـوو الملكيـة".

كمـا توضـح الوثائـق المدوَّنـة اسـتخدام الأسِـرَّة الحجريـة والسـواتر القابلـة للطـي كأغـراض تُدفـن مـع الميـت فـي مقبرتـه، مثلمـا دوَّن كتـاب "مدونـات متفرقـة حـول مدينـة تشـانغ آن فـي عهـد أسـرة هـان الغربيـة"، المجلـد السـادس "مقبـرة الملـك ويـي شـيانغ"، حيـث يقـول:

بالنظـر إلـى مقبـرة الملـك ويـي شـيانغ نجـد أنهـا مملـوءة بالتوابيـت المصنوعـة مـن الأرجونيـت، بارتفـاع يصـل إلـى 8 أقـدام، وتسـع فـي مجملهـا 40 شـخصًا، وبلمـس التوابيـت تجـد أنهـا ملسـاء كمـا لـو كانـت حديثـة الصنـع، ويوجـد فـي داخـل التوابيـت أسِـرَّة حجريـة، وسـواتر حجريـة قابلـة للطـي، موضوعـة جميعهـا فـي موضعهـا الصحيـح بشـكل بديـع. لـم نسـتطع تتبـع آثـار الأغـراض المدفونـة مـع الموتـى فـي هـذه التوابيـت، ولكننـا وجدنـا وعـاء مصنوعًـا مـن اليشـم، وسـيفين مـن البرونـز علـى الأسِـرَّة، وتظهـر كافـة القطـع الأثريـة المصنوعـة مـن الذهـب واليشـم -حتـى ملابـس الملـك نفسـها- كالجديـدة تمامًـا.[2]

1- "شروح الآداب في عهد أسرة جوو الملكية"، المجلد السادس، دار نشر جامعة بكين، 1999م، صفحة 149.

2- تحرير ليو شين جوان، تجميع قه خونغ: "مدونات متفرقة حول مدينة تشانغ آن في عهد أسرة هان الغربية"، المجلد السادس "مقبرة الملك ويي شيانغ" / شيانغ شين يانغ، وليو كه رين: "شروح كتاب مدونات متفرقة حول مدينة تشانغ آن في عهد أسرة هان الغربية"، دار نشر الكتب الأثرية بمدينة شنغهاي، 1991م، صفحة 258.

ويدوِّن الكتاب نفسه في مجلده السادس "مقبرة الأمير ويي تشيه تشيو"، ويقول:

على الرغم من ضيق مساحة مقبرة الأمير تشيه تشيو -أمير مملكة وييقوه- وعدم احتوائها على توابيت، إلا أنها تحتوي على سرير حجري، بسعة 6 أقدام، وطول 10 أقدام، وساتر حجري قابل للطي، وكان يوجد أسفل السرير أعشاب الميكا الطبية. أما فوق السرير فكان يوجد جثتان، لرجل وامرأة، في عمر العشرينات، مائلين رأسيهما ناحية الشرق، عرايا، بلا غطاء أو ملابس، وكان يبدو لون بشرتهما كالأحياء تمامًا، وكذلك بدا شعرهما، وأسنانهما، وأظافرهما كالأحياء تمامًا أيضًا، وقد كان الناس يخافون حتى من الدخول إلى المقبرة، وبالتالي، أخفوها وعزلوها تمامًا.[1]

وفي الوقت الحاضر، تُعد أول سواتر قابلة للطي مكتشفة أثريًّا تلك التي تم اكتشافها في المقبرة رقم 1 من بين مقابر دولة تشوقوه القديمة بمدينة وانغشان في مقاطعة خوبيي، والتي تعود لفترة الدول المتحاربة[2]، وكذلك التي تم اكتشافها في المقبرة رقم 5 من بين مقابر دولة تشوقوه القديمة بمدينة جيانغلينغ في مقاطعة خوبيي، والمدرجة ضمن المقبرة الأولى من مجموعة مقابر تيان شينغ قوان، والتي ترجع لفترة الدول المتحاربة أيضًا[3]، أما في عهد أسرتي هان وتانغ الملكيتين، فقد توارث في عهدهما على الدوام كلٌّ من اللوحات الجدارية المرسوم عليها هذه السواتر، أو طريقة صنعها، وكان الاختلاف فقط من ناحية المحتوى، والشكل المجسد.

وتُظهر الرسومات الجدارية الموجودة في شمال المقبرة صورة للزوج والزوجة

1- تحرير ليو شين، تجميع قه خونغ: "مدونات متفرقة حول مدينة تشانغ آن في عهد أسرة هان الغربية"، المجلد السادس "مقبرة الأمير ويي تشيه تشيو"، "شروح كتاب مدونات متفرقة حول مدينة تشانغ آن في عهد أسرة هان الغربية"، صفحة 261.

2- فريق العمل الأثري بهيئة الأثريات بمقاطعة خو بيي: "مجموعة القطع الأثرية المهمة المستخرجة من مقابر دولة تشوقوه الثلاث بمدينة جيانغلينغ في مقاطعة خوبيي"، مجلة "الأثريات"، 1966م، العدد الخامس، صفحة 37.

3- متحف منطقة جينغجوو بمقاطعة خوبيي: "مقبرة دولة تشوقوه التي ترجع لعهد الدول المتحاربة والمدرجة ضمن المقبرة الأولى من مجموعة مقابر تيان شينغ قوان"، جريدة "الآثار"، 1982م، العدد الأول، صفحة 101.

(المدفونيـن فيهـا) وهمـا جالسـان علـى أريكـة (سـرير) ذات سـتائر تعلوهـا مـن فـوق[1]، ويتنـاولان مأدبـة مـا، وفـي الخلفيـة تظهـر السـواتر القابلـة للطـي، متصلـة بمـراوح للتهويـة، وعلـى الجانبيـن رسـومات تُظهـر حـراس تشـريفة الملـك علـى سـروج أحصنتهـم، وعلـى عربـات الثيـران، وقـد أصبـح هـذا النمـط لهـذا النـوع مـن الصـور الواقعيـة هـو النمـط الشـائع فـي مقابـر العائلـة المالكـة، ومسـؤولي الدولـة، والنبـلاء، وذلـك فـي كل مـن مـدن يـي تشـينغ، وبينغجـوو، وتشـينغجوو بمملكـة بيـي تشـي القديمـة فـي عهـد أسـرة ويـي الشـرقية[2]. إلا أنـه لـم يظهـر هـذا النمـط فـي مقبـرة تسـوي فيـن -التـي ترجـع للعـام الثانـي مـن تقويـم تيانبـاو (551م)- بمدينـة لينتشـيو فـي مقاطعـة شـاندونغ[3]، أو مقبـرة الرسـوم الجداريـة -التـي ترجـع لعهـد الأسـرة الشـمالية- بقريـة دونغباليـوا بمدينـة جينـان فـي المقاطعـة نفسـها[4]، كمـا يمكننـا أن نجـد اختـلاف التصميـم بيـن هاتيـن المقبرتيـن، وبالنسـبة لنظـام الحكـم فـي عهـد أسـرة جـوو الشـمالية، فعلـى الرغـم مـن اعتمـادة "تغييـر آليـات الحكـم القديـم"، إلا أنـه مـن خـلال الاطـلاع علـى المحتـوى والتركيـب الداخلـي للأرائـك الحجريـة ذات السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي فـي مقابـر أحفـاد نبـلاء سـوجديان، نجـد التشـابه الكبيـر بينهـا وبيـن الرسـوم الجداريـة بمقابـر مملكـة بيـي تشـي القديمـة، وذلـك يعنـي أن السـرير (الأريكـة)، والسـاتر القابـل للطـي المرسـومَين فـي اللوحـة الجداريـة الموجـودة فـي شـمال المقبـرة سـالفة الذكـر قـد اسـتُخدما ضمـن أدوات الدفـن الحجريـة، وفـي الوقـت ذاتـه، يجسـد المحتـوى المرسـوم علـى السـاتر الخلفـي المسـتخدم كأداة للدفـن صـورة لـ"مأدبـة عشـاء + أسـفار متعـددة"

1- يُعلق هذا النوع من الستائر عادة داخل الغرفة، ويُوضع السرير أسفل منها، وخلف السرير يُوضع الساتر القابل للطي، أما فوق السرير فتُوضع طاولة صغيرة، أو وسادة، ليتكئ عليها الشخص ويجلس، وتُعد هذه الستائر نوعًا من التصاميم رفيعة المستوى، حيث يستخدمها عادة طبقة النبلاء، وفي بعض الأحيان يخضع استخدامها لقواعد الطبقية في المجتمع. للتفاصيل يمكن الاطلاع على سو موه: "دراسة حول المعمار في مدينة دونخوانغ"، دار نشر صناعة الماكينات، 2003م، صفحة 311- 315.

2- لي شينغ مينغ: "دراسة حول الرسوم الجدارية بالمقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية"، دار نشر الشعب للفنون الجميلة بمقاطعة شانشي، 2005م، صفحة 24. فوفقًا لتفسير جيا قونغ يان في كتاب "آداب أسرة جوو الملكية.. مجلد أعضاء الحواس الخمس.. راحة اليد"، فإنه بدمج السجلات المتعلقة بالرسوم واللوحات الجدارية في المقابر التابعة لأسرة هان، يمكننا استنتاج أن الصورة المرسومة في اللوحة الجدارية الموجودة بشمال المقبرة، والتي تُظهر ملكًا جالسًا على سرير وخلفه ساتر قابل للطي، لا بدَّ وأن يكون صاحب المقبرة نفسه.

3- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شاندونغ، ومتحف مدينة لينتشيو: "الرسوم الجدارية بمقبرة تسوي فين (التي ترجع لمملكة بيي تشي القديمة) بمدينة لينشيو في مقاطعة شاندونغ"، مجلة "الأثريات"، 2002م، العدد الرابع، صفحة 26-4 / متحف مدينة لينتشيو: "مقبرة تسوي فين ذات الرسوم الجدارية"، دار الأثريات للنشر، 2002م.

4- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شاندونغ: "مقبرة الرسوم الجدارية التي ترجع لعهد الأسرة الشمالية بقرية دونغباليوا بمدينة جينان"، مجلة "الأثريات"، 1989م، العدد الرابع، صفحة 67- 68.

لصاحب المقبرة، حيث يجلس صاحب المقبرة في الصورة على أريكة (سرير) ذات ساتر خلفي قابل للطي، ومتصل بمروحة للتهوية، ومن هنا، يمكننا أن نستنتج أن الصور المستخدمة بالدفن بنظام الحكم في شرق وغرب الإمبراطورية الصينية في عهد الأسرة الشمالية ينبع أساسًا من عهد أسرة ويي الشمالية، وبالوصول إلى عهد أسرة تانغ الملكية، منعت الحكومة وجود حوامل للأرائك الحجرية، وأدى ذلك إلى جعل التابوت وحده رمزًا لصاحب المقبرة، وبالتالي، طرأ كذلك تغير موازٍ لموضع الساتر القابل للطي في المقبرة.[1]

ولكن، يمكن مع اختلاف المشاهد إنتاج مراجع مختلفة لنفس الشيء، وبالمثل، يمكن -أيضًا- إنتاج مرجع متشابه لأشياء مختلفة، ولذلك، من الضروري التمعن بشكل شامل في الأشياء عن طريق وضعها في سياقات محددة، ومن هنا نتساءل.. كيف استُخدمت هاتان الأداتان في مقابر أحفاد نبلاء سوجديان في الصين قبل عهد أسرة تانغ الملكية دون وجود أي تنسيق مسبق؟ وهل يوجد من بينها -بالمثل- أي عوامل متناسبة مع هوية صاحب المقبرة وثقافته العرقية؟

وفقًا لكتاب "تاريخ أسرة سوي الملكية"، المجلد 83 "السيرة الذاتية للمناطق الغربية"، فقد دوَّن فقرة لخَّصها عالم التاريخ الصيني جانغ قوانغ دا، جاء فيها: "كان ملك دولة آنقوه يجلس على كرسي ذهبي على هيئة جمل، بينما كان يجلس ملك دولة بوخانقوه على سرير ذهبي على هيئة خروف، أما ملك دولة خه قوه، وملك دولة أوناخه فكانا يجلسان على كرسي ذهبي على هيئة خروف، أما ملك الفرس فكان يضع تاجًا ذهبيًّا على شكل إكليل من الزهور، ويجلس على كرسي ذهبي على هيئة أسد، وكان ملك دولة تساوقوه يضع تاجًا على شكل رأس سمكة ذهبية، ويجلس على كرسي ذهبي على هيئة حصان"، ويقول جانغ قونغ دا إنه بالنظر إلى زخرفة المشغولات الفضية التابعة للدولة الساسانية، والرسوم الجدارية التابعة لدولة سوجديان، والسجلات والوثائق العربية، نجد أن كل الكراسي الذهبية التي تتخذ هيئات جمل، وأسد، وحصان، وخروف، وغيرها من الهيئات الأخرى،

1- تشن روي وين: "التاريخ الثقافي للمواد الأثرية في الصين.. 5 فترات زمنية منذ عهد أسرة سوي وحتى عهد أسرة تانغ"، صفحة 208.

تشـير جميعهـا إلـى أشـكال الحيوانـات المجسـدة فـي موضـع اتـكاء القـدم علـى أرجـل الكرسـي، وباسـتثناء ارتـداء الشـخصيات المرموقـة فـي كل مـن مناطـق آسـيا الوسـطى وغـرب آسـيا للتيجـان التـي تأخـذ شـكل إكليـل مـن الزهـور، فإنـه كان مـن الشـائع تجسـيد الكرسـي (السـرير) لهويـة صاحبـه، مثلمـا كان يجلـس الملـوك علـى العـروش الملكيـة لإظهـار هـذا التجسـيد، أمـا مـا هـو مـدوَّن فـي الوثائـق مـن اسـتخدام أن لـو شـان "الأجنبـي المهجـن مـن مدينـة ينغجـوو" لـ"سـرير" مـن نـوع "الأسـرة المطويـة"، أو "الأسـرة المقلوبـة" كمـا تُسـمى، فـلا بـدَّ أنهـا كانـت تمثـل الأسِـرَّة (العـروش) التـي كان يجلـس عليهـا الملـوك وكبـار الشـخصيات فـي مناطـق آسـيا الوسـطى، وغـرب آسـيا، وتعبـر الأريكـة الحجريـة المسـتخرجة مـن مقبـرة آن جيـا عـن هويـة صاحـب المقبـرة بكونهـا مـن نـوع "الأسِـرَّة المطويـة"[1]، وهـو أمـر لا مجـال للتكهـن حولـه.

وبالنسـبة للـدور الـذي يلعبـه هـذا النـوع مـن الأسِـرَّة المطويـة فـي المقابـر، فقـد تحقـق السـيد جانـغ مـن الكتـاب الإيرانـي الأثـري "نصائـح الواعـظ كوسـا" الـذي يرجـع لفتـرة العصـور الوسـطى، ويُقصـد بهـذه "النصائـح" تلـك التـي أسـداها الواعـظ كوسـا للملـك والـوزراء قبـل وفاتـه، وجـاء فيهـا مـا يلـي:

"فـي هـذا الوقـت الـذي تخـرج فيـه روحـي مـن جسـدي، يجـب عليكـم أن ترفعـوا عرشـي هـذا، وتنقلـوه إلـى مـكان مرقـدي الأخيـر وراحتـي الأبديـة، وتضعـوه بداخلـه[2]".

حيـث تـم وضـع كلمـات كوسـا الأخيـرة مـع عرشـه داخـل مقبرتـه، أمـا المغـزى مـن وضـع الأسِـرَّة المطويـة فـي مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان مثـل مقبـرة آن جيـا، وغيرهـا، فقـد أُزيـل الحاجـز عنـه بعـد اكتشـافها، ففـي واقـع الأمـر كانـت الأرائـك الحجريـة ذات السـواتر القابلـة للطـي المسـتخدمة فـي مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان عبـارة عـن نـوع مـن التحويـر الشـكلي وفـق الثقافـة العرقيـة التـي يرجـع إليهـا صاحـب المقبـرة.

1- جانغ قونغ دا: "إعادة استقراء لنقوش ضريح مقبرة زوجة سو ليانغ من عائلة ما (المكتوب بلغتين)"، مقتبس من المجلد العاشر لكتاب "دراسة حول علم الحضارة الصينية"، دار نشر جامعة بكين، 2002م، صفحة 18- 19 / "مختارات جانغ قونغ دا.. تداول النصوص والصور والثقافة"، دار نشر جامعة المعلمين بمقاطعة قوانغشي، 2008، صفحة 268- 269.

2- جانغ قونغ دا: "إعادة استقراء لنقوش ضريح مقبرة زوجة سو ليانغ من عائلة ما (المكتوب بلغتين)"، صفحة 268 - 269.



صورة (1) نقوش بلغة سوجديان، واللغة الصينية في القاعة الحجرية لمقبرة شي جيون

وكمثل مجموعة الأرائك الحجرية ذات السواتر الخلفية القابلة للطي (والتي يُطلق عليها اسم الأسِرَّة المطوية) الموضوعة في مقابر نبلاء أحفاد سوجديان، فإن الضريح المنقوش عليه بلغتين المستخرج من مقبرة شي جيون يوضح لنا أن أدوات الدفن الحجرية المستخدمة فيها لا يُطلق عليها اسم "تابوت حجري"، وإنما "قاعة حجرية"، كما ذُكرت في النقوش المكتشفة في المقبرة باللغة الصينية (صورة 1)، وفي السطر 29 من الجزء المكتوب بلغة سوجديان على ضريح مقبرة شي جيون مكتوب "القبر المصنوع من الحجارة (غرفة تجمع الآلهة)"[1]، ولا بدَّ أن يُقصد بهذا "القبر المصنوع من الحجارة" كلمة "القاعة الحجرية" المذكورة في النقوش باللغة الصينية، وتعني كذلك كلمة "قبر حجري" المذكورة في الوثائق والسجلات[2]، ويوضح هذا المعنى أن المواد الحجرية قد استخدمت لبناء غرفة لتجمع الآلهة، وهي غرفة القبر ذاتها (القاعة الحجرية المقصودة)، أما المغزى الضمني لاستخدام هذا المستوى من بناء المقابر فلا بدَّ أن يكون هو نفسه السبب الرئيس لاستخدام الأغراض الحجرية المدفونة مع الميت مثل التوابيت الحجرية،

1- جي تيان فنغ: "دراسة وتفسير للجزء المكتوب بلغة سوجديان على الضريح المستخرج حديثًا من مقبرة شي جيون بمدينة شيآن"، مقتبس من "علم الصينيات بفرنسا"، الطبعة العاشرة، تحت عنوان خاص"االأفراد المنتمون لسوجديان في الصين.. استكشاف جديد حول تاريخهم، وآثارهم، ولغتهم"، الهيئة الصينية للكتاب، 2005م، صفحة 38.

2- "تاريخ أسرة تانغ الملكية القديم.. السيرة الذاتية لأن جين زانغ"، حيث دوَّن قائلًا: "بعد وفاة والدة أن جين زانغ، قام بدفنها في المنطقة الواقعة شمال أسوار المدينة الجنوبية، حيث قام ببناء قبر حجري، وبرج حجري على جانب قبرها، وكان يعمل في بناء القبر ليلًا ونهارًا دون كلل أو ملل". "تاريخ أسرة تانغ الملكية الحديث"، المجلد 187، الجزء الأول، الهيئة الصينية للكتاب، 1975م، صفحة 4885 - 4886.

وغيرها في مقابر أحفاد سوجديان أو الأجانب الموجودين في الصين عامة، وانطلاقًا من هذا المعنى، نجد أن المقابر ذات الغرف الحجرية تندرج في الأصل تحت نوع القبور الحجرية، ولكن، وبسبب قيود نظام الطبقية في المجتمع، لم يكن أمامهم سوى تغيير ممر المقبرة، واستخدام الأسِرَّة المطوية، أو القاعات الحجرية بدلًا عنها، ومن الواضح، أنه في وسط هذا الفضاء المكاني المحاط بالآلهة -حسب معتقداتهم- فإن الإشارة إلى الثقافة العرقية لصاحب المقبرة أمر بديهي لا جدال حوله.

ويُعد استخدام التوابيت الحجرية أحد تقاليد الصينيين في الدفن كذلك. فعلى سبيل المثال، ذكر كتاب "السيرة الذاتية لعدل المسؤول زوه تشيو مينغ" (في الشهر الثامن من العام الثاني من تقويم تشينغقونغ)، قائلًا: "مات الجندي سونغ وين قونغ، وشُيِّع في جنازة بسيطة غير مكلفة؛ حيث استُخدم الجير لصنع عربة حصان، ودُفِنت معه بعض الأغراض مثل المشغولات اليدوية، وكان التابوت الذي وُضِع فيه له 4 جوانب مائلة، وبه أريكة، وغطاء مزخرف"[1]؛ حيث يُقصد بـ"الجوانب الأربعة المائلة للتابوت" أي أنه كان يأخذ شكل المنزل ذي السقف المائل، وذلك لكي يسمح لمياه الأمطار بالنزول حوله وعدم التجمع فوقه. مثال آخر ما دوَّنه كتاب "مدونات متفرقة حول مدينة تشانغ آن في عهد أسرة هان الغربية"، المجلد السادس "مقبرة الملك ويي شيانغ"، وذكرناه سابقًا، حيث يقول:

بالنظر إلى مقبرة الملك ويي شيانغ نجد أنها مملوءة بالتوابيت المصنوعة من الأرجونيت، بارتفاع يصل إلى 8 أقدام، وتسع في مجملها 40 شخصًا، وبلمس التوابيت تجد أنها ملساء كما لو كانت حديثة الصنع، ويوجد في داخل التوابيت أسِرَّة حجرية، وسواتر حجرية قابلة للطي، موضوعة جميعها في موضعها الصحيح بشكل بديع.

وتثبت الاكتشافات الأثرية -أيضًا- استخدام التوابيت الحجرية بالفعل في بعض المقابر شمال الصين في عهد الدول المتحاربة، كما هي الحال في مقبرة الملك جو خوو، والمقابر الملكية الأخرى، وتدريجيًّا أصبحت عادة متوارثة عند الصينيين

1- يانغ بوه جيون: "شروح السيرة الذاتية للمسؤول زوه تشيو مينغ"، الهيئة الصينية للكتاب، 1983م، صفحة 801 - 802.

حتى عهد أسرة هان الملكية[1]. فعلى سبيل المثال، نجد المقبرة الأكبر من بين مقابر أسرة جاو الملكية بمدينة خاندان في مقاطعة خه بيي، وهي مقبرة جوو ياو رقم 1، حيث نجد تكون التوابيت فيها من طبقة حجرية خارجية، وطبقة خشبية داخلية[2]، وكذلك نجد مقبرة ملك دولة جونغشان بمدينة بينغشان في مقاطعة خه بيي، والتي ترجع لعهد الدول المتحاربة، قد استُخدم فيها الحجارة المكدسة لتكون تابوتًا بسمك 1.5- 1.8 متر، أما التابوت الحجري للمقبرة رقم 6 فيبلغ سمكه 3 أمتار تقريبًا.[3]

وفي عام 2011م، أحصى عالم الآثار قوه قوي خاو -وفقًا للمعلومات المُعلن عنها في ذلك الوقت- وجود 50 مجموعة من الأسِرَّة الحجرية ومكوناتها، و10 توابيت حجرية ترجع لعهد الأسرة الشمالية[4]، ويبلغ طول الأسِرَّة الحجرية المنقوش عليها صور بالحجم الكبير 200- 230 ملليمتر، بينما يبلغ طول الأسِرَّة الحجرية المنحوت عليها صور بالنحت البارز 230- 250 ملليمتر. بعدها، أُعلن عن بعض الأسِرَّة الحجرية المكتشفة حديثًا، من بينها سرير حجري (يخص مقبرة لشخص أجنبي يُدعى دي يو) يعود للعام الأول من تقويم دينغيوان التابع لأسرة ويي الشرقية (543م)[5]، وكذلك أُعلن عن بعض التوابيت والقاعات الحجرية المكتشفة حديثًا، من بينها قاعة حجرية تعود للعام الثالث من تقويم تاي آن التابع لأسرة ويي الشمالية (457م)، وتم اكتشافها في قرية وانغقوانتون بمدينة يانغقاو، وقاعة جيه شينغ الحجرية التي تعود للعام الرابع من تقويم تاي آن

1- قوه قوي خاو: "دراسة أثرية حول الصور المنقوشة على التابوت الحجري في مقبرة لي دان التابع لعهد أسرة جوو الشمالية"، الباب الثالث "اكتشاف أدوات الدفن الحجرية التابعة لعهد الأسرة الشمالية الملكية"، بحث ماجيستير بجامعة بكين، 2011م.

2- مكتب الإدارة الثقافية بمقاطعة خه بيي، ومعهد التأمين الثقافي بمنطقة خاندان، ومعهد التأمين الثقافي بمدينة خاندان: "مقابر أسرة جاو الملكية بمدينة خاندان في مقاطعة خه بيي"، مجلة "الآثار"، 1982م، العدد 6، صفحة 597 - 605، و564.

3- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة خه بيي: "مقبرة ملك دولة جونغشان التابعة لعهد الدول المتحاربة"، مجلة الأثريات للنشر، 1996م، صفحة 30 / مكتب إدارة الأثريات بمقاطعة خه بيي: "تقرير حول التنقيب عن مقبرة ملك دولة جونغشان التابعة لعهد الدول المتحاربة بمدينة بينغشان في مقاطعة خه بيي"، مجلة "الأثريات"، 1979م، العدد الأول، صفحة 13-1.

4- قوه قوي خاو: المرجع السابق نفسه، وقد أزال من إحصائيته مقبرة أسرة فو الحجرية بمدينة تشينغجوو في مقاطعة شاندونغ، والتي حسبها عالم الآثار قوه وين ضمن هذه الإحصائية، ويمكن للقارئ الاطلاع على هذه المعلومات بنفسه.

5- جاو تشاو: "شرح حول الضريح الموجود على بوابة مقبرة الأجنبي دي يو، والساتر الحجري بالمقبرة"، مقتبس من رونغ شين جيانغ، ويوه فنغ من كتاب "الوافدين من سوجديان إلى الصين: الإثباتات الحديثة للاكتشافات الأثرية والوثائق المستخرجة" من تأليف لوه فنغ، ورونغ شين جيانغ، دار العلوم للنشر، 2016م، صفحة 673 - 683.

(458م) التابع للإمبراطور تا با جيون الإمبراطور الخامس لأسرة ويي الشمالية، وقاعة جانغ جي لانغ الحجرية التي تعود للعام الأول من تقويم خه بينغ (460م) التابع للإمبراطور تا با جيون كذلك[1]، وقاعة حجرية أخيرة ترجع لعهد الأسرة الشمالية الملكية، ومحفوظة في المتحف الوطني الصيني، ليصبح الإجمالي 4 قاعات حجرية مكتشفة حديثًا، ومن ناحية أخرى، هناك -أيضًا- مقبرة أسرة فو ذات الغرف الحجرية بمدينة تشينغجوو في مقاطعة شاندونغ، والتي تعود للعام الرابع من تقويم أوبينغ التابع لمملكة بيي تشي القديمة (573م)[2]، وتتضمن المقابر المحتوية على أدوات الدفن الحجرية تلك مقابر الأباطرة والنبلاء، وبعض مقابر المسؤولين الأقل رتبة، وكذلك تتضمن مقابر الصينيين، ومقابر الزيانبة، ومقابر الأجانب الوافدين إلى الصين؛ حيث سبق لمعظم أصحاب تلك المقابر وتلقوا تأثيرًا من ثقافة قبيلة الزيانبة، وثقافة المناطق الغربية، ومن هنا، وجب علينا الربط بين استخدام الأدوات الحجرية في الدفن، والاختيار الخاص لثقافة أحفاد الأجانب الوافدين إلى الصين.

1- جانغ تشينغ جيه: "القاعات والتوابيت والأسِرَّة الحجرية التابعة لعهد أسرة ويي الشمالية والنصوص المكتوبة على اللوحات الجدارية الملحقة.. قاعة جيه شينغ الحجرية المكتشفة حديثًا نموذجًا لبحث التغيرات في التقاليد الجنائزية"، مقتبس من "عالمان يحومان: تجميع وقائع الندوة الأكاديمية حول تقاليد المفاهيم الجنائزية ونظام الآداب في فترة العصور الوسطى"، دار العلوم للنشر، 2016.

2- شيا مينغ تساي: "الصور المنقوشة بالمقابر ذات الغرف الحجرية التابعة لمدينة إيدو بمملكة بيي تشي القديمة"، مجلة "الأثريات"، 1985م، العدد العاشر، صفحة 49 - 54 / شيا مينغ تساي: "ملحق تكميلي حول الصور المنقوشة بمقابر عائلة فو التابعة لمملكة بيي تشي بمدينة تشينغجوو"، مجلة "الأثريات"، 2001، العدد الخامس، صفحة 92 - 93؛ حيث يرى هذا العالِم أن هذه المجموعة من السواتر القابلة للطي عبارة عن سواتر تُثبت في ظهر الأرائك الحجرية، وللمزيد من التحليل والتفسير المتعلق بهذا الأمر يمكن الاطلاع على تشن روي وين: "دمج صور المجسمات الحجرية بمقبرة عائلة فو في مدينة تشينغجوو"، يو تاي شان، ولي جين شيو: كتاب "أوراسيا" (طبعة دولية)، الطبعة 13، الهيئة الصينية للكتاب، 2015م، صفحة -71 83.

وفي المجمل، نقول إن رؤية أدوات الدفن الحجرية في المقابر التابعة لعهد الأسرة الشمالية الملكية لا بدَّ وأن تكون منتجًا مدمجًا يجمع بين تقليد الغرف الحجرية في مقابر الزيانبة، وتقليد أدوات الدفن الحجرية في مقابر الصينيين، وينبع هذا المنتج المزدوج من النظام المذكور في كتاب "آداب أسرة جوو الملكية". أما المقابر ذات الغرف الحجرية، وأدوات الدفن الحجرية، والأغراض التي تُدفن مع الموتى فقد أصبحت أيضًا -وبالتدريج- مميزات مهمة تتسم بها مقابر أحفاد الأجانب الوافدين إلى الصين في بعض فترات العصور الوسطى، وذلك بسبب تقاربها مع الثقافة العرقية لهؤلاء الأجانب، كما أنها تمثل أدوات دفن متناسبة مع تقاليد الصين الجنائرية في فترة العصور الوسطى، ومتناسبة كذلك مع الثقافة العرقية لشعب سوجديان المؤمن بالديانة الزرادشتية، ومن هنا، يُطلق -أيضًا- عليها بالترتيب اسم الأسِرَّة الحجرية المطوية، والقاعات الحجرية (المقابر الحجرية).

صورة (2) الساتر الحجري بالقاعة الحجرية w1 بمقبرة شي جيون (المنطقة A تمثل مجموعة الصالحين الخالدين)

ويُعد دفن الأسِرَّة الحجرية المطوية والقاعات الحجرية داخل القبر شكلًا رئيسًا للدفن في مقابر نبلاء أحفاد سوجديان الوافدين إلى الصين قبل عهد أسرة تانغ الملكية، وبالنظر إلى أدوات الدفن الحجرية في مقبرة آن جيا وغيره من المنتمين لدولة سوجديان المؤمنين بالديانة الزرادشتية، نجد أنها مليئة بالصور المنحوتة

بطريقـة النحـت الغائـر، أو المنقوشـة بطريقـة النقـش الغائـر، ومـن هنـا، يمكننـا دمـج محتـوى هـذه الصـور لإضافـة شـرح موجـز حـول الديانـة الزرادشـتية فـي الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى، فمـن خـلال الاطـلاع علـى الصـور المتاحـة بيـن أيدينـا مـن مقابـر أحفـاد المنتميـن إلـى سـوجديان، نجـد أنهـا يمكـن أن تُنسـب فـي الأسـاس إلـى جانبيـن كبيريـن، همـا الآلهـة، والطقـوس الجنائزيـة:

ففي الوقت الحالي، تم تحديد الآلهة التالية الخاصة بالديانة الزرادشتية:

1) الإلـه أهـورا مـازدا والملائكـة السـتة أميشـا سـبينتا (Amesha Spentas) (الكيانات السـتة التـي تحيـط بأهـورا مـازدا)، ونجدهـا فـي الجـزء العلـوي مـن السـاتر القابـل للطـي فـي القاعـة الحجريـة w1 بمقبـرة شـي جيـون (صـورة 2)، وتُظهـر الصـورة روح زوجـة شـي جيـون وهـي تصلـي فـي الجنـة (Galor-nemana)، وتقـدم القرابيـن لمجموعـة ملائكـة أميشـا سـبينتا (مجموعـة الصالحيـن الخالديـن) بزعامـة الإلـه أهـورا مـازدا (الجـزء A1 مـن صـورة 2)، أمـا أهـورا مـازدا فيظهـر وهـو يقـدم النصائـح والتعاليـم لرهبـان ومعتنقـي الديانـات المختلفـة[1]، وتُعتبـر هـذه الصـورة مـن مقبـرة شـي جيـون مثـالًا نموذجيًّـا علـى التجسـيد المتكـرر لإعطـاء النصائـح والتعاليـم لمعتنقـي الديانـات الأخـرى، وذلـك بقصـد إظهـار وتجسـيد عظمـة الديانـة الزرادشـتية، والإيمـان القـوي لصاحـب المقبـرة وثباتـه[2]؛ حيـث تنـص الديانـة الزرادشـتية علـى أن أصحـاب الإيمـان القـوي فقـط هـم مـن يقتربـون إلـى مـكان أهـورا مـازدا بالجنـة، ولهـذا علاقـة بهـذا النـوع مـن الخصوصيـة فـي صـورة القاعـة الحجريـة بمقبـرة شـي جيـون، والأهـم مـن ذلـك هـو التأكيـد علـى أنـه كان لـم يـزل الإلـه أهـورا مـازدا والملائكـة السـتة أميشـا سـبينتا يمثلـون قلـب العبـادة فـي الديانـة الزرادشـتية فـي الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى، وممـا لا شـك فيـه أن هـذه النقطـة كانـت تتماشـى مـع الديانـة الزرادشـتية ببـلاد الفـرس علـى مـر العصـور.

1- تشن روي وين: "محتوى صور القاعات الحجرية W1 وN5 بمقبرة شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية"، "جريدة المتحف التاريخي بمقاطعة شانشي"، الطبعة 22، دار سان تشين للنشر، 2015م، صفحة 19-11.

2- الكتاب السابق نفسه، صفحة 28-27.

2) الإلهة نانا؛ حيث نجدها مرسومة في الجزء العلوي من ميمنة الساتر القابل للطي J الخاص بالسرير الحجري المطوي في مقبرة Miho، وتظهر جالسة على أسدين، وممسكة في يديها الشمس والقمر (صورة 3)[1]، ويُطلق على هذه الصورة اسم مكافأة الآلهة[2]، حيث إنها تجسد تقديم القرابين للإلهة نانا، ووفقًا لقصة أسطورة سومر، فقد وقعت الإلهة نانا من السماء على الأرض، إلا أنها استعادت الحياة من جديد، وعادت لتعيش وسط بني البشر، ويظهر دائمًا تمثالها مع العلامات الرمزية الخاصة بها كذلك (مثل الورود، أو أكاليل الزهور المستديرة، أو النجوم الثُمانية (نجوم اليانسون)، أو أوشحة الرأس، أو مجسمات الأسود، أو العقيق الأحمر) في مقابر الموتى، وذلك من أجل حمايتهم، ومساعدتهم على قضاء حياة سعيدة في العالم الآخر.[3]



صورة (3) الساتر القابل للطي J الخاص بالسرير الحجري لمقبرة Miho

3) إله الريح (Weshpakar)؛ حيث يظهر على هيئة إله متعدد الأذرع في الرسوم

1- A. L. Juliano and J. A. Lerner, "Cultural Crossroads: Central Asian and Chinese Entertainers on the Miho Funerary Couch"، Orientations، Oct. 1997، pp.72-78.

2- أطلق رونغ شين جيانغ على محتوى هذا الساتر الحجري اسم "إلهة الرقص والترفيه"، وللتفاصيل يمكن الاطلاع على رونغ شين جيانغ: "الصور على ساتر السرير الحجري بمقبرة Miho المنتمي إلى دولة سوجديان.. ودمج هذه الصور"، مقتبس من كتابه "دراسة حول تاريخ الفنون"، الطبعة الرابعة، دار نشر جامعة جونغشان، 2002م / "الصين في العصور القديمة وحضارة سوجديان"، صفحة 350.

3- يانغ جيو بينغ: "الانتشار والتغيرات الخاصة بالإلهة نانا"، مجلة "تاريخ العالم"، 2010م، العدد الخامس، صفحة 104.

الموجـودة علـى السـاتر الحجـري بالقاعـة الحجريـة E1 التابعـة لمقبـرة شـي جيـون[1] (صـورة 4)، ويظهـر كذلـك فـي أعلـى الصـورة المرسـومة علـى اللوحـة الثانيـة للسـاتر الحجـري الثانـي الخـاص بالسـرير الحجـري المطـوي المحفـوظ بمتحـف جويميـت الفرنسـي (صـورة 5).



صورة (5) اللوحة الثانية للساتر الحجري الخاص بالسرير الحجري المطوي المحفوظ بمتحف جويميت الفرنسي

صورة (4) الساتر الحجري بالقاعة الحجرية E1 الخاصة بمقبرة شي جيون

1- رونغ شين جيانغ: "تمثال بوذي أم إله خاص بالديانة الزرادشتية؟.. الاطلاع على الأشكال الممزوجة للأديان انطلاقًا من مملكة يوتيان عبر طريق الحرير"، "علوم جيوجوو"، المجلد الأول، العدد الثاني، شتاء 2003م، صفحة 103- 110.

F. Grenet, P. Riboud et Yang Junkai, "Zoraoastrian Scenes on a Newly Discovered Sogdian Tomb in Xi"an .Northern China", Studia Iranica, 33.2, 2004, pp.282-283

يانغ جيون كاي: "دراسة أولية حول الصور المرسومة على التابوت الحجري بمقبرة شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية بمدينة شيآن"، مقتبس من "علم الصينيات بفرنسا"، الطبعة العاشرة، تحت عنوان خاص "االأفراد المنتمون لسوجديان في الصين.. استكشاف جديد حول تاريخهم، وآثارهم، ولغتهم"، الهيئة الصينية للكتاب، 2005م، صفحة 12 / جيانغ بوه تشين: "نظام هوية الساباو من أفراد سوجديان الوافدين إلى الصين والفن التذكاري في صور المجسمات الحجرية"، مقتبس من "علم الصينيات بفرنسا"، الطبعة العاشرة، تحت عنوان خاص "االأفراد المنتمون لسوجديان في الصين.. استكشاف جديد حول تاريخهم، وآثارهم، ولغتهم"، الهيئة الصينية للكتاب، 2005م، صفحة 45.

حيث يظهر إله الريح (Weshpakar) في الديانة الزرادشتية في داخل الحلقة الموجودة بالخلفية بالجزء العلوي من الساتر الحجري في القاعة الحجرية E1 الخاصة بمقبرة شي جيون، أما الإلهة التي تظهر بجناحين فلا بدَّ وأن تكون الإلهة Daēnā، وبالنسبة للسيدتين الموجودتين على الجانبين فهما وصيفتا الإلهة Daēnā، ومسؤوليتهما الاهتمام بشيئين يخصان الإلهة Daēnā: كأسها، وزهورها، ويجسد هذا المشهد اقتراب روح الميت الصالحة في فجر اليوم الرابع من الوفاة ووسط الرياح الدافئة من "جسر الاختيار" (Činwad، أو ما يُسمى بـ"جسر الحساب"). أما المحتوى الظاهر في أعلى الصورة المرسومة على اللوحة الثانية للساتر الحجري الخاص بالسرير الحجري المطوي المحفوظ بمتحف جويميت الفرنسي فيعبر عن تجسيد مصغر للقاعتين الحجريتين E1-2 بمقبرة شي جيون، ويمثل الإله المرسوم في أعلاه إله الريح كذلك[1]، إلا أنه مختلف في هيئته قليلاً.



(صورة 6) إله الحرب فيريثراغانا في اللوحة الثالثة المنحوتة على جدار تابوت مقبرة يو خونغ الحجري

4) إله الحرب فيريثراغانا (Verethraghna, Warahrān/Bahrām)، ويظهر في اللوحة الثالثة المنحوتة على جدار تابوت مقبرة يو خونغ الحجري (صورة 6)، كما يظهر على هيئة خنزير بري مرسوم في القاعة الحجرية W1 بمقبرة شي جيون (الجزء b5 من صورة 2).

وقد سرد كتاب الأفيستا (الأبستاق) المقدس "Avesta" في فصل Yast X IV Bahrâm Yast التجسيدات العشرة التي يمكن أن يتجسدها إله الحرب فيريثراغانا، وهي على الترتيب: عاصفة عنيفة (Wind， §2)، وثور ذو قرون ذهبية طويلة (Bull， §7)، وحصان أبيض ذو آذان

1- تشن روي وين: "تأملات حول الأسِرَّة المطوية المحفوظة بمتحف جويميت الفرنسي"، مقتبس من جانغ شياو قوي "دراسة حول الديانات الأجنبية الثلاث.. تجميع لأوراق السيد لين أو شو التذكارية في عامه السبعين"، دار نشر جامعة لانجوو، 2014م، صفحة 426 - 483.

ذهبية طويلة وحوافر ذهبية (9§ ،Horse)، وجمل شبق (11§ ،Camel)، وخنزير بري ذكر (15§ ،Boar)، وشاب في الخامسة عشرة (17§ ،Youth)، وصقر طائر (/Vareghna 19§ ،Hawk)، وخروف ذكر ذو قرون معوجة (23§ ،Ram)، وأيل ذو قرون مدببة (25§ ،Buck)، وأخيرًا محارب مسلَّح (27§ ،Man)[1].

ويظهر في اللوحة الثالثة المنحوتة على جدار تابوت مقبرة يو خونغ الحجري إله الحرب فيريثراغانا ممتطيًا جملاً، وملتفتًا وراءه لتصويب سهامه نحو الأسود البرية[2]، وقد اعتُبر فيريثراغانا إله النصر، كما أُطلق عليه اسم "مخلوق أهورا"، أو "منحة أهورا"، وهو لا يختلف عن العديد من الآلهة في بلاد الهند والفرس قديمًا، حيث يظهر على الساتر الحجري في القاعة الحجرية W1 بمقبرة شي جيون هيئة لخنزير بري ذي أنياب، خلف الإله أهورا، في وضع الاستعداد للهجوم على أي شخص يغدر بالإله أهورا في أي وقت.[3]

5) Daēnā، وهي الإلهة التي تظهر بجناحين في الجزء العلوي من الساتر الحجري بالقاعة الحجرية E1 الخاصة بمقبرة شي جيون (صورة 4)، وكذلك على اللوحة الأولى من الناحية الشرقية للساتر الحجري الخاص بالسرير المطوي الخاص بمقبرة آن جيا، حيث تظهر على هيئة طفل يرفع يده على الميمنة أمام الجسر (صورة 7).

1- The Zend-Avesta, PartII, in Sacred Books of the East, vol.23, Translated by James Darmesteter, The Oxford University Press, 1882, pp.231-238

Mary Boyce, Textual Sources for the Studies of Zoroastrianism, Edited and Translated by Mary Boyce, The University of Chicago Press, 1999, p.30.

وانغ شياو بو: "الزرادشتية وصعود قبائل التركمان وسقوطهم.. باتخاذ دراسة آلهة الحروب عند قبائل التركمان قديمًا أساسًا للمناقشة"، مجلة "دراسات تاريخية"، 2007م، العدد الأول، صفحة 24 - 40 / "تكتلات المجموعات العرقية في الصين في فترة العصور الوسطى"، الهيئة الصينية للكتاب، 2012م، صفحة 16 - 19، وقد خضع النص لتعديلات وفق هذا المرجع.

2- جيانغ بوه تشين: "دراسة حول تاريخ فنون الديانة الزرادشتية في الصين"، صفحة 150.

3- ويي تشينغ جنغ: "الأساطير الفارسية القديمة"، دار نشر الفنون بمدينة بيي يويه، ودار نشر الشعب بمقاطعة شنشي، 1999م، صفحة 299.



صورة (7) صورة الإلهة Daēnā وهي تحاسب زوجة آن جيا، مرسومة على الوحة الثالثة من اليمين للساتر الحجري الخاص بالأريكة الحجرية لمقبرة آن جيا

6) الإلـه هاومـا، ويظهـر فـي اللوحـة التاسـعة المنحوتـة علـى جـدار تابـوت مقبـرة يـو خونغ الحجري ممتطيًا حصانًا[1] (صورة 8).

صورة (8) الإله هاوما في اللوحة التاسعة المنحوتة على جدار تابوت مقبرة يو خونغ الحجري

7) الطائـر المقـدس سراوشـا (Sraosha)، وقـد أُطلـق عليـه فـي الوثائـق الصينيـة اسـم "الديـك الذهبـي"، ويجسـده الديـك الذهبـي المنقـوش علـى الأسـكفية العلويـة للبـاب الحجـري الخـاص بمقبـرة جـاي تسـاو مينـغ (صـورة 9)، وكذلـك يجسـده الديـكان المنقوشـان علـى ظهـور الجمـال فـوق جسـر الحسـاب فـي الجـزء السـفلي مـن السـاتر الحجـري بالقاعـة الحجريـة E1 التابعـة لمقبـرة شـي جيـون (صـورة 4).

ويرمـز الديـك فـي الديانـة الزرادشـتية إلـى الطائـر المقـدس سراوشـا[2]، ولا يمثـل سراوشـا مبعـوث الإلـه

1- جيانغ بوه تشين: "دراسة حول تاريخ فنون الديانة الزرادشتية في الصين"، صفحة 149.

2- ويي تشينغ جنغ: "الأساطير الفارسية القديمة"، صفحة 374 - 375.

أهـورا وحسـب، بـل يمثـل -أيضًـا- معاقـب الشـياطين (fiend-smiter)، فهـو الإلـه النبيـل الـذي يمثـل رأس الحربـة الأقـوى فـي تجسـيد هـذا العالـم[1]، كمـا أنـه يمثـل روح التقـوى والنظـام فـي الأسـاطير الفارسـية القديمـة، حيـث يُطلـق عليـه فـي بعـض هـذه الأسـاطير اسـم "Sroš" (وتعنـي الحـاد أو الصـارم)، ويحـل سرواشـا محـل بعـض الآلهـة القديمـة نسـبيًّا (مثـل الإلهيـن أهريمـان أو ميثـراس)، ويؤمـن سرواشـا بمصداقيـة كل مـا يقولـه زرادشـت، مقدمًـا لـه بركاتـه[2]، وفـي الوثائـق الفارسـية القديمـة نجـد الإلـه سرواشـا مذكـورًا باسـم Sraoša أو SrŌš. وتتمثـل أهـم مهامـه فـي كونـه "إلـه العالـم الواقعـي وحاميـه"[3]، ومـن ناحيـة أخـرى، يلعـب الإلـه سرواشـا دورًا مهمًّـا فـي حمايـة أرواح أصحـاب المقابـر، ومعاونتهـم.



صورة (9) الأسكفية العلوية للباب الحجري الخاص بمقبرة جاي تساو مينغ بمدينة تونغوان

وفـي الديانـة الزرادشـتية، يعبـر نقـش الطائـر المقـدس (الديـك الذهبـي) سرواشـا علـى الأسـكفية العلويـة للبـاب الحجـري الخـاص بمقبـرة جـاي تسـاو مينـغ عـن القـوة القتاليـة، والإخـلاص الدينـي، وهـو مـا يتوافـق مـع هويـة صاحـب المقبـرة، ومـا وُصـف بـه علـى ضريـح مقبرتـه مـن براعتـه المتناهيـة، حيـث كُتِـب: "محـب للعدالـة ومشـارك فـي صفـوف الجيـش.. قامـع لحـركات التمـرد.. ماكـر ومثبـط لـروح العـدو.. بـارع فـي قيـادة الجيـوش". أمـا الصـورة المنحوتـة علـى اللوحـة السادسـة للسـاتر الحجـري الخـاص

1- للمزيد من التفاصيل حول الإله سرواشا يمكن الاطلاع على:
The Zend-Avesta, Part II, in Sacred Books of the East, vol.23, pp.159-167; The Zend-Avesta, Part III, in Sacred Books of the East, vol.31, Translated by L. H. Mills, The Oxford University Press, 1887, pp.305-306

2- ويي تشينغ جنغ: "الأساطير الفارسية القديمة"، صفحة 374 - 375.

3- جانغ شياو قوي: "مصادر الدراسة حول هيئة النصف إنسان ونصف طائر في الديانة الزرادشتية في العصور الوسطى"، مجلة "تاريخ العالم"، 2006م، العدد الأول، صفحة 137.

بالسـرير المطـوي المحفـوظ فـي متحـف جويميـت الفرنسـي (صـورة 10) فتمثـل تصويـرًا لـ"تأسـيس خيمـة كبيـرة علـى شـكل ديـك ذهبي، وأمامهـا أريكـة للجلـوس عليها"، وهـي بالطبع عـادة تخـص طبقـة النبـلاء مـن شـعب سـوجديان فـي منطقـة آسـيا الوسـطى.



صورة (10-2) جزء من الخيمة المنحوتة والتي تأخذ شكل ديك ذهبي

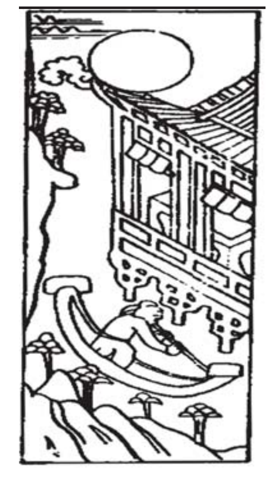


صورة (10-1) الصورة المنحوتة على اللوحة السادسة للساتر الحجري الخاص بالسرير المحفوظ في متحف جويميت الفرنسي

وفـي مـا يخـص الديكيـن المنقوشـين علـى "ظهـور الجمـال" فـوق جسـر الحسـاب فـي الجـزء السـفلي مـن السـاتر الحجـري بالقاعـة الحجريـة E1 التابعـة لمقبـرة شـي جيـون، فـلا بـدَّ وأن يكونـا كذلـك تجسـيدًا للطائـر المقـدس سرواشـا، وفـي البـاب السـابع مـن "ياشـت[1] سرواشـا" يصـف سرواشـا، ويقـول: "المسـتيقظ دائمًـا، فهـو لا ينـام مطلقًـا"؛ حيـث تكمـن مهمتـه فـي الليـل فـي حمايـة مخلوقـات الإلـه أهـورا مـازدا، لكـي لا تكـون عرضـة لأي ضـرر أو انتهـاك مـن الشـياطين، ويُعـد سرواشـا مرشـد الأرواح بعـد وفاتهـا،

1- كلمة "ياشت" تعني فصل داخل الكتاب المقدس "أسفار الياسنا"، ويكون به عادة التسابيح والترانيم الخاصة بالديانة الزرادشتية. (المترجِمة)

فقديمًا كان لا بدَّ في بداية طقوس الجنازة أن تُرتل الترانيم، كما كان لا بدَّ أن تُنشد الأغاني والتراتيل في 5 أوقات مختلفة كل يوم، وذلك لطلب العناية والحماية الإلهية من الإله سرواشا[1]، حيث إنه يرافق روح الميت إلى العالم الآخر، وفي الباب الخامس والستين من كتاب "أسفار الياسنا" (وهو ياشت "سرواشا")، يُطلق على سرواشا اسم "الإله الذي تلجأ إليه روح الميت في الأيام الثلاثة الأولى من وفاته، ومرشد روح الميت في فجر اليوم الرابع من وفاته"، وتدوِّن وثيقة "ألتاي فيلاف" المكتوبة باللغة البهلوية (اللغة الفارسية القديمة) أنه بعدما شرب هذا الكاهن التقي (ألتاي فيلاف) الخمر المختلط بنبات القنب الهندي، خرجت روحه من جسده في لحظة بطريقة غريبة، ليجد الإله سرواشا، وإله النار عازار يأخذانه في جولة لرؤية الجنة والنار.[2]



صورة (11) اللوحة العاشرة للساتر الحجري الخاص بسرير التابوت الحجري في مقبرة "الأسِرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول"

وبالإضافة إلى ذلك، هناك -أيضًا- الطقوس الجنائزية المتعلقة بالإله شارون إله نهر ستيكس (Charon، وتُترجم -أيضًا- إلى كارون)، والإله ديونيسوس إله الخمر (Dionysus)[3]، وهي كلها طقوس جنائزية يرجع أصلها إلى دولة اليونان القديمة (تحت الحكم الروماني)، ويظهر الإله شارون فوق قارب في نهر ستيكس على اللوحة العاشرة للساتر الحجري الخاص بسرير التابوت الحجري في مقبرة "الأسِرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول" بمدينة تيانشوي، (صورة 11)، بينما يظهر الإله

1- يوان وين تشي: "استعراض لـ"كتاب أفيستا (أبستاق) المقدس""، مقتبس من كتاب "إيران" من مختارات جليل دسوتخواه، ترجمة يوان وين تشي "أفيستا (أبستاق).. الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية"، المطبعة التجارية للنشر، 2005م، صفحة 370.

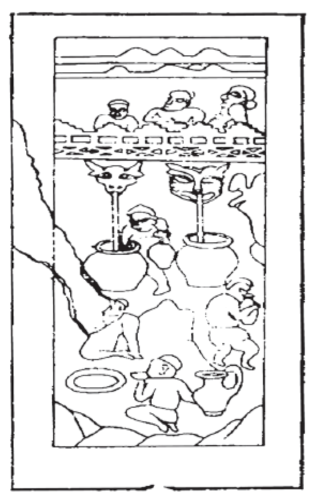
2- يوان وين تشي: "استعراض لـ"كتاب أفيستا (أبستاق) المقدس""، مقتبس من كتاب "أفيستا (أبستاق).. الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية"، صفحة 445.

3- تشن روي وين: "آلهة الإغريق على الأسِرَّة الحجرية بمقبرة "الأسِرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول" بمدينة تيانشوي، مقتبس من كتاب "الأعمال الأثرية بالمناطق الغربية.. التاريخ والجغرافيا.. منظور جديد لدراسة اللغة/ تجميع وقائع الندوة الأكاديمية الدولية حول فريق البحث العلمي بشمال غرب الصين برئاسة خوانغ وين بي وجونغ روي"، تأليف رونغ شين جيانغ، وجو يو تشي، دار العلوم للنشر، 2014م، صفحة 497- 511.

ديونيسـوس فـي اللوحـة الثانيـة المنحوتـة علـى جـدار تابـوت مقبـرة يـو خونـغ (صـورة 12)، وكذلـك يظهـر علـى اللوحـة التاسـعة للسـاتر الحجـري الخـاص بالتابـوت الحجـري بمقبـرة "الأسِـرَّة الحجريـة ذات نقـوش مجسـمات الخيـول" بمدينـة تيانشـوي، والتـي تُجسـد طريقـة تصنيـع وتعتيـق نبيـذ العنـب (صـورة 13، و14)[1]، كمـا يظهـر -أيضًـا- فـي الصـور التـي تجسـد حفـلات العشـاء مثـل نزهـات الكنائـس الزرادشـتية (وولائـم الجنائـز) (صـورة 15).



صورة (12) اللوحة الثانية المنحوتة على جدار تابوت مقبرة يو خونغ

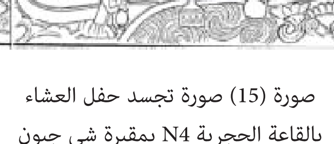


صورة (13) اللوحة التاسعة للساتر الحجري الخاص بالتابوت الحجري بمقبرة "الأسرة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول"، والتي تظهر تصنيع نبيذ العنب وتعتيقه

1- B. I. Marshak, "The Sarcophagus of Sabao Yu Hong, a Head of the Foreign Merchants (592-98).
حيث يشير مارشاك إلى أن هذه الصورة الثانية المشار إليها تتشابه مع لوحة الفسيفساء التي تعود للقرن الرابع الميلادي، والموجودة في كنيسة Santa Costanza ذات السقف على الطراز المقوس، وقام بترجمة الكتاب لي رون يوان: "دراسة حول التابوت الحجري بمقبرة يو خونغ زعيم تجار البربر"، معهد البحوث بمدينة دونخوانغ، مجلة "المعلومات والمراجع"، 2005م (العدد السادس)، صفحة 162- 165.



صورة (14) جزء تجسيد صنع النبيذ وتعتيقه في لوحة الفسيفساء التي تعود للقرن الرابع الميلاي، والموجودة في كنيسة Santa Costanza ذات السقف على الطراز المقوس



صورة (15) صورة تجسد حفل العشاء بالقاعة الحجرية N4 بمقبرة شي جيون

ومن بين الصور الجنائزية والأغراض المدفونة مع الميت في مقابر أحفاد سوجديان مثل مقبرة آن جيا، وغيرها، نجد نسبة تجسيد موضوعات الموسيقى والغناء كبيرة نسبيًّا، فإذا بحثنا في المعلومات من المنظور الوثائقي والأنثروبولوجي، سنجد أن مشهد الرقص التشجيعي مع تقديم القرابين يمثل حلقة لا غنى عنها في طقوس الديانة الزرادشتية، ومن ناحية أخرى، نجد أن الجنة في الديانة الزرادشتية تُسمى بـ"garŌnmĀna"[1]، وتعني "قاعة الترحيب بالغناء" (the house welcoming song)، وذلك لأن الموسيقى البديعة هي مصدر فرحة الروح[2]، ويدوِّن كتاب "أسفار الياسنا" قائلًا: "أيها الإله مازدا والملائكة العظام الثلاثة! أود أن أطلق العنان لصوتي لكي يتغنى بمدحكم، يا ليت الآلهة (الإناث) التي يحلم بها كل مؤمن

1- Ph. Gignoux, "L"enfer et le paradis d"après les sources pehlevis, " Journal Asiatique, 256, 1968, pp.219-245.

2- Guitty. Azarpay, "The Allegory of DĒn in Persian Art, " Artibus Asiae, Vol.38, no.1, 1976, p.47.
تشن روي وين: "تأملات حول الأسِرَّة المطوية المحفوظة بمتحف جويميت الفرنسي"، مقتبس من جانغ شياو قوي "دراسة حول الديانات الأجنبية الثلاث.. تجميع لأوراق السيد لين أو شو التذكارية في عامه السبعين"، صفحة 453.

تقـي، تظهـر لـي، وتحـوم فـي الهـواء حولـي، لتدلنـي علـى الطريـق إلـى الجنـة"[1]. لذلـك، تُعتبر الصـور المجسـدة لموضوعـات الموسـيقى والغنـاء فـي المعابـد السـماوية معيـارًا للحكـم علـى محتـوى عامـة الصـور مـا إذا كانـت تحـوي العناصـر الرئيسـة للجنـة أم لا، وبكلمـات أخـرى، يمكـن القـول إن الآلهـة (الإنـاث) المجنحـة لا تظهـر إلا فـي "الجنـة" فقـط، بالإضافـة إلـى أن تأثيـر حضـارة الإغريـق علـى ثقافـة مناطـق آسـيا الوسـطى قـد ظهـر فـي الطقـوس الجنائزيـة للديانـة الزرادشـتية فـي مناطـق آسـيا الوسـطى، حيـث آمنـوا بإلـه الخمـر ديونيسـوس، وقد أدى هـذان السـببان إلـى ظهـور روح البهجـة والسـرور فـي الصـور المنحوتـة علـى أدوات الدفـن، وكذلـك علـى الأغـراض المدفونـة مـع الموتـي فـي هـذه المجموعـة مـن المقابـر سـالفة الذكـر.

وبالنسـبة لأكثـر عنصريـن نموذجييـن فـي الطقـوس الجنائزيـة الخاصـة بالديانـة الزرادشـتية فهمـا جسـر الحسـاب (جسـر الاختيـار)، ومراقبـة الكلـب لـلأرواح الشـريرة (sag-dīd).

حيـث تـرى تعاليـم الديانـة الزرادشـتية أن روح المتوفـى تبقـى علـى جانب واحد من جسـده لمـدة ثلاثـة أيـام وثـلاث ليـالٍ، وفـي فجـر اليـوم الرابـع، تصـل الـروح إلـى "جسـر الحسـاب" المخيـف، ولا بـدَّ لأهـل المتوفـى أن يقومـوا خـلال هـذه الأيـام الثلاثـة بإعـلان الحـداد والحـزن قـدر إمكانهـم، كمـا يجـب علـى الكهنـة تـلاوة الكتـب المقدسـة لإعطـاء الميـت أكبـر مسـاعدة ممكنـة، ومـن ثـم، يقومـون بتقديـم قربان دمـوي (ذبح شـاه وتقديمهـا كقربان)، ويصلـون للنار، وفـي ليلـة اليـوم الثالـث مـن الوفـاة، يقـوم أهـل المتوفـى بتقديـم الطعـام والكسـاء لـه، وذلـك لحمايـة روحـه، بحيـث تظـل آمنة وهـي في طريقهـا إلى العالـم الآخر في اليـوم التالـي[2]، وقبل أن تصـل روح الميـت الصالـح إلـى "جسـر الاختيـار"، تأتـي له الإلهـة Daēnā وهي تحمل كأسًـا، وهـو مـا يمثـل تجسـيدًا لـ"إيمانـه"، وترحيبًـا بـ"ذاتـه الداخليـة" صاحبـة الأفعـال الحميـدة قبـل

1- The Zend-Avesta , Part III, in Sacred Books of the East , vol.31, p.172.
ترجمة يوان وين تشي "أفيستا (أبستاق).. الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية"، صفحة 431 - 432.

2- ويي تشينغ جنغ: "الأساطير الفارسية القديمة"، دار نشر الفنون بمدينة بيي يويه، ودار نشر الشعب بمقاطعة شنشي، 1999م، صفحة 328.

مماتـه، حيـث يمتلئ الـكأس الـذي تحمله الإلهـة الجميلـة Daēnā (والتـي جلبـت كلبًـا يقـف بجانبهـا) بالزبـادي المخمـر فـي شـهر Zaremaya (الشـهر الثانـي مـن التقويـم الفارسـي). بعدهـا، تسـير الـروح الصالحـة عبـر "جسـر الاختيـار" الواسـع، وتدخـل الجنـة، أمـا بالنسـبة للأشـخاص الذيـن عُميـت أبصارهـم عـن رؤيـة التعاليـم الحقـة (kavi)، وصُمـت آذانهـم عـن سـماع صوتهـا (karapan)، وعاونـوا الأرواح الشـريرة (Daēvā)، واسـتغلوا نفوذهـم وقوتهـم فـي تدميـر البشـر، فيحيـن وقـت الانتقـام منهـم عندمـا يصلـون إلـى "جسـر الاختيـار"، حيـث يرتجفـون وهـم يتلقـون تجسـيد مسـتوى "إيمانهـم".. ألا وهـو غضـب Daēvā الشـديد، وبعدهـا، يسـيرون عبـر "جسـر الاختيـار" الضيـق كعـود البصـل الأخضـر، ويغوصـون بعدهـا فـي النـار (عالـم الشـياطين)، لا يأكلـون فيهـا إلا السـم، ويتلقـون فيهـا العـذاب مـن الشـياطين، ويتلـوون ويصطرخـون، فـي خلـود دائـم دون تحـرر منهـا[1]، وفـي القاعـة الحجريـة E2 بمقبـرة شـي جيـون، لا بـدَّ وأن تكـون صـورة الأشـخاص الذيـن يسـقطون مـن الأعلى تجسـيدًا لـ"الأرواح الفاسـدة" وهـي تسـقط فـي النـار. ففـي البدايـة، يكـون فـي انتظارهـم وحشـان فـي الميـاه الموجـودة أسـفل "جسـر الاختيـار"، فاتحيـن فمهمـا فـي انتظـار سـقوطهم مـن علـى الجسـر الضيـق، لالتهامهـم وإدخالهـم النـار.

وفـي الوقـت نفسـه، تـرى تعاليـم الديانـة الزرادشـتية أن الإنسـان بعـد وفاتـه يقتـرن بـه نـوع مـن أرواح (شـياطين) الجثـث القاتلـة (Druj Nasūsh)، والتـي تظهـر على هيئة ذبـاب، ويحتاج المـرء إلـى اسـتخدام الـكلاب لإبعـاد هـذه الأرواح (الشـياطين)، فوفقًـا لمـا ذُكـر فـي الفصـل الثالـث مـن البـاب الثامـن مـن كتـاب "فينديـداد" (Vidēvdād , Vendidād) حـول اختيـار الـكلاب لإبعـاد هـذه الأرواح، فقـد تـم اختيـار الكلاب الصفـراء المولـودة بأربع عيـون، أو الكلاب البيضـاء المولـودة بـآذان صفـراء، وبالطبـع فـإن الكلاب التي تملـك 4 عيون ليسـت موجودة على الإطـلاق، إلا أن البارسـيون فـي العصـر الحديـث يـرون أن هـذا النـوع مـن الـكلاب هو تلـك التي تمتلـك جلـدًا مرقطًـا فـوق عينيهـا، وبالتالـي، فهـي تتوافـق مـع مواصفـات الـكلاب التـي يجـب

1- جانغ قوانغ دا: "إعادة بحث الصور الخاصة بالديانة الزرادشتية في عهد أسرة تانغ الملكية.. ما إذا كانت الصورة 24-P.4518تجسد الإلهتين Daēnā وDaēvā في الديانة الزرادشتية"، مقتبس من كتاب رونغ شين جيانغ "دراسة حول أسرة تانغ الملكية" المجلد الثالث، دار جامعة بكين للنشر، 1997م / "مختارات جانغ قونغ دا.. تداول النصوص والصور والثقافة"، صفحة 281- 282.

جلبهـا إلـى جـوار المتوفـى، لتجبـر تلـك الأرواح علـى الطيـران بعيـدًا عـن جثتـه[1]، وهـذا هـو مـا يعنيـه قـول "طقـس مراقبـة الكلـب لـلأرواح الشـريرة".

وحسـب تعاليـم الديانـة الزرادشـيتة، يجـب إجـراء طقـس مراقبـة الكلـب لـلأرواح الشـريرة عـدة مـرات قبـل تشـييع جنـازة المتوفـى؛ حيـث يجـب إجـراء هـذا الطقـس عنـد إلبـاس الميـت زي الكفـن، وبعدهـا يُجـرى -أيضًـا- عـدة مـرات بيـن الحيـن والآخـر، حتـى يتـم نقـل الجثـة مـن الغرفـة، وبعـد أول مـرة يُجـرى فيهـا طقـس مراقبـة الكلـب لـلأرواح الشـريرة، يجـب إشـعال النـار فـي الغرفـة لإبعـاد السـموم، حيـث تُسـتخدم أعـواد خشـب الصنـدل، أو أعـواد شـجرة اللبـان لإشـعال هـذه النـار، ومـن ثـم، يجلـس الكاهـن أمـام النـار ليقـرأ مـن الكتـب المقدسـة، ويراقـب النـار لكـي لا تنطفـئ، بحيـث يجـب إبقـاء النـار موقـدة حتـى وقت تشـييع الجنـازة، أمـا أقربـاء المتوفـى فبإمكانهـم -أيضًـا- الوقـوف فـي الغرفـة لقـراءة الكتـب المقدسـة، ولكـن، يجـب عليهـم الحفـاظ علـى مسـافة 3 خطـوات مـن جثـة الميـت، وذلـك تجنبًـا لتلقـي أي ضـرر أو سـموم مـن تلـك الأرواح القاتلـة.[2]

وقبـل تشـييع الجنـازة بسـاعة، يتم إدخـال التابـوت الحديدي إلى الغرفـة الموجود بهـا الجثة، وبعـد دخـول حاملـي التابـوت إلـى الغرفـة، يضعونـه إلـى جـوار جثـة المتوفـى، ويتلـون الكتب المقدسـة، خاصـة كتـاب "أسـفار جاثـا" المقـدس (Gāthā)، وذلـك بهدف تشـجيع الأحيـاء على تحمـل الألـم والحـزن علـى فراقـه، ومكافحـة الأرواح المريضـة، وبعـد الانتهـاء مـن تـلاوة الكتب المقدسـة، يتـم إدخـال الجثـة فـي التابـوت الحديدي، ومـن ثم، يقف كاهنـان بمواجهـة التابوت، ويسـتمران فـي تـلاوة "أسـفار جاثـا"، وبعـد الانتهـاء مـن التـلاوة، يُجـرى مـرة أخـرى طقـس مراقبـة الكلـب لـلأرواح الشـريرة، ويأتـي الأقـارب والأصدقـاء لرؤيـة المتوفـى للمـرة الأخيـرة، وفـي النهايـة يُغطـى التابـوت، وتُشـيع الجنـازة، وبعـد إخـراج التابـوت مـن الغرفـة، يتم تسـليمه

1- لين أو شو: "الزرادشيتة الفارسية والزرادشتية في الصين القديمة"، تاي بيي، شركة شين وين فنغ للنشر، 1995م، صفحة 93. كما يمكن الاطلاع على جانغ قونغ دا: "إعادة بحث الصور الخاصة بالديانة الزرادشتية في عهد أسرة تانغ الملكية.. ما إذا كانت الصورة P.4518-24تجسد الإلهتين Daēnā وDaēvā في الديانة الزرادشتية"، مقتبس من "مختارات جانغ قونغ دا.. تداول النصوص والصور والثقافة"، صفحة 279؛ حيث أطلق لين أو شو على تلك الأرواح القاتلة (Druj Nasūsh) اسم "أرواح تسميم الجثة"، ومن ثم تغيرت إلى ما أطلقه عليها جانغ قونغ دا وهي "الأرواح (الشياطين) القاتلة".

2- لين أو شو: "الزرادشيتة الفارسية والزرادشتية في الصين القديمة"، صفحة -100- 101.

لمجموعة أخرى من حملة التابوت، ليتم إرساله إلى المقبرة، وبمجرد خروج جثة المتوفى من باب الغرفة، يهرع أقاربه إلى نثر بول البقر في الغرفة لتعقيمها، ومن ثم غسلها بالماء، وتمشي فرقة تشييع الجنازة خلف التابوت الحديدي، مع المحافظة على مسافة 30 خطوة منه على الأقل، ويرتدي أعضاء هذه الفرقة ملابس الجنازة البيضاء، سائرين في صفين متوازيين، وحاملين شارات خاصة (Paiwand)، ويرأسهم الكاهن، حيث يخطون خطواتهم بهدوء نحو برج الصمت بمنطقة المقابر[1].

ومن بين مجموعة أدوات الدفن الحجرية سالفة الذكر، نجد أكثر وصف نموذجي لجسر الحساب ذلك المنقوش في الجزء السفلي من الساتر الحجري في القاعات الحجرية E1 وE2 بمقبرة شي جيون (صورة 16)، أما تجسيد طقس مراقبة الكلب للأرواح القاتلة فموجود في عموم نقوش أدوات الدفن الحجرية، على سبيل المثال النقش الموجود في الجزء العلوي من اللوحة F من الساتر الخلفي الخاص بالسرير المطوي المحفوظ بمتحف Miho في اليابان (صورة 17)[2]، وفي المجسم الحجري التاسع من مجموعة مجسمات مقبرة أسرة فو بمدينة تشينغجوو في مقاطعة شاندونغ (صورة 18)، وأيضًا نجده مجسدًا في صورة الكلب الجاثي على قدميه فوق طبق تمسك به إلهة من آلهة الديانة الزرادشتية على يمين اللوحة البيضاء P.4518 (24) بمدينة دونخوانغ (صورة

صورة (16) الجزء السفلي من الساتر الحجري في القاعات الحجرية E1 وE2 بمقبرة شي جيون

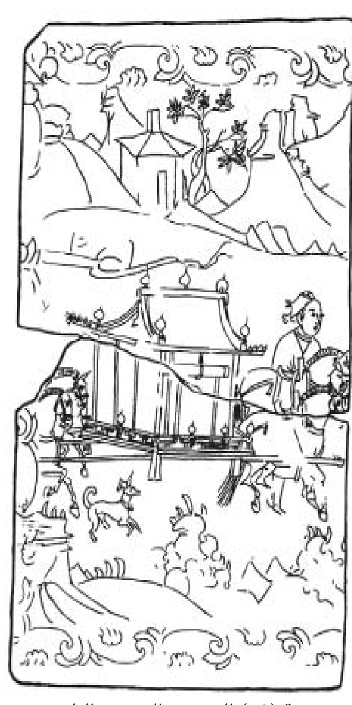
1- الكتاب السابق نفسه، صفحة 101 – 102.

2- Miho Museum (South Wing), edited by Miho Museum, Nissha Printing Co. Ltd, 1997, p.249, p.252fig.

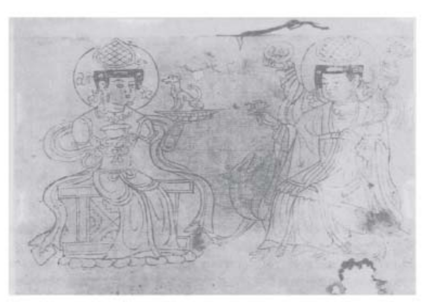
19)؛ حيث لا بدَّ وأن يجسد النقش في المثالين الأول والثاني طقس مراقبة الكلب الذي يُجرى لحماية روح المتوفى، وعند تشييع الجنازة، أما العناصر المنحوتة في اللوحة السابعة (صورة 20)، واللوحة الثامنة (صورة 21) على جدار التابوت الحجري لمقبرة يو خونغ، والتي تُظهر صاحب المقبرة، وكلب يُجري طقس المراقبة، وما يُقدم من طعام، وشراب (كالخمر)، وغيرها من العناصر، فربما تعبر عن خدمة روح المتوفى قبل وصولها إلى جسر الحساب.



صورة (17) الجزء العلوي من اللوحة F من الساتر الخلفي الخاص بالسرير المطوي المحفوظ Miho في اليابان



صورة (18) المجسم الحجري التاسع من مجموعة مجسمات مقبرة أسرة فو بمدينة تشينغجوو في مقاطعة شاندونغ



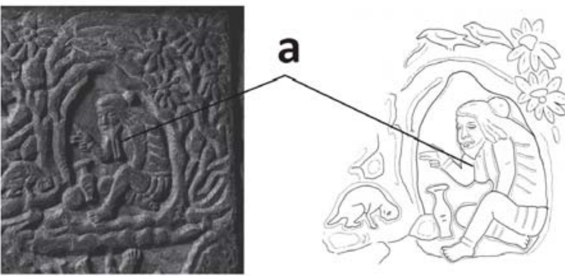
صورة (19) اللوحة البيضاء (24) p.4518 الخاصة بالديانة الزرادشتية بمدينة دونخوانغ



صورة (19) اللوحة السابعة على جدار التابوت الحجري لمقبرة يو خونغ



صورة (19) اللوحة الثامنة على جدار التابوت الحجري لمقبرة يو خونغ



صورة (22) الجزء العلوي من اللوحة الحجرية N5 (الجزء a يصور كيسًا صغيرًا لجمع



صورة (23) اللوحة الثامنة للساتر الحجري الخاص بالسرير الحجري المطوي المحفوظ بمنحف جويميت الفرنسي

كما يمكننا حتى رؤية الطقوس الجنائزية نفسها في الصور المنقوشة بالمقبرة المشتركة للجنرال آن بو وزوجته بمدينة دينغيوان، والتي ترجع لفترة تقويم جينغلونغ التابع لأسرة تانغ الملكية، حيث استُخدم فيها الكلاب والغزلان معًا، كما أُجري طقس "هبوط الماء فجأة من الأعلى مثل النوافير"[1]، وفي هذه المقبرة، لا يمكننا فقط رؤية طقس مراقبة الكلاب للأرواح الشريرة، بل وأيضًا يظهر بها تقديم القرابين لإله الحرب فيريثراغانا (الغزال)، والإلهة أناهيتا (Ardvi Sura Anâhita) في الديانة الزرادشتية.

ومن بين الصور المنقوشة بقاعات مقبرة شي جيون الحجرية، تظهر كذلك صورة تجسد صاحب المقبرة مرتديًا قميص السندر المقدس (Sudreh ، Sedra)، وحزام الكوشتي المقدس (Kusti ، Koshitī)[2]، وهو يحج فوق الجبل المقدس (الجزء العلوي من الساتر الموجود بالقاعة الحجرية N5) (صورة 22)[3]، والأهم من التأكيد في الوقت الحاضر على صورة ملابس سيدرا المقدسة تلك، هو ما توضحه الصورة من أنه في فترة العصور الوسطى كان أحفاد سوجديان المؤمنون بالديانة الزرادشتية والوافدون إلى الصين ما زالوا يحتفظون بطقس الحج إلى الجبل المقدس، ومن الواضح أنه لا شك أن هذا الأمر سيفتح آفاق فهمنا ومعرفتنا لإطار الطقوس والأنشطة الدينية لأحفاد سوجديان الوافدين إلى الصين في فترة العصور الوسطى.

أما اللوحة الثامنة للساتر الحجري الخاص بالسرير الحجري المطوي المحفوظ بمنحف جويميت الفرنسي (صورة 23)، فتصف رؤية أحفاد سوجديان المؤمنين بالديانة الزرادشتية والوافدين إلى الصين في فترة العصور الوسطى لمفهوم

1- تشن روي وين: "إعادة استقراء لمقبرة آن بو"، مجلة "متحف القصر الإمبراطوري"، 2009م، العدد الرابع، صفحة 34- 39.

2- عبارة عن رداء أبيض وعمامة بيضاء، وحزام أبيض به 72 خيطًا لترمز لعدد أسفار "الياسنا" وقناع على الفم، ويتم ارتداؤهم عند تأدية أي طقس ديني، خاصة الطقوس المتعلقة بالنار. (المترجِمة)

3- تشن روي وين: "محتوى الصور المنقوشة بالقاعات الحجرية W1 وN5 الخاصة بمقبرة شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية"، مجلة "متحف التاريخ بمقاطعة شانشي"، الطبعة 22، 2015م، صفحة 19- 23.

الخلـق[1]، والتـي مـن خلالهـا نسـتطيع معرفـة فهمهـم لهـذا الكـون، والخليقـة، وبالمثـل، نجـد أنهـم كانـوا لا يزالـون يصدقـون فـي رؤيـة الفـرس نفسـها حـول مفهـوم الخلـق.

فـي واقـع الأمـر، تُعـد الصـور سـالفة الذكـر نقـلاً قـام بـه أحفـاد سـوجديان المؤمنيـن بالديانـة الزرادشـتية والوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى لصـور تعاليـم الديانـة نفسـها الخاصـة بدولـة الفـرس فـي عهـد السـلالة الساسـانية، ولكـن، مـن الواضـح أنهـا -خـلال عمليـة النقـل هـذه- انخرطـت مـع عناصـر الديانـات الموجـودة فـي منطقـة آسـيا الوسـطى، وآسـيا الداخليـة. فعلـى سـبيل المثـال، نجـد أنـه مـن المحتمـل أن يكـون عنصـر نزهـة الكنيسـة السـابق ذكـره، وعنصـر طقـس الهلوسـة مـن العناصـر المُدخَلـة علـى الديانـة الزرادشـتية فـي مناطـق وسـط آسـيا. ففـي عصـر حكـم الإغريـق، عملـت الديانـة الإغريقيـة فـي دولـة اليونـان القديمـة علـى إدخـال عناصرهـا فـي طقـوس الديانـة الزرادشـتية، خاصـة فـي مناطـق آسـيا الوسـطى، وبالطبـع، كان لهـذا علاقـة بوجـود اسـتعراضات الهلوسـة فـي الديانـة الشـامانية بمناطـق آسـيا الداخليـة، وإذا نظرنـا فـي المـواد الأثريـة، سـنجد أن أوعيـة حفـظ العظـام المسـتخدمة فـي الطقـوس الجنائزيـة بمناطـق آسـيا الوسـطى قـد اكتُشـف مثلهـا فـي موقـع تشـي قـه شـينغ الأثـري بمدينـة يانتشـي فـي شـينجيانغ[2]، وغيرهـا مـن الأماكـن الأخـرى، أمـا طريقـة وضـع عظـام جسـد الميـت فـي المقبـرة -الخاصـة بالديانـة الزرادشـتية- كمـا هـي الحـال فـي مقبـرة يامـو بمنطقـة آسـيا الوسـطى، فقـد تـم اكتشـافها كذلـك فـي العديـد مـن الأماكـن داخـل حـدود الصيـن، والتـي ترجـع لفتـرة العصـور الوسـطى، مثـل مقابـر شـيون زي ليانـغ بمدينـة يانتشـي فـي مقاطعـة نينغشـيا[3]، وهـذه كلهـا إثباتـات تؤكـد تلقـي الطقـوس الجنائزيـة الخاصـة بالديانـة الزرادشـتية فـي الصيـن القديمـة فـي فتـرة العصـور الوسـطى تأثيـرات مـن نظيرتهـا فـي مناطـق آسـيا الوسـطى.

1- تشن روي وين: "تأملات حول الأسِرَّة المطوية المحفوظة بمتحف جويميت الفرنسي"، مقتبس من جانغ شياو قوي "دراسة حول الديانات الأجنبية الثلاث.. تجميع لأوراق السيد لين أو شو التذكارية في سنه السبعين"، صفحة 426- 483.

2- إيتسوكو كاجياما: "تقرير حول استخراج أوعية حفظ العظام الخاصة بالديانة الزرادشتية للأفراد المنتمين لدولة سوجديان من منطقة شينجيانغ"، مجلة "الشرق"، العدد الأول، 1997م، صفحة 84.

3- تشن روي وين: "بحث حول الكساء والمأكولات في مقبرة آن لو شان"، دار نشر الكتب الأثرية بمدينة شنغهاي، 2015م، صفحة 300 -302.

وبالطبـع، فإنـه مـن بيـن مجموعـة الصـور المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة سـالفة الذكـر، يمكننـا -أيضًـا- رؤيـة انخـراط العقيـدة الزرادشـتية لأحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى مـع العـادات الجنائزيـة للمجتمعـات فـي مناطـق آسـيا الداخليـة؛ حيـث إن أكثـر عنصـر نموذجـي يظهـر مـرارًا وتكـرارًا فـي الصـور المنقوشـة علـى هـذا النـوع مـن أدوات الدفـن هـو "الخيـول الجنائزيـة" (صـورة 24)، والتـي لا تعبـر فقـط عـن الانعـكاس الحقيقـي للطقـوس الجنائزيـة فـي مناطـق آسـيا الوسـطى، بـل تُعتبـر -أيضًـا- تصويـرًا لطقـوس الجنـازة الخاصـة بالمجتمعـات الرعويـة فـي مناطـق آسـيا الداخليـة[1]، وتتميـز تصاميـم مجموعـة صـور الخيـول الجنائزيـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة ببراعتهـا، والتـي تحاكـي الخيـول الموجـودة فـي نظـام الدفـن فـي الصيـن القديمـة فـي فتـرة العصـور الوسـطى، كمـا أن ظهـور صـور "الخيـول الجنائزيـة" علـى مجموعـة أدوات الدفـن الحجريـة تلـك يُثبـت انتشـار الطقـوس الجنائزيـة الخاصـة بالديانـة الزرادشـتية فـي منطقـة غـرب آسـيا إلـى أن وصلـت إلـى مناطـق آسـيا الوسـطى، وآسـيا الداخليـة، وتلقـت تأثيـرات مـن هـذه المناطـق.

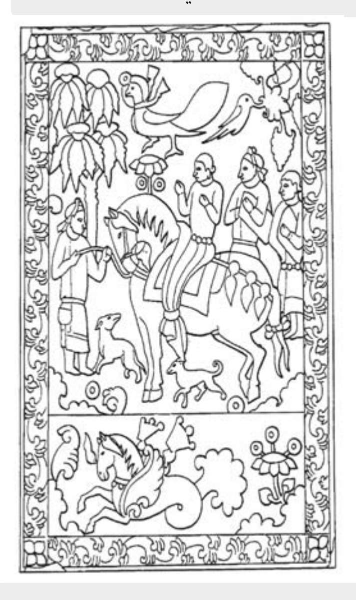
1- تشين روي وين: "الخيول في جنازات المجتمعات الرعوية بمناطق آسيا الداخلية"، مقتبس من كتاب وي جيان "الأعمال الأثرية الخاصة بقوميات الشمال"، الطبعة الثانية، دار العلوم للنشر، 2015م، صفحة 251- 265.



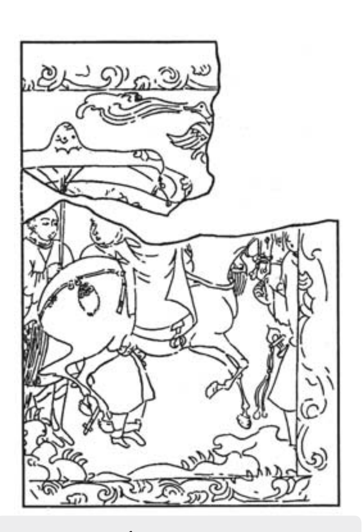
صورة (24-1) اللوحة B من الساتر الحجري الخاص بالسرير المطوي المحفوظ بمتحف Miho في اليابان



صورة (24-2) اللوحة الأولى من الساتر الحجري الخاص بالسرير المطوي المحفوظ بمتحف Miho في اليابان



صورة (24-3) إحدى الصور المنحوتة على جدار التابوت الحجري بمقبرة يو خونغ



صورة (24-4) "إحدى صور الأسفار" المنحوتة على المجسم الحجري الرابع بمقبرة أسرة فو في مدينة تشينغجوو

كما توضح مجموعة الصور المنقوشة على أدوات الدفن الحجرية الخاصة بمقابر أحفاد سوجديان المؤمنين بالديانة الزرادشتية، والوافدين إلى الصين في فترة العصور الوسطى أن الإناث منهم بعد وفاتهم، يتلقون الحساب من قِبل الإلهة Daēnā، ومن ثم يدخلون الجنة مع الحيوانات بعد عبورهم جسر الحساب (صورة 25)، وهذا الأمر غير مذكور ضمن تعاليم الديانة الزرادشتية، وبالتالي، لا بدَّ وأن يكون عبارة عن تغيير كبير دخل على الديانة الزرادشتية بعد انتشارها ووصولها إلى مناطق آسيا الوسطى، بالإضافة إلى أن ظهور طقس قطع الآذان وتقديمها كقربان للآلهة خلال تشييع الجنازة (كما يظهر في صورة 17) يعبر عن محتوى لم يكن موجودًا كذلك في الطقوس الجنائزية الخاصة بالديانة الزرادشتية، وإنما أُدخل عليها بعد وصولها إلى مناطق آسيا الداخلية، وبالمثل، هناك -أيضًا- طقس خيمة الأرواح لتقديم القرابين الذي يُعد كذلك تجسيدًا لإدخال عناصر جديدة على الديانة الزرادشتية بعد وصولها إلى مناطق آسيا الداخلية، ويظهر على اللوحة G من الساتر الخلفي الخاص بالسرير المطوي المحفوظ في متحف Miho (صورة 26).



صورة (25) الصور المنقوشة بالقاعات الحجرية E1-E3 من مقبرة شي جيون



صورة (26) اللوحة G من الساتر الخلفي الخاص بالسرير المطوي المحفوظ في متحف Miho

وفـي الوقـت الحالـي، يمكننـا أن نؤكـد علـى أن بعـض "الظواهـر الجديـدة" التـي ظهـرت فـي محتـوى الصـور المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة الخاصـة بمقابـر أحفـاد سـوجديان فـي الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى قـد تـم توارثهـا بالمثـل، ومـن أكثـر العناصـر النموذجيـة التـي تعبـر عـن هـذا الأمـر هـي "المحاربـون (علـى الجانبيـن) + الكهنـة أمـام النـار (فـي الوسـط) + الفـرق الموسـيقية والغنائيـة (فـي الأعلـى)"، وهـي العناصـر المكونـة للصـور المنقوشـة علـى بعـض أدوات الدفـن الحجريـة والمكونـة كذلـك لهيكلهـا (صـورة 27)، وتتشـابه هـذه العناصـر مـع عناصـر الصـور المنقوشـة فـي المعابـد البوذيـة داخـل الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى "المحاربـون (علـى الجانبيـن) + الكهنـة أمـام النـار والأسـود (فـي الوسـط) + الإلـه (بـوذا أو تمثـال بوداسـف) + حوريـات أبسـارا تحلـق (فـي الأعلـى)"، ويؤمـن الزرادشـتيون أن الإنسـان بعـد وفاتـه يشـرب شـراب الشـيح (أو يُسـتبدل أحيانًـا بعصيـر الرمـان)، بهـدف تحـول روح المتوفـى إلـى الخلـود، ويمكـن القـول إن هـذه الصـورة التـي تمثـل المتوفـى وهـو يشـرب هـذا الشـراب موجـودة فـي تجسـيدات التقاليـد الجنائزيـة فـي الديانـة الزرادشـتية، كمـا تُعتبـر تقريبًـا محتـوى أساسـيًّا للصـور الجنائزيـة الموجـودة فـي مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان فـي الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى، وفـي الواقـع، يُعتبـر هـذا الأمـر اسـتمرارًا لـ"تشـبيه الديانـة البوذيـة بالزرادشـتية"، وذلـك بعـد دخـول الديانـة الزرادشـتية مناطـق آسـيا الوسـطى. ففـي الوقـت الحاضـر، لا بـدَّ وأن تكـون اللوحـة الخشـبية D.X.3 التـي يعرفهـا الجميـع، والمسـتخرجة مـن موقـع دانـدان أويليـك الأثـري بمدينـة خـه تيـان، والتـي تصـور بعـض الآلهـة (صـورة 28)، تجسـيدًا لـ"تشـبيه الديانـة البوذية بالزرادشـتية"، فبعـد دخـول الديانـة الزرادشـتية إلـى مناطـق آسـيا الوسـطى، اسـتُخدم شـكل الإلـه البـوذي ماهيزفـارا بالخطـأ للتعبيـر عـن إلـه الحـرب (فـي الديانـة الزرادشـتية) المجسـد فـي هيئـة إلـه الريـح (Weshpakar)، كمـا ظلـت الأجيـال اللاحقـة تسـتخدم صـور الإلـه البـوذي متعـدد الأذرع الموجـود علـى الجداريـن الجنوبييـن S2، وS4 فـي القاعـة الحجريـة الخاصـة بمقبـرة شـي جيـون (صـورة 29) كتجسـيد لإلـه الحـرب الخـاص بالديانة الزرادشـتية، وتتماشـى كل هـذه المعتقدات مـع "تشـبيه الديانـة البوذيـة بالزرادشـتية" فـي منطقـة السـهول الوسـطى، والتـي تناقلـت

عبر الوثائق التاريخية الخاصة بأسرتي تانغ وسونغ الملكيتين.[1]



صورة (27) وجه التابوت الحجري الخاص بمقبرة يو خونغ
(لا يشمل سقف التابوت)





صورة (28) اللوحة الخشبية D.X.3 المستخرجة من موقع داندان أويليك الأثري (والمحفوظة بمتحف دا ينغ)

صورة (29) جزء من صورة الإله البوذي ذي الأذرع الأربع المنحوتة على الجدران الجنوبية للقاعات الحجرية الخاصة بمقبرة شي جيون

1- ياو تشونغ شين: "دونخوانغ وفنون الديانة الزرادشتية"، مقتبس من كتاب "الديانات الثلاث بمدينة دونخوانغ ومجتمع العصور الوسطى" تأليف ياو تشونغ شين، ووانغ يوان يوان، وتشين خواي يو، دار النشر التعليمية بمقاطعة قانسو، 2013م، صفحة 111 - 116.

وقـد أصبحـت تنقـلات الأفـراد الوافديـن مـن دولـة سـوجديان، وأحفادهـم داخـل الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى أمـرًا أجمعـت عليـه كل المـواد الأثريـة، كمـا أن عالمهـم الروحـي، وطـرق معيشـتهم مدوَّنيـن بالكامـل فـي البيانـات الـواردة فـي النصـوص والصـور سـالفة الذكـر، وفـي الوقـت نفسـه، يمكننـا القـول إن التنقيـب فـي هـذه المجموعـة مـن مقابـر نبـلاء أحفـاد الوافديـن مـن سـوجديان قـد أثـرى معرفتنـا عنهـم بشـكل كبيـر للغايـة، وهـذا أمـر لا شـك فيـه.

وبالنسـبة للدراسـات حـول أدوات الدفـن الحجريـة الخاصـة بمقابـر أحفـاد الوافديـن مـن سـوجديان إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى، والصـور المنقوشـة عليهـا، ففـي البدايـة يجـب علينـا أن نعـود إلـى الأصـل، وهـو الحامـل الخـاص بمجموعـة أدوات الدفـن الحجريـة تلـك، حيـث إن النقطـة الأساسـية تكمـن فـي المبنـى الخـاص بهـذه المقابـر، وإذا بحثنـا فـي مجموعـة المقابـر هـذه مـن خـلال هـذا المنظـور، فسـنخلص إلـى 5 نقـاط علـى الأقـل يجـب علينـا الانتبـاه إليهـا، نجملهـا فـي مـا يلـي:

أولًا: وفـي البدايـة، لا بـدَّ أن يكـون نظـام بنـاء هـذه المقابـر قـد خضـع لنظـام الحكـم القائـم فـي هـذه الفتـرة، أي أسـرة جـوو الشـمالية، وأسـرتي سـوي، وتانـغ؛ حيـث إن مقابـر أحفـاد الوافديـن مـن سـوجديان تعكـس الهويـة الوطنيـة لصاحـب المقبـرة، كمـا أنهـا تمثـل الموقـف الأساسـي ونقطـة البدايـة التـي يجـب علينـا أن ننطلـق منهـا فـي مسـيرة فهـم هـذه المقابـر، والصـور الجنائزيـة التـي تحتويهـا. بكلمـات أخـرى، يمكـن القـول إن هـذه المقابـر تمثـل جانبًـا مهمًّـا لطبقـة نبـلاء أحفـاد سـوجديان ليجسـدوا مـن خلالهـا هويتهـم السياسـية الخاضعـة لنظـام الدولـة، كمـا أنهـا تمثـل احترامهـم لآليـات الدولـة، وطقوسـها الجنائزيـة.

وهنـاك تشـابه كبيـر للغايـة بيـن شـكل بنـاء هـذه المقابـر، وحجمهـا، وأدوات الدفـن المسـتخدمة فيهـا (أسِـرَّة حجريـة أو قاعـات حجريـة)، وهـذا بالطبـع لـه علاقـة بهويـة

صاحب المقبرة، ومنصبه (كساباو[1]) في ذلك الوقت. فالواضح لنا الآن أن كل المناصب التي شغلها أحفاد سوجديان في الصين (كاهن أكبر، أو كاهن، أو كاهن مساعد، أو والٍ على مدينة ما) كلها عبارة عن مهن خاصة وضعتها الأسرة الملكية الحاكمة في ذلك الوقت لإدارة آلية توطين الأجانب الوافدين، وقد كانت أولوية التعيين للزعماء السياسيين والدينيين، بهدف توطينهم داخل الصين، وفي ما يتعلق بمنصب الساباو[2]، فقد دوَّن كتاب "تاريخ أسرة سوي الملكية"، المجلد 28 "قائمة الوظائف المئة" (Notitia dignitatum)، قائلًا:

كانت هناك أكثر من 14 رتبة رسمية متدرجة للأجانب لوافدين إلى الصين في عهد أسرة تانغ الملكية.. من بينها كان الساباو المعينون من قِبل الحكومة في مدينة يونغجوو من الرتبة السابعة.. بينما شغل 200 وافد أجنبي بمدينة جوجوو منصب ساباو ليصبحوا من الرتبة التاسعة.[3]

ودوَّن -أيضًا- كتاب "تاريخ أسرة سوي الملكية"، المجلد 27 "قائمة الوظائف المئة" حول نظام الوظائف بمملكة خووتشي، قائلًا:

كانت هناك وظيفة مسؤول المراسم والاحتفالات الخاصة بالأسرة الحاكمة، ومن واجباته متابعة احتفالات الأسرة الحاكمة، وترتيبها، ونعي موتاهم، كما كان هناك وظائف أخرى تخص الاهتمام بأمور الأسرة الحاكمة، مثل مستقبلي الضيوف، ومسؤولي المعبد، ومضيفي الحفلات، وكانت هناك كذلك وظيفة مستقبلي المبعوثين من القوميات الأقلية في الصين، وكان يُعيَّن لها

1- الساباو: مهنة وُضِع أساسها من قِبل الأسرة الحاكمة في عهد أسرتي سوي وتانغ بهدف تقنين وضع أحفاد الأجانب الوافدين إلى الصين، وتحتوي على العديد من الرُّتب ذات الأعمال المختلفة المعيَّنة من قبل الحكومة، ففي الأصل "ساباو" تعني "كاهن"، ولكن مهنة الكاهن تختلف بحسب الرُّتبة التي تعطيها الحكومة والأعمال التي يُكلَّف بها، فهناك ساباو كاهن أكبر، وساباو كاهن مساعد، وساباو كاهن مساعد خاص بالأمور المكتبية، وغيرها من مهن الساباو. (المترجِمة)

2- في ما يتعلق بالدراسات حول مهنة الساباو يمكن الاطلاع على:

A. Fort, "The Sabao Question", The Silk Roads Nara International Symposium" 97, Record No.4, 1999., pp. 80-106

رونغ شين جيانغ: "الساباو: نقاش وتحليل قضية توطين الزعماء الأجانب الوافدين إلى الصين في عهد الأسرة الشمالية، وأسرتي سوي وتانغ"، مقتبس من يي إي ليانغ: "تجميع للنقاشات حول علوم إيران بالصين" (المجموعة الثالثة)، دار نشر جامعة بكين، 2003م، صفحة 128- 136 / "الصين في فترة العصور الوسطى وحضارة سوجديان"، صفحة 163- 176.

3- "كتاب تاريخ أسرة سوي الملكية"، الهيئة الصينية للكتاب، 1973م، صفحة 790- 791.

اثنان من الساباو في مدينة جينغ إي، واثنان من الساباو في مدينة جوجوو.[1]

وفـي الفتـرة بيـن عهد أسـرة ويـي الشـمالية، وحتـى عهـد أسـرة سـوي، كان مـن سـمات نظـام تعييــن الســاباو فــي مملكــة ليانغجــوو كــون معظمهــم مــن طبقــة النبــلاء الوافديــن إلـى الصيـن خـلال تلـك الفتـرة، وكانـت تسـمح خلفياتهـم العائليـة بـأن يسـيروا عكـس التيـار، ويصبحـوا مـن الطبقـة الحاكمـة لدولـة كانغقـوه، أو مـن الطبقـة الحاكمـة لدولـة شـيقوه، أو حتـى مـن طبقـة النبـلاء الخاصـة بعائلتـي آن، وخـه، وكان نظـام تعييـن السـاباو يتمتـع بسـمتين مهمتيـن، همـا: أنهـا كانـت وظيفـة ذات رتبـة عاليـة فـي المجتمـع، وأن النظـام كان يعتمـد علـى التعييـن فـي مناطـق التقسـيم الإداري الخـاص بالأجانـب الوافديـن[2]، ولـم يكـن المكسـب الوحيـد للزعمـاء الوافديـن مـن سـوجديان هـو إدخالهـم ضمـن نظـام التعييـن البيروقراطـي الخـاص بالأسـرة الحاكمـة وحسـب، بـل كان الأهـم مـن ذلـك هـو أن المنصـب الـذي كان يُعيَّـن بـه الوافـد مـن سـوجديان يقـرر محتـوى الصـور الجنائزيـة المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة الخاصـة بمقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان فـي الصيـن، بحيـث تتناسـب مـع طابـع مقابـر الأسـرة الحاكمـة فـي ذلـك الوقـت "مأدبـة تجمـع الـزوج والزوجـة (أصحـاب المقبـرة) + أسـفار صاحـب المقبـرة المتعـددة باسـتخدام عربـات الثيـران أو الجِمـال والخيـول". بحيـث تكـون صـورة "مأدبـة الـزوج والزوجـة" فـي شـمال المقبـرة، وصـور "أسـفار صاحـب المقبـرة" علـى الجانبيـن فـي جنوبهـا. علـى سـبيل المثـال، يمكننـا رؤيـة مشـاهد الصيـد بوضـوح فـي محتـوى الصـور المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة فـي مجموعـة المقابـر تلـك، والتـي يرجـع بناؤهـا إلـى فتـرة حكـم الأسـرة الشـمالية، وطبقًـا لعلـوم الآثـار، فـلا بـدَّ لهـذه الصـور فـي البدايـة أن تكـون ذات صلـة بطريقـة البنـاء -سـالفة الذكـر- الخاصـة بهـذه المقابـر ذات الرسـومات الجداريـة فـي عهـد الأسـرة الشـمالية، أي أن ظهـور هـذه الصـور مقـرون فـي البدايـة بنتائـج اللوائـح والقوانيـن الموضوعـة مـن قِبـل الأسـرة الحاكمـة، وبالطبـع، فـإن صـور أسـفار الصيـد فـي عهـد الأسـرة الشـمالية كانـت ذات صلـة أكيـدة

1- "كتاب تاريخ أسرة سوي الملكية"، صفحة 756.

2- جيانغ بوه تشين: ""السياق اللغوي" في المجسمات الحجرية الخاصة بالديانة الزرادشتية في الصين"، مقتبس من كتاب "تاريخ العلاقات بين الصين وخارجها: مواد تاريخية جديدة وقضية جديدة"، تأليف رونغ شين جيانغ، ولي شياو تسونغ، دار العلوم للنشر، 2004م / "دراسة حول تاريخ فنون الديانة الزرادشتية"، صفحة 29- 30.

بالعـادات الرعويـة لعشـيرة توبـا التابعـة لقبيلـة الزيانبـة، وبالمثـل، كانـت تُعـد كذلـك عـادة مـن عـادات طبقـة نبـلاء أحفـاد سـوجديان فـي مناطـق آسـيا الداخليـة. أمـا ظهـور الخيـول والجِمـال فـي الوقـت نفسـه فـي لوحـات السـواتر الحجريـة لهـذه المقابـر، فيُعـد تغييـرًا طـرأ فـي محتـوى الأسـفار المسـتخدمة الجِمـال والخيـول فـي اللوحـات الجداريـة الخاصـة بالمقابـر. فبالطبـع، كانـت هـذه الظاهـرة رائجـة -أيضًـا- فـي مناطـق آسـيا الداخليـة. باختصـار، يمكـن القـول إن اللوحـات الجداريـة المكتشـفة الخاصـة بأحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن، والتـي تحتـوي علـى جميـع الصـور سـالفة الذكـر فـي هـذا البـاب، نجـد مـن خلالهـا أنهـا كانـت تمثـل محتـوى مشـتركًا لكافـة مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى، فلربمـا عاشـوا جميعًـا قصصًـا متشـابهة فـي حياتهـم، حيـث إن آليـة تصويـر الأسـفار فـي صـور المقابـر مثـل مشـاهد الصيـد تعتمـد علـى نمـط الصيـد فـي حيـاة أصحابهـا قبـل الوفـاة.

ونحتـاج أن نشـير إلـى أنـه عنـد فهـم واسـتعادة الصـور المنقوشـة علـى مجموعـة أدوات الدفـن الحجريـة تلـك، قـد يمكننـا طبقًـا لهـذا المبـدأ -أيضًـا- أن نؤكـد علـى العناصـر التـي كان لا بـدَّ أن تكـون موجـودة فـي هـذه الصـور، ولكنهـا لـم تظهـر فيهـا بالفعـل، وفـي المقابـل، سـنبدأ فـي البحـث عـن سـبب عـدم ظهورهـا. بكلمـات أخـرى، يمكننـا القـول إن هـذا المبـدأ يتمثـل فـي فهـم هـذا النـوع مـن الصـور المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة، ومـن ثـم اسـتعادة بعـض المبـادئ المهمـة الخاصـة بهـذا النـوع مـن الصـور، والتـي قـد تـم خلـط ترتيبهـا بالخطـأ.

ثانيًـا: وبالطبـع، فـإن الصـور المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة المسـتخدمة فـي مقابـر أحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى تجسـد -أيضًـا- سـمات الوقائـع التـي عاشـها أصحـاب المقابـر. فعلـى سـبيل المثـال، وبالاطـلاع علـى محتـوى السـرير الحجـري (التابـوت) الخـاص بمقبـرة آن جيـا، نجـد أن هنـاك 13 لوحـة مرسـومة عليـه لصاحـب المقبـرة (بمـا فـي ذلـك أسـكفية التابـوت)، مـن بينهـا يظهـر تجسـيد لأفـراد تابعـة لقبائـل التركمـان (الأتـراك الغربييـن) فـي 6 لوحـات، ممـا يمثـل العلاقـات التـي كانـت تجمـع صاحـب المقبـرة مـع هـذه القبائـل[1]، وتجسـد الصـور المنقوشـة علـى السـاتر الخلفـي للسـرير الحجـري -خصيصًـا- هـؤلاء الأفـراد التابعيـن لقبائـل التركمـان، بالإضافـة إلـى صـور الدفـن علـى طريقـة قبائـل التركمـان بعـد الانتهـاء مـن مراسـم الدفـن السـماوي[2] (صـورة 30)، ويعبـر ظهـور الصـور التـي تحتـوي علـى تجسـيد أفـراد قبائـل التركمـان مـرارًا وتكـرارًا، وكذلـك طريقـة دفنهـم، عـن إنجـازات آن جيـا فـي حياتـه فـي علاقاتـه مـع هـذه القبائـل، ويمكـن تأكيـد هـذه النقطـة بصـورة أكبـر مـن خـلال الاطـلاع علـى الصـور المنقوشـة علـى التابـوت الحجـري الخـاص بمقبـرة يـو خونـغ؛ حيـث يـدوِّن ضريـح مقبـرة يـو خونـغ أنـه عندمـا كان يـو خونـغ فـي الثالثـة عشـرة أُرسـل كمبعـوث إلـى بـلاد الفـرس، وتويوخـون، لذلـك نجـد اختيـار النمـط الفارسـي فـي نقـش الرسـومات الموجـودة فـي مقبرتـه، ويُعـد هـذا التقليـد الجنائـزي الخـاص بتجسـيد



صورة (30) ضريح مقبرة آن جيا والهيكل العظمي المستخرجين من المقبرة، مع بيان آثار الدفن بالحرق

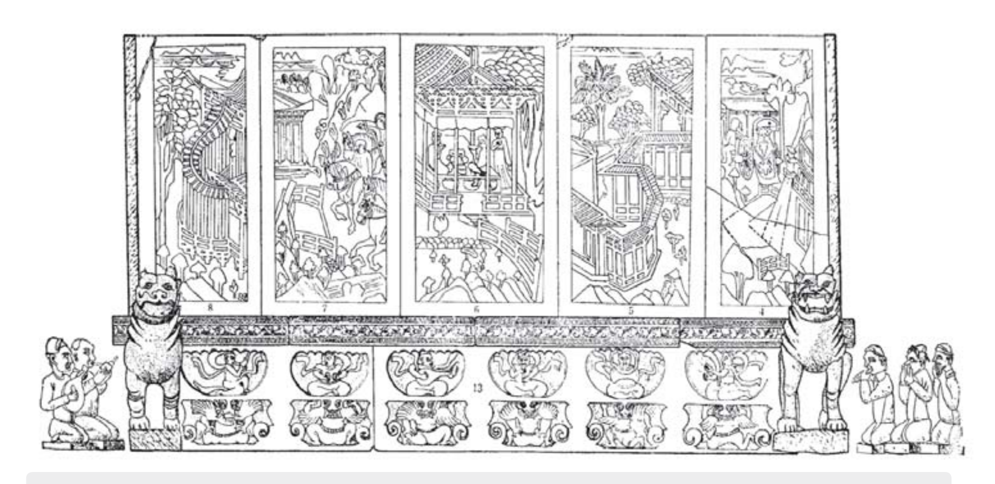
1- جيانغ بوه تشين: "دراسة حول تاريخ فنون الديانة الزرادشتية"، صفحة 106- 116 / رونغ شين جيانغ: "الصين في فترة العصور الوسطى والحضارات الأجنبية"، صفحة 124- 130.

2- الدفن السماوي: يعني إرسال الجثة إلى برج الصمت الموجود بجوار المقابر لكي تأكلها الطيور الجارحة، ومن ثم يتم جمع العظام لتُدفن في المقبرة الخاصة بها، ولم يكن جميع المؤمنين بالديانة الزرادشتية يعتمدون طريقة الدفن السماوي، بل كان الأكثر في اتباعها الفئة التي عايشت البوذيين، وتأثرت بتعاليم الديانة البوذية، كما كان بعضهم الآخر يعتمد طريقة الحرق مثل قبائل التركمان. (المترجِمة)

وقائـع حيـاة صاحـب المقبـرة رائجًـا فـي الأصـل فـي مناطـق غـرب آسـيا، وآسـيا الوسـطى، وحتـى فـي مناطـق آسـيا الداخليـة، وبالنسـبة للاختـلاف بيـن المحتـوى الواقعـي ومحتـوى الآلهـة اللذيـن يتجسـدان فـي الصـور المنقوشـة علـى الأسِـرَّة المطويـة وفـي القاعـات الحجرية، فيرجـع السـبب إلـى كـون الصـور التـي تحتـوي علـى الآلهـة تعبـر عـن "غرفـة تجمـع الآلهـة"، وهـو مـا يوضحـه لنـا الضريـح المنقـوش عليـه بلغتيـن المسـتخرج مـن مقبـرة شـي جيـون، فـي الجـزء المكتـوب بلغـة سـوجديان. ففـي واقـع الأمـر، يُعـد اسـتخدام الصـور للثنـاء علـى إنجـازات صاحـب المقبـرة فـي حياتـه نوعًـا مـن التعبيـر عـن إخلاصـه للإمبراطـور كذلـك، وهـذه النقطـة لا تختلـف مـع آليـة الجنـازة التـي فرضتهـا السـلطة الحاكمـة فـي ذلـك الوقـت.

ثالثًـا: وهـي نقطـة متعلقـة بالنقطـة الأولـى، وهـي أنـه خـلال مسـيرة دراسـة الصور المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة، يجـب علينـا الالتفـات إلـى التبديـل الـذي يحـدث بيـن الصـور المنقوشـة علـى اللوحـات الجداريـة، وعلـى الأغـراض المدفونـة مـع الميـت، وعلـى أدوات الدفـن الحجريـة، وأكثـر مثـال نموذجـي يمكننـا أن نضربـه فـي هـذا الصـدد هـو الصـور المنقوشـة علـى توابيـت الأسِـرَّة الحجريـة الموجـودة بمقبـرة "الأسِـرَّة الحجريـة ذات نقـوش مجسـمات الخيـول" بمدينـة تيانشـوي، فـإذا نظرنـا إلـى الأروقـة الطويلـة المنحوتـة علـى لوحـات السـاتر الحجـري فيهـا، سـنجد أنهـا -فـي واقـع الأمـر- تمثـل تغييـرًا طـرأ علـى صـور المقابـر فـي هـذه الفتـرة لتكـون وفـق اللوحـات الجداريـة الخشـبية (صـورة 31)، وفـي الوقـت نفسـه، يمكننـا أن نـدرك من خـلال هـذا المثـال أنـه كان هنـاك دمـج، وتوزيـع ثابـت بشـكل نسـبي للعناصـر المكونـة للصـور المنقوشـة علـى هـذه المجموعـة مـن أدوات الدفـن الحجريـة، والتـي ربمـا كانـت تتجسـد فـي الصـور علـى هيئـات مختلفـة، وهـذا يوضـح لنـا أن اسـتخدام العناصـر الداخليـة المكونـة للصـور المنقوشـة علـى هـذه المجموعـة مـن أدوات الدفـن الحجريـة لإجـراء إثبـات داخلـي لهـا عنـد دراسـتها تُعـد طريقـة فـي غايـة الأهميـة، وبهـذا فقـط سـتتمكن نتائـج الدراسـة مـن التدفـق إلى السـطح، وحتـى بإمـكان هـذه الطريقـة أن تجعلنـا فـي مواجهـة خيـار صعـب، وبالمثـل، يمكـن -أيضًـا- أن تُتـاح لنـا الفرصـة مـن خـلال هـذه الطريقـة فقـط لتجنـب أي معلومـات ذات صلـة قد تجعلنـا فـي موقـف التحيـز لجانـب مـا علـى حسـاب الجانـب الآخـر.

رابعًا: كانت طبقة أحفاد نبلاء سوجديان الوافدين إلى الصين في فترة العصور الوسطى قادرة على استخدام أدوات الدفن الحجرية التي تتناسب مع ثقافتهم العرقية الخاصة، وذلك لأن هويتهم الخاصة سواء العرقية، أو الدينية، أو السياسية حظيت جميعها بإعجاب كبير من قِبل حكومة الأسرة الحاكمة في ذلك الوقت، وبالتالي، سمحت لهم الحكومة بإجراء طقوس جنائزية من نوع آخر[1] يتخطى نظم الجنائز العادية، لتكون مثل الجنائز الملكية (أي تكون جنازاتهم وبناء مقابرهم بمتابعة مباشرة من الأسرة الحاكمة)، كما كان يُسمح لهم فيها باستخدام أدوات الدفن الحجرية التي كانت تستخدمها الطبقة المرموقة في المجتمع الصيني.[2]



صورة (31) لوحات الساتر الحجري الخاصة بأسِرَّة التوابيت الحجرية الموجودة في مقبرة "الأسِرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول" بمدينة تيانشوي

ويتشابه أساس الهوية السياسية لأصحاب مقابر طبقة نبلاء أحفاد سوجديان مثل كانغ يي، وآن جيا، وشي جيون، ويو خونغ، وغيرهم، كما يتطابق تمامًا حجم

1- تشي دونغ فانغ: "حول نظام ترتيب منازل (رُتب) المقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية في مدينة شيآن"، مقتبس من "تجميع لأبحاث قسم الآثار في الذكرى الثلاثين من إنشاء القسم بجامعة بكين" من تحرير قسم علم الآثار بجامعة بكين، دار الأثريات للنشر، 1990م، صفحة 289 - 295 / تشي دونغ فانغ: "مناقشة موجزة حول المقبرة التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية المبنية بالقراميد والمكونة من غرفتين والمكتشفة في مدينة شيآن"، مجلة "الآثار"، 1990م، العدد التاسع، صفحة 858 - 862، و789.

2- تشن روي وين: "اتباع التقاليد الأجنبية.. مقبرة آن جيا والدفن بالحرق في عهد الأسرة الشمالية"، مجلة "التاريخ والآثار بالصين"، 2006م، العدد الرابع، صفحة 4 - 17.

مقابرهـم، وشـكل بنائهـا، كمـا أن جميعهـا استُخدم فيهـا الأرائـك الحجريـة أو توابيـت الأسِـرَّة الحجريـة ذات السـواتر الخلفيـة القابلـة للطـي، ممـا يُظهـر انفرادهـا عـن بقيـة المقابـر، ولا توجـد فروقـات كبيـرة فـي الشـكل والحجـم بيـن هـذه المقابـر، والمقابـر المنقـب عنهـا الخاصـة بمسـؤولي الدولـة المرموقيـن فـي عهـد أسـرة جـوو الشـمالية [1]. إلا أن كلًّا مـن مقابـر آن جيـا، وكانـغ يـي، وشـي جيـون استُخدمت فيهـا أبـواب حجريـة، وأرائـك حجريـة أو توابيـت بأسِـرَّة حجريـة ذات سـواتر خلفيـة قابلـة للطـي، أمـا بقيـة المقابـر المذكـورة لـم تُسـتخدم فيهـا الحجـارة بهـذا الشـكل الكبيـر، وهـذا يوضـح أن منزلـة (رُتبـة) مقبـرة آن جيـا، وكانـغ يـي، وشـي جيـون تختلـف عـن منزلـة (رُتبـة) بقيـة مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان المذكـورة سـابقًا، وبالطبـع، توجـد علاقـة لا تنفـك بيـن الـدور السياسـي الـذي لعبـه أصحـاب تلـك المقابـر فـي عهـد أسـرة جـوو الشـمالية، ومنزلـة مقابرهـم.

وبمقارنـة نظـام رُتـب المقابـر فـي عهـد الأسـرة الشـمالية، سـنجد أن مجموعـة مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان -بـلا شـك- تتجـاوز الرتبـة العاديـة الخاصـة بمقابـر العائلـة الملكيـة وطبقـة النبـلاء، وليسـت ترمـز إلـى هويـة بـارزة وحسـب، فـإذا نظرنـا إلـى الأمـر مـن منظـور الهويـة العرقيـة والسياسـية لأصحـاب هـذه المقابـر، سـنجد أن مقبـرة كانـغ يـي، وآن جيـا، وشـي جيـون، وغيرهـا مـن المقابـر ونظـام تشـييع جنازتهـا لا بـدَّ وأن يندرجـوا تحـت نـوع الجنائـز والمقابـر الملكيـة.

وفـي الواقـع، يمكننـا تلخيـص النقـاط الأربـع السـابقة فـي عبـارة "احتـرام طبقـة نبـلاء أحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى لنظـام المقابـر والجنائـز الـذي تعمـل بـه الأسـرة الحاكمـة"[2]، وهـذا -أيضًـا- يفسـر لنـا سـبب نقـش مجموعـة الصـور الميمونـة لأسـفار صاحـب المقبـرة علـى أدوات الدفـن الحجريـة الخاصـة بمقابـر أحفـاد سـوجديان، والتـي تعبـر عـن المحتـوى الـذي كان يسـتخدمه

1- لمعرفة المزيد حول مقابر مسؤولي الدولة المرموقين في عهد أسرة جوو الشمالية، يمكن الاطلاع على كتاب "الأثريات الثمينة التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية في الصين"، تأليف يوان آن جي، دار نشر الشعب للفنون الجميلة بمقاطعة شانشي، 1993م.

2- تشن روي وين: "حول العلاقة بين نظام المقبرة وهوية صاحب المقبرة الوطنية والعرقية.. مقابر كانغ يي، آن جيا، شي جيون، يو خونغ وغيرها نموذجًا"، مقتبس من كتاب "حضارة المناطق الغربية وتاريخها"، تحرير جو يو تشي، الطبعة السادسة، دار العلوم للنشر، 2011م، صفحة 105 - 232.

الصينيون في مقابرهم في فترة العصور الوسطى كذلك.

ولكن، نحتاج -أيضًا- أن نجيب على سؤال مهم، وهو: هل كانت طريقة الدفن التي استخدمها الوافدون من سوجديان إلى الصين في فترة العصور الوسطى والمؤمنون بالديانة الزرادشتية مخالفة لتعاليم ديانتهم؟

الجواب.. أنه يمكن للمؤمنين بالديانة الزرادشتية استخدام طريقة الدفن الخاصة بتعاليم ديانتهم، وقد سبق لفرانتز جرينيت (Frantz Grenet) أن أشار إلى العملية المتعلقة بعادات الدفن المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالديانة الفارسة القديمة، حيث قال:

ينقسم إجراء "طقس إزالة اللحم" عن جسد الإنسان بعد وفاته إلى 3 مراحل؛ ففي المرحلة الأولى، يمكن وضع الجثة في فجوة يتم حفرها داخل غرفته، أو في غرفة تكون مبنية خصيصًا لهذا الغرض، وذلك في حالة ما إذا كان الطقس سيئًا، أو لو كان الوقت متأخرًا ولا يمكن البدء فورًا في عملة إزالة اللحم عن جثة الميت، وفي المرحلة الثانية، يتم نقل الجثة إلى المكان الذي ستتعرى فيه لتأكلها الطيور الجارحة، فالمبدأ الأساسي يمكن في وضع الجثة في مكان عالٍ قدر الإمكان، للتأكد لضمان وجود كلاب وطيور جارحة لأكل لحم الجثة... وتكمن آخر مرحلة في تجميع الجثة في معالجة العظام بإزالة فتائل العضلات عنها، وفي هذه المرحلة هناك طريقتان تعملان معًا بشكل متوازٍ، هما: أولًا: إبقاء العظام في مكانها الأصلي، وتعريتها تحت أشعة الشمس في فترة النهار، وذلك لتعقيمها من الميكروبات. ثانيًا: يتم جمعها، ووضعها في مبنى محكم الإغلاق، أو وضعها في داخل وعاء يُسمى بـ"وعاء حفظ عظام الموتى".[1]

أما لو كانت الظروف غير مهيأة كعدم وجود أبراج الصمت، فيمكن حينها وضع الجثة على الأرض، فوق سجادة وبعض الوسائد، لجعل المتوفى يتلمس ضوء

-1 Frantz Grenet, Les pratiques funéraires dans l''Asie centrale sédentaire de la conquête grecque à l''islamisation, Paris: CNRS, 1984, pp.34-37; Frantz Grenet, Les pratiques funéraires dans l''Asie centrale préislamique, Grand atlas de l''archologie, Paris: Encyclopaedia universalis, 1985, pp.236-237.

وقد اقتبس جانغ قونغ دا من هذا العمل في تلخصيه تحت عنوان "التأثيرات الثلاثة للديانة الزرادشتية على الصين في عهد أسرة تانغ الملكية"، من كتابه "مختارات جانغ قونغ دا.. تداول النصوص والصور والثقافة"، صفحة 241.

السـماء، متجهًـا نحـو الشـمس (Vendîdâd Fargard)[1]. فطبقًـا لمعتقـدات الديانة الزرادشـتية، فـإن أشـعة الشـمس تصبـح مسـار تحليـق روح الميـت نحـو السـماء.

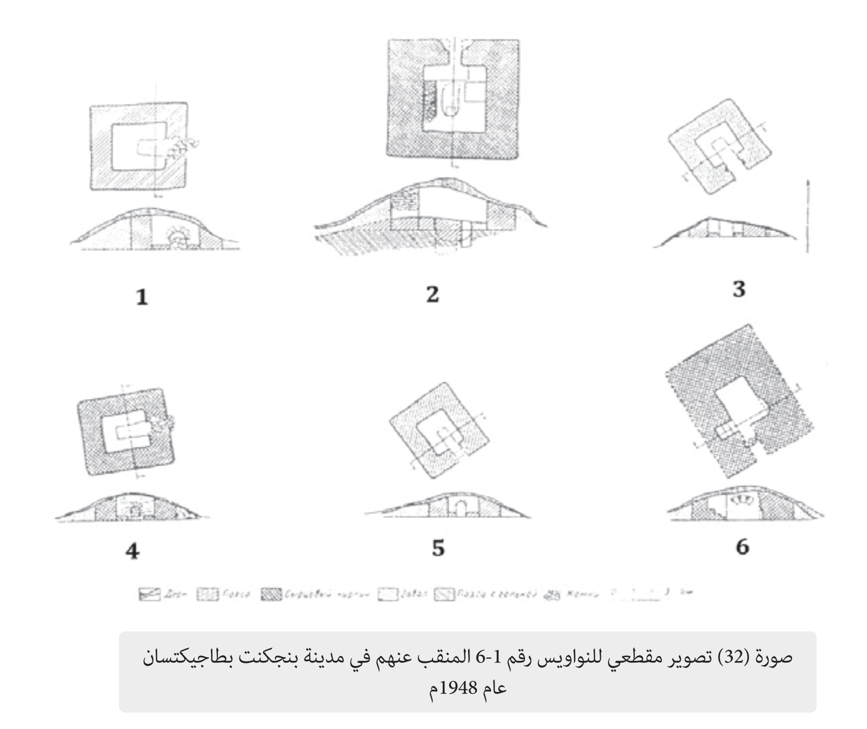
ويـرى المستشـرق الروسـي وليـان بارتولـد أن تشـييع الجنـازة فـي الديانـة الزرادشـتية تمـر بثـلاث مراحـل، هـي: أولًا: إبقـاء جثـة المتوفـى -بشـكل مؤقـت- فـي مـكان مخصـص لهـذا الغـرض، ويُسـمى كاتـا (Kata). ثانيًـا: يتـم نقـل الجثـة إلـى داخـل "بـرج الصمـت" (Dakhma)، ويتـم وضعهـا فـوق "منصـة التعـري"، لتسـهيل الأمـر علـى الـكلاب، والطيـور الجارحـة فـي أكل لحمهـا. ثالثًـا: يتـم إخـراج عظـام الجثـة مـن "بـرج الصمـت"، وغسـلها جيـدًا، ومـن ثـم، يتـم داخـل المقبـرة، وتُسـمى بالنـاووس (Naus).[2]

وباسـتثناء وضـع العظـام فـي أوعيـة حفـظ العظـام، يمكـن -أيضًـا- وضعهـا فـي مبنـى محكم الإغـلاق، ويُسـمى هـذا "المبنـى" فـي مناطـق آسـيا الوسـطى باسـم "النـاووس" (صـورة 32، و33)، وهـو مبنـى مماثـل للمقبـرة. بكلمـات أخـرى، يمكـن القـول إن شـكل مقابـر الوافديـن مـن سـوجديان إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى والمؤمنيـن بالديانـة الزرادشـتية لا تتخالـف مـع معتقـدات وتعاليـم ديانتهـم علـى الإطـلاق.

1- The Zend-Avesta, Part I, in Sacred Books of the East, vol. IV, Translated by James Darmesteter, The Oxford University Press, 1887, pp.73-74.

2- V. V. Bartold, "Istorija kulturnoj žizni Turkestana", Akademik V .V. Bartold SoČinenija, T. II, Čast 1, Moskva, 1963, p.212

وقد اقتبست منه نوران كانهاماتي في بحث الماجيتسر الخاص بها في جامعة بكين تحت عنوان "الأعمال الأثرية بمدينة سوياب والتبادل الثقافي بين الصين والغرب في عهد أسرة تانغ الملكية"، 2007م، صفحة 173.



صورة (32) تصوير مقطعي للنواويس رقم 1-6 المنقب عنهم في مدينة بنجكنت بطاجيكتسان عام 1948م



صورة (33) صورة للنواويس رقم 17-19 المنقب عنهم بمدينة بنجكنت في طاجيكتسان (من اليمين لليسار)

خامسًـا: فـي مـا يتعلـق بالتقاليـد، والمفاهيـم، والأسـاطير الدينيـة التـي تحتويهـا الصـور المنقوشـة علـى أدوات الدفـن الحجريـة الخاصـة بتلـك المقابـر؛ حيـث إنهـا جميعًـا تنتمـي إلـى العناصـر المهمـة التـي تجسـد الهويـة العرقيـة والثقافيـة لأصحـاب مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى، وهـذه العناصـر تنقسـم إلـى نوعيـن: نـوع واضـح، إلا أنـه يبـدو "غريبًـا" بعـض الشـيء، ونـوع آخـر غيـر واضـح، ولـكلا النوعيـن صلـة بقضيـة الهويـة العرقيـة لأصحـاب مقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى.

وفـي مـا يتعلـق بالنـوع الأول، فـإذا أردنـا إجـراء اسـتقراء -علـى سـبيل المثـال- للصـور المنقوشـة علـى هـذه المجموعـة مـن أدوات الدفـن الحجـري، فسـيمكننا الاعتمـاد بشـكل كبير فـي الوقـت الحاضـر علـى الصـور المنقوشـة بالقاعـات الحجريـة E1-3 الخاصـة بمقبـرة شـي جيـون، ومـن خـلال الحكـم علـى العديـد مـن الصـور كالتـي تحتـوي علـى جسـر الحسـاب، والخيـول الجنائزيـة، والإلهـة Daēnā ووصيفاتهـا، وغيرهـا مـن الصـور، سـيمكننا حينهـا إجـراء اسـتقراء وتفسـير للوحـة الثانيـة مـن السـاتر الخلفـي للسـرير المطـوي المحفـوظ فـي متحـف جويميـت الفرنسـي (صـورة 5)[1]. فكمـا ذكرنـا سـابقًا، فـإن مـا يجسـده محتـوى هـذا السـاتر الحجـري يتشـابه إلـى حـد كبيـر مـع المحتـوى الموجـود فـي القاعـات الحجريـة E1-3 الخاصـة بمقبـرة شـي جيـون، ولا يوجـد اختـلاف بينهمـا سـوى الشـكل فقـط.

أمـا فـي مـا يتعلـق بالنـوع الثانـي، والـذي يعبـر عـن صـور للتقاليـد الدينيـة غيـر الواضحـة، فـإن أكثـر عنصـر نموذجـي يعبـر عنهـا هـو مـا يُعـرف بمشـهد المأدبـة (الوليمـة)، فمـن خـلال الملاحظـة والمقارنـة الدقيقـة والشـاملة، سـنجد أنـه مـن بيـن الصـور المنقوشـة علـى هـذه المجموعـة مـن أدوات الدفـن الحجريـة، بمـا يشـمل صـور المأدبـة التـي تجمـع الـزوج والزوجـة (أصحـاب المقبـرة) فـي منتصـف اللوحـة، فـإن بقيـة مشـاهد المأدبـة التـي وردت فـي الكثيـر مـن اللوحـات يُوجـد بهـا مصبـاح، ووجـود عنصـر "المصبـاح" يـدل علـى وقـوع المشـهد ليـلًا، بينمـا نجـد فـي بعـض هـذه الصـور

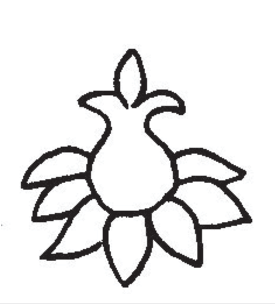
1- تشن روي وين: "تأملات حول الأسِرَّة المطوية المحفوظة بمتحف جويميت الفرنسي"، مقتبس من جانغ شياو قوي "دراسة حول الديانات الأجنبية الثلاث.. تجميع لأوراق السيد لين أو شو التذكارية في سنه السبعين"، صفحة 426- 483.

عنصر الراقصين الذين يرقصون رقص خوشيوان الشعبي، ولا نجد هذا العنصر في البعض الآخر، بينما هناك بعض الصور الأخرى التي على الرغم من وجود عنصر الراقصين فيها، إلا أنهم يرقصون رقصًا غير رقص خوشيوان الشعبي، وطبقًا لما ذُكر في الأبيات الشعرية التي ترجع لعهد أسرة تانغ الملكية، وتصف رقص خوشيوان، فإن استعراض رقص خوشيوان كان عادة ما يُقدم ليلاً، ومن هنا، يمكننا أن نُطلق على هذا النوع من صور المأدبات اسم "المأدبات الليلية" (صورة 34، و35)[1]، ومما يستحق الالتفات إليه أن الصور التي يظهر بها مشهد المأدبة الليلية ولم يظهر بها رقص خوشيوان الشعبي كان معظم مشاهدها في الخلاء (البرية)، كما أن المشهد كان يصور -أيضًا- عنصر العنب فيه، وكما ذكرنا سابقًا، أنه لا بدَّ لهذا الأمر أن يكون ذا صلة بمهرجان باخوس الروماني الذي كان يُقام في الخلاء (البرية)، وما يتعلق به من طقوس بعث روح إله الخمر ديونيسوس في هذا المهرجان، كما أنه متوافق مع تقاليد الديانة الزرادشتية أيضًا، فمن بين الطقوس المتعلقة -أيضًا- بهذا الأمر صور تصنيع النبيذ وتعتيقه المنقوشة على هذه المجموعة من أدوات الدفن الحجرية. بالإضافة إلى ذلك، يمكننا -أيضًا- رؤية الإله شارون إله نهر ستيكس (Charon، وتُترجم -أيضًا- إلى كارون)، حيث يظهر فوق قارب في اللوحة العاشرة للساتر الحجري الخاص بسرير التابوت الحجري في مقبرة "الأسِرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول" بمدينة تيانشوي.

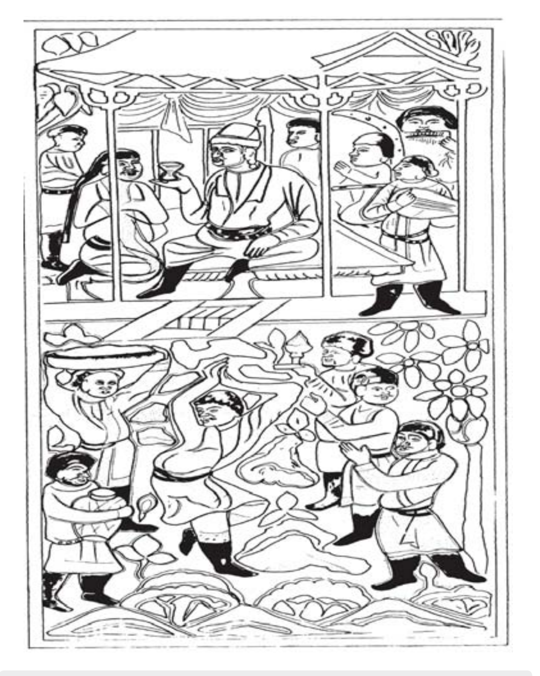
1- تشن روي وين: "العديد من القضايا المتداولة حول مقبرة الأسِرَّة الحجرية ذات نقوش مجسمات الخيول بمدينة تيانشوي"، من كتاب "الوافدون من سوجديان إلى الصين: الإثباتات الحديثة للاكتشافات الأثرية والوثائق المستخرجة" من تأليف لوه فنغ، ورونغ شين جيانغ، صفحة 466- 500.



صورة (34-1) اللوحة الخامسة (المأدبة الليلية) المنحوتة على جدار التابوت الحجري الخاص بمقبرة يو خونغ



صورة (34-2) جزء عنصر "المصباح" في اللوحة الخامسة (المأدبة الليلية) المنحوتة على جدار التابوت الحجري الخاص بمقبرة يو خونغ



صورة (35-1) اللوحة السادسة المنقوشة على وجه الساتر الخلفي الخاص بالأريكة الحجرية بمقبرة آن جيا



صورة (35-2) جزء عنصر "المصباح" باللوحة السادسة المنقوشة على وجه الساتر الخلفي الخاص بالأريكة الحجرية بمقبرة آن جيا

ومـن هنـا يمكـن أن نـرى أن هـذه الصـور المنقوشـة علـى مجموعـة أداوات الدفـن الحجرية الخاصـة بمقابـر نبـلاء أحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن خـلال الفتـرة بيـن عهـد الأسـرة الشـمالية، وأسـرة سـوي يـدور محتواهـا كلـه حـول حيـاة صاحـب المقبـرة فـي الدنيـا، وبعثـه بعـد وفاتـه.

وإذا ألقينـا نظـرة شـاملة، سـنجد أن بنـاء هـذه المقابـر فـي الفتـرة بيـن عهـد الأسـرة الشـمالية، وأسـرة سـوي يـدور حـول خضوعهـا لطقـوس الأسـرة الحاكمـة فـي الصيـن فـي ذلـك الوقـت، بجانـب مـا تحتويـه صورهـا مـن موضوعـات تخـص حيـاة صاحـب المقبـرة فـي الدنيـا، وبعثـه بعـد وفاتـه.

ووصـولًا إلـى عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، وتماشـيًا مـع تغييـر الحكومـة لنمـط تعاملهـا مـع أحفـاد الأجانـب الوافديـن إلـى الصيـن، سـرعان مـا تلاشـت مهنـة السـاباو مـن نظـر النـاس (جـدول 2)، وبالتزامـن مـع ذلـك، ظهـرت تغيـرات جديـدة فـي الطقـوس الجنائزيـة الخاصـة بأحفـاد سـوجديان المؤمنيـن بالديانـة الزرادشـتية.

جدول (2) جدول إحصائي لأوضاع مهنة الساباو في عهد أسرتي سوي وتانغ الملكيتين[1]

الاسم	الدولة (المملكة) المنتمي إليها	فترة الحكم	المدينة المعين بها	نوع مهنة الساباو المعيَّن بها	مهن أخرى كان يمتهنها	مصدر المعلومة
يو خونغ	يوقوه	عهد أسرة سوي	بينغجوو	كاهن مسؤول عن المعابد الزرادشتية	قائد، ونائب، وأمير على فرق حماية الميمنة والميسرة لثلاث ولايات (مدن) صينية، ومفتش، ومساعد للكاهن الأكبر	"ضريح مقبرة يو خونغ التابعة لعهد أسرة سوي"[2]
كانغ خه	كانغقوه	عهد أسرة سوي	دينغجوو	كاهن مسؤول عن المعابد الزرادشتية		"ضريح مقبرة زوجة كانغ خه التابعة لعهد أسرة سوي"[3]
تساو زون	شيتشينغ	بداية عهد أسرة تانغ	جيه جوو	كاهن مساعد للكاهن الأكبر منه منزلة، حيث يقود له العربة ويحميه		"ضريح مقبرة تساو زون"[4]
لونغ رون	يانتشي	توفي في اليوم العاشر من الشهر التاسع من العام السادس من تقويم يونغ ويي		كاهن مسؤول عن الأعمال المكتبية الخاصة بالكاهن الأكبر منه منزلة		"ضريح مقبرة لونغ رون التابعة لعهد أسرة تانغ"[5]

1- كانت مدينة تيانشوي قديمًا تتبع ولاية تشينجوو في عهد أسرة سوي الملكية، وقد اقتُبس هذا الجدول من كتاب يانغ جيون كاي: "النصوص المكتوبة باللغتين المنقوشة على ضريح مقبرة شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية، والقضايا المتعلقة بها"، مجلة "الأثريات"، 2013م، العدد الثامن، صفحة 53، الجدول الأول. كما أُدرج هذا الجدول أيضًا في كتاب "مقبرة شي جيون التابعة لعهد أسرة جوو الشمالية"، من تحرير معهد حماية الأثريات والبحوث الأثرية بمدينة شيآن، صفحة 197، الجدول الأول " جدول إحصائي لأوضاع مهنة الساباو في عهد أسرتي سوي وتانغ الملكيتين".

2- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شنشي، ومركز البحوث الأثرية بمدينة تاييوان، وهيئة الآثار والسياحة بمنطقة جينيوان في مدينة تاييوان: "مقبرة يو خونغ التابعة لعهد أسرة سوي الملكية بمدينة تاييوان"، صفحة 91.

3- أو قانغ: "شروح إضافية لتاريخ أسرة تانغ الملكية"، الطبعة السادسة، دار سان تشين للنشر، 1999م، صفحة 240 - 241.

4- جونغ جانغ: "مختارات من النص المنقوش على ضريح المقبرة المحفوظ في متحف مدينة فينيانغ"، مجموعة شنشي للنشر الإعلامي، دار سان جين للنشر، 2010م، صفحة 3.

5- "تجميع لنصوص أضرحة المقابر خلال 5 فترات زمنية منذ عهد أسرة سوي وحتى عهد أسرة تانغ.. مجلد شنشي"، دار الكتب الأثرية بمدينة تيانجين، 1992-1991م، صفحة 8 / أو قانغ: "شروح إضافية لتاريخ أسرة تانغ الملكية"، الطبعة الخامسة، دار سان تشين للنشر، 1999م، صفحة 111.

جنغ شينغ تشين		عهد أسرة تانغ		نائب مساعد الكاهن الأكبر		"تاريخ أسرة تانغ الحديث"، المجلد 75، الجزء الأول، "شجرة عائلة رئيس الوزراء"[1]

وإذا نظرنا إلى أضرحة تلك المقابر، سنتأكد من اتباع أحفاد سوجديان في الصين في عهد أسرة تانغ الملكية لطقوس الدفن السماوي الخاص بالديانة الزرادشتية، فإذا اطلعنا على محتوى ضريح المقبرة M3 التي ترجع لشيون زي ليانغ بمدينة يانتشي في مقاطعة نينغشيا، سنجد أنه يُوصى في محتواها بنقل الشاعر خوو فو جيون (من أحفاد سوجديان الوافدين إلى الصين) بعد "وفاته" بـ11 يومًا إلى مقبرته، ولا بدَّ أن تعبر كلمة "نقل" في هذا السياق إلى نقل عظامه إلى المقبرة بعد إجراء طقس الدفن السماوي.

مثال آخر، كانغ شيان، "الذي مات في الثامن من الشهر الثاني من العام الأول في تقويم شيانتشينغ، بينما ماتت زوجته (من أسرة تساو) في اليوم الأول من الشهر السادس من العام الثاني في تقويم يونغلونغ، إلا أنه تغير مكان دفنها، لتُدفن في جبل مانغشان في السادس من الشهر الثامن من العام نفسه"[1]، وتوضح عبارة "تغير مكان دفنها" أن زوجة كانغ شيان لم تُدفن معه في المقبرة فورًا بعد موتها، ولكن تأخر دفنها لمدة شهرين وخمسة أيام من تاريخ وفاتها، وهذا قد يؤكد لنا إجراء طقس الدفن السماوي لجثتها قبل معالجة عظامها ودفنها في التاريخ المحدد في النص.

ويدوِّن محتوى "ضريح مقبرة لونغ رون" بأنه بعد موت لونغ رون في العاشر من الشهر التاسع من العام الرابع في تقويم يونغويي، في منطقة آنرين بمدينة شيآن، "هامت روحه في الغرفة الجنائزية المخصصة لإبقاء الجثة، في انتظار

1- "ضريح مقبرة كانغ شيان"/ "شروح إضافية لتاريخ أسرة تانغ الملكية"، الطبعة السادسة، دار سان تشين للنشر، 1996م، صفحة 452 - 453.

إرسالها إلى المقبرة، وفي الثاني والعشرين من الشهر الثاني من العام السادس في تقويم يونغويي، شُيعت الجنازة بعدما تم وضعه في تابوت، ودُفن في مقبرة مشتركة مع زوجته (من عائلة خه) في المنطقة الواقعة شرق قرية جينغقو وشمال قرية إيجينغ، شمال مدينة بينغجوو"[1]، وعلى الرغم من وجود عادة إبقاء الجثة بشكل مؤقت قبل دفنها عند الصينيين في ذلك الوقت، ولكن لأن لونغ رون كان يشغل منصب ساباو (رتبة كاهن مسؤول عن الأعمال المكتبية الخاصة بالكاهن الأكبر منه منزلة)، لذلك كان إجراء هذا الطقس بعد وفاته نابعًا من إيمانه بالديانة الزرادشتية، وبالنظر إلى هذه الثقافة العرقية الخاصة بأحفاد سوجديان، نجد أنه ربما تعبر كلمة "الغرفة الجنائزية" عن المكان الذي حُفظت فيه عظام جثة لونغ رون بعد إجراء طقس الدفن السماوي، في انتظار دفنها في المقبرة المشتركة مع زوجته (أي يُشيع في جنازتين)، ومن هنا، يمكننا -أيضًا- أن نعرف أن المكان الذي كانت تُحفظ فيه عظام الجثة بشكل مؤقت بعد إجراء طقس الدفن السماوي في عهد أسرة تانغ كان يُسمى بـ"الغرفة الجنائزية".

وطبقًا لأحوال المقابر المنقب عنها في الوقت الحاضر، نجد أن هناك 4 أشكال لمقابر أحفاد سوجديان المؤمنين بالديانة الزرادشتية والوافدين إلى الصين في عهد أسرة سوي، وبداية عهد أسرة تانغ[2]، نجملها في ما يلي:

الشكل الأول: هو الشكل التقليدي، كما في مقابر شيون زي ليانغ بمدينة يانتشي في مقاطعة نينغشيا[3] (صورة 36-39)، ومقبرة M33 الواقعة بجبل جيولونغ بمدينة قويوان في مقاطعة نينغشيا[4] (صورة 40- 42)؛ حيث تأخذ مقابر شيون

1- "ضريح مقبرة لونغ رون"/ جوو شاو ليانغ، وجاو تشاو: "استكمال لتجميع محتويات أضرحة المقابر في عهد أسرة تانغ الملكية"، دار الكتب الأثرية للنشر بشنغهاي، 2001م، صفحة 75.

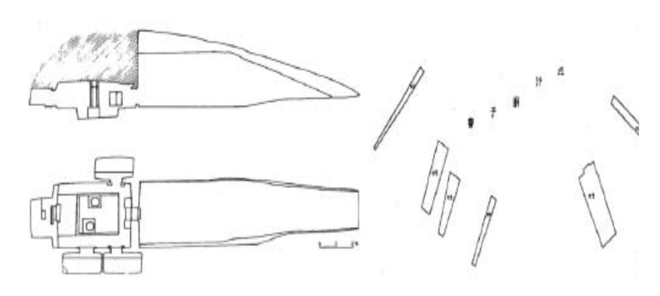
2- تشن روي وين: "إعادة دراسة للمقابر التابعة لعهد أسرة تانغ في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان"، مقتبس من "الآثار والفنون.. النصوص والتاريخ (الندوات الأكاديمية الدولية ومنظور جديد لدراسة طريق الحرير)"، شيآن، 23-21 يوليو 2016م، صفحة 604 -624.

3- متحف مقاطعة نينغشيا ذاتية الحكم: "تقرير حول التنقيب عن المقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية في مدينة يانتشي بمقاطعة نينغشيا"، مجلة "الأثريات"، 1988م، العدد التاسع، صفحة 56-43.

4- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة نينغشيا: "تقرير حول التنقيب عن المقبرة التابعة لعهد أسرة سوي بجبل جيولونغشان في مدينة قويوان بمقاطعة نينغشيا"، مجلة "الأثريات"، 2012م، العدد العاشر / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة نينغشيا: "المقابر التابعة لعهد أسرتي هان وتانغ الملكيتين بجبل جيولونغشان في مدينة قويوان بمقاطعة نينغشيا"، دار العلوم للنشر، 2012م.

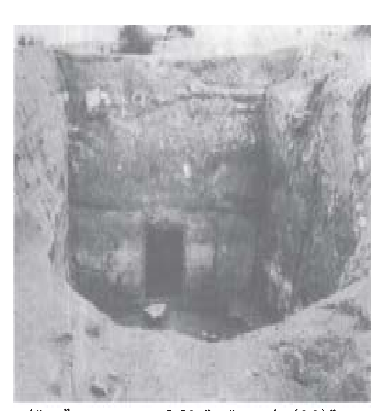
زي ليانغ الست التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية شكل المقابر المسطحة ذات الغرف الحجرية المحفورة في الجبال، وموضوع بداخلها كلها أسِرَّة حجرية، إلا أنه تم نهب معظم محتوياتها عبر الزمن، وتتماثل تمامًا أشكال هذه المقابر الست، وكذلك الهيكل الأساسي للغرف الموجودة بها، كما أنها مرتبة بانتظام، لتبدو بوضوح أنها مقابر تابعة لعائلة واحدة، ومن بين هذه المقابر الست توجد مقابر فردية، وأخرى زوجية، كما توجد بها ظاهرة الدفن الجماعي لعدة أشخاص بغرفة واحدة، حيث يوجد في المقبرة M4 عدد 4 هياكل عظمية، أما المقبرة M5 فتحتوي على أكثر من 10 هياكل، مما يدل على ظاهرة الدفن الجماعي، وتتجه المقبرة M6 في اتجاه 123درجة، ويوجد فيها هيكلان عظميان مائلين رأسيهما نحو الغرب، وأقدامهما نحو الشرق، وفي ما يخص عادات الدفن المستخدمة في هذه المجموعة من مقابر شيون زي ليانغ، فإنه باستثناء التوابيت الخشبية في المقبرة M1، لم تُكتشف أي أدوات دفن في بقية المقابر، وفي المقابر M4، وM5، وM6، نجد الهياكل العظمية موضوعة مباشرة فوق الأسِرَّة الحجرية، أو في داخل مرقدها المحفور في المقبرة، وتعبر طريقة الدفن هذه التي لا تعتمد على أي توابيت عن طريقة الدفن التقليدية الخاصة بالديانة الزرادشتية، وهي الطريقة المتوارثة بين أحفاد سوجديان المؤمنين بالديانة الزرادشتية والوافدين إلى الصين في عهد أسرة تانغ الملكية، وفي ما يتعلق بمقبرة M33 الواقعة بجبل جيولونغ بمدينة قويوان، فينتمي أصحابها (الزوج والزوجة) إلى عرق القوقازيين في الغرب، وتعتمد طريقة الدفن في هذه المقبرة -أيضًا- على الطريقة التقليدية دون استخدام توابيت، وذلك لكون أصحاب المقبرة تابعين للزورانية (أحد الفروع المندثرة من الديانة الزرادشتية)[1]، وتدل العديد من العلامات المتنوعة في هذه المقبرة على أن مذهب الزورانية كان يُعد مذهبًا أساسيًّا من بين المذاهب التي كان يؤمن بها أحفاد سوجديان الوافدين إلى الصين في فترة العصور الوسطى، ولربما كان السبب الرئيس في انتقال هذه المجموعة من المؤمنين بالزرادشتية شرقًا نحو الصين في ذلك الوقت يمكن في كونهم مؤمنين بهذا المذهب (المذهب الزوراني) الذي كان لا يتوافق كثيرًا مع المذاهب الأساسية للديانة الزرادشتية.

1- تشن جينغ شيو: "دراسة حول عظام الفك السفلي المستخرجة من مقبرة M33 الواقعة بجبل جيولونغ بمدينة قويوان"، بحث دكتوراه بمعهد وين بوه الأثري التابع لجامعة بكين، 2016م.

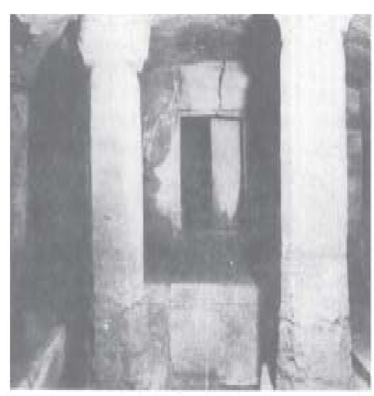


صورة (36) ترتيب مجموعة مقابر شيون زي ليانغ بمدينة يانتشي التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية

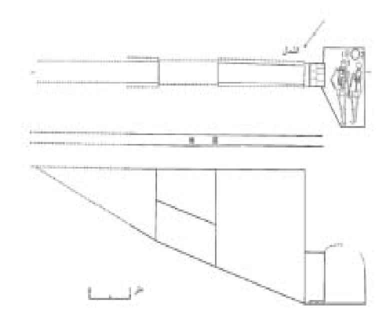
صورة (37) تصوير مقطعي للمقبرة M3 من مجموعة مقابر شيون زي ليانغ بمدينة يانتشي



صورة(38) باب مقبرة M3 من مجموعة مقابر شيون زي ليانغ بمدينة يانتشي



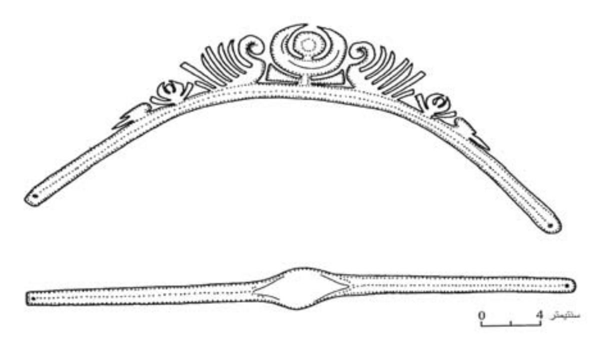
صورة (39) الغرفة الحجرية بقبرة M3 من مجموعة مقابر شيون زي ليانغ بمدينة يانتشي



صورة (40) تصوير مقطعي للمقبرة M33 الواقعة بجبل جيولونغ بمدينة قويوان في مقاطعة نينغشيا

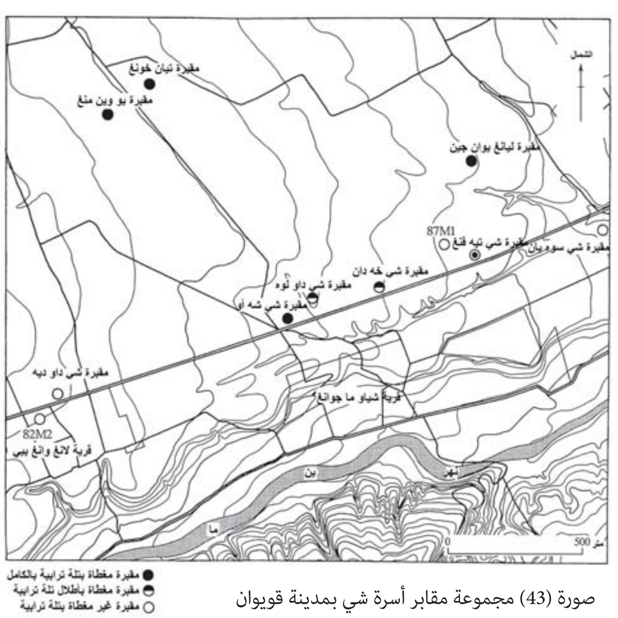


صورة (41) التاج الذهبي المستخرج من مقبرة M33 الواقعة بجبل جيولونغ بمدينة قويوان



صورة (42) رسم خطي للتاج الذهبي المستخرج من مقبرة
M33 الواقعة بجبل جيولونغ بمدينة قويوان

الشكل الثاني: شكل المقبرة المعبر عن الهوية الوطنية تجاه الأسرة الحاكمة في الصين، ولكنه لا يخالف في الوقت نفسه الهوية العرقية لصاحب المقبرة، كما في مجموعة مقابر أسرة شي بمدينة قويوان (صورة 43)[1].



صورة (43) مجموعة مقابر أسرة شي بمدينة قويوان

1- لوه فنغ: "المقابر التابعة لأسرتي سوي تانغ بالضاحية الجنوبية لمدينة قويوان"، دار الأثريات للنشر، 1996م.

الشكل الثالث: الشكل الواقع بين الشكلين السابقين، كما في المقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الواقعة في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان؛ حيث تتكون هذه المقابر من غرف فردية مبنية بالقراميد على شكل قوس أو مربع، وتبلغ مساحة معظم الغرف 4 أمتار تقريبًا، وتعتمد كلها طريقة الدفن من دون توابيت، فقط يوجد سرير مطوي في شمال كل غرفة، ويكثر على حيطانها، وكذلك على لوحات السواتر الخلفية القابلة للطي[1] رسوم لبعض العجزة الجالسين تحت الشجر، حيث تجسد معاني الولاء وبر الوالدين، والعزلة، أما سقف المقبرة فمغطى بديكور من الستائر كبيرة الحجم[2]، وقد كان هذا التغيير في شكل هذه المقابر نتيجة للقيود التي كانت مفروضة على استخدام أدوات الدفن الحجرية في بداية عهد أسرة تانغ الملكية، وتغيير الطبقة البيروقراطية من أحفاد سوجديان على الفور لشكل مقابرهم لتلائم شكل مقابر الصينيين في عهد الأسرة الشمالية، وأسرة سوي الملكية، وفي الوقت نفسه، كانت حكومة أسرة تانغ الملكية تمنحهم حق إقامة الجنائز الملكية، مما أدى إلى جعل مقابرهم في رتبة أكبر من منزلة صاحب المقبرة ومهنته.

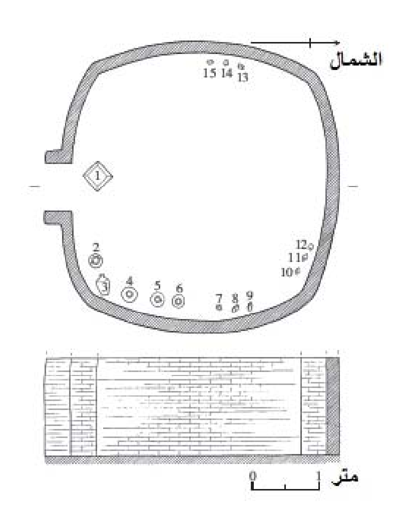
الشكل الرابع: كما في مقبرة تساو إي[3] (صورة 44). فقد كان تساو إي من أحفاد سوجديان الوافدين إلى الصين في عهد أسرة تانغ الملكية، وكان والده تساو

1- لجنة إدارة الأثريات بمقاطعة شنشي: "مقبرة رقم 6 ذات الرسوم الجدارية التابعة لعهد أسرة تانغ والواقعة في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان"، مجلة "الأثريات"، 1959م، العدد الثامن، صفحة 19 - 22 / لجنة إدارة الأثريات بمقاطعة شنشي: "المقابر التابعة لعهد أسرة تانغ والواقعة في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان"، مجلة "الآثار"، 1959م، العدد التاسع، صفحة 473 - 476 / لجنة إدارة الأثريات بمقاطعة شنشي: "مقبرة رقم 3 التابعة لعهد أسرة تانغ والواقعة في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان"، مجلة "الآثار"، 1960م، العدد الأول، صفحة 37 - 39 / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شنشي: "تقرير حول التنقيب في مقبرة الرسوم الجدارية التابعة لعهد أسرة تانغ والواقعة في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان"، مجلة "الأثريات"، 1988م، العدد 12، صفحة 50 - 58 / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شنشي، وآخرون: "مقبرة الرسوم الجدارية رقم 337 التابعة لعهد أسرة تانغ والواقعة في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان"، مجلة "الأثريات"، 1990م، العدد 12، صفحة 11 - 15 / مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شنشي، وآخرون: "مقبرة الرسوم الجدارية رقم 555 التابعة لعهد أسرة تانغ والواقعة في قرية جينشنغ بمدينة تاييوان"، مجلة "الأثريات" الربع سنوية، 1992م، العدد الأول، صفحة 24 - 26.

2- جاو تشاو: ""العجزة أسفل الشجر" في رسوم السواتر الحجرية والرسوم الجدارية بالمقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية"، مجلة "الأثريات"، 2003م، العدد الثاني، صفحة 69 - 81 / جاو تشاو: "المقابر ذات السواتر القابلة للطي والرسوم الجدارية التابعة لعهد أسرة تانغ بقرية جينشنغ في مدينة تاييوان"، مقتبس من "تجميع لوقائع الندوات الأكاديمية الدولية الخاصة بالرسوم الجدارية في المقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية"، تحرير متحف التاريخ بمقاطعة شانشي، دار سان تشين للنشر، 2006م، صفحة 199 - 208 / تشن روي وين: "مناظر شم زهور الأقحوان والنظر إلى السماء وتذكر الأحبة في الرسوم الجدارية بالمقابر التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية"، مقتبس من "التطلع إلى الرسوم على الجدران.. المقابر في مقاطعة شنشي ورسوم المعابد الجدارية"، تحرير متحف شنغهاي، دار جامعة بكين للنشر، 2016م.

3- مركز البحوث الأثرية بمقاطعة شنشي، ومتحف مدينة فينيانغ: "تقرير حول التنقيب في مقبرة تساو إي التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية والواقعة في مدينة فينيانغ بمقاطعة شنشي"، مجلة "الأثريات"، 2014م، العدد 11، صفحة 28 - 32.

كاهـن مسـاعد للكاهـن الأكبـر منـه منزلـة، حيـث يقـود لـه العربـة ويحميـه (سـاباو مـن المرتبـة الخامسـة)، كمـا كان مؤمنًـا بالديانـة الزرادشـتية، وكذلـك كان ابنـه كذلـك سـاباو (كاهـن مسـاعد للكاهـن الأكبـر منـه منزلـة) مؤمنًـا بالزرادشـتية، وبعـد مـوت تسـاو إي، أُجـري لجثتـه طقـس الدفـن السـماوي، إلا أن عظـام جثتـه اختفـت قبـل جمعهـا، وبالتالـي، لـم يتـم جمـع عظامـه، ولـم تُدفـن فـي مقبـرة، إلا أنـه لاحقًـا أُنشـئت لـه مقبـرة باسـمه، ممـا يُظهـر معاملـة الحكومـة الجيـدة مـع أحفـاد سـوجديان فـي الصيـن فـي ذلـك الوقـت، ويرجـع إنشـاء هـذه المجموعـة مـن المقابـر إلـى بدايـة عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، فـي عهـد الإمبراطـور أو زه تيـان تحديـدًا.



صورة (44) رسم تخطيطي لمقبرة تساو إي

وبعـد انقضـاء عهـد الإمبراطـور أو زه تيـان، تزايـدت صعوبـة تحديـد مقابـر أحفـاد سـوجديان المؤمنيـن بالديانـة الزرادشـتية والتابعـة لعهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، فـإذا نظرنـا إلـى الأوضـاع الحاليـة، وباسـتثناء مقبـرة آن بـو، سـيمكننا تأكيـد تحديـد مجموعتيـن مـن المقابـر، همـا مقابـر شـي سـي مينـغ، وخـه خونـغ جينـغ.

ففـي فتـرة تقويـم لونغجينـغ التابـع لأسـرة تانـغ الملكيـة، تـم بنـاء المقبـرة المشـتركة للجنـرال آن بـو وزوجتـه بمدينـة دينغيـوان علـى أسـاس اتجـاه المدخـل الخـاص بممـر المقبـرة الداخلـي نحـو الشـمال، ووضـع الأسِـرَّة الزوجيـة بالتـوازي عنـد شـرق

غرفـة المقبـرة وغربهـا[1] (صـورة 45)، وترتبـط هاتـان الطريقتـان فـي بنـاء المقابـر بالطقـوس الجنائزيـة الخاصـة بأحفـاد سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي فتـرة العصـور الوسـطى؛ فمـن بينهـا نجـد تشـابه اتجـاه المدخـل الخـاص بممـر المقبـرة الداخلـي نحـو الشـمال مـع وجهـة نظـر المؤمنيـن بالديانـة الزرادشـتية فـي الاتجـاه نحـو الشـمال، وترتبـط خاصـة بتقليدهـم فـي منـع توجيـه رأس جثـة المتوفـى نحـو الشـمال، وفـي مقبـرة M33 الواقعـة بجبـل جيولونـغ بمدينـة قويـوان، والتـي ينتمـي أصحابهـا (الـزوج والزوجـة) إلـى عـرق القوقازييـن فـي الغـرب (والتـي ذكرناهـا سـلفًا) نجـد فيهـا تطبيـق طريقـة اتجـاه المدخـل الخـاص بممـر المقبـرة الداخلـي نحـو الشـمال أيضًـا. ليـس هـذا وحسـب، بـل هنـاك -أيضًـا- مقبرتـان أخريـان طُبِّقـت فيهمـا هـذه الطريقـة فـي الفتـرة الزمنيـة نفسـها، وهمـا: الأولـى، المقبـرة M30 التـي ترجـع لأواخـر عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، والمكتشـفة فـي قريـة يويـه جيـا بجبـل مانغشـان الواقـع فـي الضاحيـة الشـمالية لمدينـة لـوه يانـغ القديمـة[2] (صـورة 46)، والثانيـة، المقبـرة مسـتطيلة الشـكل التابعـة لعهـد أسـرة تانـغ والمكتشـفة فـي شـارع جينخـوا الجنوبـي بمدينـة داتونـغ فـي مقاطعـة شنشـي (صـورة 47)، والتـي يتجـه رأس جثـة صاحبهـا نحـو الجنـوب، وفـي هـذه المقبـرة تـم العثـور علـى 4 قطـع مـن المشـغولات اليدويـة المدفونـة مـع الميـت، مـن بينهـا توجـد قطـع مـن المشـغولات الملونـة، وفخـار أبيـض، ومرايـا برونزيـة، وتُظهـر النقـوش الموجـودة علـى المرايـا البرونزيـة طابعًـا أجنبيًّـا غيـر شـبيه بالطابـع الصينـي، ولربمـا تعـود هـذه المقبـرة -أيضًـا- إلـى مقابـر أحفـاد الأجانـب الوافديـن إلـى الصيـن فـي تلـك الفتـرة[3]، وكمـا ذكرنـا سـابقًا، فـإن مـا تحويـه الصـور المنقوشـة بالمقبـرة المشـتركة للجنـرال آن بـو وزوجتـه مـن وجـود الـكلاب والغـزلان معًـا، وكذلـك "هبـوط المـاء فجـأة مـن الأعلـى مثـل النوافيـر"، يوضـح لنـا إجـراء طقـس "مراقبـة الـكلاب لـلأرواح الشـريرة"، وكذلـك إجـراء طقـس تقديـم القرابيـن لإلـه الحـرب فيريثراغانـا (الغـزال)،

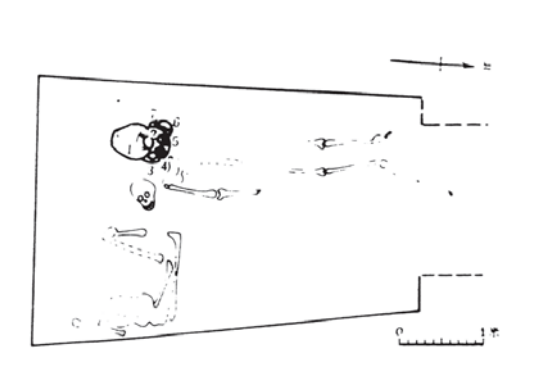
1- فريق التنقيب الأثري بمدينة لوه يانغ: "المقبرة المشتركة للجنرال آن بو وزوجته بمدينة لوه يانغ"، مجلة "الأثريات في منطقة السهور الوسطى"، 1982م، العدد الثالث، صفحة 21- 26، و24، الصور من 9-3.

2- جاو قوه بي: "العملات الفضية الساسانية المكتشفة في مدينة لوه يانغ"، مجلة "الأثريات"، 1960م، العددين 8، و9، صفحة 94 / جو ليانغ: "المرايا ذات الرسوم المثلثة على الحواف والمستخرجة من المقبرة رقم 30 في مدينة لوه يانغ"، مجلة "الآثار في الصين"، 1994م، العدد الثالث، صفحة 33 -35.

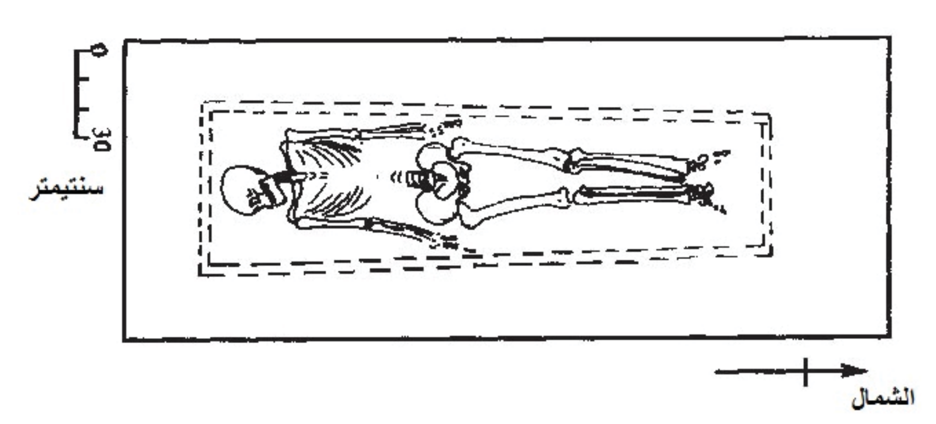
3- باي يان فانغ: "المقبرة التابعة لعهد أسرة تانغ الملكية والمكتشفة في شارع جينخوا الجنوبي بمدينة داتونغ في مقاطعة شنشي"، مجلة "الأثريات"، 1998م، العدد 11، صفحة 65- 66.

والإلهـة أناهيتـا (Ardvi Sura Anâhita) فـي الديانـة الزرادشـتية، وذلـك خـلال مراحـل تشـييع الجنـازة المشـتركة للجنـرال آن بـو وزوجته.

صورة (45) رسم تخطيطي لمقبرة آن بو

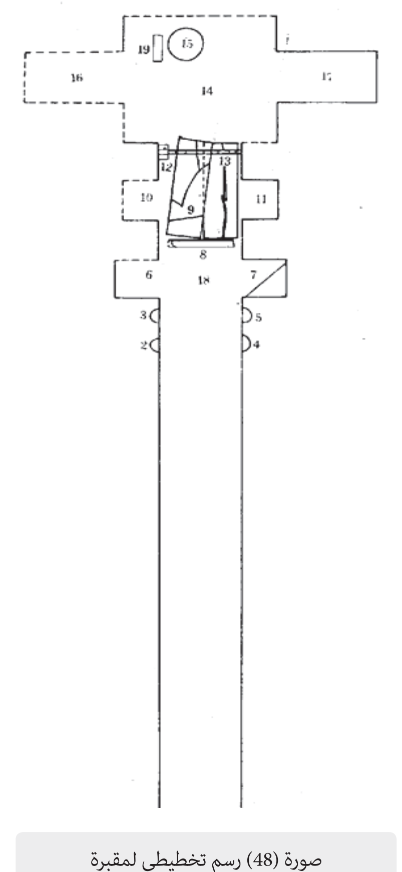


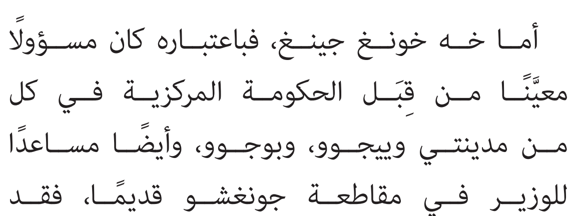
صورة (46) رسم تخطيطي للمقبرة M30
بمدينة لوه يان



صورة (47) رسم تخطيطي للمقبرة التابعة لعهد أسرة تانغ والمكتشفة في
شارع جينخوا الجنوبي بمدينة داتونغ

وبالاطـلاع علـى مقبـرة شـي سـي مينـغ (الـذي كان قائـد حركـة التمـرد علـى أسـرة تانـغ الملكيـة) ذات الغـرف الحجريـة[1] (صـورة 48)، سـنجد أنهـا تحتـوي علـى هيـاكل بنـاء لثـلاث غـرف (فـي الأمـام، والوسـط، والخلـف)، ويُعتبـر هـذا تقليـدًا لنظـام بنـاء الغـرف الحجريـة الخاصـة بمقابـر الأباطـرة فـي عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، كمـا أنـه لـه علاقـة بلقبـه الـذي لُقِّـب بـه بعدمـا أنشـأ دولـة يانقـوه، وهـو "ملـك دولـة يانقـوه العظيـم"، ومـن ناحيـة أخـرى، ربمـا يكـون لهيـكل البنـاء هـذا صلـة بالمؤمنين مـن دولـة سـوجديان الوافديـن إلـى الصيـن فـي ذلـك الوقـت. فعلـى الرغـم مـن وجـود النيـة فـي تقليـد بنـاء مقبـرة شـي سـي مينـغ لنظـام بنـاء الغـرف الحجريـة الخاصـة بمقابـر الأباطـرة فـي عهـد أسـرة تانـغ الملكيـة، إلا أنـه باسـتحضار الهويـة العرقيـة لشـي سـي مينـغ، سـنجد أنـه ربمـا كانـت هنـاك -أيضًـا- نيـة بنـاء المقبـرة علـى طـراز "القاعـات الحجريـة/ القبـور الحجريـة" التـي تعتمدهـا الديانة الزرادشتية في بناء المقابر.





صورة (48) رسم تخطيطي لمقبرة شي سي مينغ

أمـا خـه خونـغ جينـغ، فباعتبـاره كان مسـؤولًا معيَّنًـا مـن قِبَـل الحكومـة المركزيـة فـي كل مـن مدينتـي وييجـوو، وبوجـوو، وأيضًـا مسـاعدًا للوزيـر فـي مقاطعـة جونغشـو قديمًـا، فقـد كانـت تقـع مقبرتـه المكونـة مـن غـرف دائريـة الشـكل علـى عمـق 6 أمتـار مـن سـطح الرمـال[2]، ممـا يوضـح وجـود وعـي ببنـاء المقابـر فـوق الرمـال فـي ذلـك الوقـت؛ حيـث

1- مركز البحوث الأثرية بمدينة بكين: "مقبرة شي سي مينغ بمنطقة فنغتاي ببكين"، مجلة "الأثريات"، 1991م، العدد 9، صفحة 28- 39.

2- مركز الإدارة الثقافية بمدينة خاندان: "ضريح مقبرة خه خونغ جينغ المكتشفة في مدينة دامينغ بمقاطعة خه بيي"، مجلة "الآثار"، 1984م، العدد 8، صفحة 721.

تتماثـل هـذه المقبـرة مـع وصـف المقابـر سـالفة الذكـر الخاصـة بالمؤمنيـن بالديانـة الزرادشـتية، والمبنيـة فـوق الرمـال، كمـا نجـد افتـراش أرض المقبـرة بالألـواح الخشـبية، وباستثناء وجود بعض العلامات التي تدل على تجاوز النظام الموضوع في بناء المقابر في ذلك الوقت، إلا أنها تحتوي -أيضًا- على دلالة معالجة الجثث كما تنص الديانة الزرادشتية، بالإضافة إلى أن طلاء الألواح الخشبية الموجودة على أرض المقبرة خصيصًا بصمغ الصنوبر، وبناء المقبرة بالكامل فوق الرمال، كل هذا له علاقة واضحة بعادة منع تلوث الجثة بعنصر التربة، حيث تظهر المحاكاة بشكل مقصود لتشبه المقبرة بأكملها وكأنها برج الصمت (Dakhma) الذي توضع فيه الجثة لتأكلها الطيور الجارحة.

وقد ذُكر في العام الأول من تقويم شيوانزونغ التابع لأسرة تانغ الملكية في ما يخص الجنائز القائمة في ذلك الوقت، وقيل عنها في الوثائق القديمة:

كان ينص قانون أسرة تانغ الملكية على أنه غير مسموح باستخدام الحجارة في بناء التوابيت أو الغرف الحجرية في المقابر، كما كان غير مسموح بنحت أو طلاء أي رسوم ملونة على التوابيت، وكذلك بناء أي أُطر أو أسكفيات لنوافذ المقبرة وأبوابها، وأيضًا كان غير مسموح بوضع أي أحجار كريمة داخل التوابيت، كالذهب، واللؤلؤ، واليشم.[1]

وتماشيًا مع صرامة نظام إدارة الحكومة الصينية المركزية في ما يخص بناء المقابر في ذلك الوقت، لم يوجد أي من أدوات الدفن الحجرية سواء الأسِرَّة الحجرية، أو القاعات الحجرية في مقابر نبلاء أحفاد سوجديان الوافدين إلى الصين في تلك الفترة، ولكن استُبدلت الأدوات الحجرية بطرق أخرى، ليؤدي ذلك إلى الفصل -بشكل أكبر- بين شكل مقابر أحفاد سوجديان، وهوية أصحابها العرقية[2]، ومن

1- تحرير لي لين بو، وآخرين، تجميع تشين جونغ فو: "القوانين والآداب في عهد أسرة تانغ الملكية" المجلد 18، الهيئة الصينية للكتاب، 1992م، صفحة 508 / "كتاب القوانين والآداب" المجلد 85 "نظام التوابيت"، الهيئة الصينية للكتاب، 1988م، صفحة 2299، وللمزيد من النقاشات حول هذا الأمر يمكن الاطلاع على كتاب "دراسة حول نظام بناء الغرف الحجرية في المقابر التابعة لعهد أسرة تانغ ونظام الجنائز.. استعادة البند 25 من "مرسوم الجنائز" الذي أصدرته أسرة تانغ الملكية وتفسيره"، من كتابة وانغ جينغ، مقتبس من كتاب "دراسات حول أسرة تانغ الملكية" المجلد 14، تأليف رونغ شين جيانغ، دار جامعة بكين للنشر، 2008م، صفحة 439 - 464.

2- تشن روي وين: "التاريخ الثقافي للمواد الأثرية في الصين.. 5 فترات زمنية منذ عهد أسرة سوي وحتى عهد أسرة تانغ"، صفحة 156 - 172.

هنـا، أصبـح مـن المعقـد الاسـتناد إلـى عناصر المقبـرة للحكـم علـى هويـة صاحبهـا العرقيـة، مـا إذا كان طـرأ عليهـا أي تغييـر ثقافـي.

يعد هذا الكتاب قراءة أكاديمية موسعة في تاريخ طُرق الحرير بما يشمل: طريق الحرير البري، طريق الحرير البحري، طريق الحرير الصحراوي، وطريق المراعي المنغولية. و"الحزام والطريق" اختصار لـ"الحزام الاقتصادي لطريق الحرير، وطريق الحرير البحري للقرن 21"،وهو اسم المبادرة التي أطلقها الرئيس الصيني شي جين بينغ في عام 2013م. ويمثل "طريق الحرير" التراث البشري الحضاري للتبادل الاقتصادي والثقافي بين شرق العالم وغربه، كما أنه يمثل حلقة ربط للتواصل الديني، والثقافي، والاقتصادي، والتجاري بين كافة الدول والمناطق الواقعة على طول خطه، ليربط بين كل من آسيا، وأوروبا، وأفريقيا، بل ويمتد كذلك ليشمل كافة المناطق والدول على مستوى العالم. وتعمل الصين بجهد دءوب علي تحقيق أهداف مبادرة "الحزام والطريق" لتحقق بذلك الحلم الصيني الكبير الذي تطمح إليه الأمة الصينية في العصر الحديث.

Cover design by: Alaa Elnewehy



